

# قصص القراءات

تأليف

محمد أحمد جاد الولي

علي محمد البجاوي

محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة الخيرية

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع  
٢٠٠٦/١٤٨٤١

الطبعة الثانية

٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ

دار الحضرة

للطباعة والنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - ٣٠٠ شارع الهرم - عمارات الأريزونا  
هاتف / فاكس : ٥٨٢٧٧٣٧ (+٢٠٢) - محمول : ١٢٥٦٢٥٦٨١ (+٢٠٢)  
بريد الكتروني: Dar\_Alhadariah@Yahoo.com

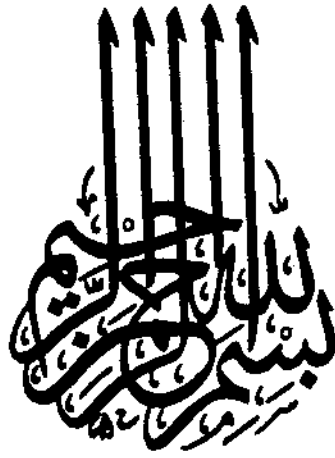
## فهرس المحتويات

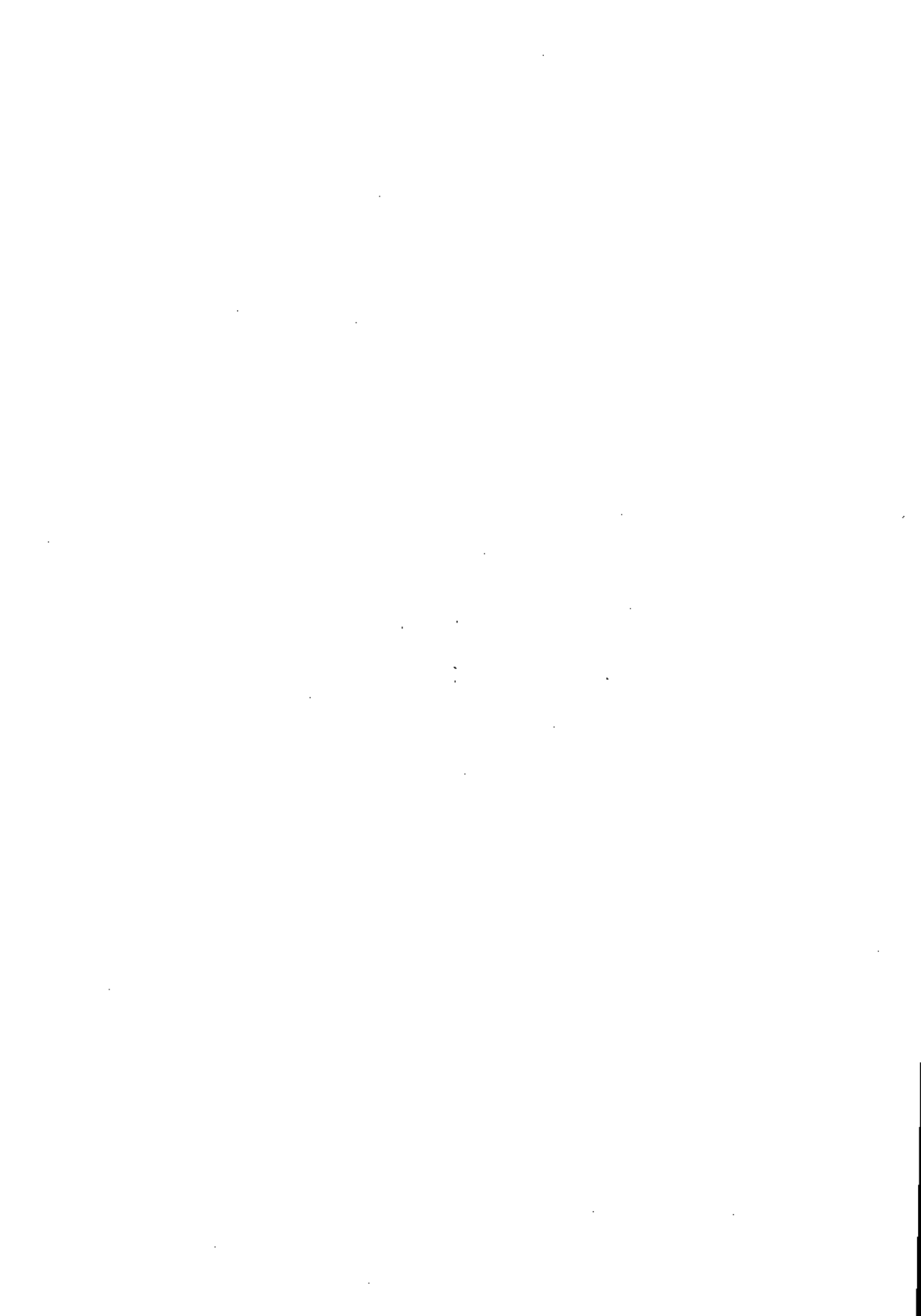
٥	.....	مقدمة
٧	.....	آدم
١٢	.....	نبأ ابني آدم
١٦	.....	نوح
٢٢	.....	هود
٢٦	.....	صالح
٣١	.....	إبراهيم
٣١	.....	إبراهيم وآية البعث
٣٢	.....	إبراهيم يتلطف في دعوة أبيه
٣٤	.....	إبراهيم يحطم الأصنام
٣٩	.....	إبراهيم يُلقى في النار
٤٠	.....	إبراهيم ونمرود
٤١	.....	إبراهيم يهدي قومه عن طريق الحوار
٤٣	.....	إبراهيم في مصر
٤٥	.....	إسماعيل
٤٦	.....	نبح زمزم
٤٨	.....	إسماعيل الذبيح
٥٠	.....	إسماعيل وجرهم
٥٢	.....	بناء الكعبة
٥٤	.....	لوط
٥٩	.....	يعقوب
٦٤	.....	يوسف
٦٤	.....	يوسف بين إخوته وأبيه

٦٧	يوسف في الحب
٧٠	يوسف وامرأة العزيز
٧٦	يوسف السجين
٧٨	خروج يوسف من السجن
٨١	يوسف عزيز مصر
٨٨	اللقاء
٩٣	شعيب
٩٧	موسى
٩٧	ولادة موسى وتربيته
٩٨	خروج موسى من مصر
٩٩	موسى ينزل أرض مدين
١٠٠	موسى يصاهر الشيخ ثم يعود إلى وطنه
١٠٢	موسى الرسول
١٠٥	معجزات موسى
١٠٩	عناد فرعون
١١١	خروج بني إسرائيل من مصر
١١٤	مواعدة موسى
١١٧	التيه
١١٩	البقرة
١٢٠	موسى والخضر
١٢٥	قارون
١٢٩	طالوت
١٣٦	بين طالوت وداود
١٤٠	داود
١٤٠	فتنة داود
١٤٣	أصحاب السبت
١٤٥	سليمان
١٤٥	سليمان وبلقيس
١٤٨	حكمة سليمان

١٤٩	..... سليمان على عرش أبيه
١٥١	..... قضاء الله في بني إسرائيل
١٥٦	..... عزيز
١٥٨	..... صراع بين الحق والباطل
١٦٢	..... أصحاب الجنة
١٦٥	..... أيوب
١٧١	..... يونس
١٧٥	..... زكريا ويحيى
١٧٩	..... مريم
١٨٤	..... عيسى
١٨٤	..... عيسى الوليد
١٨٨	..... نبوة عيسى
١٩١	..... المائدة
١٩٤	..... النهاية
١٩٨	..... ذو القرنين
٢٠٠	..... أصحاب الكهف
٢٠٥	..... أصحاب الأخدود
٢٠٨	..... سيل العرم
٢١١	..... أصحاب الفيل
٢١٦	..... بلال
٢١٩	..... الإسراء
٢٢٢	..... الهجرة
٢٣٠	..... بدر
٢٤٢	..... العتب في الفداء
٢٤٤	..... أحد
٢٥٠	..... بنو النضير
٢٥٣	..... الأحزاب
٢٥٨	..... قصة الإفك
٢٦٣	..... المنافقون

٢٦٦	..... نبأ الفاسق
٢٦٧	..... الفتح
٢٦٧	..... الرؤيا
٢٧٥	..... الصلح
٢٨٢	..... نقض العهد
٢٨٧	..... نصر مبین
٢٩٢	..... يوم حنين
٢٩٢	..... المسلمون بين الهزيمة والنصر
٢٩٥	..... الثلاثة الذين خلفوا
٣٠٠	..... مسجد الضرار
٣٠٣	..... المباهلة
٣٠٥	..... المجادلة
٣٠٨	..... التحريم
٣١١	..... زينب بنت جحش
٣١٤	..... المراجع







## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

امتازَ قَصَصُ القرآن الكريم بسمو غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه؛ اشتمل على فصول في الأخلاق مما يهذب النفوس، ويجمّل الطباع، وينشر الحكمة والآداب، وطرق في التربية والتهديب شتى، تساق أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار، كما حوى كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هُودوا فمكّن الله لهم في الأرض، وأقوام ضلوا، فساءت حالهم، وخربت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال، يضرب بسيرهم المثل، ويدعو الناس إلى العظمة والتدبير.

كل هذا قصه في قول بيتن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب، نيدتُ الناس على الخلق الكريم ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع، بأحسن بيان، وأقوم سبيل، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد.

ولكنه - على كريم مقاصده، وتنوع مذاهبه، وافتنان طرقه - قد وجد من أبناء هذا العصر من يهجره إلى غيره ويتركه إلى سواه، مما وضعه الناس من قصص فيها الحق والباطل، وفيها الصحيح والزائف... هذا على الرغم من أن القرآن الكريم يعمر المدارس والمساجد، والمنازل والمجالس، ولا يجد منهم من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولعل هذا لم يصدر منهم عن سوء نية، أو قصد العزوف عن الإفادة من كتاب الله القويم، ولكن قد يقع كثيراً أن يخفى عليهم في القصة معنى، أو يغم عليهم لفظ، أو يعوزهم التأويل، فلا يجدوا ضالتهم فيما بين أيديهم من كتب التفسير، سهلة المنال، ميسورة الجنى؛ لأن بعض المفسرين جعلوا همهم بيان المذاهب النحوية، والنيكات البلاغية في محكم الآيات، وبعضهم غني بالأحكام واستنباطها، وآخرين وقفوا جهدهم على الشؤون الكونية، والمناحي الفلسفية والتدليل عليها، إلى غير ذلك من وجوه البحث والشرح للقرآن.

نعم، إن هناك بعضاً من المفسرين نهجوا في تأويل القصة تأويلاً صالحاً، وسلكوا مسلكاً مقبولاً؛ ولكن هذا لا يخرج عن نتف متفرقة، وآراء مبعثرة لا تسد حاجة قارئ لا صبر له على تشعب الآراء، ولا جلد عنده على مراجعة كتب القدماء.

ولما رأينا من إقبال الناس على قراءة القصص ولما شاهدناه من انصرافهم عن قصص القرآن - على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض - وضعنا هذا الكتاب قصصاً شتى في ضوء القرآن وهدية، وعلى طريقته الحكيمة، من الاقتصار على بسط موضع العبرة، إلا أن يكون موضعاً يحتاج إلى بيان، أو إشارة يعوز فيها القارئ التوضيح، وجلونه في ثوب أدبي، وأسلوب سائغ، ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتخلناها من كتب التفسير المشهورة، وأخبار رويناها عن ثقات المؤرخين.

وغرضنا من هذا أن نحجّب إلى الناشئين والناشئات أسلوب الموعظة القصصية في القرآن، وأن نحملهم على الاستفادة من هديه وقويم نهجه.

واللّهُ نَسألُ أن يرزقه من قبول الناس وانتفاعهم به ما قصدنا به؛ وما أملنا منه إلا ابتغاء وجه اللّهِ.

المؤلف

## آدم (\*)

خلق الله الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدّر فيها أقواتها<sup>(١)</sup> في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دُخان، ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَنْيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [البقرة: ١١].

ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمى، ثم خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده، ويقدمون اسمه، ويخلصون في عبادته.

ثم شاءت إرادته، واقتضت حكمته، أن يخلق آدم وذريته، ليسكنوا الأرض ويعمروها؛ فأبنا ملائكته أنه سينشئ خلقاً آخر، يسعون في الأرض، ويمشون في مناكبها، وينتشر نسلهم في أرجائها، فيأكلون من نبتها، ويستخرجون الخيرات من باطنها، ويخلف بعضهم بعضاً فيها.

والملائكة خلق اصطفاهم لعبادته، وأسبغ عليهم نعمته، وحباهم بفضله، ووفقهم إلى رضاه، وهداهم إلى طاعته، فأدهم<sup>(٢)</sup> أن يخلق الله خلقاً غيرهم، وخافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم، أو لمخالفة كانت من أحدهم، فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم، وقالوا: كيف تخلق غيرنا، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك، وتقديس اسمك؟ على أن هؤلاء الذين تستخلفهم<sup>(٣)</sup> في الأرض لا بد أن يختلفوا على ما فيها من منافع، ويتجادبوا ما بها من خيرات، فيفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء غزيرة، ويؤزقوا الأرواح طاهرة بريئة، ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟ [البقرة: ٣٠]. قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شهتهم، وينزع الوسواس من صدورهم. وامتد رجاؤهم إلى الله أن يستخلفهم في الأرض، لأنهم أسبق إلى رعاية نعمته، وأولى بمعرفة حقه: ولم يكن سؤالهم ذلك إنكاراً

(\*) البقرة: ٢٩ - ٣٨، الأعراف: ١٠ - ٢٣، طه: ١١٤ - ١٢٥، الإسراء: ٦٠ - ٦٤، الحجر: ٢٧ -

٤٣، ص ٧١ - ٨٥، فصلت: ٩ - ١٢، الرعد: ٢.

(١) أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم.

(٢) آدهم: ساءهم.

(٣) استخلفه: جعله خليفة.

لِعَلِّهِ، وَلَا شُكَاً فِي حِكْمَتِهِ، وَلَا تَنْقُصاً لَخَلِيفَتِهِ أَوْ ذُرِّيَّتِهِ، لِأَنَّهُمْ أَوْلِيَائِهِ الْمُقَرَّبُونَ، وَعِبَادُهُ الْمُكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ.

أَجَابَهُمَ اللَّهُ بِمَا اطْمَأْنَنْتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَثَلِجَتْ بِهِ صُدُورُهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وَأَعْرَفَ مِنْ حِكْمَةِ اسْتِخْلَافِهِ مَا لَا تَدْرِكُونَ، فَسَأَخْلُقُ مَا أَسْأَأُ، وَأَسْتَخْلِفُ مَنْ أُرِيدُ، وَسَتْرُونَ بَعْدَ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ وَاسْتَتَرَ عَنْكُمْ، ﴿وَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

سَوَّى اللَّهُ آدَمَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ<sup>(١)</sup>، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، فَسَرَتْ فِيهِ نَسَمَةُ الْحَيَاةِ، وَصَارَ بَشَرًا سَوِيًّا.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لِآدَمَ، فَاسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ خَاضِعِينَ، وَأَقْبَلُوا عَلَى آدَمَ مَعْظَمِينَ، وَعَفَّرُوا جِبَاهَهُمْ لَهُ سَاجِدِينَ، إِلَّا إِبْلِيسَ: فَقَدَّ خَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَانْحَازَ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، ﴿إِنِّي وَاسْتَكْبَرْتُ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

سَأَلَ اللَّهُ إِبْلِيسَ عَنْ سَبَبِ امْتِنَاعِهِ، وَاسْتِنْبَاهِ حِكْمَةِ تَخْلُفِهِ، فَقَالَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ؟ [ص: ٧٥].

فَزَعَمَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ عُنْصُرًا، وَأَزْكَى مِنْهُ جَوْهَرًا، وَظَنَّ أَنَّ لَا أَحَدَ يُبَارِيهِ فِي عِلْمٍ وَدَرِهِ، وَلَا يَسْتَشْرِفُ إِلَى سَمَوَاتِهِ، وَ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(٢)</sup> [ص: ٧٦].

جَهَرَ بِالْعِصْيَانِ، وَضَرَحَ عَنِ الْمَخَالَفَةِ وَالْبَهْتَانِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَاسْتَكْفَى أَنْ يَسْجُدَ لِمَنْ خَلَقَهُ بِيَدِهِ، فَصَارَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

فَجَازَاهُ اللَّهُ عَلَى عِصْيَانِهِ، وَعَاقَبَهُ عَلَى مَخَالَفَتِهِ، وَنَادَاهُ قَائِلًا لَهُ: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، ﴿[ص: ٧٧ - ٧٨].

سَأَلَ إِبْلِيسُ رَبَّهُ أَنْ يُنْظَرَهُ<sup>(٤)</sup> إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي الْحَيَاةِ حَتَّى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ، فَأَجَابَ اللَّهُ سُؤْلَهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠ - ٨١].

(١) الحمأ: الطين الأسود: المسنون: المصنوع.

(٢) علو مقام المخلوق يأتي من طاعته للمخالق وليس لأمر ذاتي فيه. فإن عصى المخلوق حرم من كل رتبة ونسى الشيطان أن الخيرية لا تكون إلا بالامتثال.

(٣) الرجيم: الملعون، المبعد، المطرود.

(٤) أنظره: أمهله.

ولما استجيب سؤله، وتحققت رغبته، لم يشكر الله فضله، بل قابل نعمته بالكفران، وفضله بالجُحود والنكران، وقال: ﴿يَمَّا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَكَ مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، مترصداً لغوايتهم. جاهدأ في إضلالهم، ﴿لَمَّا لَآئِنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

طرد الله إبليس من رحمته، ومد له في أملة، وقال له: امض لسبيلك الذي اخترته، وسير في طريق الشر الذي أردته، ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعْتَّ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْكَ بِخَلْقِكَ وَرَجَلِكَ﴾<sup>(١)</sup> وشاركهم في الأموال والأولاد [الإسراء: ٦٤]، وعدهم المواعيد الكاذبة، ومنهم الأمانى البعيدة، فلن أخلي بينك وبين من صحت عقيدته، وقويت عزيمته من عبادي المخلصين، ولن أجعل لك عليهم سلطاناً، فقلوبهم عنك منصرفة، وأذانهم لقلوك غير مصغية.

أما ما اعتزمته من إغواء<sup>(٢)</sup> الناس وفتنتهم، فحسابك عليه عسير، وجزاؤك على اقترافه عظيم، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَيْنَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

سجدوا لآدم<sup>(٣)</sup>، فاعترفوا بفضله، وأقرّوا بأنه خيرٌ منهم مقاماً، وأقرب منهم إلى الله مكاناً، ولعلمهم قد ظنوا أنهم كانوا أغزر منه علماً، وأكثر منه درايةً وفهماً. لذلك آتاه الله من علمه، وأفاض عليه من نوره، وعلمه أسماء الكائنات كلها، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة، فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، ليظهر عجزهم، ويستبين قصور علمهم، ويعرفوا أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون آدم أولى بذلك وأجدر، وأن خلافته أحق ألا تنكر.

بهتوا<sup>(٤)</sup> لما ووجهوا به: وسقط<sup>(٥)</sup> في أيديهم حينما حاولوا البحث في طوايا نفوسهم، وأرادوا الرجوع إلى سابق علمهم، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلاً، فأقرّوا بعجزهم، واعترفوا بقصور علمهم، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

(١) استفزه: استخفه. أجلب: من الجلبة، وهي الصياح. الخيل: الخيالة. والرجل اسم جمع للرجال. وهو كلام ورد مورد التمثيل، فقد مثلت حالة في تسلطه على من يغويه بمغوار أغار على قوم فصرت بهم صوتاً يستفزه من أمأكلهم ويقلقهم عن مراكزهم، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم.

(٢) إغواء: أي أضلال.

(٣) سجدوا لآدم: سجود الملائكة كان تنفيذاً لأمر الله وليس سجود عبادة.

(٤) بهتوا: دهشوا.

(٥) سقط في أيديهم: حاروا.

(٦) نقر لك بالعبودية.

ولما كان آدم قد اغترف من فيض ربه، واقتبس من نور علمه، أمره الله أن ينبتهم بما عجزوا عن معرفته، ويخبرهم بما قُصرت مداركهم عن علمه، بياناً لفضله، وإظهاراً لحكمة استخلافه. فأخبرهم خليفة الله بما عجزوا عنه، فناداهم ربهم، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾<sup>(١)</sup> [البقرة: ٣٣].

حينئذ تبيّنوا فضله، وأدركوا سر خلقه، وظهرت لهم حكمة استخلافه.

أذاق الله إبليس بأسه، وسلبه نعمته، وأقبل على آدم فأسكنه وزوجه جنّته، وأوحى إليه أن اذكر نعمتي عليك، فإني خلقتك ببديع فطرتي، وسوّيتك بشراً على مشيئتي، ونفخت فيك من رُوحِي، وأسجدت لك ملائكتي، وأفضتُ عليك قبساً من علمي، وهذا إبليس قد أيّأسته من رحمتي، ولعنته حين خرج عن طاعتي، وها هي ذي دار الخلد جعلتها لك منزلاً ومقاماً. فإن أطعت كافاتك بالإحسان، وخلدتك في الجنان. وإن تركت عهدي أخرجتك من دارِي وعذبتك بناري. ثم لا تنس أن إبليس هذا عدوُّ لك ولزوجك، فلا يخرجكما من الجنة فتشقى.

أباح لهما أن يأكلا من الجنة رغداً حيث شاءا، وأطلق لهما العنان في اجتناء ما يريدان من ثمارها، ونهاهما أن يقربا شجرةً من بين أشجارها الكثيرة.

وليزيل كل إيهام في شأنها، وشك في معرفتها، أشار إليها، تعييناً لها، وإزالة لكل ريب قد يتسرب إلى نفسيهما، وتوعدهما بالدخول في زمرة الظالمين إن قربا منها، أو تناولا شيئاً من ثمارها، ووعدهما أن يمدّ لهما في أسباب النعيم إن اجتنبا الشجرة التي نهاهما عنها، فلا يمستهما في الجنة جوعٌ ولا عُزْيٌ، ولا ينالهما ظمأٌ ولا نَصَبٌ، فقبال: ﴿أَسْكَنْتَ أَنْتَ وَرَوْحَكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾<sup>(٢)</sup> [طه: ١١٨ - ١١٩].

سكن آدم الجنة، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، ولعله كان يتنقل بين أشجارها، ويتقيأ في ظلّالها، ويقتطف من أزهارها، ويتفكّه بثمارها، ويرتوي من عذب مياهها. وشاركته هذه المُتعة زوجته، وعاشا كذلك مدة يرشّفان من مناهل السعادة.

(١) جمع لربنا كل مكان فهو يرى ما ظهر وما بطن، وجمع له كل زمان فهو يرى كل شيء. يجري في الماضي أو يجري في المستقبل وكل ذلك يراه الآن حاضراً فالكلمات التي تعبر عن الأمكنة والأزمنة هي خاصة بالمخلوقات فقط.

(٢) لا تضحي: لا يؤذيك حرّ الشمس.

حَزَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِ إِبْلِيسَ، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْعَمَ آدَمَ وَزَوْجُهُ، وَهُوَ مَطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، مَبْعُودٌ عَنْ جَنَّتِهِ، فَصَحَّتْ نَيْتُهُ عَلَى أَنْ يَقْوُضَ عَرْشَ سَعَادَتِهِ، وَيَسْلِبَهُ نِعْمَتَهُ، أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنْ عَلَيَّائِهِ، وَأَبْعَدَهُ عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ وَرِضَائِهِ، وَاسْتَبَانَ بِسَبِيهِ جَحْوَدُهُ وَنَكَرَانِهِ؟ فَلْيَقْدِمِ عَلَى الثَّأْرِ لِنَفْسِهِ، وَلِيَحَاوِلْ أَنْ يَتَنَقَّصَ ذَلِكَ الَّذِي أَمَرَ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالاعْتِرَافِ بِفَضْلِهِ. فَذَلَفَ إِلَى الْجَنَّةِ وَحَدَّثَهُ فِي سِرِّ وَخَفَاءٍ، وَأَوْهَمَهُ بِأَنَّهُ صَادِقُ الْوَدَى، مُخْلِصٌ فِي النَّصِيحِ، ثُمَّ جَدَّ فِي اسْتِمَالَتِهِ<sup>(١)</sup> إِلَيْهِ، فَلَمْ يَتْرِكْ سَبِيلًا لِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، أَوْ بَابًا إِلَّا طَرَفَهُ. وَأَظْهَرَ لَهُ وَلِزَوْجِهِ عَطْفَهُ عَلَيْهِمَا، وَإِشْفَاقَهُ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِهِمَا، فَقَالَ: ﴿مَا نَهَكْنَاكُمْ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

ولما شام منهما مجافاة لرأيه، وبُعْدًا عن مشورته، ورأى أن آذانهما صممت عن سماع صوته والإصاخة إلى نصيحته، أقسم لهما أنه من الناصحين، لا يقصد إلى ضررهما، ولا يريد العكاية بهما، ليؤكد صحة قصده، وصواب رأيه. ولا شك أنه أكثر وألح، وتمادى في إغوائه وألحف، وحاول إغراءهما بطيب ريح تلك الشجرة، وبديع طعمهما، وحسن لونها. فاغترأ بقوله، وافتتننا بزخرف لفظه، ومعسول وعده، وتابعا رأيه، وزلا بإغوائه.

فلما خرجا عن أمر ربهما سلبهما نعمته، وحرهما جنته، وناداهما ربهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

أنا بآ إلى الله، وندما على فعلتهما، و﴿فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَعْفَ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٣ - ٢٤].

تاب الله عليهما، وغفر لهما زلتهما، فأثلج ذلك صدرهما، وقرت به عينهما، وانبثق الأمل في نفسيهما بالبقاء في الجنة، والتمتع بنعيمها. وقد علم الله ما جال بخاطرهما، ووقف على ما تطلعت إليه نفسيهما، فأمرهما بالهبوط منها، وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليس ستظل قائمة، ليحذرا فتنته، ولا يصغيا إلى إغوائه، فقال: ﴿أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

فجعل له مآرباً في الحياة، وأملاً يسعى إليه، وأخبره أنه قد انتهى طور النعيم الخالص والراحة التامة، وأنه بعد خروجه من الجنة وحرمانه نعيمها قد دخل في

(١) استماله: جذبته وقربته.

طور له فيه طريقان: هدى وضلال، إيمان وكفر، فلاح وخُسران... فمن اتبع هدى الله الذي شرعه، وسلك الصراط المستقيم الذي حدده، فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه. ومن أعرض عن ذكر الله، وحاد سبيله، فسيكون عَيْشُهُ ضَنْكاً، وسيكون من ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١) [الكهف: ١٠٤].

### نبأ ابني آدم (\*)

بدأ نظام الحياة يستكمل حينما تهيأت<sup>(٢)</sup> حواء لتستقبل أولادها، أوّل زهر تفتح في رياض الإنسانية، وأول نفحة من نفحات البشرية، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم. وقد كانا شديدي الحب والشغف، أن يريا فلذات أكبادهما على ظهر البسيطة، فتمتلى جوانب الأرض بنسلهما، يمشون في مناكبها، ويأكلون من رزق الله. ولقد كان آدم حَفِيًّا بأبنائه، وحواء مستبشرة بقدومهم، رغم ما قاست من أهوال وآلام، هي إزام على الأم دائماً في مثل هذه الحال، إلا أنها لا تلبث حتى تنتشي برُخاء العطف والحنان، فإذا هي قريرة العين، باردة الفؤاد.

وضعت حواء توأمين: قابيل وأخته وهابيل وأخته، وشب الإخوة في رعاية الأبوين، حتى ملأتهم نضارة الحياة، وقوة الشباب. فنزعت<sup>(٣)</sup> البنتان إلى مزارع النساء، وانبعث الولدان يضربان في الأرض كسباً للرزق، وابتغاء للخير، فكان قابيل من زراع الأرض، وكان أخوه من رعاة الأغنام.

لأن<sup>(٤)</sup> للأخوين مهأء الحياة وسهل عيشها، وانتشر رواق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة. وعلى امتداد الزمن، وتتابع فسحة الأجل قويت في كلا الفتيتين غريزة الرجولة ومال كل منهما إلى أن تكون له زوجة ليسكن إليها ويطمئن بصحبتها، وتعلقت نفسه بذلك الأمل الحلو المعسول، وراحت تتفقدته وتلمس كل سبيل حتى تصل إليه. وإرادة الله جلّت حكمته قضت منذ الأزل أن يُمتحن بنو آدم على ظهر البسيطة، فيكثر المال والبنون، وتأخذ الأرض بهجتها

(١) شاءت حكمة الله أن ينزل آدم إلى الأرض ليلبوا الناس ويمتنحهم أيهم أحسن عملاً.

(\*) سورة المائدة: ٣١ - ٣٥.

(٢) قال رسول الله ﷺ: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام من الجنة وأهبط معه حواء لم يكن

جماع في الجنة فكان كل واحد ينام وحده حتى أتى جبريل إلى آدم فأمره أن يأتي أهله وعلمه

كيف يأتيها فلما أتاها جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة إن شاء الله...

(٣) نزع: مال.

(٤) لأن: أي سهل.



وتزيّن. كما جرى القدر ألا يكون الناس أمة واحدة، بل لا بدّ من التكاثر، والتباين في الرأي والمنزَع، والنوع والخلقة، والسعادة والشقاء، فأوحى الله تعالى إلى أبي البشرية أن يزوّج كلّ فتى من فتيته بتوأم<sup>(١)</sup> أخيه.

بهذا أفضى آدم إلى أبنائه، راجياً أن يكون قوله الفصل. ولولا جموح النفس البشرية، وانسياقها إلى مهاوي البوار والخسران لكان للآب ما تمنى.

والغريزة الإنسانية قوامها الحرص والطمع، فمن كبح جماح شهوته، وكسر حدة سطوته، وجعل لعقله سلطاناً على هواه، فأولئك هم الذين أكرمهم الله في الدنيا والآخرة. وأما من ترخّص لشهوته، وانفلت من عقله زمام هواه، فهو من ﴿الْأَخْسِرِينَ أَعْمَلًا الَّذِينَ سَدَّ سَبِيلَهُمْ فِي كَلْبِئِهِ لَدُنْيَا وَمُمْ يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ذلك محك الطبيعة الإنسانية، وممتحن النفس البشرية في الأرض.

بعد أن أسر<sup>(٢)</sup> آدم بمكنون صدره إلى ابنيه ثار قابيل، ولم ينزل على إرادة أبيه، لأن نصيبه أقلّ جمالاً من نصيب أخيه، فنفس<sup>(٣)</sup> عليه، ولم يرض بالقسمة، وودّ لو تكون توأمته من نصيبه دون أخيه.

وكان الجمال الخلقّي - وما زال - ريحاً هوجاء تتقاذف النفس البشرية، وقد توردها موارد الحتف والهلاك.

كان الجمال سبباً للشقاق والحفيظة بين الأخوين: فجمع أحدهما عن طاعة أبيه، ونقض ما كان قد أبرّم، وفصم ما كان قد أحكم.

هبت على الأب رياح عاصفة، ما دارت يوماً في خُلده ولا حُسيبانه، وتوزعت نفسه بين رغبة ابنه، والإبقاء على السلام بينهما والأمان، إلى أن هداه الله إلى مخرج يسدّ به مهبّ الريح. فطلب إليهما أن يقرب كلاهما قرباناً إلى الله، فأيهما تُقبّل قربانه كان أحقّ بما اشتهى وأراد. فقدم هايبيل جملاً من أنعامه، وقدم قابيل قمحاً من زراعته. وكلّ منهما يترقرق في صدره فيض الأمل، راجياً أن يظفر بقصب السبق وأن يحوز أعواد الرهان.

وكان هايبيل موفور الحظ موفّق الخطوات، فتقبّل قربانه ولم يُتقبل قربان أخيه، لأنه لم ينزل على حكم أبيه، ولم يُخلص النية في قربانه.

(١) التوأم: المولود مع غيره في بطن، ذكراً كان أو أنثى. ويُقال أيضاً: هذا توأم هذه، وهذه توأمته.

(٢) أسر: أي نقل الحديث.

(٣) نفس عليه: حسده.

بعد ذلك سُقِطَ في يد قابيل، إذ انطفأ أمله، وراح ضحية الأثرة والحقد، وانبعثت شروره، وامتدت نوازيه، فتوعد أخاه، وقال: لأقتلنك حتى لا أصحابك شقياً وأنت سعيد، ولا أواخيك مبسوط الأمل، وأنا مضطهد العاطفة، كاسف البال. فقال هابيل لأخيه - والحسرة تقطع فواده: كان أولى لك يا أخي ثم أولى، أن تتعرف موضع الداء فتحسمه، وأن تتحرى مسالك السلامة فتنبعث إليها، لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين.

وكان هابيل رجلاً رزقه الله بسطةً في العقل والجسم، من الذين حُمِّلوا الأمانة فصانوها، ووهبوا الحكمة فأجلّوها، يؤثر رضا الله، ويتعشق طاعة الأبوين، ويرضى بقسمة ربه، ويرى أن الحياة متاع زائل، وعرض حائل. وكان شديد الإشفاق على أخيه، دائب النصح له، والرّعوى<sup>(١)</sup> عليه. وكان كذلك يرى في نفسه قوة من قوة الله فما يضيره تهديد قابيل، وهو غير مفتون ذو أثره وذو عصيان! ترك المقادير تجري في أعنتها، وما تعلقت مشيئته بسوء لأخيه، ولا اختلجت نفسه بأذى، لأن الله الذي خلق الطهارة طَبَعَهُ عليها يوم طُبِعَ، فهو يخاف الله رب العالمين.

اتجه بعد ذلك هابيل بالنصح إلى أخيه، عن<sup>(٢)</sup> كلماته يكون فيها الشفاء فتزج داء الحقد من قلب أخيه. فقال: يا أخي، إنك لجائر، مائل عن طريق الصواب، آثم في عزمك، بعيد عن جادة الحق في رأيك، فأولى لك ثم أولى أن تستغفر الله، وأن ترجع عن غيئك. أما إذا عقدت عزمك، وكنت في تدبيرك ماضياً لا محالة، فإني أترك الأمر إلى الله، مخافة أن يلحقني إثم، أو يتعلق بنفسي أثر لعصيان، فتحمّل وحدك الإثم فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

لم تكن أصيرة الأخوة شفيعةً أمام ذلك الحقد المتقد في صدر قابيل، ولم يكن مبعث الحنو والرحمة والعطف ليهدي من ثورة ذلك البركان الثائر، ولم تكن مخافة الله، ولا رعاية حقوق الأبوين رادعة لتلك النفس التي كانت أول من أجرم على ظهر البسيطة من الناس.

في ساعة من ساعات الفلك الدائر، ولنزوة حقيرة من نزوات النفس الجامحة وقعت الواقعة؛ فراح هابيل قتيلاً بيد أخيه، فريسة الحقد والجهالة والغرام. ذوى<sup>(٣)</sup> عود الأخ النصير، وانطفأ مصباحه، وغاب عن الأفق الذي كان

(١) الرعوى: رعاية الحفظ للعهد.

(٢) بمعنى لعل، عسى.

(٣) ذوى: ذبل.

يطالع أباه فيه؛ فاستوحش آدم، وراح يتفقّد ابنه هابيل، علّه يقف له على أثر أو يتلّ أوام<sup>(١)</sup> شوقه بخير. فسأل قابيل عن أخيه؛ فردّ رداً ملؤه الخفة والطيش، وقال: ما كنت عليه وكيلاً، أو راعياً وحفيظاً. ولكن آدم عرف بغدّ أن ابنه قد قُتل، فسكت على همّ وتبريح، وكبت في نفسه تلك الشعلة التي هاجت حزناً على فقیده وإشفاقاً على أخيه.

أقول للنفس تأساء وتعزية إحدى يدي أصابتنى ولم ترد  
ولقد كان هابيل أول من قُتل على ظهر الأرض، وما عرف قابيل<sup>(٢)</sup> كيف  
يواري جثة أخيه، فحمله في جراب على ظهره، وظل مضطرباً حائراً قلق النفس  
مُلْتاع الفؤاد... كيف لا، وقد غدّت نفسه ميداناً تختصم فيه الحفيظة والعاطفة،  
فبات معذباً ناهي المضجع، موسّد الهم والحزن والعار!  
أروح<sup>(٣)</sup> الميت، وناء قابيل بحمله، ولم يدر كيف السبيل!

هنا لا بدّ أن تهبط رحمة الله رعايةً لحق تلك الجثة الطاهرة، وسناً لدستور  
الخليقة، وإبقاءً على كرامة آدم وولديه. وهنا كذلك لا بدّ أن يكون درس قاس  
يتلقاه ذلك الغرّ المأفون، وما هو بأهل لوحي الله، ولا لإلهام الله، بل لا بدّ أن  
يكون تلميذاً للغراب! يتضاءل فهمه أمام حنكة ذلك الحيوان الأسود الضعيف،  
وتفنى شخصيته بعد ذلك الدرس الذي يتلقاه ذليلاً، صغير النفس، معذب الفؤاد.  
بعث الله غرابين فاقتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره، ووارى  
جثته تحت التراب. هنا استشعر قابيل الندم والحسرة، فقال: ﴿يَوَلِّجْ أَعَجَزْتُ أَنْ  
أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَى سَوْءَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١].

(١) الأوام: شدة الظمأ.

(٢) لقابيل نصيب من إثم كل قاتل إلى يوم القيامة لأنه أول من سنّ سنّة القتل على وجه الأرض  
قال ص: ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

(٣) أروح: فاحت رائحته.

## (\*) نوح

ظل قومُ نوح يعبدون الأصنام دهرًا طويلاً، واتخذوها آلهة يرجون منها الخير، ويستدفعون بها الشر، ويردون كل شيء في الحياة اليها. ودَعَوْها بمختلف الأسماء، تارة وذأ وسواع ويَعُوث، وتارة يَعُوق ونَسْرًا<sup>(١)</sup>، على حسب ما يُملي عليهم الجهل، ويزين لهم الهوى. فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام، وكان رجلاً فتيق<sup>(٢)</sup> لللسان، واضح البيان، رزين الحصة<sup>(٣)</sup> بعيد الأناة<sup>(٤)</sup>، رزقه الله صبراً على الجدل، وقدرة على تصريف الحجج، وبصراً بمسالك الإقناع، دعاهم إلى الله فأعرضوا، فأندرهم العقاب فعموا وصموا، ورغِبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا... ولكنه ناضلهم وجادلهم، ثم صابرهم وطاولهم، فمدَّ لهم حبل أناته، وأفرغ عليهم معسول كلماته، ولم يضعف في إيمانهم رجاؤه، ولم يدع اليأس يسلك سبيلاً إلى قلبه، بل أخذ يفتن<sup>(٥)</sup> في الدعوة، ويجاهد في إبلاغ الرسالة، فدعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، ووجه نظرهم إلى سر الوجود، وإبداع الكائنات: ليل داج، وسماء ذات أبراج، وقمر يسبح، وشمس تسطع، وأرض فجر خلالها الأنهار، وأنبت فيها الزروع والثمار. كل هذا يتحدث بلسان فصيح، وينطق ببرهان صحيح، عن إله واحد، وقدرة فذة عجيبة.

وهكذا ظل يناضل ويساجل، ويقىم الحجج، ويسط البراهين، حتى آمنت به شِرْذمة<sup>(٦)</sup> قليلون، استجابوا لدعوته، وصدقوا برسالته. أما الذين طبع الله على

(\*) آل عمران ٣٣، النساء ١٦٣، الأنعام ٨٤، الأعراف ٥٩ - ٦٢، يونس ٧١ - ٨٣، هود ٢٥ -

٤٩، الأنبياء ٧٦ - ٧٧، الفرقان ٣٧، الشعراء ١٠٥ - ١٢٢، العنكبوت ١٤، ١٥، الصافات

٧٥ - ٨٢، نوح ١ - ٢٨، القمر ٩ - ١٦، المؤمنون ٢٣ - ٣٢، المؤمن ٥، ٦.

(١) هود وسواع ويعوث ويعوق ونسر: أسماء أصنام، وقد انتقلت عن قوم نوح إلى العرب.

(٢) فتيق اللسان: فصيح اللسان.

(٣) الحصة: العقل والرأي.

(٤) الأناة: الحلم.

(٥) يفتن: يفتن.

(٦) الشِرْذمة: الجماعة.

قلوبهم فلم يؤمنوا، وسبقت لهم الشقوة فلم يهتدوا - وكانوا من عرانيين<sup>(١)</sup> الأقوم وذوي الشرف الصاعد فيهم - فقد تما لأوا عليه وتظاهروا على الاستهزاء به وتسفيه رأيه .

قالوا: ما أنت إلا بشر مثلنا، وواحد منا، ولو أراد الله أن يبعث رسولا لبعثه ملكاً، ولكننا أصحنا لقوله، وأجبناه لدعوته . ثم ما هؤلاء الأردال من طعام<sup>(٢)</sup> الناس وحثالتهم، وأهل الصناعات الخسيسة والحرف الدنيئة، الذين انقادوا إليك بادي الرأي<sup>(٣)</sup> من غير أن يمتحصوا آراءهم، أو يَنْضجوا أفكارهم! لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء! ولو كان حقاً ما تقول لكنا - ونحن أولو الفطنة والزكاة<sup>(٤)</sup>، وأصحاب الأذهان الصافية، والأحلام الراجعة - أسبق إلى الإيمان بك، والافتداء بهداك .

ثم لجوا في الجدل، وأمعنوا في المراوغة، وقالوا: وما نرى لك يا نوح ولصخبك علينا من فضل، لا في العقل والحجاء، ولا في بُعد النظر، ولا في رعاية المصالح، ولا في معرفة المعاد وخاتمة المطاف، بل نظنكم كاذبين!

فأجابهم نوح - وسفاهة قولهم لم تصدع صفاة<sup>(٥)</sup> حلمه، ولم تُثِرْ قِطاة رأيه وعقله<sup>(٦)</sup>: أرايتم لو أنني كنت على بينة من ربي، وحجة شاهدة بصدق دعواي آتاني رحمة منه وفضلاً، فعبي عليكم القصد، واشتبه الأمر، وحاولتم ستر الشمس بأكفكم، أو طمس النجوم بأيديكم، فهل أستطيع لكم إلزاماً، أو أملك لحملكم على الإيمان سلطاناً؟ .

قالوا: يا نوح، إن أردت لنا هداية وتوفيقاً: وأردت منا نصراً وإعزازاً، فاعمد إلى هؤلاء الأوزاع<sup>(٧)</sup> الذين آمنوا بك، فأقصهم عن حظيرتك، وانبذهم عن حماك، فإننا لا نستطيع أن نجري في عنانهم، أو نسير على أسلوبيهم، أو نُقرن في الاعتقاد بهم، وكيف نستجيب لدين يستوي فيه الشريف والمشروف، والملك والسوقة!

قال لهم: إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعاً، يستوي فيها نبيهم وخاملكم، مشهوركم ومغموركم، الأغنياء منكم والفقراء، والمرؤوسون والرؤساء . وهبوني أحببتكم إلى مطلوبكم وحققت بطردهم مرغوبكم، فمن الذي اعتمد عليه في نشر

(١) عرانيين: جمع عرنين، وهو السيد الشريف .

(٢) الطعام: أوغاد الناس .

(٣) بادي الرأي: من غير تعمق في الفكر .

(٤) الزكاة: الفطنة والعقل .

(٥) لم تصدع صفاة حلمه: لم تخرجه عن حلمه . وأصل الصفاة: الصخرة الملساء .

(٦) لم تُثِرْ قِطاة رأيه وعقله: لم تغير مألوف رأيه وعقله .

(٧) الأوزاع: الأخلاط من الناس .

الدعوة وتأييد الرسالة؟ وكيف أطرده قوماً نصروني وقد لقيت منكم الخذلان، ووصلت كلماتي إلى قرارة نفوسهم، وما صادفت منكم إلا الجحود والنكران؟! وهم ما برحوا قوماً على الدين، داعين إلى الله. ثم كيف يكون حالي معهم بين يدي الله إذا خاصموني وحاجوني، وشكوا إلى الله أني قابلت خيرهم بالكنود<sup>(١)</sup> وإحسانهم بالجحود؟! ألا إنكم قوم تجهلون!

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل، وانفرجت مسافة الخلف<sup>(٢)</sup>، سئموا منه، وضاعت صدورهم به، وقالوا: ﴿يَكُونُ قَدْ جَدَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا قَدْ نَأَىٰ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

فهزئ بهم نوح، وقال: إنكم تسرفون في الجهل، وتضعفون في الحق، ومن أنا حتى أتاكم بالعذاب، أو أضده عنكم؟! وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله واحد، فأبلغكم ما أمرت به، وأبشركم بالثواب مرة، وأندركم بالعذاب أخرى؟ ألا إن مرد كل شيء إلى الله، إن شاء هداكم، وإن شاء استعجل فأذاكم، وإن شاء أملى لكم ليزيد في عقابكم، ويؤمن في النكاية بكم.

والأنبياء - لكي يؤدوا رسالتهم على وجهها الكامل - رزقهم الله صبراً على الإيذاء، وجلداً على الخصام؛ كما وسع في رقة أحلامهم، وماد<sup>(٣)</sup> لهم في حبال رجائهم، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولا لمن كفر عذر بعد الأنبياء. ونوح كان من أولي العزم من الرسل، مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، صابراً على أذاهم، صامداً لاستهزائهم، يرصد فيهم برق الأمل، ويشيم منهم بارق الإيمان<sup>(٤)</sup>، ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلا غتوا، وما بلغت دعوته منهم إلا نفوراً، فعاد جبل الرجاء بالياً، ووجه الأمل أسود حالكاً، ففرغ إلى الله شاكياً ملتجئاً، مستعيناً مستهدياً، في هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم، ويكاد الأمل ينقطع في إيمانهم. فأوحى الله إليه: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ<sup>(٥)</sup> بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

ولما رأى نوح أن الله قد حققت كلمته، وقضى وحيه أنه لن يؤمن أحد بعد،

(١) الكنود: كفران النعمة.

(٢) الخلف: الخلاف.

(٣) ماد: مد.

(٤) يتطلع إلى إيمانهم: والبارق في الأصل: سحب ذو برق.

(٥) لا تحزن ولا تستكن.

وأنه قد طبع على قلوبهم، ووضعت عليها الأقفال، فلم يعودوا يخضعون لبرهان، أو يُدْعون إلى إيمان، نفيده صبره، وقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا <sup>(١)</sup> إِنَّكَ إِن تَذَرَّهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه: ﴿ أَلَيْسَ الْفُلْكَ <sup>(٢)</sup> بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَحْطِينِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [هود: ٢٧]. فاتخذ مكاناً قاصياً عن المدينة، وأعد الألواح والمسامير، وأخذ يعمل، ولكنه لم ينج من سُخرية القوم واستهزائهم.

وقال بعضهم: إنك يا نوح كنت تزعم قبل اليوم إنك نبي ورسول، فكيف أصبحت اليوم نجاراً، أزهدت في النبوة، أم رغبت في النجارة؟!

وقال غيرهم: ما بال سفينتك <sup>(٣)</sup> تصنعها بعيدة عن البحار والأنهار؟! أعددت الثيران لجزها، أم كلفت الهواء حملها؟! ولكنه أعرض عن استهزائهم، ومزّ كريماً على لغوهم، وقال: ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨ - ٣٩].

وانصرف إلى السفينة يُقيم ألواحها، ويصل أجزاءها، حتى استوت سفينة مكينة ذات ألواح ودُسر <sup>(٤)</sup>. وانتظر نوح ما يكون من أمر الله، فأوحى إليه: إذا جاء أمرنا، وظهرت آياتنا، فاعمِد إلى سفينتك، وخُذْ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَهْلِكَ، واحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يبلغ أمر الله.

وتفتّحت أبواب السماء بالماء، وتفجّرت عُيون الأرض، وبلغ السيل الزبّي <sup>(٥)</sup>، ثم جاوز القيعان والرُبا، فهرع نوح إلى السفينة، وحمل ما أمر الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات، وسارت باسم الله مجراها ومرساها: مرة هي في ريح رُخاء، وآونة في زغرغ نكباء، والأمواج تفتّح بين طياتها للكافرين قبوراً، والزبّد يخيظ لهم أكفاناً، يغالبون الموت والموت يغلِبهم، ويصارعون الموج ولكن الموج يصرعهم، حتى طوتهم الأمواج طي السر في الفؤاد.

وأشرف نوح فوق ظهر السفينة، فرأى ابنه كنعان - وكانت شقوة الله قد غلبت عليه فاعتزل أباه، ورغب عن دينه - يخوض اللجج، ويُدافع الموج،

(١) دياراً: أحداً.

(٢) الفلك: السفينة.

(٣) قال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في ستين فكان طولها ٣٠٠ ذراع وعرضها ٥٠.

(٤) دسر: مسامير.

(٥) الزبّي: جمع زبية، وهي الرواية لا يعلوها الماء.

ويحاول أن يعتصم بحبل يُنجيه، أو ربوة تنقذه، ولكن الحمام<sup>(١)</sup> كان منه يدنو، والغرق يقترب، فرقت له كبده، ولانت أعطاف رحمته، وهاج موضع الإشفاق والحب فيه، فناداه، لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن: إلى أين يا بني؟ إنك تفر من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره، هلم مؤمناً، فإلتم شملك بأهلك، وتنجو بيدك، ﴿يَبْنَئِ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

ولكن هذه الكلمات لم تصل إلى قرارة وجدانه، ولم تجاوز شغاف قلبه، وحسب أنه قادر على أن يحذر المكروه، ويُفليح من يد القدر، فقال: إليك عني، فإني ﴿سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].

قال نوح وقد أشجاه الهَم، وغلبه الوجلا<sup>(٢)</sup>: يا بني، إنه ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. ثم فصل بينهما الموج، وحجز السيل، ولم يعد يرى ابنه، فلذة كبده وحشاشة قلبه. فاعتلج صدره همّاً، واتجه إلى الله ملجأ الملهوف وغيوث المكروب، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أُمَّلِي﴾ [هود: ٤٥]، وقد وعدت - ووعدك الحق - أنك تنجيني ومن آمن من أهلي، وأنت أحكم الحاكمين.

فأوحى الله إليه: يا نوح إنه ليس من أهلك، ولا من خاصة عشيرتك، فقد سبقت له الشقاوة، وحققت عليه كلمة الكفر، فلا تعدّ من أهلك إلا من آمن بك، وصدق برسالتك، واستجاب لدعوتك، هذا الذي تعدّه حقاً من أهلك وهو الذي وعدتُك بنجاته، وإنقاذ حياته ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، أما من جحد برسالتك، وكذب بكلمات ربك، فإنه خارج عن أهلك، منبوذ من شفاعتك، وإن كان بينك وبينه رَجْمٌ ماسّة، أو نسب جامع، وهو لا بدّ واردة حوض المنية، مشرف على الغاية المحتومة، وإن اعتصم بحبل أو أوى إلى ركن<sup>(٣)</sup> شديد. فإياك بعدها أن تسألني عن شيء لا تعلمه، أو تجادلني في أمر لا تدركه: ﴿إِنِّي أَعْطُكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق، والإشفاق ستر عنه الصواب، وكان أولى به أن يبسط كفيه شكراً لله على ما خصّه وقومه المؤمنين من النجاة وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق والهلاك. فالتجأ إلى الله

(١) الحمام: الموت.

(٢) الوجلا: الحزن.

(٣) ركن الرجل: قومه وعدده ومادته.



مستغفراً من ذنبه مستعيذاً من سخطه . وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] ، وحال الموجُ بينه وبين ابته فكان من المغرّقين .

ولما بلغ الشوط غايته ، وطُويت صحيفة القوم الظالمين ، كَفَّت السماء ؛ وابتلعت الأرضُ الماء ، ورسّت السفينة على جبل الجُودي<sup>(١)</sup> ، وقيل : بُغداً للقوم الظالمين !

وقيل لنوح : اهبط بسلام إلى الأرض ، أنت ومن آمن معك من قومك تحفكم البركة ، وتكلاؤكم العناية ، عناية الله .

(١) قيل إنه جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح .

## هـود (\*)

أقامت عاد<sup>(١)</sup> بالأحقاف ما بين اليمن وعُمان. زدحاً من الزمن في بلهنية<sup>(٢)</sup> من العيش، وزغد من الحياة، حباهم الله نِعماً وافرة، وخيراتٍ جليلة، ففجَّروا العيون، وزرعوا الأرض، وأنشأوا البساتين، وشادوا القصور، ومَنَحهم فوق ذلك بسطةً في أجسامهم، وقوةً في أبدانهم، وآتاهم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين، ولكنهم لم يُفكروا في مبدأ هذا الخلق، ولم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم؛ وغايةً ما وصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم، أن اتخذوا أصناماً لهم آلهةً يَعْنون<sup>(٣)</sup> لها بجباههم، ويُعَفِّرون في ثراها خُدودهم، ويتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضير<sup>(٤)</sup>.

ثم إنهم بعد ذلك عَتَوْا<sup>(٥)</sup> في الأرض، فأذلَّ القويُّ منهم الضعيف، وبطش الكبيرُ بالصغير، فأراد الله - هدايةً للأقوياء، وتمكيناً للضعفاء، وتهذيباً للنفوس مما ران عليها من الجهل، ورفعاً للحجُب التي تراكمت على بصائرهم - أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، يحدثهم بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويرشدهم إلى خالقهم، ويبين لهم سفاهة عبادتهم، رحمةً منه وكرماً.

وكان هودٌ رجلاً من أوسطهم<sup>(٦)</sup> نسباً<sup>(٧)</sup>، وأكرمهم خلقاً، وأرجحهم حلماً، وأرحبهم صدراً، فاختره الله ليكون أمينَ رسالته، وصاحب دعوته؛ لعله يهدي هذه العقول الضالة، ويقوم من هذه النفوس المعوجة. فصَدَع بالأمر، واضطلع بالرسالة، وادَّرَع<sup>(٨)</sup> بما يَدْرَع به صاحبُ كل دعوة، عزمٌ يُقلقل

(\*) الأعراف ٦٥ - ٧٢، هود ٥٠ - ٦٠، والشعراء ١٢٣ - ١٤٠.

(١) عاد: أبو قبيلة اشتهرت باسمه، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس.

(٢) بلهنية: أي رغد.

(٣) يعنون، من عنا يعنو: إذا خضع وذل.

(٤) ضير: ضرر.

(٥) عتوا في الأرض: أفسدوا فيها.

(٦) يقال: فلان وسيط في قومه، إذا كان أرفعهم مجدداً.

(٧) وهكذا كل المرسلين وكل ما نقرأه من أحد من الرسل مخالفاً لذلك هو كذب وافتراء.

(٨) ادرع بالدروع: ليسها.

الجبال، وحلم يهزم الجهال، وخرج عليهم منكرأ أصنامهم، ومسفهاً عبادتهم .  
 قال: يا قوم، ما هذه الأحجارُ التي تنجثونها ثم تعبدونها وتلجأون إليها؟! ما  
 خطرُها وما غناؤها<sup>(١)</sup>، وما ضررها وما نفعها؟! إنها لا تجلب لكم نفعاً، ولا تدفع  
 عنكم شرأ، إن هذا إلا ازدراء لعقولكم، وامتهان لكرامتكم، ولكن هناك إلهأ واحداً  
 حقيقأ بأن تعبدوه، وربأ جديراً بأن تتوجهوا إليه، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو  
 الذي أحياكم، وهو الذي يميتكم، مكن لكم في الأرض، وأثبت لكم الزرع،  
 وبسط لكم في الأجسام، وبارك لكم في الأنعام، فأمنوا به، واحذروا أن تعموا عن  
 الحق، أو تكابروا في الله، فيصيبكم ما أصاب قوم نوح، وما عهدهم منكم ببعيد .

قال ذلك هود، وهو يرجو أن تصل كلماته إلى أعماق نفوسهم فيؤمنوا، أو  
 تنفذ إلى عقولهم فيفكروا ويهتدوا. ولكنه رأى وجوهاً ساهمة<sup>(٢)</sup> وعيوناً حائرة بعد  
 أن سمعوا كلاماً لم يكونوا قبلُ قد سمعوه، وألقى إليهم قول لم يألفوه. قالوا: ما  
 هذا الذي تهذي به وتخوض فيه؟! وكيف تريدنا أن نعبد الله وحده من غير  
 شركاء؟! إنا نعبد هذه الأصنام لتقربنا إليه، وتشفع لنا عنده .

قال: يا قوم: إنما الله واحد لا شريك له، وعبادته وحده هي جوهر العبادة  
 ومُصاصها، ومُخها ولُبأها، وهو قريب غير بعيد، أقرب إليكم من حبل الوريد<sup>(٣)</sup>، أما  
 هذه الأصنام التي تعبدونها زُلفى إليه، وشفاعة عنده فهي تُبعدكم عنه من حيث ظننتم  
 أنكم تقربون، وتدل على جهلكم في الوقت الذي تظنون أنكم تعلمون وتفهمون .

فأعرضوا وقالوا: ما أنت إلا سفيه طائش الحلم، تسفه عبادتنا، وتعيب علينا  
 ما وجدنا عليه آباءنا. ما أنت بيننا؟! وما ميزتك عن واحد منا؟! أنت تأكل كما  
 نأكل وتشرب كما نشرب، وتجري في حياتك على أسلوب كالذي نجري عليه،  
 فلمَ اختصك الله بالرسالة، وأترك بالدعوة؟! ما نظن إلا أنك من الكاذبين .

قال هود: يا قوم، ليس بي سفاهة عقل، وحمافة رأي، ولقد عشتُ فيكم  
 دهرأ طويلاً فما أنكرتم علي شيئاً، وما جرّبتم علي حُمقأ ولا طيشأ، وما الغريب  
 في أن يختص الله واحداً من قومه برسالته ويحملة دعوته؟! إنما الغريب أن يترك  
 الناس سُدَى من غير رسول، وقوضي لا وازع لهم ولا رادع، على أني لست بيبائس  
 من إيمانكم، ولا ضائق الصدر بسفهاثكم، فكفروا بعقولكم وانفذوا إلى الحقائق

(١) الغناء: النفع.

(٢) ساهمة: شاردة.

(٣) الوريد: عرق تحت اللسان.

ببصائرکم تروا أن الله واحد في كل شيء: في هذا النظام العجيب، والخلق الغريب، والفلك الدائر، والنجم الثاقب:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ  
فآمنوا به واستغفروه يرسل السماء عليكم مدراراً<sup>(١)</sup>، ويُمددكم بأموال فوق أموالكم، ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تتولَّوا<sup>(٢)</sup> مُجرمين.

واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تُبعثون: مَنْ عمل صالحاً فلنفسه، ومَنْ أساء فعليها، فتدبروا لأنفسكم، وخذوا الأثمة لآخرتكم، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وإني لکم به نذير مبین.

قالوا: لا شك أن واحداً من آلهتنا قد مسك بسوء فحولت<sup>(٣)</sup> في عقلك، ودخل عليك في تفكيرك؛ فأصبحت تهذي بكلمات لا حقيقة لها إلا في خلدك، ولا ظل لها إلا في تفكيرك، وإلا فما الاستغفار الذي يرسل الله بعده السماء ويمد بالمال، ويزيد في القوة؟! وما يومُ البعث الذي تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح عظاماً نخرة<sup>(٤)</sup>، وجُثثاً بالية؟! هيهات هيهات لما تعد وتزعم! ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ثم ما العذاب الذي تعدنا وتوقع أن نلقاه؟! إننا لن نذعن لما تقول، ولن نرجع عن عبادة آلهتنا، ﴿ فَأَيْنَمَا تَعِدْنَا إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢].

فلما تبين له العناد في أحاديثهم، والإصرار في ثنايا أقوالهم. قال لهم: إني أشهد الله أنني قد بلغت وما قصرت؛ وجاهدت وما أحجمت، وسوف أظل على هذا البلاغ وذاك الجهاد، ولا أبالي بجمعكم، ولا أخاف بطشكم، فكيدوني كيداً، أو أجمعوا بي بطشاً، إني توكلت على الله ربي وربكم؛ ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا<sup>(٥)</sup> إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

وظل هو يدعو والقومُ مُعرضون. وفيما هم على هذه الحال شاموا<sup>(٦)</sup> سحاباً أسود يعترض السماء، فاستشرف القومُ إليه، وحُقوا إلى رؤيته سراعاً، وقالوا: هذا

(١) درت السماء بالمطر: إذا كثرت مطرها.

(٢) تتولوا: تردوا.

(٣) حولت فلان في عقله: إذا اختل عقله.

(٤) النخرة من العظام: البالية.

(٥) الناصية: خصلة الشعر في مقدم الرأس، والمراد في قبضته.

(٦) شاموا السحاب: نظروا إليه أين يمطر.

سحاب عارض<sup>(١)</sup> سيمطرننا، ثم تهيأوا لاستقباله، وأعدوا حقولهم لنزوله. ولكن هوداً قال لهم: ليس هذا سحاب رحمة، وإنما هو ريح نعمة، ﴿هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وما راعهم إلا أن رأوا رحالهم ودوابهم التي في الصحراء، تحملها الرياح على أجنحتها القوية، وتقذف بها إلى مكان بعيد! فداخلهم الفزعُ وأدركهم الهلع، وهرعوا سراعاً إلى بيوتهم يُغلقونها عليهم ظناً أنهم بذلك ينجون، ولكن البلاء كان عاماً، والخطب شاملاً: إذ حملت الرياح رمال الصحراء، وظلت سبع ليال وثمانية أيام متتاليات، أصبح القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وغفا ظلُّهم، ودرَس رسمهم، وأمحى من التاريخ أمرهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

أما هود فقد آوى إليه صخبه، ومن آمن به، وظلوا بمكانهم، تهزم<sup>(٢)</sup> حولهم الرياح، وتسفي الرمال، وهم آمنون مطمئنون، حتى هدأت الرياح، وصفا الحال ثم انتقل إلى حضرموت، وقضى بعدها البقية الباقية من عمره<sup>(٣)</sup>.

(١) العارض: السحاب الممطر يعترض في الأفق.

(٢) هزيم الرياح: صوتها.

(٣) في قصة هلاك عاد، أقوال مختلفة للمفسرين انظرها في مكانها.

## صالح (\*)

هُلِكت عاد بذنوبها؛ فأورث الله ثمودَ أرضهم وديارهم<sup>(١)</sup>، فخلّفوهم فيها، وعَمَرُوا أكثر مما عمروها، وفَجَرُوا العيونَ، وغرسوا الحدائق والبساتين، وشادوا القصور، ونحتوا من الجبال بيوتاً، ليأمنوا غوائل الدهر، ونوائب الحدّثان<sup>(٢)</sup>. وكانوا في سَعَةِ من العيش ورغد، ونعمة وترف، ولكنهم لم يشكروا لله، ولم يَحْمَدُوا له فضله، بل زادوا عتوّاً في الأرض وفساداً، وبُعداً عن الحق واستكباراً، وعبدوا الأوثان من دون الله، وأشركوا به، وأعرضوا عن آياته، وظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السَعَةِ متروكون.

بعث الله إليهم صالحاً من أشرفهم نسباً، وأوسعهم حِلماً، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضهم على توحّيده، فهو الذي خلّقهم من تراب، وعَمَر بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه، فهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولا تُغني عنهم من الله شيئاً.

ذَكَرهم بأواصر القُرْبى التي ترطبه بهم، وشائج النسب التي تصل بينه وبينهم، فهم قومُه وأبناءُ عشيرته، وهو يحب نفعهم، ويسعى في خيرهم، لا يضر لهم سوءاً؛ ولا يريد بهم شراً، وأمرهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب، واجترحوا من إثم، فهو لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب، ولمن أناب إليه سميع.

صَمَّتْ منهم الآذان، وعُغِّلت القلوب، وعميت الأبصار، فأنكروا عليه نبوّته، وهزئوا بدعوته، وزعموا له أنها نايبةٌ عن الحق، بعيدة عن الصدق، ثم لامّوه فيها، وأنبوه على صدورِها منه، وهو الراجحُ عقلاً، الصائبُ رأياً، وقالوا: يا صالح،

(\*) هود ٦١ - ٦٨، الأعراف ٧٣ - ٧٩، الشعراء ١٤١ - ١٥٩، النمل ٤٥ - ٥٣، القمر ٢٣ - ٣١، الشمس ١١ - ١٥.

(١) هناك خلاف بين المفسرين فيما إذا كانت ثمود نزلت في أرض عاد نفسها أم أن القرآن كان يقصد أنهم أتوا بعدهم زماناً.

(٢) الحدّثان: الزمان.

عهدناك ثاقب الفكر، مصيب الرأي، وقد كانت تلوح عليك مخايل<sup>(١)</sup> الخير، وأمارات الرشد، وكنا ندخرك لمللمات الدهر، تضيء ظلماتها بنور عقلك، وتحل معضلاتها بصائب رأيك، وكنا نرجو أن تكون غدتنا حين يحزب<sup>(٢)</sup> الأمر، ويشتد الخطب، فنطقت هُجراً، وأتيت نكراً. ما هذا الذي تدعوننا إليه؟! أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آبائنا، وقد درجنا عليه، ونشأنا مُستمسكين به؟! إننا لفي شك مما تدعوننا إليه مُريب، لا نظمئن إلى قولك، ولا نشق بصدق دعوتك، ولن نترك ما وجدنا عليه آبائنا ونميل مع هواك وزينك.

حذرهم مخالفتَه، وأعلن فيهم رسالته، وذكرهم بما أسبغ الله عليهم من نعمه، وخوفهم بأسه وبطشه، وأبان لهم أنه لا يقصد من وراء دعوته إلى نفع، ولا يطمح في مغنم، أو يتطلع إلى رياسة، وهو لم يسألهم أجراً على الهداية، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، وإنما أجره على الله رب العالمين، درءاً لكل شبهة قد تساور نفوسهم، ودفعاً لكل شك قد يجول في خواطرهم.

آمن به بعضُ المستضعفين من قومه، أما الملا الذين استكبروا فأصروا على عنادهم، وتمادوا في طغيانهم، واستمسكوا بعبادة أوثانهم، وقالوا له: إنك قد خولت في عقلك، وضاع صوابك، وما نظن إلا أن أحداً سلط عليك شيطانه، أو عمل فيك سحره، فأصبحت تهرف<sup>(٣)</sup> بما لا تعرف، وتنطق بما لا تفقه: فلست إلا بشراً مثلنا، وما أنت بأشرفنا نسباً، أو أفضلنا حسباً، أو أوسعنا غنى وجاهاً، وفينا من هو أحقُّ منك بالنبوة، وأجدر بالرسالة؛ فما حملك على انتهاج هذه الطريق، وسلوك تلك السبيل، إلا رغبتك في تعظيم نفسك، وتطلُّعك إلى الرياسة على قومك!.

حاولوا صده عن دينه، وصرّفه عن دعوته، وزعموا له أنهم إن اتبعوه حادوا عن الصراط المستقيم، وخالفوا الطريق القويم، فأعرض عن بهتانهم، ولم يستمع إلى غوايتهم، وقال: يا قوم، إن كنتُ على بينة من ربي، وآتاني منه رحمة، ثم اتبعتُ طريقكم، وسرتُ في سبيلكم، وعصيتُ ربي، وآتاني منه رحمة، فمن يمنعني من عذابه، أو يعصمني من عقابه؟! إن أنتم إلا مفترون<sup>(٤)</sup>.

فلما وجدوا منه استمساكاً بزأيه، واعتصاماً بحقه، خاف المستكبرون من قومه أن يكثرَ تابعوه، ويعظم ناصروه، وعزَّ عليهم أن يكون المرشد للقوم،

(١) مخايل: أمارات.

(٢) حزب الأمر: اشتد.

(٣) تهرف: تهذي.

(٤) الافتراء: أشد التكذيب.

والموئلَ عند اشتداد الخطب، والكوكب المنير إذا ادلهم<sup>(١)</sup> الأمر، فينصرف الناس عنهم، ويفزعون إليه في كل شأن، ويطلقون بابه كلما حزبهم أمر<sup>(٢)</sup>. ولا شك أنه سيهديهم إلى ما يقربهم إلى الله، ويصدهم عما يُثيهم عنه، فخافوا زوال دولتهم، وذهاب سلطانهم، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبينون بها صدق دعوته، ومعجزة ظاهرة تصدق رسالته. فقال لهم: هذه ناقة لها شرب<sup>(٣)</sup> ولكم شرب يوم معلوم، فذروها<sup>(٤)</sup> تأكل في أرض الله.

لم يرَ الناس قبلاً ناقة تستأثر يوماً بمائهم، ولم يعهدوا غيرها يكف يوماً عن شربهم، ولا شك أن صالحاً قد عهد فيهم إصراراً على الكفر، واستمسكاً بالباطل، وعلم أن المنكر يُفزع ظهور حجة خصمه، ويخيفه وضوح برهانه، بل يحرك كامن غيظه ومستور حقه قيام شاهده، وقوة آيته، لذلك خاف إقدامهم على قتلها، وحذرهم الفتك بها، فقال لهم: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا سُوًى فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل في أرض الله، ترد الماء يوماً، ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيراً من قومه، إذ استبانوا بها صدق رسالته، وأيقنوا بصحة نبوته. فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، وخافوا على دولتهم أن تبيد، وعلى سلطانهم أن يزول، فقالوا للمستضعفين من قومهم - وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم، فعمرت به صدورهم، وانصاعت إليه أفئدتهم: أتعلمون أن صالحاً مُرْسَلٌ من ربه؟ فقالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون. فلم تلب قناة القوم، ولم يخفوا من غلوائهم، بل أعلنوا كفرهم، وصارحوهم بتكذيبهم وقالوا: ﴿إِنَّا بِالذِّئْبِ آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦].

لعل هذه الناقة كانت ضخمة الجسم، متميزة الشكل، فأرهبت أنعامهم، وأخافت إبلهم، فكرهوا لذلك مقامها بينهم، وقد تكون حالت بينهم وبين الماء حين اشتداد الحاجة إليه، إذ كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم.

وقد تكون نوازي<sup>(٥)</sup> الشر قد دفعتهم إلى إخفاء آيته، وطمس معالم حجته، لأنهم رأوها تجذب القلوب نحوه، وتستميل النفوس إليه، فخافوا أن يكثر المؤمنون به، وينتشر أنصاره وتابعوه.

(١) ادلهم الأمر: أي اشتد.

(٢) حزبه الأمر: أهمله.

(٣) الشرب: الماء، والنصيب منه.

(٤) ذروها: اتركوها.

(٥) النازية: حدة الرجل وسورته إلى الشر.



قد يكون هذا أو ذاك، أو كل أولئك قد حملهم على عقرها، ودفعهم إلى قتلها، رغماً من تحذيرهم بالعذاب وتوعدهم بالهلاك إن مسوها بسوء.

ما أظن إلا أن القوم حَسبوا هذه الناقة خطراً جسيماً، وشرّاً مستطيراً، ففكروا طويلاً، وأمعنوا كثيراً، ولا إخالهم إلا هابوا قتلها، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها. وكلما همّوا بها قفلوا راجعين وأدبروا خائبين.

وبقي القوم يَدفعهم الشر، وتمنعهم الرهبة، لا يجزؤ أحدهم على إيذائها، ولا يتقدم واحداً إلى مسها، فاستعانوا بالنساء يبذلن ما يملكن من دلال وإغراء، ويغرين بما فيهن من جمال، والمرأة إذا أمرت كان الرجال طوعَ أمرها، وإذا تمتّ تسابقوا إلى تحقيق أمنيّتها، فها هي ذي صدوق بنت المُحَيّا، ذات الحسب والمال، تعرض نفسها على مصدع بن مهرج، إن هو عقر الناقة، آية صالح البيّنة، وحقّته البالغة، وتلك هي عُنيزة العجوز الكافرة تجاذب قُدار بن سالف إليها، وتعرض عليه إحدى بناتها، ولا تطلب إليه بدلاً، ولا تسأله عطية أو مالاً، إلا عقر الناقة التي تستميل القلوب، وتُشعل جذوة الإيمان وهي مع ذلك تقضّ مضجعهم، وتستأثر بِشربهم، وتنفّر منها أنعامهم.

فصادف هذا الإغواء هوى في نفسهما، ورغبة في فؤادهما، وزادهما بأساً وقوة، وأفاض عليهما إقداماً وجرأة، فسعيا بين القوم يلتمسان مَنْ يؤازرهما، ويبحثان عن مَنْ يُعاضدُهما، فاستجاب لهما سبعة آخرون، وانطلقوا إلى الناقة يرضدونها، وخرجوا يرقبونها، فلما صدرت من وردها، ورجعت عن مائها، كمن لها مصدع، فرماها بسنهم انتظّم عظم ساقها، وابتدرها قُدار بن سالف بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخزّت على الأرض، ثم طعنها في لبتها<sup>(٣)</sup> فنحرها! وأزاحا عن كاهلهاهما همّاً ثقيلاً، وجِملًا عظيماً، ورجعا إلى القوم يزفان إليهم البشري، واستقبلهما الناس كما يُستقبل القائد الظافر، أو الملك الفاتح، وهلّلوا لمقدمهما، ونسجوا لهما أكاليل المدح، وأضفوا عليهما جميل الثناء.

عقروا الناقة، وعَتَوْا<sup>(٤)</sup> عن أمر ربهم، وكشفوا عن ذات أنفسهم، واستخفّوا بوعيده، ﴿ وَقَالُوا يَا سَلِيحُ أَهْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

(١) راجع الألويسي في روح المعاني، وقصص الأنبياء للشيخ النجار ص ٢٨٣.

(٢) العرقوب: عصب غليظ فوق كعب القدم.

(٣) لبتها: موضع القلادة من الصدر.

(٤) عتا: استكبر، وجاوز الحد.

فقال لهم صالح: قد حدّزْتُكم إن أصبتموها بأذى، أو مسّستموها بسوء، ولكنكم قد اجترحتُم الذنب، واقترفتُم الإثم، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب، ويحلّ عليكم في نهايتها العقاب. ذلك وعدٌ غير مكذوب.

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد، ترغيباً لهم في الإنابة إلى الله، وحثاً لهم على الإصاحّة<sup>(١)</sup> إلى دعوته، ولكن الشكوك ما زالت متأصلة في نفوسهم، والأوهام متسلطة على أفئدتهم، فلم تُغنهم النذر، ولم يشبوا إلى رشدهم، بل ظنوا وعيده كذباً وميناً<sup>(٢)</sup>، وتحذيره زوراً وبهتاناً، فتمادوا في استخفافهم، وسألوه أن يعجل بعذابهم، ويأتيهم بما وعدهم، فقال: ﴿يَنْقُورِلِمَ سَسْعَجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَسْعَفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

ولكنهم تَمَادَوْا في الضلال، واستسلموا لنوازي الشر، فقالوا: اطيرنا<sup>(٣)</sup> بك وبمن معك! واجتمع نفرٌ من قومه وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جُنْح الظلام، ويباغتوه وأهله والناسُ نيام، فيوقعوا بهم من غير أن يراهم أحد، فأجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون ذلك سراً مكتوماً، لا يذيعونه ولا يتناقلونه.

يبتؤا له الشر، وأضمرُوا له ولأهله القتل، ظناً منهم أن ذلك يعصمهم من العذاب، ويُنجيهم مما سيحلُّ بهم من عقاب؛ ولكن الله لم يُمهلهم، بل أحبط مكرهم، وردَّ إليهم كيدهم، ونجّاهم مما أرادوا به، وأنقذه والذين آمنوا معه من العذاب، وأنزل بالكافرين عقابه، تصديقاً لوعده، ومظاهرةً لنبيّه، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةَ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] ﴿فَأَصْبَحُوا فِي زِينَتِهِمْ جُنُودًا﴾ [هود: ٦٧].

ولم يَمْنَعهم ما شادوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وافرة، وغرسوا من جنات واسعة، ونحّثوا من بيوت آمنة.

ورأى صالح ما حلَّ بهم، إذ أصبحت جثثهم هامدة، وديارهم خاوية، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه، والحسرة تقطع نياط قلبه، ﴿وَقَالَ يَنْقُورِلِمَ لَقَدْ أَتَفْتَكُمُ رَسُولًا رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

(١) الإصاحّة: الاستماع.

(٢) المين: الكذب.

(٣) تطير من الشيء وبالشيء: تشاءم به.

(٤) قصة الناقة: بعد أن أكثر صالح من دعوة قومه طلبوا منه أن يأتيهم بيينة وأن تكون ناقة تخرج من الصخر. وللبخاري: أن رسول الله لما نزل الحجر في غزوة تبوك: أمرهم ألا يشربوا من آبارها ولا يستقروا منها فقالوا: قد عجنّا واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهرقوا الماء.

## إبراهيم

### إبراهيم وآية البعث (\*)

كان أهل بابل يتعمون برغد العيش ويتفتأون ظلال النعمة، ولكنهم كانوا يخبطون في دياجير الظلام، ويرددون في مهاوي الضلالة؛ فقد نحتوا الأصنام بأيديهم، وصنعوها على أعينهم، ثم جعلوها، أرباباً، ونصبوها آلهة، وعكفوا على عبادتها من دون الله الذي خلقهم، وأسغ عليهم نعمته ظاهرة وباطنة.

وكان نمرود بن كنعان بن كوش قابضاً على زمام الملك في بابل، وحاكماً بأمره مستبداً برأيه. ولما رأى ما يتقلب فيه من نعيم، وما يتمتع به من سطوة الملك وما يحيط به من قوة السلطان، ثم ما أطبق على القوم من جهل، وما ران على قلوبهم من عمه، أقام نفسه إلهاً، ودعا الناس إلى عبادته. ولماذا لا يلزمهم الخضوع له، ويطلب منهم عبادته وتعظيمه، وقد وجد الجهل فاشياً، والعقائد فاسدة، والقوم في ضلال مبين؟! ألم يعبدوا الحجارة الصماء، والتماثيل الجوفاء، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً؟ أما هو فينطق ويفكر ويدرك ويشعر، ويفيض عليهم الخير، ويدفع عنهم، ويستطيع أن يصير فقيرهم غنياً، ويجعل عزيزهم ذليلاً وهو ذو قوة فيهم، وصاحب سلطان عليهم.

في وسط هذه البيئة الفاسدة، وفي بلدة قدام آرام من هذه المملكة وُلد إبراهيم لأبيه آزر، ثم أتاه الله الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره، ووحي ربه أن الله واحد، وأنه المهيمن على الكون، المسيطر على العالم، وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها، وتلك التماثيل التي ينحتونها، لا تُغني عنهم من الله شيئاً، لذلك أزمع الدعوة إلى توحيد الله، وعزم على تخليص قومه من هدة الشرك، وأعد العدة ليشتبهم عن ضلالهم، واتخذ الأهبة لردهم عن غيهم.

وقد كان إبراهيم مُفعم النفس بالإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه، مؤمناً بما أوحى إليه، من بعث الناس بعد موتهم، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً، وثقة ويقيناً. وتطلع

إلى أن يلمس الآية البيّنة على البعث، ويرى الحجّة الواضحة على النشور، فسأل ربه أن يُريه كيف يُحيي الموتى بعد موتهم، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم؟ فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ نُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، قد أوحيت إليّ، وآمنتُ وصدقتُ، ولكنني تأقت<sup>(١)</sup> نفسي للعيان<sup>(٢)</sup>، وامتدت عيني إلى المشاهدة، ليطمئن قلبي، ويزدادَ يقيني<sup>(٣)</sup>.

ولما كان إبراهيمُ يقصدُ إلى أن تطمئن نفسه، ويستقرّ فؤاده، أجاب الله سؤله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير، ويضمّها إليه، ليتعرّف أجزاءها، ويتأمل خلقها، ثم يجعلها أجزاء، ويفرقها أشلاء، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهم إليه، فيأتيه سعيّاً بإذن الله.

فلما فعل صار كلُّ جزء ينضم إلى مثله، وعادت الأشلاء كل في مكانه، وسرعان ما سرت فيها الحياة، ورجعت إليها الروح، وسعت إليه بقدرة الله وسارت إليه بإرادته، وهو يرى آياته البيّنة، وقدرته الباهرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض.

هذه الطيور قد أزحق روحها، ومزق أجسادها بيده، ثم تناثرت أشلاؤها وتفرقت أعضاؤها على عينه، ولما دعاها أقبلت عليه، واجتمعت إليه، ثم تماسكت أجزاؤها واتصل ما تفرقت منها، وعادت إليها الحياة! وما من أحد يرى ذلك ثم يُساوره شك، أو يتخالجه ريب في قُدرة الله على بَعث الموتى من مراقدهم، ونشرهم من قبورهم، سبحانه! إذا أراد شيئاً فلا مردّ له، وهو العزيز الحكيم.

### (\*) إبراهيم يتلطف في دعوة أبيه

كان آزرُ يعبد الأصنام، بل كان ممن ينحتها ويبيعها؛ وهو أقرب الناس إليه وأصدقهم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرهم بإخلاص النصيحة؛ فمن البرّ به أن يهديه سواء السبيل، ثم هو أيضاً من المسوين خلقها والناحتين لها، والداعين إلى عبادتها، إنه لذلك داعيةٌ إنم، ومبعث فتنة، فهدايته قُرْبى إلى الله، واستئصال لبذور الشر، واجتثاث لجذور الضلال.

(١) تأقت: تطلعت.

(٢) عاين الشيء عياناً: رآه بعينه.

(٣) صاحب الدعوة يجب أن يكون إيمانه بصدق دعوته كاملاً وإلا لم يلتف حوله الناس، لذا فإن

الله أرى إبراهيم بعض مظاهر ربوبيته بنفخ الروح في الطيور.

(\*) الزخرف ٢٦ - ٢٨، الأنعام ٧٤، التوبة ١١٤، مريم ٤١ - ٤٨، الأنبياء ٢٥.

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته<sup>(١)</sup>، أو تحقير آلهته، لئلا ينفر منه، أو يُصمَّ أذانه عنه أو يرميه بالعقوق والجحود، بل رتَّب الكلام معه على أحسن اتساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوته، ليستثير عطفه ويمسُّ شِغاف قلبه، ثم سأله عما يدعوه إلى ركونه إلى الأصنام، وعكوفه على عبادتها، مع أنها لا تسمع دعاءه وثنائه، ولا تُبصر خُضوعه وخشوعه، ولا تُستدفعُ في بلاء فتدفعه، أو تُسْتَمْنَحُ شيئاً فتمنحه.

وخاف أن ينصرف عنه استصغاراً لشأنه، وامتهاناً لرأيه، فقال: يا أبتِ، إنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك، وأوتيتُ حظاً من المعرفة لم تُؤتَهُ، فلا تستتكف أن تتابعني، ولا تتخلف عن مسيرتي، وإن كنتُ لا أبلغ شأوك<sup>(٢)</sup>، أو أشارف سنك. ثم توسَّل إليه أن يتبع خطواته، ويسيرَ على هُديهِ، فذلك هو الصراط المستقيم، والطريق القويم.

ثم أراد أن يُزهدَ في أوثانه، ويثأرَ به عن عبادة أصنامهِ، فأبان له أنه بالعكوف عليها، والانقياد لها يعبُدُ الشيطان، ويلتجئ إلى ساحته، وهو الذي عصي الرحمن، وتوعَّد الناس بالإغواء، فهو عدوٌّ لا يُرشد إلى خير، ولا يبغي إلا الهلاك والشر. ثم خوَّفه سوء العاقبة وشرَّ المصير، ولكنه لم يصرِّح بأن العذاب لاحقهُ، والعقاب مُحيقُ به، برأ به، وتادباً معه، واستعطافاً له.

فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه أبى آزرُ متابعة رأيه، وأصر على بُنوته، وأنكر حَدْبَهُ عليه وشفقته به، وتجهَّم<sup>(٣)</sup> له، وقال محتقراً لشأنه، مُتَعَجِّباً من جرأته، منكرأ عليه نصيحته: أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم! لئن لم تُننِّه عن زَيْغِكَ<sup>(٤)</sup>، وترجع عن غِيكِ، وتثبَّ إلى رشدك لأرجمك بالحجارة، ولأرميتك بهُجر القول، فاحذر سورة غضبي، وتجنَّب إثارة سخطي، واهجرني ملياً، فليس لك في داري مكان، ولن تجد في قلبي أثارة من عطف، أو بقية من إحسان.

قابل إبراهيم تهديد آزر بصدر رحب، وتلقى وعيده بنفس مطمئنة، ثم أجابه بما يُنبئ عن بَرِّه به، وإخلاصه النصيح له، وقال: ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾

(١) كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يمهّد لدعوته بالإكرام المادي، والأمثلة كثيرة، منها مثلاً: أنه أوَّلَم لعشيرته قبل أن يدعوهم.

(٢) شأوك: شأنك.

(٣) تجهّم: استقبله بوجه عبوس.

(٤) الزَيْغ: الضلالة.

إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَفِيًّا<sup>(١)</sup> وَأَعْتَزَلْتُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿مريم: ٤٧ - ٤٨﴾.

وودّعه وانصرف، وهو كاسف البال، محزون الفؤاد، لأن دعوته لم تجد أذناً مصغيّةً عند أبيه، واعتزله لثلاثي يكون مُظاهراً له على الكفر، ومشايعاً في الشرك.

### إبراهيم يحطم الأصنام<sup>(\*)</sup>

خاب رجاء إبراهيم حين أنكر عليه أبوه دعوته، وحز في نفسه أن يدعوه إلى الخير فلا يستجيب دعاءه، وأن يهديه إلى الحق فيبرأ منه وينأى عنه، ولكن هذه الغلظة التي بدت من أبيه، وذلك الجفاء الذي ظهر منه لم يقعهده عن متابعة دعوته إلى الحق، ولم يثنيه عن التكري على قومه إشراكهم بالله، وعبادتهم الأصنام من دونه، بل أزمع أن يمحو هذه العقائد الفاسدة، ولو ناله في ذلك أذى كثير، ولحقه شرّ مستطير.

كان إبراهيم ذكي الفؤاد، صائب الرأي، ثاقب الفكر، فرأى أن الحجّة القولية، والبرهان اللفظي، وإن وضحاً وضوح الصبح، لا يثبتان نبأً حسناً في هذه الأرض الجزز<sup>(٢)</sup>، فأراد أن يشرك أبحار القوم مع بصائرهم، وحواسهم مع أفئدتهم في تفهّم عقيدته، والوقوف على حقيقة دعوته، علّمهم يثوبون إلى رشدهم، ويرجعون عن غيهم.

انظر إليه يستدرجهم إلى مُجادلتهم ويستنزلهم إلى مجال محاورته، فيسألهم: ماذا تعبدون؟

أفاضوا الحديث في شأن أصنامهم، وأطنبوا في جوابهم، مُعتزّين بعبادتها، معتدين بالخضوع لها، ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَتَطَّلُ لَهَا عَنكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

ولقد كان إبراهيم ملهّماً في سؤاله، موقفاً في استفساره، فهو كالطبيب حاول أن يتحسس الداء، ليصف الدواء، أو كالقاضي أراد أن يحملهم على الإقرار بارتكاب الجرم، والاعتراف باقتراح الذنب، وهو في ذلك يُضيق دائرة الجدل ويجمع أشتات الخلاف في مسألة واحدة، فإذا أوهن أساسها، وقوض أركانها، وأوضح بطلانها فقد ألزمهم الحجّة، وحينئذ لا يجدون مَحِيصاً من أتباعه، ولا مناصاً من طاعته.

(١) حفيّا: بليغاً في الكرم.

(\*) الأنبياء ٥٢ - ٦٨، الشعراء ٦٩ - ١٠٢، والعنكبوت ١٦ و ١٧ و ٢٤.

(٢) الجزز: الأرض التي لا تثبت.

كَرَّ عَلَيْهِمْ يَنْقُدُ زَائِفَ آرَائِهِمْ، وَيُبَيِّنُ فَاسِدَ اعْتِقَادِهِمْ، فَقَالَ: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِمْ بِالْعِبَادَةِ، وَيُبْصِرُونَكُمْ حِينَ تَقْدَمُونَ لَهُمْ الطَّاعَةَ؟ وَهَلْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟

ما أقبِح التقليد، وما أعظم كَيْدَ الشيطان الذي استذَرَجَهُمْ إِلَى أَنْ حَاكُوا آبَاءَهُمْ فِي الْكُفْرِ، وَجَارَوْهُمْ فِي الشَّرْكِ، وَزَيَّنَ لَهُمْ عِبَادَةَ التَّمَائِيلِ، فَعَفَرُوا<sup>(١)</sup> لَهَا جِبَاهَهُمْ! وَمَا أَشَدَّ جَهْلَهُمْ حِينَ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ! بَلْ جَدَّوْا فِي نَصْرَةِ مَذْهَبِهِمْ وَجَادَلُوا أَهْلَ الْحَقِّ عَنْ بَاطِلِهِمْ، وَمَا أَوْهَى مَا نَطَقُوا بِهِ! وَمَا أَجَابُوا بِهِ! فَقَدْ قَالُوا: ﴿وَجَدَّوْا آبَاءَهُمْ تَاهَلًا عَيْنِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

أَفْرَأُوا أَنهَا لَا تَسْمَعُ دَاعِيًا، وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ مَا عَبْدُوهَا إِلَّا اقْتِدَاءً بِأَسْلَافِهِمْ، وَاتِّبَاعًا لِآبَائِهِمْ، فَجَعَلُوا مَا دَرَجَ عَلَيْهِ قَوْمُهُمْ، وَمَا اهْتَدَى إِلَيْهِ قَدَمَاؤُهُمْ دَلِيلًا عَلَى اسْتِمْسَاكِهِمْ بِالْحَقِّ، وَرَأَوْا قِدَمَهَا بِرَهَانًا عَلَى اسْتِحْقَاقِهَا لِلْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، فَكَانُوا بِذَلِكَ عَنِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ نَائِينَ، وَعَنِ التَّفَكِيرِ السَّلِيمِ بَعِيدِينَ.

قال إبراهيم: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكًا وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]، قالوا: ائْتَقِصُّ آلِهَتِنَا، وَتَسُبُّ أَصْنَامَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ؟

قال إبراهيم: إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ ذَلِكَ جَادًّا لَا هَازِلًا، فَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْدِينِ الْقَوِيمِ، وَأُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ بِالْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ الْخَلِيقَ بِالْعِبَادَةِ هُوَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُدَبِّرُ شَأُونَهُمَا، وَالْقَائِمُ عَلَى أُمُورِهِمَا. أَمَّا هَذِهِ الْأَصْنَامُ فَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا نَفْعًا وَلَا ضُرًّا، وَهِيَ حِجَارَةٌ صَمَاءٌ، وَخُشْبٌ مُسْنَدَةٌ<sup>(٢)</sup>. فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَجْتَنِبُوا عِبَادَتَهَا، وَتَنَازُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْخُضُوعِ لَهَا، وَاحْذَرُوا فِتْنَةَ الشَّيْطَانِ وَإِغْوَاءَهُ، وَفَكَّرُوا بِعُقُوبَتِكُمْ، وَانظُرُوا بِأَبْصَارِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

على أني قد سبقتكم إلى البُعد عن عبادتها، وبادرتُ قبلكم إلى النَّأْيِ<sup>(٣)</sup> عنها، فلو كانت تضرُّ لضررتني، أو تملك شيئاً لنا لت مني.

ثم أظهر لهم بديع صنع الله، وباهر قدرته، ليتبينوا أثر حكمته، ويلمسوا الفرق الواضح والبيّن الشاسع بين ما يدعوهم إليه، وما يعبدون من أصنام لا تغني عنهم شيئاً، فقال:

(١) عفر وجهه: مرغه ودسه في التراب.

(٢) كل شيء أسندت إليه شيئاً فهو مسند.

(٣) النَّأْي: الابتعاد.

أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ! ﴿٧٧﴾ وَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي  
إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي  
يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجَيِّبُنِي وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٨٢].

ولما لم تنفعهم الحجة، ولم تغنهم الثُّدُر، وصدّوا عن سبيله، وأعرضوا عن  
دعوته، ورأى إبراهيم أن أذانهم صماء، وقلوبهم غُلف<sup>(١)</sup>، وأنهم لا زالوا متعلقين  
بأوهامهم، متمسكين بعبادة أصنامهم بيئت الشر لها، وأقسم ليكيدها حتى يروا أنها  
لا تضر ولا تنفع، ولا تدفع الأذى عن نفسها، فتدزأه عنهم، ولا تلحق بهم ضرراً  
إذا تركوا عبادتها، أو تكسبهم خيراً إذا عكفوا عليها، وأخلصوا لها.

وقد كان من عادة أولئك القوم أن يقيموا عيداً لهم في كل عام، يقضون أيامه  
خارج المدينة، يُهرعون إليه، بعد أن يضعوا طعاماً كثيراً في بيت العبادة، حتى إذا  
ما رجعوا من عيدهم أكلوه فرحين، وأقبلوا عليه مغتبطين، فقد باركته الآلهة،  
وأضفت عليه الخير.

لما همّوا بالذهاب إلى عيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم، وسألوه أن يشاركهم في  
الخروج إلى ظاهر مدينتهم، فأبى أن يصحبهم، وامتنع عن الانتظام في سلكهم،  
وقد عقد العزم على أن يهدم صرح آلهتهم، ويقوِّض عرش معبوداتهم، وأدعى  
العلة، وتظاهر بالسقم، ولم تكن به علة ولا مرض، ولكنه كان سقيم النفس،  
كاسف البال، يتقطع فؤاده حزناً على إشراك قومه، ويتميز غيظاً لأنهم لم يُلبّوا  
نداءه، ولم يصيخوا إلى دعوته.

ولما كانوا يخشون الداء، ويهابون الوباء تَوَلَّوْا عنه ولم يستمسكوا بدعوته،  
بل أظهروا الرضا عن تخلفه، والافتناع بحجته، وخرجوا إلى عيدهم مسرورين.

ها هي ذي المدينة قد خَلَّتْ من أهلها وسكانها وها هو ذا بيت العبادة قد  
أقفر حتى من كهنته وسدنته، فقد خرجوا جميعاً إلى ظاهر المدينة، ولم يتخلف  
عن اللحاق بهم إلا إبراهيم.

ولما خلا الجوُّ من العيون التي تترصده، واختفت الأبصار التي كانت تترقبه  
ذُلف<sup>(٢)</sup> إلى أصنامهم، ودخل إلى بيت عبادتهم، فوجد باحة قد اكتظت بالتمائيل،  
وانتشرت في أرجائها الأصنام، ورأى الطعام متراكماً تحت أقدامها، فخاطبها متهكماً  
بها، محتقراً لشأنها: أَلَا تَأْكُلُونَ؟ ولم يجد منهم إصغاء ولم يسمع منهم جواباً،

(١) الغُلف: جمع أغلف والمراد أن قلوبهم كأنما غشيت بغلاف فهي لا تعي.

(٢) ذُلف: مشى وقارب الخطو.



فقال: ما لكم لا تنطقون؟ وأتى للحجارة أن تنطق، وللخشب المسندة أن تعقل! .  
 لا إخاله<sup>(١)</sup> الآن إلا مُزدرياً لقومه، محتقراً تلك الأصنام التي نصبوها آلهة،  
 فصار يَلطمها بيده، وَيركلها برجله<sup>(٢)</sup>، وأخيراً تملكته سَوْرَة الغضب لدينه،  
 واستولت عليه شِرة الغيظ لربه، فتناول فأساً، وهوى عليها، يكسرها ويحطم  
 حجارتها. وما زال بها حتى جعلها جُذاً<sup>(٣)</sup>، وصيرها حُطاماً، إلا كبيرهم فإنه  
 أبقى عليه، لِيَزجِعوا إليه، ويسألوه عَمَن انتهك حرمة بيتهم، وكسر أصنامهم، حتى  
 إذا استبانوا أنها لا تنطق ولا تعقل، ولا تدفع عن نفسها مَن أرادها بسوء، تابوا إلى  
 رشدهم، ورجعوا عن مكابرتهم.

تركها حجارة مبعثرة، وخُشباً متناثرة، وانصرف عنها، وهو مطمئن البال،  
 قريح العين، لاستئصاله جذور الشر، وطمسه معالم الشرك. وأقام يرقب ما يبدو  
 منهم، ويتتظر أثر فعلته في نفوسهم، وأخذ العُدّة لما قد يرمونه، أو يجادلونه فيه .  
 ورجعوا من عيدهم، ورأوا ما حلّ بمعبوداتهم، فبُهِتوا لِهَوْلِ ما رأوا،  
 وسُقِط<sup>(٤)</sup> في أيديهم عندما وجدوا الآلهة مُتَهَشِّمة، والنُصُب مكسرة! وتساءلوا:  
 ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ؟ [الأنبياء: ٥٩].

قال قائلهم: سمعنا فتى يُقال له إبراهيم: يذكر آلهتنا ويعيب علينا عبادتها  
 ويزدريها ويحتقرها، فهو المجترئ عليها، والمحطم لها.

عرفوا إذا مَن تطاول على آلهتهم، واعتدى على معبوداتهم، فاعتزموا أن  
 يوقعوا به من العقاب بمقدار ما ارتكب من وِزر، وما اجترم من ذنب، وثارَت ثائرةُ  
 القوم، ونادوا بأن تأتوا به على أعين الناس، ليشهدوا عليه بمقالته، ويرَوْا ما يَحُلُّ  
 به من القصاص.

ولا شك أن اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمينية إبراهيم التي طالما  
 جاشت بها نفسه، ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان ما يعتقدون ويريهم البرهان  
 على فساد ما هم عليه عاكفون.

تقاطرت الوفود، وتكاثرت الجموع، كلُّ يرغب في القصاص من إبراهيم،  
 ويودُّ أن يرى عقابه، ويُشاهد عذابه، ففي ذلك إرضاء لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر

(١) لا إخاله: لا أحسبه.

(٢) الركل: الضرب برجل واحدة.

(٣) جذ الشيء: فهو جذاذ - بضم الجيم وكسرها -: ما كسر منه.

(٤) سَقَط في أيديهم: ندموا.

منه، وإشباع لرغبتهم المتوثبة للفتك به، ثم جاؤوا به وسط هذا الجمع الزاخر، وابتدأوا محاكمته أمام هذه الجماعات التي تحرق عليه الأرم<sup>(١)</sup> حنقاً وغيظاً، وقالوا له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا لَهَيْتَنَا يَا إِبْرَاهِيمَ؟﴾ [الأنبياء: ٦٢].

ها هي ذي الفرصة قد سنحت لبلوغ مآربه، وللوصول إلى مقصده، فسار بهم في الجدال ناحية أخرى، وجرّهم بأسلوبه الحكيم إلى طريق لم يقصدوه، ليُلزِمهم الحجّة، فيرجعوا إلى صوابهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فقال: ﴿بَلْ فَعَاذُكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَاقْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

يا لها من حجة دامغة، قد صفعهم بها صفعة نبهتهم من غفلتهم، وأيقظتهم من غفوتهم! فأقبل بعضهم على بعض يتلامون، وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فتركتموها لا حافظ لها، ولا رقيب عندها.

ثم أدركتهم الحيرة، وعقد الحصر<sup>(٢)</sup> ألسنتهم، فأطرقوا برؤوسهم مفكرين، واستجمعوا شارد عقولهم جامدين، ثم قالوا: لقد علمت يا إبراهيم أنها لا تردُّ سؤالاً، ولا تُحيرُ جواباً<sup>(٣)</sup>، فكيف تأمرنا بسؤالها، وتطلب إلينا الاستشهاد بها؟! أقرّوا بعجزها عن الإصغاء إليهم، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجري حولها، أو الشعور بما يقع عليها، وجزدوها من القدرة على أن تصدّ المعتدين، أو تردّ كيد العادين.

فأخذ يبيّنهم على جهلهم، ويتأقّف من ثباتهم على الباطل بعد وضوح الحق، وهو متغيّظ من غفلتهم ومكابرتهم بعد انبلاج الصبح. ثم حضّهم على الرويّة فيما ينطقون، والتفكير فيما يدعون، فقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

كانت على أعينهم غشاوة<sup>(٤)</sup> فلا يبصرون، وفي آذانهم وقْر<sup>(٥)</sup> فلا يسمعون، وقلوبهم غُلفٌ فلا يعقلون، فلما غلبوا على أمرهم، وخافوا افتضاح حالهم، ولم تبقَ لهم حجة أو شبهة، عدلوا عن الجدال والمناظرة، وعمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم، ويخفون باطلهم، وقالوا: ﴿حَرْفُهُمْ وَأَنْصُرُوا إِلَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

(١) حرق نابه يحرقه: سحقه حتى تسمع له صوتاً. والأرم: الأضراس. ويقال: فلان يحرق عليك الأرم، إذا كان مغيظاً.

(٢) الحصر: العي.

(٣) يقال: كلمته فما أحرار جواباً، أي ما ردّ جواباً.

(٤) غشاوة: غطاء.

(٥) الوقر: الثقل في الأذن، والصدم.

## إبراهيم يُلقى في النار (\*)

أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق، ولا ذنب له إلا أن قال: رَبِّي اللَّهُ، ولا جُرم ارتكبه إلا نَقْمَتُهُ على أصنامهم، وإنكاره عبادة أوثانهم، ولكن إعلان التوحيد والجهر بدعوة الناس إليه، يُقَضُّ مضاجع الطغاة ويكدر صفو عيشتهم، لأنه يخلص الناس من رِبْقَةِ استعبادهم، وتتكشف به خبايا أراجيفهم، فيحذر الناس الوقوع في شراكهم، وينفضُّون من حولهم، ويهبُّون لدفع الحَنيف عنهم، وفي ذلك ذهاب سلطانهم، والحد من طغيانهم.

جاش خاطر إحراقه في نفوسهم، ولكن كيف يحرقونه؟ لا بد أن يضلوه ناراً حامية، تعادل لظى الحقد المتأجج في صدورهم. إن شرارة تكفي لإحراق مدينة بأسرها، ولكنهم أبوا إلا أن تكون ناراً هائلة، وشرعوا يجمعون حطباً من هنا وهناك، وجعلوا ذلك قرباناً لألهتهم، وبرايمعبوداتهم، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت: إن عوفيت لتجمعن حطباً لحريق إبراهيم!

مكثوا مدة يجمعون الحطب، حتى تراكت أعواده، وضاق المكان بأكوامه، ثم ابتنوا حظيرة واسعة، وأشعلوا النار فيها، فاضطرت وتأججت واندلع لسانها، وعلا لهيبها، وسطع ضوؤها، واحمر جمرها، ثم قيّدوه ورمّوا به فيها، وهم له كارهون، ولعذابه مغتبطون!

ألقي في النار المستعرة، وقلبه بالإيمان مُفَعَّم، وثقته بالله شديدة<sup>(١)</sup>، وصلته به وثيقة، وأمله في النجاة وطيد، لذلك لم ترغزعه<sup>(٢)</sup> النكبات، ولم تنزله الحوادث، ولم ترغّه النار، بل أقبل عليها بصدر رحب، ونفس مطمئنة.

إنه الآن في جوف النار، يخفيه دخانها، ويحتويه لهيبها، ويغلب على صوته زفيرها وشهيقها، فماذا فعلت النار بإبراهيم؟

إنها أحرقت منه الوثاق<sup>(٣)</sup>، فصار حراً طليقاً، وأذهب الله عنها جدتها، وصعد منها حرارتها، وحفظه من لظاها، وأنقذه من سعيرها، وجعلها عليه برزداً وسلاماً.

(\*) الأنبياء ٦٨ - ٧٣، الصفات ٩٧ - ٩٩، العنكبوت ٦، ١٧، ٢٤.

(١) عن أبي كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك المُلْك لا شريك لك، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة فقال: أما إليك فلا قال فأسأل ربك، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي!

(٢) ترغزه: تغيره وتهزه.

(٣) الوثاق: الحبل أو الشيء الذي يوثق به، وتكسر واوه.

ولما خبا صَوُوها، وانقشع دخانها، وسكن أوارها<sup>(١)</sup> وجدوه معافى سليماً، ورأوه حراً طليقاً. فعجبوا لحاله، وشدهوا لنجاته، وانصرفوا عنه ناقمين، وتوازوا عن أعين الناس خجلين.

وهكذا تمثلت الآية الكبرى، والمعجزة العظمى، غالبوه بالجدل فغلبوا على أمرهم، وفزعوا إلى القوة، فرّد كيدهم في نحورهم، ولجأوا إلى النار، فنزع الله منها طبعها، ودفع عنه أذى حرّها، وأرادوا به كيداً فجعلهم الله من الأخسرين. بهرّ الناس بتلك الآية الكبرى، حتى أوشكوا أن يُسلموا زمامهم له، ويُلْقُوا قيادهم إليه، وكادوا يُجمِعون أمرهم على اتباعه، ولكن بعضهم أثر ما يتقلب فيه من نعيم الحياة وسؤدديها، وخاف غيرهم أن ينالهم أذى الكافرين والملحدين، لذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل، كتموا إيمانهم عن القوم، خوفاً من الطغاة، وحثراً من الموت.

### إبراهيم ونمرود<sup>(\*)</sup>

أما الملك نمرود فقد انتهى إليه شعاعٌ من ذلك النور الذي بهر به قومه، واقتحمت عليه قصره موجةً من هذا التيار الجارف، وترامى إليه خبرُ إبراهيم<sup>(٢)</sup> ومعجزته الخالدة، فظنى طغيانه، وزاد بهتانته. أليس هو من آلهتهم وإبراهيم يكيل القدح<sup>(٣)</sup> فيها، ويعيب على القوم عبادتها؟

فدعا إبراهيمَ إليه، فلما مثل بين يديه صوّب إليه نظره، وقال: ما هذه الفتنة التي أيقظتها، وتلك النار التي أشعلتها؟ وما هذا الإله الذي تدعو إليه؟ هل تعرف ربّاً غيري، وإلهاً يستحق العباداة دوني؟ من ذا الذي يعلو مقامه عليّ، ويرتفع قدره فوق قدري؟ ألا تراني أصرف الأمور وأدبرها، وأنقضها وأبرمها؟ فأمرني نافذ، وحكمي قاطع. عيونُ الناس متطلعة إليّ وآمالهم متعلقة بي، فهل تجد لي مخالفاً، أو ترى عليّ خارجاً؟ فلماذا خرجت على إجماعهم، وانتقضت على معبوداتهم؟ ما ربك الذي تدعو إليه، ومَن إلهك الذي تحثّ على عبادته؟

فأجابه إبراهيم في ثبات جنان، وطلاقة لسان، وقال: ربي الذي يحيي ويميت، فهو وحده الذي يمنح الحياة ويسلبها، وينشئ الخلق ويفنيه، ويبدع

(١) أوارها: حرّها.

(\*) البقرة: ٢٥٨.

(٢) لا بدّ أن النمرود كان على علم بدعوة إبراهيم ومن المخططين لحرقه.

(٣) العيب أو الذم.

العوالم الحية ويُميتها. فألقمه الحجر، وأفحمه بالحجة. ولكن نمرود أخذته العزة بالإثم؛ فكابروا وجادلوا بالباطل، وقال: أنا أحيي من أشاء بالعفو عنه؛ فينعم بالحياة بعد أن تمثل له شبح الموت، ويتنسم ريح الحياة بعد أن تقطعت نفسه حشرات على الحرمان من متاعها، وأوصدت في وجهه أبواب الأمل فيها، وأنا كذلك أميت من أشاء بأمرى، وأقضي عليه بحكمي، وسرعان ما تُزَهَق روحه، ويُحرم حياته؛ فلم يأت ربك بذعاً ولم يفعل عجباً.

وارب<sup>(١)</sup> نمرود في جواره، ومارى في جداله، إذ نأى عما ذكره إبراهيم من إنشاء الحياة وخلقها، ومنحها وسلبها، ولجأ إلى المراوغة، ولكن أين يجول هذا الغرّ الجاهل؟ وكيف يستطيع الثبات أمام عزم النبوة الباهر؟

أجابه إبراهيم بقوله: إن الله سخر الشمس، وجعل لها نظاماً لا تجيد عنه، فهو يأتي بها من المشرق، فإن كنت كما تدعي قديراً، وكما زعمت إلهاً، فغير هذا النظام الذي جرت به سنة الله، واقتضته إرادته؛ وأت بها من المغرب.

فبهت الذي كفر؛ إذ بان ضلاله، وظهر كذبه ووضح بهتان، وبدت جهالته؛ فقد قرعته الحجّة البالغة، وصدمته الآية البيّنة، وخاف أن يُثَلَّ عرشه، وتُدكَّ قوائم ملكه، فصار إبراهيم أبغض الناس إليه، وأشدّهم عداوة له، ولكن ما يصنع به، وقد أتى بعقيدة جديدة دَعَمها بمعجزة باهرة؟

ما أظنه إلا أوجس خيفة منه، وخاف أن يكتسح إبراهيم ملكه، ويقوِّض عرشه، إن أعلن له العداة، أو كشف له عن البغضاء؛ لذلك أبقي عليه، وهو يتربص به الدوائر، وينتظر أن تحين له الفرصة للانتقام منه. ثم بثّ غيونه ليحذروا الناس اتباعه، ويبعدوهم عن حظيرته، فكان إبراهيم يرى من التضييق عليه والإضرار به ما يراه المصلحون في كل أمة؛ فضاقت نفسه بالمقام بينهم، وارتأى الهجرة عنهم، وفرّ بدينه من تلك الأرض الجرداء التي لم يزدهر بها نبته، ولم يُثمر فيها غرسه وهاجر إلى أرض قد تنمو فيها دعوته، ويخصب فيها بذره، وترك وطنه وقومه بعد أن حققت عليهم كلمة العذاب، إذ لم يؤمنوا بعد إذ جاءهم الهدى، وكفروا بعد أن قامت البيّنة، وسار حتى حط رحاله بفلسطين.

### إبراهيم يهدي قومه عن طريق الحوار (\*)

ألقي إبراهيم عصاه في حرّان، فازاً بدينه، تاركاً وطنه وقومه، علّه يجد في غيرهما آذاناً مُصغية، وعقولاً ناضجة، ونفوساً طاهرة، ونزل بين ظَهْرَانِي أهل هذه

البلاد، وسزعان ما تبيّن ضلالهم، وعرف زيعهم، إذ وجدهم يعبدون الكواكب من دون الله، فأراد أن يبيّهم على خطأهم ويرشدهم إلى فساد اعتقادهم. فاختر لذلك سبيل العقل، وطريق الحجّة، حتى إذا ما استبانوا الحق، وتبيّنوا الرشد سلخوا سبيله، وأضغوا إلى ندائه، وأتبعوا دعوته.

جنّ عليه الليل، وستره الظلام، فرأى كوكباً مما يعبدون، وهو بين جماعة منهم يتحدثون ويسمّرون، فجاراهم في زعمهم، وحكى قولهم، فقال: هذا ربي!

طريق في الحوار حكيم، ومنهج في الكلام قويم. انظر إليه يحاكيهم في اعتقادهم، ولا يعلن مخالفتهم، أو يسفّه أحلامهم، ويحقّر معبوداتهم، فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله، وتفهمهم لحجّته، ثم لم يلبث أن كرّ على قولهم ينقضه، ورجع إلى مذهبهم يزيّفه، ولكن من طريق خفيّ، ينبئ عن سداد رأيه، ونفاذ بصيرته! فلما أقل هذا الكوكب وغاب هذا النجم تحت الأفق، تفقده فلم يجده، ويحث عنه فلم يره، فقال: لا أحبّ الآلهة المتغيّرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان. ثم عرض بالهتهم، وتنقّص معبوداتهم، وأعلن بغضه لها، وتبرّأه من حُبّها.

ولما رأى القمر بازغاً، وهو أسطع نوراً من ذلك الكوكب، وأكبر منه حجماً، وأكثر نفعاً، قال: هذا ربي، استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم.

فلما أقل هذا أيضاً واحتجب؛ واختفى نوره واستتر؛ قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]؛ بياناً لهم أن الله هو مصدر الهداية ومانح التوفيق عند الشكّ والحيرة.

جاوز التعريض إلى ما هو أفصح منه، لما أنس منهم سكوتاً على بغضه لآلهتهم وإغضاء عن ذمّه معبوداتهم، وأبان أنه غير مطمئن النفس، مُبْتَلِي الفكر، لم يهتد بعد إلى طريق الحق، ولم يقف على سبيل الرشد. وطلب من الله أن ينقّده من ذلك الضلال البعيد، ويُنير له هذا الليل البهيم؛ فهذا الذي يعبدونه مخلوق مسير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً.

ثم رأى الشمس بازغة يتألق نورها؛ وينبعث منها شعاعها؛ وقد كست الدنيا جمالاً وملاّت الأرض حياة وبهاء، وأرجاء الكون نوراً وضياء، فقال: هذا ربي، هذا أكبر من كل الكواكب، وأكثر نفعاً، وأجلّ شأناً، فلما أقلت كغيرها، عن عبّادها رماهم بالشرك، ووسمهم بالكفر، وقال: إني بريء مما تشركون. فهذه

الكواكب التي تنتقل من مكان إلى مكان؛ وتحوّل من حال إلى حال، لا بدّ لها من خالق يدبّرها ويحرّكها، وإله يُطلعها ويسيرها، فهي لا تستأهل عبادة ولا تستحق إكباراً ولا تعظيماً.

وبعد أن أعلن انصرافه عن آلهتهم، وبرأته من معبوداتهم، أفاض في الحديث عن من يخصه بخضوعه، ويتوجّه إليه بعبادته؛ فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(١)</sup> [الأنعام: ٧٩].

حاجّة قومه في ذلك الذي فجأهم به، ودعاهم إليه، عساه أن يرجع إلى عقيدتهم، أو يرتدّ عن ادعائه إشراكهم، فقال: أتحتاجوني<sup>(٢)</sup> في الله وقد هداني إلى الصراط المستقيم، وأرشدني إلى الطريق القويم؟!

خوفوه بطش آلهتهم، وحذّروه أن تصيبه بسوء، أو تُلحق به أذى إذا نكل عن عبادتها، وتجانّف عن الخضوع لها، ولكنه لم يستمع إلى نصحهم، ولم يستجب إلى دعائهم. بل تعجب أن يخوفوه شيئاً مأمون الجانب، لا يملك ضراً ولا نفعاً، وهم لا يخافون إشراكهم بالله ما لم ينزل به عليهم سلطاناً، وقد كان عليهم أن يحذروا الله ويخافوا عقابه، فقد ارتكبوا إنمأً كبيراً، واقترفوا ذنباً عظيماً، فجزأؤهم - إن استمروا على كفرهم - جهنّم، وبئس المصير.

### إبراهيم في مصر

عمّ القحط، وشمل الجَدْبُ والغلاء، وضاقَت سُبل العيش في الشام، فرحل إبراهيم إلى مصر، تصحبه زوجته سارة، وهبط أرضها حين كان القابض على زمامها والمسيطر على أمورها، أحد ملوك العرب العماليق، الذين استبدوا بالملك آونةً من الدهر.

وكانت سارة ذات جمالٍ باهر. فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وأغراه بجمالها، وزين له حسنها، وحبّب إليه الاستحواذ عليها، فصادت هذه المقالة رغبةً في نفسه، وهوى في فؤاده. فدعا إبراهيم إليه وسأله عما يربطهما من سبب، وما يصل بينهما من قرابة، ففطن إبراهيم إلى مآربه، وعرف مقصده، وخاف إن أخبره أنها زوجته أن يبيت الشر له، ويعمل على الإيقاع به، لتخلّص له من دونه ويستأثر بها من بعده.

فقال له: هي أختي - والأختُ كما تكون في النسب تكون في الدين واللغة والإنسانية.

(٢) أتحتاجوني: أتجادلوني.

(١) فطر: خلق، حنيفاً: مخلصاً.

فَهَمَ الْمَلِكُ أَنهَا لَيْسَتْ بِذَاتِ بَغْلٍ<sup>(١)</sup>، فَأَمَرَ أَنْ يَذْهَبُوا بِهَا إِلَى قَصْرِهِ، وَيَسْوَقُوهَا إِلَى مَخْدَعِهِ. وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى زَوْجَتِهِ، فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ، وَطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَكُونَ مُصَدِّقَةً لِقَوْلِهِ مُؤَكَّدَةً لَخَبْرِهِ، ثُمَّ أَسْلَمَهَا لِعَيْنِ اللَّهِ تَحْرُسَهَا، وَعِنَايَةَ اللَّهِ تَرَعَاهَا وَتَحْفَظُهَا.

أَدْخَلَتْ إِلَى قَصْرِهِ، وَزُيِّنَتْ بِفَاخِرِ الثِّيَابِ وَثَمِينِ الْحَلِيِّ وَلَكِنَّمَا لَمْ تَعْبَأْ بِهَذَا الزَّخْرَفِ الْبَرَّاقِ، وَلَا بِذَلِكَ الْبَدِّخِ الْخِلَابِ، وَلَمْ تُغْنِ بِمَا أَحْيَطَتْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ، وَمَا رَأَتْ مِنْ سَعَةِ السُّلْطَانِ وَبَسْطَةِ الْعَيْشِ، وَلَمْ يُنْسِبْهَا كُلُّ ذَلِكَ الْوَفَاءَ لَزَوْجِهَا وَالِاسْتِمْسَاكَ بِدِينِهَا، وَجَلَسَتْ مَكْتَتِبَةً حَزِينَةً، بَلْ انْتَبَذَتْ مَكَانًا قَصِيًّا.

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَيْهَا، وَرَأَى مَا بِهَا مِنْ لَوْعَةٍ وَأَسَى، حَاوَلَ أَنْ يَخْفِفَ مِنْ حَزْنِهَا، وَيُؤَيِّسَ وَحَشْتَهَا، وَيُزِيلَ اِكْتِتَابَهَا، فَجَفَلَتْ. وَانْتَكَسَ<sup>(٢)</sup> يَحْسُ اضْطِرَابًا فِي نَفْسِهِ، وَوَجِيبًا<sup>(٣)</sup> فِي قَلْبِهِ. وَأَرَادَ أَنْ يَعِيدَ الْكُرَّةَ، فَعَادَ إِلَيْهِ اضْطِرَابَهُ، وَعَاوَدَهُ انْتِكَاسَهُ، فَأَوْجَسَ خَيْفَةً مِنْهَا وَأَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، وَغَطَّ فِي نَوْمِهِ. وَرَأَى رُؤْيَا اسْتِبَانٍ بِهَا وَجَعَةَ الْحَقِّ، وَتَبَيَّنَ مِنْهَا سَبِيلَ الرُّشْدِ، وَعَرَفَ أَنَّ لَهَا بَعْلًا، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلِي سَبِيلَهَا، وَيَتْرَكَهَا وَشَأْنَهَا، وَأَلَّا يَمْسُهَا بِسُوءٍ، أَوْ يَقْرِبَهَا بِإِثْمٍ.

فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ نَوْمِهِ رَأَى أَنَّ لَا مَنَاصَرَ مِنْ إِطْلَاقِ سَرَاحِهَا، فَوَهَبَهَا هَاجِرًا، خَادِمَةً لَهَا، وَأَسْلَمَهَا إِلَى زَوْجِهَا.

فَهَلْ تَرَى مِحْنَةً أَشَدَّ، وَفِتْنَةً أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ؟ رَجُلٌ غَرِيبٌ يَقْدُ إِلَى بَلَدٍ يَسْعَى فِيهِ لَطْلُبَ الرِّزْقِ، فَتَسَلَّبَ مِنْهُ زَوْجُهُ، وَيَفْرَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ!! وَلَكِنِ الَّذِي نَجَّى إِبْرَاهِيمَ مِنْ حَرِّ النَّارِ وَسَعِيرِهَا، حَفَظَهُ مِنْ وَصْمَةِ الْعَارِ، وَنَجَّاهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ. أَقَامَ إِبْرَاهِيمُ بِمِصْرَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُقِيمَ، وَكَانَ وَاوَدَعَ النَّفْسَ، دَمِثَ الْخُلُقِ، لَيْنَ الْعَرِيكَةِ، طَوِيلَ الْأَنَاءَةِ، دَوُوبًا عَلَى الْعَمَلِ، لِذَلِكَ كَثُرَ مَالُهُ وَنَمَتْ أَنْعَامُهُ، وَارْتَفَعَ ذِكْرُهُ. وَلَكِنِ الْقَوْمَ حَسَدَوْهُ عَلَى مَكَانَتِهِ، وَتَقَمَّوْا عَلَيْهِ سَعَةَ نِعْمَتِهِ، وَسَوَّلَتْ لَهُمْ نَفُوسُهُمْ أَنْ تَمْتَدَّ أَيْدِيهِمْ إِلَيْهِ بِالْأَذَى. وَأَحْسَنَ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ جَفُوفَةً، فَأَزْمَعَ<sup>(٤)</sup> الرِّحِيلَ عَنْهُمْ، وَجَعَلَ وَجْهَتَهُ فِلَسْطِينَ، تِلْكَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، الَّتِي اتَّخَذَهَا قَبْلَ مَوْطِنًا، وَأَقَامَ فِيهَا زَمَنًا. فَانْطَلَقَ حَتَّى أَلْقَى بِهَا عَصَا التَّسْيَارِ.

(١) البعل: الزوج.

(٢) انتكس: انقلب على رأسه، والمراد رجوع خائباً.

(٣) الوجيب: الاضطراب.

(٤) ازمع الأمر: ثبت عليه عزمه.



## إسماعيل (\*)

هاجر إبراهيم إلى فلسطين، ومعه زوجه سارة، وخادمتها هاجر، واستاقوا معهم أنعامهم، واحتملوا ما يملكون من مال جزيل، وخير جليل، وأقام وسط أهله وعشيرته، وبين الطائفة القليلة التي آمنت به.

كانت سارة عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى بعلها الوفي يتطلع إلى النسل وقد أصبحت هي على حال لا يزجي فيها الولد، فقد بلغت من الكبر عتياً، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمته هاجر؛ وهي الوفيّة الكريمة، المطيعة الأمانة، علها تُنجب ولداً تشرق به حياتهما، ويُسرّي عنهما بعض ما يجدان من لوعة الوحدة ومرارة الوحشة، فانصاع لرأيها وخضع لإشارتها.

فلما وهبته إياها أنجبت غلاماً زكياً، هو إسماعيل، فانتعشت نفس إبراهيم وقرت عينه؛ ولعل سارة قد شاركت إبراهيم في سروره؛ وشايعته في بهجته، ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت إلى قلبها، بل عصفت بها أعاصيرٌ شديدة من الحزن والشجن، أثارها قلقها واضطرابها، فحُرمت الهدوء والهجوع<sup>(١)</sup>، وتشعب لبها، وعقدت عليها الكتابة سحابة مُطَبِّقة، وأصبحت لا تُطيق النظر إلى الغلام، ولا تحتمل رؤية هاجر.

وهي الآن مُلتاعة متحسرة؛ كئيبة متذمرة، لم تجد دواء لعلتها؛ وكشفاً لدائها إلا إقصاءه وأمّه عن دارها؛ وإبعادهما عن عينها. فتمتت على زوجها أن يذهب بهاجرًا وطفلها إلى أقصى الأماكن، حتى لا يصل صوتهما إلى سمعها، ولا تقدّي برؤيتهما عينها.

أذعن لإرادتها؛ وكان الله أوحى إليه أن يطيع أمرها<sup>(٢)</sup>، ويستجيب إلى رجائها؛ فركب دابته، واصطحب الغلام وأمّه، وسار ترشده إرادة الله، وتخذوه عنايته. وطال به السير، وامتد الطريق، حتى وقف عند مكان البيت. فأنزل هاجر

(\*) إبراهيم: ٢٧، ٣٨.

(١) الهجوع: الراحة.

(٢) لعل المقصد من أمر الله لإبراهيم بحمل ولده إسماعيل ليبقى إبراهيم لربه وتبقى المكانة الأولى لله، وهذا هو الإيمان:

وظفها في هذا المكان البَلْقَع<sup>(١)</sup>، وتركهما في تلك البقعة الجرداء، وهما ضعيفان لا يملكان شيئاً، سوى مِرْزُود<sup>(٢)</sup> به قليل من الطعام، وسقاء فيه شيء من الماء، وإيماناً بالله يَعْمُرُ قَلْبَيْهِمَا، ويغمر نفسيهما.

ترك الديار، واستودعهما في هذا المكان، وقفل راجعاً. فتبعته أم إسماعيل وتعلقت به، وأمسكت بثوبه، وقبضت على خِضَام<sup>(٣)</sup> دابته، وقالت: يا إبراهيم إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا بهذا الوادي المرحش المقفر؟

حاولت أن تستعطفه، ولعلها قد أشارت إلى ابنها تسترحمه بحقه، وتتوسل إليه بفلذة كبده، وترجوه ألا يخلي بينهما وبين الجوع القاتل، والعطش المميت. وقد تكون سألت: مَنْ يحميها من سَطْوِ الذئاب؟ وَمَنْ يمنعها من فتك الوحوش؟ وكيف احتملان لَفْحِ الشمس، وحرارة الجوع؟ وأسالت تحت قدميه العبرات الغزيرة، وذرفت الدموع السخينة، ترجون يُصَيِّخُ إلى استعطافها، ويستجيب إلى نداءها، ولكنه لم يستمع إلى قولها، ولم تَلِنْ قنائه لرجائها؛ بل أبان لها أن ذلك أمرُ الله وتلك إشارته، فلا بُدَّ لها من الخضوع لحكمه، والتسليم لأمره! فلما علمت بذلك كَفَّتْ عن جواره، واستسلمت لأمر الله، وركنَتْ إلى رحمة. وقالت: لن يضيئنا.

أما إبراهيم فإنه انحدر من تلك الربوة يُثْقِلُهُ الإِشْفَاق والخوف، ويدفعه الإيمان والثقة بالله؛ ولا شك أنه الآن يتحسّر جوى ولوعة، لبعاده فلذة كبده، وفراق حُشاشة نفسه، ووداع بكره الذي اكتحلت عيناه به بعد أن اكتمل عمره أو كاد. وكان يُصْعِدُ الزفرات، ويختنق بالعبرات. ولكن إبراهيم في مكانه من الله، وفي مقامه من النبوة لا بد أن يصبر على البلاء، ويستسلم للقضاء. لذلك سار إلى وطنه، وخلف وراءه وحيد في تلك البقعة النائية، وهو يدعو الله أن يكلاه بعنايته، ويقول: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

### نبع زمزم

قد امتثلت هاجر للقضاء المحتوم، وتحلّت بالصبر الجميل، ومكثت تأكل من الزاد، وتشرب من الماء، حتى نُفِدا؛ فَخَوَى بطنها وعَصَب<sup>(٤)</sup> زيقها. واحتملت

(١) البلقع: الأرض القفر.

(٢) المزود: ما يجعل فيه الزاد.

(٣) الخظام: الزمام.

(٤) عصب الريق - بفتح الصاد وكسرهما: جف ويس.

ذلك صابرة. ولم يلبث أن جفّ ضرعُها، وأصبحت لا تجد لبناً تُرضعه الطفل؛ أو ماءً يُبَلِّل صداه. وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش؛ فبكى وانتحب، وصرخ وأعول؛ وأمه تتقطّع نفسها حسرات؛ ودموعها تنهمر غزيرات؛ وودّت أن تروي ظمأه بدموعها؛ وأن تردّ عنه غائلة العطش بماء عينيها؛ ولكن هيهات!

حاولت أن تجد لها من مآزقها مخرجاً؛ وكان قذى في عينيها أن ترى ابنها يتلوى. فتركته مكانه، وسارت هائمة على وجهها، تعدو وتُهرول، وقد حاجها التبياع طفلها، وأحزنها بكاؤه ونحيبه. وأخذت تبحث عن الماء، وتفتش له عن غذاء، حتى قرعت صفاة الصفا<sup>(١)</sup>، ثم عادت فرعة مذعورة لهول مُصابها في وحيدها. وسعت نحو سَرابٍ حسبته ماء عند المروة، حتى إذا جاءته لم تجد شيئاً، ثم كرت راجعة إلى هدفها الأول، ورجعت ثانية إلى غرضها الثاني، وهكذا سعت سعي المجهود سبعة أشواط<sup>(٢)</sup> والطفل يصيح ويصخب، يقطع بصوته نياط قلبها، ويحز بعويله في أعماق فؤادها.

رُحْمَاكَ يَا رَبِّ! هذا طفل جفّ خلقه حتى عي عن البكاء، وانقطع عن الغذاء حتى خارت قواه، وخفتت أنفاسه! وهذه أم ترى وحيدها يُسلم رُوحه ويوجد بنفسه، وهي لا تجد لها مُعيناً في وحدتها ولا سلوة، في مصابها! إنه الآن يفحص الأرض برجليه ويضرب الصلْد بقدميه، عله يرقّ لحاله إذ قست القلوب، ويلين لاستعطافه إذ عزّ النصير، وهذا هو ذا يضرب ويضرب؛ فإذا الماء قد انبجس من تحت قدميه، وفار من قرع رجله! وإن من الحجارة لما يتفَجَّرُ منه الأنهار!

رأت رحمة الله تحوطها؛ وعناية ربها تُظَلِّها؛ فجلست خائرة القوى، يقطر العرق من جبينها، وأكبت على الطفل متلهفة، تروي ظمأه، وتبَلِّل بالماء شفثيه فسرها أن ترى الحياة تُدب في جسمه، وأن يُقبل عليها في لهفة وشوق؛ فتضمه إلى صدرها، وتربّت<sup>(٣)</sup> عليه بيدها، تكفكف دموعه، وتسري عنه شجونه وأحزانه. حتى إذا اطمأنت على وليدها، وعادت إليها الثقة بنجاته، وعاودها السرورُ بحياته، ارتوت هي أيضاً، فسرت فيها الحياة، وانقشعت تلك السحابة السوداء التي أظلمتْها زمناً، وذلك بفضل الله وعنايته.

هذه العين هي زمزم ولا زالت قائمة يزدحم حولها الحجيج<sup>(٤)</sup>، ويستيق الناس إلى حوضها، عليهم يفوزون بقطرة، أو يرجعون بشربة.

(١) الصفا والمروة: جبلان بمكة.

(٢) هذا هو أصل السعي الذي يقوم به الحجيج.

(٣) التريبت: ضرب اليد على جنب الصبي لينام.

(٤) الحجيج: الحجاج.

ولما نَبَّحَ الماءَ اجتذب الطيرَ إليه، فحوّمت حوله، وحلقت فوقه، وكان قوم من جُزهم يسرون قُرْبَ هذا المكان، فأروا الطيرَ تحط في ساحته، وتُحوّم<sup>(١)</sup> فوقه، وإنهم ليعرفون أن الأطيّار لا تقع إلا على ماء، فأرسلوا واردهم<sup>(٢)</sup> يرتاد المكان، ويخبرهم بخبره. ولما ذهب إليه وجد الماء فرجع يَرف إلى قومه البُشري، فوفدوا إليه زَرافات ووَخدانا<sup>(٣)</sup>، واتخذهم بعضهم موطناً ومَقاماً، فأَست هاجرُ بهم، واطمأنت إلى جوارهم، وشكرت لله أن جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم.

### إسماعيل الذبيح (\*)

لم ينس إبراهيم ابنه، بل كان يَفِد إليه لِمَاماً<sup>(٤)</sup>، ويزوره غيباً، ليطمئن على حاله، ويقرّ عيناً بمرآه. فلما سَبَّ وأطاق السعي والعمل، رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمر بذبيح ولده - ورؤيا الأنبياء حق، وأحلامهم صدق<sup>(٥)</sup>.

فتنةٌ أثر فتنة، ومحنة تتلوها محنة: شيخ هرم، جالِد الأيام، وعَرَكَ الدهر، وأخته السنون، قد كان طولَ حياته يأملُ الولد؛ حتى إذا بلغ من الكِبَر عِتياً<sup>(٦)</sup>، رزقه الله بسلام وحيد، قرّت به عينه، وأشرقت له نفسه، ثم أمر بأن يُسكَنه بوادٍ غير ذي زرع، ويتركه وأمه في مكان قفر، ليس به حسيس ولا أنيس<sup>(٧)</sup>. وامثل لأمر الله، وتركهما هناك ثقة بالله، وإيماناً به، وإطاعة لأمره. فجعل الله لهما من ضيقهما فرجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان؛ ثم يؤمر بذبيح الولد العزيز، الذي هو بكره ووحيدِه! إن هذه لمحنة تنوء بها الجبال الراسيات؛ ولكن العظام كفوها العظماء، فعلى قدر إبراهيم، وعُلو منزلته، وعلى مقدار ثبات يقينه، وكمال إيمانه - يكون ابتلاؤه واختياره<sup>(٨)</sup>.

استجاب لربه، وامثل لأمره، وسارع إلى طاعته، وارتحل حتى لقي ابنه، ولم يلبث أن ألقى إليه بتلك الرغبة التي تدك الجبال، وتنتزع القلوب من الصدور

(١) تحوم: تحلق.

(٢) كل من أتى مكاناً أو غيره فقد ورده.

(٣) جماعات وأفراداً.

(\*) الصافات ١٠٢ - ٢١٢.

(٤) لماماً: بين فترة وأخرى.

(٥) يقول ص: رؤيا الأنبياء وحي.

(٦) عتا الشيخ يعنو عتياً - بضم العين وكسرهما كبر وولى.

(٧) ليس به أحد.

(٨) الأولاد أفلاد الأكباد يتأذى الآباء بمصائبهم ولكنهم لا يخرجون عن كونهم عبيد الله.

فقال: ﴿يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةً أَدْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفافات: ١٠٢].

عرض عليه الأمر: ليكون ذلك أطيّب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً، ويذبحه قهراً.

فبادر الغلام بالطاعة، وأسرع إلى الإجابة، فقال: ﴿يَأْتِيَتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَبِيدِ﴾ [الصفافات: ١٠٢].

بَرٌّ عظيم، وتوفيق من الله أعظم، وإيمان وثيق، ونفس راضية بما أراد الله وقدر<sup>(١)</sup>.

ثم أراد أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل، ويرشده إلى أقرب السبل إلى قصده، فقال: يا أبت، اشدذ وثاقي، وأحكم رباطي حتى لا أضطرب، واكشف عني ثيابي، حتى لا ينتضح<sup>(٢)</sup> عليها شيء من دمي؛ فينقص أجري، وتراه أمي؛ فيشتد حزنها، وتفيض شؤونها<sup>(٣)</sup>، واشتد شفتك، وأسرع إمرآها على حلقي ليكون أهون عليّ، فإن الموت شديد، ووقعه أليم، واقرأ على أمي السلام وإن أردت أن تردّ قميصي عليها فافعل - فإن ذلك فيه تسرية لهمّها وسلوة لها في مصابها؛ وهو ذكرى لوليدها؛ تشتّم منه عبيره وتتشمّم فيه أريجها، وتعود إليه حين تبحث حولها فلا تجدني، وتفتش عني فلا تراني.

قال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله! ثم ضمه إلى صدره، وأخذ يقبله، وتباكيا وانتحبا.

ثم أسلم إبراهيم ابنه، فصرعه على شقه، وأوثقه بكتافه، وأمسك السكين وأخذ يصوب النظر إليه مرّة، ويحدق في ابنه مرّة أخرى؛ ثم تدفقت عبراته، وتتابعت زفراته رحمة به، وإشفاقاً عليه. وأخيراً وضع السكين على حلقه، وأمّرها فوق عنقه، ولكنها لم تقطع، لأن قدرة الله قد ثلمت<sup>(٤)</sup> حدها، وفلت من غزبها<sup>(٥)</sup>.

فقال إسماعيل: يا أبت، كبني على وجهي، فإنك إذ نظرت إلي أدركتكم رحمة بي تحول بينك وبين الله. ففعل. ثم وضع السكين على قفاه، فلم تمض الشفرة، ولم

(١) الرضا بالقضاء من الإيمان وهذا لا يمنع أن يكون للإنسان طموح، ويطمح في زيادته غداً. أما اليوم فقد رضي بما قسم الله له.

(٢) ينتضح: يصيبه ويبله.

(٣) الشؤون: الدموع.

(٤) ثلم كل شيء: كسر حده.

(٥) غرب كل شيء: حده. وفلت: كسرت.

تَفْرِ الأوداج . وأدركت إبراهيم الحيرة، وشق ذلك على نفسه، فتوجه إلى الله أن يجعل له مخرجاً . فرحم الله ضعفه، واستجاب لدعائه، وكشف غمته، ونودي : ﴿أَنْ يَكْفُرَ بِهِمْ قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات : ١٠٤ - ١٠٥] .

فاستبشراً بالفوز، واغتبطا بالنجاة، وحمداً لله على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء وكشف الغمة، وقد نالا جزيل الثواب، وخير الجزاء، وصارا بعد هذا الاختبار أصفى نفساً، وأثبت إيماناً، وأرسخ يقيناً، إن هذا لهو البلاء المبين<sup>(١)</sup> .

فدى الله إسماعيل بذبح<sup>(٢)</sup> عظيم، رآه بجواره، فأقبل عليه، وهوى بتلك السكين التي كانت كليله، وأمرها على حلقه، ففصرع لوقته وخضب الأرض بدمه؛ فكان فداء لابنه؛ وحقناً لدمه . ثم صار ذبح الضحايا أمراً متبعاً يساهم فيه المسلمون كل عام، ذكرى لذبح إسماعيل، وشكراً لله على نعمته .

### إسماعيل وجرهم

حلق الطير في سماء تلك البقعة التي نبع فيها الماء، وحوّمت حول هذه البئر أسرابه، وسرت في حلق المكان حياة جديدة، وإن لم يتصل خبرها بأحد، حتى رأى قوم من جرهم كانوا قد نزلوا في أسفل مكة طائراً عائفاً<sup>(٣)</sup> فقالوا: إن هذا الطائر ليُدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي صحراء بلقع! ثم أرسلوا رائداهم، فسار حتى وجد الماء فرجع يرفق إليهم البشرى، فأقبلوا فرحين، ووفدوا مسرعين وحلّوا بالمكان، فرأوا أم إسماعيل عند الماء فاستأذنتها في النزول بجوارها، والسقيا من مائها . فأذنت لهم على أن يكونوا ضيوفاً مكرّمين، لا مقيمين مغتصبين .

فنزلوا على إرادتها ورَضُوا حكمها، ثم أرسلوا إلى أهلهم فأقبلوا إليهم يرفقون<sup>(٤)</sup> واجتمع بهذا الحي منهم أهل أبيات كثيرة .

ثم شبَّ إسماعيل، واستقام عودُه، وذاع صيته، وطار ذكرُه، واختلط بالقوم وحاكاهم في لغتهم، وتعلّم لسانهم، وأخذ العربية عنهم، ثم تزوّج بواحدة منهم، فتم اندماجه فيهم، وتوثقت صلته بهم وما أظنه إلا قرّ عيناً باكتمال فمّوه، وامتلأ سروراً باجتماع أسباب السعادة له . ولكن الدهر قُلب، فها هي ذي المنية تختطف

(١) البلاء: الاختبار .

(٢) الذبح، بالكسر: ما يُذبح .

قال ص: احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز . . .

(٣) عائفاً: محوماً .

(٤) يرفقون: يسرعون .

أمه، فمزّ عليه فقدُها، وتفقّر قلبه حزناً عليها، فقد تعهدته في مهده ورعته في طفولته، وأظلمت بحنانها في شبابه، وكانت له دائماً، عضداً في الملمات، ومُعِيناً في النازلات.

ولم يكن لإبراهيم أن ينسى وديعته، وأن يسألوا فلذة كبده، لذلك كان يتردد على هذا المكان الذي ترك فيه أهله وولده، يتفقّد حال ابنه. فوفد إلى مكة مرة، وأتى بيت إسماعيل، فلم يجد به إلا امرأته، فسألها عنه، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم شيئاً، ثم شكّت إليه سوء الحال، وضيق اليد، وشظف العيش. فرأى فيها امرأة متمردة على القدر، ناقمة على القضاء غير راضية بما قسمه الله لها، ورأى أنها لا تصلح لابنه زوجاً، لتبرئها<sup>(١)</sup> بالحياة معه، وشكواها من معاشرتها إياه. فأشاح إبراهيم عنها بوجهه، ولوى عنان<sup>(٢)</sup> دابته، بعد أن حملها السلام لابنه، وأوصاها أن تبلغه أن يغيّر عتبة داره، يعني بذلك أن يفارق زوجته، وأن يستبدل بها خيراً منها.

وبعد لأي<sup>(٣)</sup> أقبل إسماعيل إلى أهله، وكأنه أنس شيئاً. فقال لامرأته: هل جاءنا اليوم أحد؟ فقالت: نعم، طرّق بابنا شيخ صفته كئيت وكئيت، سألنا عنك فأخبرناه بخبرك، وأظهر حذباً عليك، ورغبة في تعرّف أمرك، وتبين حالك، فأعلمته بما نحن فيه من الضيق والشدة.

قال إسماعيل: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يُقرئك السلام، ويوصيك أن تغيّر عتبة دارك. فقال: ذاك أبي، وقد أمرني بفراقك. وتركها غير آسف عليها. ولم يلبث إبراهيم أن يتفقّد ولده، ويُطفق لهيب شوقه، وأتى دار إسماعيل، ولكنه لم يجد فيها إلا امرأته، فسألها عن مقرّه ومحطّ رحاله، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم رزقاً.

ولما هم بالرجوع التفت إليها يسألها عن حالها، ويستخبرها خبرهما، فلهج<sup>(٤)</sup> لسانها بالثناء، وفاض بالحمد، وذكرت له أنهما في خير من الله كثير، وفيض من نعمته عميم، حينئذ اطمأن قلبه، وانشرح صدره إذ رآها قانعة راضية، شاكرة مؤمنة، وعلم أنها وزوجها في خير وسعة، فأمرها أن تُقرئ زوجها السلام، وتوصيه أن يحافظ على عتبة داره، وقيل راجعاً إلى أهله.

(١) تبرم: ضجر وكره.

(٢) عنان: زمام.

(٣) اللأي: اللبث والإبطاء.

(٤) لهج بالشيء: أغرى به وثابر عليه.

ولمَّا طَوَّيَ النهارَ أقبلَ إسماعيلَ إلى أهله كعادته، ولم يلبث أن تجاذب وزوجته أطراف الحديث، فأخبرته أن شيخاً حسن الهيئة وسيم الطلعة، يُجَلِّله الوقار، وتكسوه الهيئة، قد طرق اليوم بابهم، وولج<sup>(١)</sup> دارهم، وأنه قد استنباها خبره، وأراد الوقوف على أمره، فأخبرته أنهما في خير وسعة وأنه قد أوصاها أن تُقرَّته السلام، ويأمره أن يثبت عتبة داره.

قال إسماعيل: ذاك أبي، وقد أمرني ألا أفارقك. فلازمها حياته، وكانت أم أبنائه.

### بناء الكعبة<sup>(\*)</sup>

لبث إبراهيمُ بعيداً عن ابنه ما شاء له أن يلبث، ثم وفد إليه، لا ليتفقَّد أمره، أو يتعرف حاله، أو يُروِي صدى شوقه، كما كان يفعل - بل جاء اليوم هذه البقاع لأمرٍ جليل، وشيء عظيم، فقد أمر ببناء الكعبة، وإقامة أول بيت للناس. فاستجاب لأمر ربه، واضطلع به غير هيات ولا وجل، وتخفَّ إلى الحجاز، وجدَّ في البحث عن إسماعيل، وأخذ يَجُوبُ مواقع الماء، ومنازل القبائل، ومضارب الخيام، حتى عثر عليه، وقد جلس تحت شجرة باسقة الفروع، وهو يَبْرِي سِهَاماً له قريباً من زمزم.

ورآه إسماعيلُ مقبلاً، فنفضَ يده مما كان يُعالجه، وخفَّ إلى استقباله، وقد تهلَّل وجهه وانبسطت أساريره، وانشرح صدره، واندفع إليه مُهَلِّلاً. وسرعان ما تعانق الوالد والولد، وبت كلُّ منهما للآخر ما يجب. وبعد أن أطفأ جذوة الشوق، وخفَّفَا لوعة الفراق، جلسا يتحادثان. ولو مَدَّدت عينيك لرأيت مظاهر الحنان والعطف، وأحسست بوادِر السرور والغبطة، للقاء هذا الولد البارِّ بذلك الوالد الرحيم.

مضى عليهما في هذا المقام وقتٌ طويل<sup>(٢)</sup>، أفاقا بعده في نشوة السرور، وهناك أفضى إبراهيم إلى ابنه بسرَّ رهيب، وأخبره بأمر عجيب، فقال: يا بني، إن الله قد أمرني أن أبني هنا بيتاً - وأشار إلى أكمة<sup>(٣)</sup> مرتفعة على ما حولها. فكان إسماعيلُ أطوع له من بنائه، وما كان جوابه إلا السمع والطاعة.

ثم سارا إلى المكان يَخْدُوهُما الرجاء، وتُزجِيهُما<sup>(٤)</sup> قوة من الله تشدُّ من

(١) وليج: دخل

(\*) البقرة: ١٢٥ - ١٢٩، آل عمران ٩٦، الحج ٢٦، إبراهيم ٣٥.

(٢) أراد الله من إبراهيم أن تكون صلته بإسماعيل صلة إيمانية أكثر منها دموية.

(٣) الأكمة: الموضع يكون أشد ارتفاعاً من غيره.

(٤) تزجيها: تدفعهما.



أزْرِهِمَا وَتَقْوَىٰ مِنْ عَزْمِهِمَا، وَصَارَا بِالْمَعَاوِلِ يَحْفِرَانِ، وَيَرْفَعَانِ قَوَاعِدَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ، وَهُمَا يَسْأَلَانِ اللَّهَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

ولم يلبثا طويلاً حتى وُضِعَ الأساسُ، وظهر موضع البناء، ثم جعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة، ويهيئ الأدوات والآلات، وإبراهيمُ يبني. ولا شك أنه قد كانت هناك قوة تعاونهما، حتى يضطلعا بهذا الأمر الخطير، ويستطيعا وحدهما القيام بهذا العبء الثقيل.

ارتفع البناء، وطال الجدارُ، وقصرت يد إبراهيم أن تنال أعلى البناء، وضعف الشيخ عن أن يرفع الحجارة إلى هذا العلو، فقال: يا بُنَيَّ، اطلب لي حجراً أضغفه تحت قدمي لعلي أستطيع إتمام ما بدأت، وأشرف على ما بنيت.

فذهب إسماعيلُ يجده في البعث، حيث عثر على الحجر الأسود، فقدمه إلى أبيه، فقام إبراهيم عليه، وصار يبني، وإسماعيلُ يناوله. وكلما كملت ناحية انتقل إلى أخرى، وكلما فرغ من جدار سار إلى آخر، وهكذا تمَّ بناء البيت الذي جعله الله مثابةً للناس، تشتاق إليه أرواحهم، وتحنُّ إليه أفئدتهم استجابةً لدعاء إبراهيم إذ قال: ﴿فَاعْمَلْ آفِعَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

## لوط (\*)

رحل إبراهيم عن مصر، واصطحب معه في سفره لوطاً، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير، وخير موقُور، ونزلا بتلك الأرض المقدسة، ثم ضاقت بأنعامهما وأغنامهما بقعة الأرض التي نزلا بها، فنزح لوط عن مَحَلَّة<sup>(١)</sup> عمه إبراهيم، واستقرَ به المقام بمدينة سدُوم.

وقد كان أهلها ذوي أخلاق فاسدة، ونوايا سيئة، لا يتعففون عن معصية ولا يتناهون عن مُنكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة، يقطعون الطريق ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، فيجتمعون عليه من كل حذب وصوب، ويسلبونه ما حمل، ثم يتركونه يندب حظه، ويبيكي ضياع ماله، لا يرذم عن ذلك دين، ولا يصددهم حياء، ولا يزعوون لوعظ واعظ، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

وكأذ، نفوسهم الظامنة إلى الإثم لم ترورها تلك الذنوب، وأفندتهم المتعطشة إلى الإجمام لم تكفها هذه القبائح، فابتدعوا فاحشة لم يُسبقوا إلى اجترامها، وتعاطوا محرماً ما كان يدور بخلد أحدٍ اقتراه، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، ويذرون<sup>(٢)</sup> ما خلق الله من النساء فلا يقربونهن.

وليتهم ستروا بليتهم، أو حاولوا الخلاص من عارها، والبعد عن شرها؛ ولكنهم كانوا يحملون الناس على مُشايعتهم، ويدعونهم إلى المتح<sup>(٣)</sup> من قلوبهم<sup>(٤)</sup> وتمادوا في ضلالهم، حتى فشت المتكرات، وكثرت الموبقات، وأشربت قلوبهم حبّ الفاحشة.

(\*) الأعراف ٨٠ - ٨٤، النمل ٥٤ - ٥٨، هود ٧٧ - ٨٣، العنكبوت ٢٦ - ٣٥، الشعراء ١٦٠ - ١٧٥، الحجر ٥٧ - ٧٧، الصافات ١٣٣ - ١٣٨، الأنعام ٨٦، الأنبياء ٤٧ - ٥٧، الحج ٣٤ - ٤٣، ق ١٣، ١٤، القمر ٣٣ - ٣٩.

(١) المحلة: منزل القوم.

(٢) يذرون: يتركون.

(٣) المتح: استخراج الماء من البئر.

(٤) القلب: البئر.

ولما أصاب القوم ما أصابهم، واستحبوا الضلالة على الهدى، وآثروا الغواية على الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم إلى المعاصي، ويزين لهم الشهوات - أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم، فأذن فيهم بدعوته، وأعلن بينهم رسالته، ولكن آذانهم وقّرت، وعيونهم غُميت، وقلوبهم غُلّفت، فاندفعوا في شرورهم، واستمروا على فجورهم، وتمادوا في طغيانهم، ولم يرتدعوا عن غيهم؛ بل حدثتهم نفوسهم الأتارة بالسوء، وسوّلت لهم عقولهم التي أضاعها العبث، وتملكها الشر، أن يخرجوا رسولهم من بين ظهرائهم، فتوعدوه ومن آمن معه بالإبعاد عن قريتهم، مع أنه لم يرتكب جرماً إلا بُغده عن مساوئهم، ولم يقترب إثماً إلا أنه تطهر من دنسهم، ونعى عليهم طريقهم، ونأى عن قبائحهم، ودعاهم إلى الطريق السوي والصراط المستقيم.

ولما رأى منهم ميلاً عن طاعته؛ خوّفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره، واستخفوا بوعيده، فألح عليهم بالعظات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يقلعوا عما كانوا فيه، بل ازدادوا تعلقاً به ورغبة فيه؛ وتحذّوه أن يأتيهم بالعذاب، ويُنزل عليهم ما يستحقون من عقاب.

سأل لوط ربّه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين، ويوقع بهم العذاب الأليم، وطلب إليه أن يجزيهم على كفرهم وعنادهم، ويعاقبهم على بغيهم وفجورهم، فهم الداء الويليل الذي يُخاف انتشاره، والعضو المريض الذي لا بد من استئصاله. ألم يعيشوا في الأرض فساداً؟ ألم يصدّوا عن سبيل الله، ويصمّوا آذانهم عن طريق الخير، ويتنكبوا سبل الهداية؟

استجاب الله دعاءه، وحقّق سؤاله، وبعث ملائكته إلى أهل هذه القرية الظالم أهلها، ليُنزلوا بهم ما يستحقون من عقاب، فعاجوا<sup>(١)</sup> أولاً بدار إبراهيم؛ فحسبهم عابري سبيل، فقدم إليهم خيراً ما يقدم للأضياف؛ ولكن أيديهم لم تمتد إلى قراه<sup>(٢)</sup>، فنكرهم<sup>(٣)</sup> وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخف؛ ولم يزايلوا<sup>(٤)</sup> المكان حتى بشروه بغلام عليم.

(١) عاج بالمكان: نزل به.

(٢) القرى: ما يقدم للضيف.

(٣) نكره: أنكره.

(٤) يزايلوا: يفارقوا.

وما أظن إبراهيم قد أفرخ رُوعه<sup>(١)</sup> أو سكن وجيب<sup>(٢)</sup> قلبه؛ لذلك استفسرهم عما يقصدون، وقال: ما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى القوم الذين لم يستجيبوا لدعوة لوط فكانوا من المجرمين، وستنزل عذاباً أليماً وبأساً شديداً، جزاء ما اقترفوا من فجور، واعتادوا من شرور.

عظم حزن إبراهيم، وأخذ يجادلهم في قوم لوط، ويرجو تأخير البلاء، وتأجيل وقوع العذاب؛ ولعله كان يأمل منهم الإنابة إلى الله، والإقلاع عما يرتكبون من الذنوب، والرجوع عما يقترفون من الفواحش؛ وقد يكون إبراهيم قد خاف أن يُمسَّ لوط بأذى، وهو مؤمن منكر لما يرتكبون، ساخط على ما يجرحون، وهو لذلك ليس أهلاً للعقاب، ولا مستحقاً للعذاب، فأمرته الملائكة أن يهون على نفسه، ويخفف من حزنه، ويدع الإنابة إلى الله من أجل هؤلاء القوم الذين يُصرون على المعصية، ويستمسكون بالخطيئة، وأنبأوه أن لوطاً لن يصيبه أذى ولن يمسه عذاب، وسيكون هو وأهله من الناجين إلا امرأته، فإن هواها معهم، ورأيها تبع لرأيهم.

ولما فصلت<sup>(٣)</sup> الملائكة عن إبراهيم أتوا أرض سدوم<sup>(٤)</sup> في صورة شبان حسان، وفيما هم يهيمون بدخول هذه القرية عرضت لهم جارية تستقي الماء لأهلها فسألوها أن تضيفهم<sup>(٥)</sup>، فأشفقت من قومها عليهم، واستضعفت نفسها عن حمايتهم، وأرادت أن تستنجد بأبيها في الدفاع عنهم، فأمهلتهم حتى تذهب إليه فتستشيره في أمرهم، وأتت أباها. فقالت: يا أبتاه، أراك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط أصبح من وجوههم، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومك فيفضحهم.

هذا الوالد هو لوط، وهذه الجارية هي ابنته، ولا أظن لوطاً إلا دهش لهذه المفاجأة، وأقبل على ابنته يسألها عن أمرهم، ويستزيدها الحديث في شأنهم، ويستلمهم<sup>(٦)</sup> خير السبل التي ينتهجها، وأفضل الطرق التي يتبعها.

ولعله قد تردد في السعي لاستقبالهم، وحوار في قبول ضيافتهم، وحدثته نفسه أن يبعث إليهم بعذره، أو يظهرهم على أمره، فيكفوه مدافعتة لقومه، ويتركوه

(١) افرخ روعه: ذهب فزعه.

(٢) وجب القلب وجيباً: اضطرب.

(٣) فصلت: رجعت.

(٤) سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط وقيل هي بالذال. لسان العرب (سدم).

(٥) أضاف الرجل: أنزله ضيفاً.

(٦) يستلمهم: يشاورها.

وشأنه، ولكن الأزيحية<sup>(١)</sup> هزته، والمروءة دفعته، فاستصغر هذه الصعاب، واستخف بتلك العقبات، وخرج إليهم خفية، وهو ينأى عن عيون القوم، ويحاول أن يصل إلى ضيفه<sup>(٢)</sup> قبل أن يعترضوا طريقه ويصدّوه عن سبيله، فقد حالوا بينه وبين العالمين، وأمروه ألا يستضيف أحداً، ونهوه أن يأوي في منزله طارقاً، وكأنني بهم قد حسبه داء وبيلاً، فخافوا انتشاره، وظنوه خطراً جسيماً فخشوا طغيانه، وما هو إلا عدو لقبائحهم، ومنكر لمفاسدهم.

تسلّل لوط خفيةً، وسار حتى التقى بالملائكة، فاستقبلهم بشره، وتلقاهم بوجهه، ثم دعاهم إلى مصاحبته، وتقدمهم نحو بيته. ولكن الوسواس حاشت في نفسه، والمخاوف دبّت إلى قلبه؛ فضاقت ذراعاً بضيافتهم وخاف أن يعلم قومهم بنزولهم، ويقفوا على دخيلة أمرهم، فيهبوا إليه مسرعين، وهو ليس في منعة منهم، أو في عصية تمنعه من اعتدائهم.

ولكنه سار بهم حتى نزلوا بداره، وما أظنه إلا بالغ في كتمان أمرهم، وتستر خوفاً أن يتسرب إلى القوم خبرهم، وكانت امرأته تسير القوم في طريقهم، فأذاعت خبرهم، وأعلمت قومها بأمرهم، وسرعان ما جاؤوا إليه يهرعون، وأقبلوا عليه مستبشرين. وفزع لوط حين رأى القوم قد اجتمعوا يريدون الفاحشة، ويرغبون في المنكر. فناشدهم تقوى الله، ودعاهم إلى ستر مخازيهم، والكف عن مساويهم، ولكنهم جميعاً فجرة سفهاء، وكفرة أغبياء، لذلك لم يستمعوا إلى نصيحته، ولم ينزلوا على إرادته، فأغلق الباب دونهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون.

ويخيل إليّ أن القوم قد غاض الحياء من وجوههم، أو أصابهم مس في عقولهم، فتدافعوا وراء المنكرات، وتظاهروا على القبائح.

ولما رأى لوط أنهم لم يطيعوا إشارته، ولم يصيخوا لدعوته، أرشدهم إلى غشيان نسائهم اللاتي جعلهن الله حلالاً لهم، وأمرهم أن يجتنبوا هذه العادة السيئة، ويحذروا عاقبة هذه القبائح المنكرة. ولكنهم مع ذلك لم ينتهوا ولم يرعوا؛ بل ازدادوا تمسكاً بما جاؤوا له، وتعلقاً بما شغفت نفوسهم الدنيئة به، وتشبثاً بما عزموا عليه من فاحشة، وقالوا: يا لوط؛ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد!

ضاقت بلوط السبل، وسدّت أمامه أبواب الأمل، فأخذه من الكرب

(١) الأريحية: الارتياح للندى.

(٢) الضيف: يطلق على الواحد والجمع.

والبُرْحَاءُ<sup>(١)</sup> ما جعله يتلَهَّف على نجاة أضيافه، وخلصهم من قومه، فقال: لو أن لي بكم قوة لاستطعت أن أمنع عدوانكم، وأمن شركم، وأقف في وجوهكم! ولو كنتُ في مَنَعَةٍ وعِزَّةٍ لَقَوْمْتُ معوجكم، وألثتُ قناتكم.

ولكن القوم قد أعمتهم الضلالة، فلم يستبينوا سبيل الرشيد الذي دلهم عليه، ولم يحموا عن طريق الشر الذي حاول أن يصدَّهم عنه، فهم في نزوة الشر مندفعون، وإلى اقرار الإثم يتسابقون.

فغشيت سحابة من الحزن، وتملكته سورة من الغضب، حين يئس من ردِّهم، وناله الإعياء والكلال من صدِّهم، ورأهم قد اقتحموا منزله وقهروه، وهجموا على ضيفه وقضحوه، وهو لم يألُ جهداً في نصحهم، ولم يترك سبيلاً لردِّهم.

ولما رأى الملائكة ما هو فيه من الوجد والحزن، ردُّوا لهفتته، وسكنوا روعه، وقالوا: يا لوط، إنا رُسُل ربك، جئنا لإنقاذك، ودفع العدوَّان عنك، فلن يصلَّ هؤلاء الكفرةُ إليك، وإنهم لمهزومون.

وما عتَمُوا<sup>(٢)</sup> أن تولاهم الفزع والرعب، فتولوا هاربين متوعدين.

ولكن لوطاً قد أصبح، وقد كشف الله عنه العُمة، وأحاطه بعنايته، وآزره بنصرته، لا يآبه لهذا الوعيد، ولا يضيره هذا التهديد.

ولما انقشعت غياهب الحزن عن لوطٍ أمره الملائكة أن يسري هو وأهله بقطع<sup>(٣)</sup> من الليل، ويتركوا هذه القرية التي أذن الله أن ينزل بها العذاب، ويحلَّ بها العقاب، ثم نهوه أن يصطحب معه امرأته، فسيحلَّ بها ما يحلُّ بالقوم، لِنفاقها ومشايعتها لهم، وأمره أن يدرع بالصبر والثبات عند نزول العذاب بهم.

خرج لوط وأهله، وفارق تلك القرية غير آسف عليها، حتى إذا صار بعيداً عنها، جاءها أمرُ الله، ونزل بها عذابه، وزلزلت الأرض زلزالها، عاليها سافلها. ثم غشيت بمطر من سجَّيل<sup>(٤)</sup>، فأصبحت ديارهم بلقعا<sup>(٥)</sup>، وبيوتهم خاوية بما ظلموا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٤].

(١) البرحاء: الشدة.

(٢) ما عتم: ما أبطأ.

(٣) قطع من الليل: آخر الليل.

(٤) السجيل: الحجارة الصغيرة.

(٥) بلقعا: قفراء مهجورة.

## يعقوب (\*)

١

تقدم يعقوب إلى إسحاق<sup>(١)</sup> - وكان رجلاً شيخاً قد رق جلدته، واعوججت فئاته<sup>(٢)</sup> - وقال: يا أبت، إني أشكو إليك عيصو أخي، وأستعديك<sup>(٣)</sup> على توغده وتهديده، فإنه منذ رَمَقْتَنِي<sup>(٤)</sup> بعين رعايتك، ودعوت لي بالبركة، وتكهنت لي بنسل طيب، ومُلِك موروث، وعيش خافض<sup>(٥)</sup> حسدني لهذه الدعوات التي أسبغتها علي، وَحَقَّدَ علي لهذه الزجوة التي تمنيتها لي، وأنكر العلامة التي توسمتها في، فَرَّاح يَنَالُنِي بقارص كلامه، وَيَخْرُجُني بوجيع تأنيبه، وَيُخِيفُنِي بتهديده ووعيده، حتى ييس<sup>(٦)</sup> ما بيني وبينه من ود، وتقطع ما كان يجمعنا من رَحْم.

ثم هو فوق ذلك يفاخرني بامرأته هاتين اللتين تزوج بهما من كنعان، ويكاثرنني بما يرتقبه من أولاد يُضَيِّقُون علي الرزق، وَيَزْحَمُونِي بمناكبهم في الحياة، وقد شكوتُ إليك، لتحكم بيني وبينه، بما وهبك الله من رأي حكيم، وحلم راجح.

قال إسحاق - وقد أهّمه ما رأى من القطيعة بين الأخوين، والنفرة بين الشقيقين: يا بُني، إنني - كما ترى من هذه اللمة<sup>(٧)</sup> البيضاء، والجبين المتغضن، والظهر المتقوس - أصبحتُ شيخاً متهدماً، خذلتنني قوّتي، ووقفت بين الأيام على

(\*) قصة يعقوب لم تُذكر مفصلة في القرآن الكريم، لكننا رجعنا فيما أوردناه إلى كتب التاريخ والتفسير.

(١) قال ابن قتيبة في كتاب المعارف: «تزوج إسحاق رفقة بنت ناحور، وهي بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين».

(٢) اعوججت فئاته: كناية عن تقوس ظهره كبراً.

(٣) أستعديك: أستنصرك.

(٤) رمقتني: لحظتني.

(٥) خافض: لين.

(٦) ييس الود: زال.

(٧) اللمة: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن.

ثنية<sup>(١)</sup> الوداع، وإنه يوشك أن يوافيني الأجل، ويقطع ما بيني وبين الحياة من أسباب، ولا آمنُ عليك بعدي: أن يُعاليك<sup>(٢)</sup>، أخوك بالعداوة، ويحسير لك اللثام عن بطش وكيد، وهو في منعةٍ من شدة أسره<sup>(٣)</sup>، وقوة خلقه، وفي جرز من أصهاره وذوي قرباه.

وما أرى إلا أن تزمع رحيلاً إلى فدان آرام من أرض العراق؛ حيث خالك لابان بن بتويل، فأبن على إحدى بناته، فإنك تنال العزّ والشرف والمجد والمنعة، ثم عد بعدها إلى هذه الأرض. وإنني لأرجو لك عيشاً أخفض من عيش أخيك، ونسلاً طاهراً خيراً من نسله وولده. والله يكلوك بعينه، ويحفظك برعايته.

## ٢

كانت هذه الكلمات على قلب الفتى يعقوب أندى من نقيع<sup>(٤)</sup> بارد على فؤاد محرور<sup>(٥)</sup>، إذ وجد فيها مُتنفساً لصدره، وروحاً لقلبه. ونزعت نفسه إلى منبت الأهل وبلد الآباء والأجداد، فاستودع أبويه بدموع سخينة، وشياعه بدعوات طيبة كريمة، وخرج مخترقاً الصحراء، مسرياً بالليل، وسائراً بالنهار، يرفعه نجد ويخفضه وهد، ولقاء خاله نُصب عينيه وكلمات أبيه ملء سمعه وبصره، وعناية الله ترمُّفه وترعاه.

وكان كلما أتعبه السير وأضناه بُعد الشقة، يتذكر الأمل الذي يرجوه، والخير الذي يرتقبه، فيسهل الحزن وينقاد السير.

وطلع يوم تحرّقت سمانم<sup>(٦)</sup> وهبت سواقية<sup>(٧)</sup>، وزمّت الشمس الأرض بسهامها المحمّاة، فشقّ على يعقوب السير، وبعدت أمامه الشقة. وتلفت أمامه فإذا بصحراء ممتدة إلى حيث ينتهي البصر، ورمال ليس بها صوى ولا معلّم<sup>(٨)</sup>. فأدركه السأم، وأحسن من اللغب<sup>(٩)</sup> والنصب ووقف ساعة بين الإحجام والإقدام،

(١) الثنية في الأصل: الطريق.

(٢) يعالك: يصارحك.

(٣) الأسر: الخلق القوي.

(٤) النقيع: الشراب السائغ.

(٥) محرور: اشتد حره.

(٦) السمانم: جمع سموم وهي الريح الحارة.

(٧) سفت الريح التراب: ذرته وحملته.

(٨) الصوى: ما غلظ وارتفع من الأرض، والمعلم: ما يستدل به.

(٩) اللغب: التعب والإعياء.



أيواصل السير ويتغلب على الصعب، فيظفر بما عساه أن يقوّي عَضُدَهُ ويشد أزره، أم يُؤثّر العافية والدعة على هذا السفر الشاق الطويل، ويقنع من الغنيمة بالإياب.

وفيما هو يفكر ويدبّر لمح صخرة تكتنف ظلاً، فدلّف إليها ليجلس ساعة يُريح فيها جسمه، ويبرد قدميه. وما أسند ظهره إلى الصخرة حتى أدركته سِنَّةٌ فنام، ورأى في نومه رؤيا صالحة، أشرقت لها جوانبُ نفسه، وغرّدت بلابل آماله، ورأى أن الله سيؤتيه عيشاً رضيعاً، ويمنحه مُلكاً وسيعاً، ويرزقه نسلأ طيباً مباركاً، يورثهم الأرض ويعلمهم الكتاب.

فقام من نومه مشروح الصدر، مصقول الذهن، مُطلق النفس من عقّال السأم<sup>(١)</sup>، وقد انفسحت أمامه رُقعة الأمل، وشام مخايل الرجاء، إذ رأى تعزيزاً لنبوءة أبيه، وبشيراً بتحقيق أمانيه. فانطلق يعدو كالسهم، مستأنفاً السير بعزم جديد.

## ٣

وطويت الأرض، وقضيت أيام، وإذا هو مُشرف على سوادٍ رآه، فعقد به حبل الأمل، ووصله بما في نفسه من رجاء أن يكون هذا طليعة البلد، وموطن الشيخ لابان. وحفّ إليه مسرعاً، فوجد أن ظنه لم يخطئ، ورجاءه لم يخب.

ها هي ذي أقدامه قد بدأت تبتد، وقلبه قد ذهب عنه الصدا والفتور، وها هي ذي نفسه قد عاودها الجمام<sup>(٢)</sup>. وتلك هي قطعان الغنم، وأسراب الطير، وطلائع الشجر... بل هم أولئك رعاة يغنون، وأطفال يهزجون<sup>(٣)</sup> ويمرحون. إذاً هو فارق الصحراء، وإذا هو في أرض إبراهيم التي نبتت فيها رسالته، وطلعت شريعته، وفي أرض خاله، وهي غايته التي يرجوها، ورجيته التي قطع المفاوز في سبيلها، فليسجد لله شكراناً لنعمته، واعترافاً بتوفيقه وهدايته.

## ٤

تقدّم يعقوب الغريب سائلاً متلطفاً: أفياكم من يعرف لابان بن بتويل؟ قالوا: ومن لا يعرف لابان صهراً إسحاق الرسول! إنه عميد بيته، وشهاب قومه، وصاحب هذه القطعان التي تسيل بها هذه البطاح<sup>(٤)</sup> قال: وهل فيكم من يدلني على داره أو

(١) السأم: الملل.

(٢) الجمام كسحاب: الراحة.

(٣) الهزج: التطريب بالصوت.

(٤) البطاح: جمع بطحاء، وهو مسيل واسع فيه دفاق الحصى.

يرشدني إلى مكانه؟ قالوا: ها هي ذي بنته راحيل مُقبلة تعدُّو وراء الغنم. فتلقت يعقوب فإذا فتاة قسيمة<sup>(١)</sup> الوجه، كاملة الخلق، ذات رونق مُعجِب، وحسن بارع. فاضطرب فؤاده، وأحسن كأن حَبْسَةَ<sup>(٢)</sup> تَغْقِل لسانه. ولكنّه جمع نفسه، واستردّ عازب جِلْمه وعقله، وتقدم إليها قائلاً: إنَّ بيني وبينك قرابة وشيعة، وآصرة<sup>(٣)</sup> وثيقة، فإنني من هذه الدُّوحة التي تُظِلُّك، ومن تلك النبِعة التي تفرعت منها... أنا يعقوب بن إسحاق الرسول، وابن رفقة بنتِ جدِّك بتويل، نزحتُ من أرض كنعان، وقطعت هذه الصحراء التي تُضهر الجلد، وتُدمي القدمين، مقتحماً الصعاب في سبيل أن ألقى لابان لأمرٍ جَلَل. فرحبتُ بلبقياه في طَرْفٍ غضيض، وحديث كريم، وانطلقت معه إلى المنزل.

وفيما هو في الطريق أحسن كأن اضطراباً بفؤاده، أو كأن ظائراً طار من قلبه، أكان ذلك لرؤية هذه الفتاة التي قد تكون أمله الذي يرجوه، ونبوءته التي تنبأها له أبوه، وتأويل رؤياه التي رآها في الصحراء، أم كان قد اعتراه ما يعترى الطارق الغريب مُقدِماً على أمرٍ عظيم، قد يكون لهذا وقد يكون لذاك، ونكنه على كل حال مَلَك نفسه، وأمسك بقوّته، ومشى بخطوات مطمئنة، حتى التقى بخاله لابان. وما إن رآه حتى عانقه طويلاً، واغرورقت عيناه بالدموع فرحاً، ثم أحله من نفسه وأهله محلاً رفيعاً ومنزلة كريمة.

## ٥

أفضى<sup>(٤)</sup> يعقوب إلى خاله بما أرسله أبوه، وما يرجوه من الإصهار إليه، وأنه قد رأى راحيل فحلت من قلبه منزلة، ورجا أن تكون له بعدها زَوْجاً<sup>(٥)</sup>، والسبب الكريم الذي يربط بينه وبينه. فقال لابان: نعم ونعم عَيْن<sup>(٦)</sup>. قد أَجَبْتُكَ إلى سؤالك، وأعنتُك على مُبتَغَى آمالك، ولكن على أن تقيم عندي سبع حجج<sup>(٧)</sup> ترزى الغنم، لتكون لك صدقاً فيما تريد. وأنت طَوال<sup>(٨)</sup> هذا العهد يكتفك مني جناح، ويظلك قلبٌ عاطف رؤوم.

فقبل يعقوب هذا الشرط، وأخذ يرعى الغنم، والأيام تُذهِن له بمعسول المنى، وتحيي في نفسه بوارق الآمال.

(١) القسامة: الحسن.

(٢) الحبسة: تعذر الكلام عند إرادته.

(٣) الآصرة: الرحم والقرابة.

(٤) أفضى: أسر.

(٥) يطلق الزوج على الزوجة.

(٦) نعم العين: أي أفعل ذلك إكراماً لعينك.

(٧) حجج: سنين.

(٨) طوال: طول.

كانت راحيل صغرى بنتين للابان، وكانت ليا تكبرُها في السن، وإن كانت تليها في اعتدال الخلق وحسن التقاسيم. ولم يكن في عزم الشيخ لابان، ولا في شريعة قومه أن يزوج الصغرى قبل الكبرى، ولكنَّ نفسه لم تستجب له أن يصدَّ يعقوب عن راحيل، بعد أن امتلأت منها نفسه، وتعلق بها أمله. فرأى مخرجاً من هذه الحيرة أن يجمع بينهما لهذا الفتى، إذ هو لذلك كِفاه<sup>(١)</sup>. أهل، والشريعة القائمة لم تكن تأبى الجمع بين الأختين.

فلما قضى يعقوب الأجل، وحن أن يبني على عرسه<sup>(٢)</sup>، ويجمع شمله بأهله، طلب من لابان أن يُنجز وعده ويوفِّي له بشرطه، فقال له: يا بُني، إن قلب الوالد وشريعة هذا البلد يأبيان عليَّ أن أنكحك الصغرى قبل الكبرى فهذه ليا إن فضلتها راحيل بجمالها، فإنها تُدانيها في كمال عقلها وحزمها، فخذها بصدّاق زوجاً كريمة، وإن شئت راحيل فأمرض عندي سبع حجج أخرى، ترعى فيها العنم أيضاً، فيكون لك صدّاق آخر، أزد إليك به راحيل كريمة عزيزة.

وما كان ليعقوب وهو الرسول الكريم أن يرذ لخاله حاجة، أو يصدّه عن رغبة، وهو الذي أكرم وفادته، وغمره بإحسانه، وأثره بمصاهرته. «فقبل ما اشترط ودخل بليا، حتى انقضت سبع حجج أخرى تزوج بعدها براحيل».

وهب لابان لكل من بنتيه أمة تقوم بخدمتها ورعاية أمورها، ولكنهما أثرتا يعقوب بهاتين الأمتين، تحبباً فيه وزلفى إليه. ومن هاتين الأمتين، ومن ليا وراحيل رزق يعقوب اثني عشر ابناً هم الأسباط<sup>(٣)</sup>.

(١) كفاء.

(٢) عرس الرجل: امرأته.

(٣) الأسباط: هم رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون - وهؤلاء من ليا، ويوسف، وبنيامين من راحيل. ودان، ونفتالي من بلهة جارية راحيل. وجاد، وأشير من زلفة جارية ليا، وقد ولدوا جميعاً في فدان آرام، إلا بنيامين فإنه وُلد في أرض كنعان. (البداية والنهاية ١ - ١٩٥).

## يوسف (\*)

### يوسف بين إخوته وأبيه

تنفّس الصباح، ورَقَّتْ<sup>(١)</sup> الشمس بأجنتها على الوجود، وهب يوسف من نومه على حُلْمٍ عذب جميل، وما جمع أشتاته وضَمَّ حواشيه، حتى خَفَّ إلى أبيه مُشرقِ الوجه، ضاحك السن، مُنبسِط الأَسَارِير. وقال: يا أبت، إنني رأيت ليلة الأمس رؤيا جميلة، ضاءت<sup>(٢)</sup> لها جوانب نفسي، وانشرح لها صدري ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ [يوسف: ٤]..

فتهلَّل وجه يعقوب وأشرق جبينه، ووضح البشرُ بين عينيه وقال: يا بني، إنها رؤيا صادقة، تظاهر ما توسّمته فيك من فَضْلٍ، وما رجوته لك من خير، إنها بشرى بما سيخصُّك به الله من علم، وما سيخبُّوك به من نعمة يُتمُّها عليك، كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل، ولكن لا تقصُص رؤياك على إخوتك، فقد عرفت غيرتهم مما أخصك به وأخاك من رعاية، وأوثركما به من إعزاز. هم اليوم حديثهم عنكما همس، وذكركما على ألسنتهم تعريض، ولو أنك حدثتهم برؤياك لا تأمن أن تشعل حقدهم، وتُشير كامن كراحتهم، فيدبُّوا لك كيداً، أو ينصبوا لك حبال المكرهه، وما أسرع أن يشدَّ الشيطان أزرهم، ويشحذ في الشر عزائمهم!

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعاً، وَضِيءَ الطلعة، مليح الهيئة، فتان المشاهدة، ماتت أمه راحيل<sup>(٣)</sup>، وتركته وأخاه بنيامين في الثامنة من عمره، أشد ما يكونان حاجة إلى قلبها الرؤوم، وصدورها العطوف. ولهذا أثرهما يعقوب بالحب، وخصهما بفضل وحنان، ثم جاءت هذه الرؤيا مُذَكِّية لهذا الحب، مضاعفة لهذا

(\*) يوسف ٣ - ١٠٤، المؤمن ٣٤.

(١) رف الطائر: حرك جناحيه في الهواء.

(٢) ضاءت وأضاءت: بمعنى.

(٣) قيل لم تكن أمه قد ماتت بعد، لأن ظاهر القرآن يقضي بذلك لقوله تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾.

وقيل: بل ماتت، والمقصود من أبويه أبوه وخالته، لأن الخالة بمنزلة الأم.

الحنان. ولم تخف على إخوة يوسف منزله ومنزلة أخيه عند يعقوب، وإن تحوَّط في الكتمان وتظاهر بحب الجميع.

دلائل العِشْقِ لا تخفى على أحد كحامل المِسْكِ لا يخلو من العَبْقِ<sup>(١)</sup>

فسرى إليهم داء الحسد، ونبتت في صدورهم آكلة الأكباد، وهاجت الغيرة وثار الحقد، واجتمعوا في ناد واحد، وتشاوروا فيما يصنعون!

قال قائل منهم: ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا، وأقرب إليه منا جميعاً! لست أدري ما الذي يحول بيننا وبين قلبه! وما الذي يقصّر من شأننا<sup>(٢)</sup> عنده! السنن أكبر من يوسف وأخيه؟ السنن أشدّ منهما قوّة وأكثر حُنْكَة<sup>(٣)</sup>؟ السنن القائمين على مصالحه، الدائنين على خدمته؟ فلماذا يخصّهما دوننا بهذا الحب؟ أشرّف يفضّلنا به؟ لا نرى ذلك الشرف واضحاً، أم لأن راحيل أمهما كانت أقرب إلى قلبه من أمهاتنا! ولكن ما ذنب الأبناء إذا تفاضلت الأمهات؟ إن هذا لحيف<sup>(٤)</sup> ظاهر، وضلال مبين.

وقال الثاني: إن محبة يعقوب ليوسف وأخيه قد نبتت في قلبه كما نبتت في الراحتين الأصابع، ولو أننا ذهبنا في سؤاله عن أسباب هذا الإيثار، ونقاشه مظاهر هذا التفضيل، فقل أن نظفر بجذوى أو نحظى بنصيب. إذ للحب سلطان على النفوس، لا يُمنع ولا يُمنع، ولا يُسلم ولا يُسلب. هو عاطفة فوق سلطان العقل، وميل يسترقّ القلوب. وما دُمنا نرى يوسف بيننا فإنه سيظلّ هو وأخوه بين قلب يعقوب وشغافه<sup>(٥)</sup>، وما أرى شفاء لهذا الداء الذي يقتل صدورنا، وراحة من هذه البلايل<sup>(٦)</sup> التي تزعجنا، إلا أن نريد ليوسف شراً، نقتله، ونمحو آثاره، أو نذهب به من مفازة<sup>(٧)</sup> بعيدة، يأكله حيوان، أو تدفنه رمال الصحراء وحينئذٍ تقترب مسافة الخلف بيننا وبين أبينا أو تزول، وندنو من قلبه، ونأخذ ما حُرِمنا من حبه، ثم بعدها نستغفر الله من ذنبننا، وما إخالنا بعد ذلك إلا قوماً صالحين.

قال يهوذا - وكان من أشدّهم رأياً، وأرجحهم حلماً: نحن أبناء يعقوب الرسول وأحفاد إبراهيم الخليل، ولنا عقل ودين، والقتل لا يقره العقل؛ وبأبنا، الدين، ويوسف غلام بريء لم يعجن إثماً، ولم يرتكب جُزماً ولم يقدم سوءاً، ولكنكم إذا كنتم مجتمعين له إبعاداً، فهذا الجب<sup>(٨)</sup> الذي ببيت المقدس، ملتقى

(١) عقت الراحنة: بقيت.

(٢) شأننا: شأننا.

(٣) حنكته التجارب: هذبه.

(٤) الحيف: الظلم.

(٥) الشغاف: غشاء القلب.

(٦) المفازة: الصحراء.

(٧) شدة الهم والوساوس.

(٨) الجب: البئر البعيد القمر الكثير الماء. وليست مما حفر الناس.

الغادي والرائح، ألقوه فيه، يلتقطه بعضُ السيَّارة<sup>(١)</sup> الذين يضربون في الأرض، فيذهبوا به إلى حيث شاؤوا، وحينئذٍ نكون قد نلنا ما نرجوه من إبعاد ليوسف، وخلصنا من إثم القتل وعاره.

فاستجابوا لهذا الرأي، وبيَّثوا أمرهم على هذا العزم!

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى أبيهم، والهوى يُزين لهم ما يصنعون، والشيطانُ يحفزهم وهم يمكرون، وقالوا: يا أبانا، ما لك لا تأمننا على يوسف، وهو أخونا وبِضعة<sup>(٢)</sup> منا، ونحن جميعاً أبناؤك، يُظنُّنا عطفك، ويتنظمننا حُبُّك؟ هلا ترسله معنا غداً إلى ظاهر البلد<sup>(٣)</sup>، حيث السماء الصافية، والشمس الضاحية<sup>(٤)</sup>، والريف الوديع، والظلُّ الوَرِيف، فبينما نحن نرعى الغنم، ونتعهد الأرض، يلعب هو ويركض، ويعود آخر النهار أصحَّ جسماً، وأصفى نفساً! لئن أرسلته معنا لنزومتَه بعيوننا، ولنرقُّنَّ عليه بقلوبنا، ولنغديته بأرواحنا.

قال يعقوب - وقد حذر العاقبة، وأشفق من وقوع المكروه: إن ما يبعث همي، ويثير أحزائي؛ أن أرى يوسف بعيداً عن عيني وقلبي، قصيماً عن جناح عطفِي وظلِّ رعائتي، وإني لأخشى أن تذهبوا به فيصادف الذئب منكم غفلة، أو يتتهز فرصة، فيقتله ويأكله، وحينئذٍ تخلفون لي حُزناً طويلاً، وقلباً لهيفاً، وعيناً غبّرى.

قالوا: أياكله الذئب ونحن عصابة ليس فينا هشيم<sup>(٥)</sup>، ولا ضعيف؟ لئن وقع ما تحذر إنا إذا لخاسرون.

قال يعقوب: أمّا على أن تحوطوه بقلوبكم، وتلحظوه بعيونكم، فدونكم وما تريدون، والله من ورائكم محيط.

وأصبح الصباح وصحبهم يوسف، وأخذوا طريقهم إلى الجبِّ، وما وصلوا إليه حتى تكشفت نيّاتهم، وبرزت سخائم<sup>(٦)</sup> صدورهم، وغلظت أكبادهم، وقست قلوبهم، فجرّده من قميصه، وألقوه في الجب<sup>(٧)</sup> حيث تلعب به الأقدار، ولم يشفع عنده دمعٌ سخين، ولا توسلٌ وّجيع.

(١) السيارة: القافلة.

(٢) البضعة في الأصل: القطعة من اللحم.

(٣) ظاهر الأرض: ما ارتفع منها.

(٤) الضاحي من كل شيء: البارز الظاهر الذي لا يستره منك حائط.

(٥) الهشيم: الضعيف.

(٦) السخيمة: الحقد.

(٧) ربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشمته وإذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره الماء فصعد على صخرة ووقف فوقها.

وحسبوا أنهم بذلك شفّوا غيظ صدورهم، أو أطفأوا وقدة أحقادهم، وأن قلب أبيهم سيخلو لحبّهم، ونفسه تخلص لهم، وظنوا أن الأيام ستسليه، وحبّه لهم من بعده يُلهمه، ولكنهم قدروا والأقدار تضحك، ودبّروا وأمر الله غالب.

ورجعوا إلى أبيهم عشاءً يلفقون القول، ويؤزّرون الحديث<sup>(١)</sup> واصطنعوا البكاء ظناً منهم أن هذا سينهض بحجّتهم، وجاؤوا على قميصه بدم كذب<sup>(٢)</sup> حُسيباً منهم أنه يقوم بُرهاناً على صدق دَعواهم.

وقالوا: يا أبانا ولقد وقّع ما كنت تحذّره، وحل ما كنت تخشاه، لقد تركنا يوسف عند متاعنا، وذهبنا نجري متسابقين، وما ظنّنا أن الذئب يقصد يوسف ويتربّب به الأذى، ولكنه وجده وحيداً، فهجم عليه وأكله، وخلف لنا هذا الحزن الذي يكاد يفتك بصدورنا، وتلك العبرات التي تفيض بها عيوننا، وذلك قميصه مُضرّج بدمه، وما نظنك تؤمن بصدق قولنا، ولو كنا صادقين!

قال يعقوب - وقد فطن إلى ما كادوا ونفذ ببصيرته إلى ما دبّروا، وعلم أن لله شأناً في هذا الغلام هو لا بدّ بالغه: لقد سوّلت لكم أنفسكم نكراً<sup>(٣)</sup> وأملى عليكم الحسد أمراً، ولكنني سأصبر صبراً جميلاً، حتى يكشف أمركم، وتظهر عاقبة كيدكم، والله المستعان على ما تصفون.

### يوسف في الجب

يوسف الآن في الجبّ يحتويه ظلامه، ويشتمله سكونه، محنة يمتحن بها هذا الفتى الكريم، والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب، ويفتنهم<sup>(٤)</sup> بضروب الآلام، ليكونوا أقدر احتمالاً على ما يلقى عليهم من مهمّات الأمور وعظيّماتها.

ولم تكن محنة أنكى في الداء، وأبلغ في الألم وأبعث على الجزع من هذه المحنة التي ابتلي بها يوسف. وربما كانت هذه أخفّ وقعاً، وأهون شأنًا، لو أنها وقعت على رجل خبّر أساليب الحياة، وعجم عيدان<sup>(٥)</sup> الأمور، إذأ لعرف كيف يحتال لنفسه، أو يتدبّر في أمره، ولكن يوسف لا يزال فتى غريباً لا يريش<sup>(٦)</sup> ولا يبري.

(١) زور الكلام: أعده وهياه.

(٢) دم كذب: مكذوب.

(٣) سولت له نفسه: زينته له.

(٤) يفتنهم: يختبرهم.

(٥) عجم عيدان الأمور، أي اختبرها.

(٦) يقال: أبرى النبال وأريشها: أي أنتحتها وأصلحها، وأعمل لها ريشاً لتبصير سهماً يرمى به.

وربما كانت أخفّ احتمالاً لو أن يوسف كان قد اقتترفَ خطيئة، أو ارتكب إثماً، إذا كان خليقاً بهذه المحنة، جديراً بهذا العذاب، ولكنه كان مبرّأً من العيب، بعيداً عن التهمة، قصيماً عن مواطن الرّيب، وهو بعدُ في زكاء الطفولة وغرارة الفتوة، وأمره في رقة الحاشية وخفض الجناح كان معروفاً مألوفاً.

ولو أن رمية يوسف كانت من غير إخوته، ومحتته<sup>(١)</sup> جاءت من غير أصرته<sup>(٢)</sup> لاحتملها قلبه، واتسعت لها جوانب صدره، ولم يتشعب فيها همّه وأسفه ولكنه سهمٌ إخوته، ورميةٌ بني أبيه!

لو بغير الماء خلقي شرق كنت كالغضبان بالماء اعتصاري<sup>(٣)</sup>

هو الآن يجول بعينه في نواحي الجُب، ويتلفت أمامه فلا يجد إلا ماءً راكداً يرى فيه خياله الكاسيف<sup>(٤)</sup>، وظله الحزين، ويتلفت فوقه فلا يلمح إلا ظلاماً متكاثراً لا يميز فيه شيئاً، ما عسى كانت بلابله<sup>(٥)</sup>؟ وما خطرات نفسه؟ لعله تذكر أباه، فأعادت إليه الذكرى ابتسامته التي كانت تطالعُه في الصباح، وحديثه الذي كان يتساقط إلى أذنيه في المساء، وكلفه بذاته، وتعلّقه بشخصه. وما حاله الآن بعده؟ وأي حزن يشتمل عليه؟

بل لعله قد راعه الظلام، وأوحشه ضيقُ المكان، فحنّ لطلعة الشمس وتألّق البدر، واشتباك النجم، وزرقة السماء، وزوّنق الضحى، وبهجة الربيع، وانسجام الظلال.

ثم هو قد جاع، أو أنه سيجوع، فمن أين يسدّ حاجته؟ وأتى له بالطعام الذي يحفظ جسمه، ويطيل في الحياة أنفاسه؟ بلابلٌ لا تحتملها ساحة قلبه، وهموم لا تنسع لها رقعة نفسه.

إن البلاء يُطاق غير مضاعف فإذا تضاعف صار غير مُطاق

لكن رحمة الله قد اقتربت منه، فهو قد امتحنه<sup>(٦)</sup> بهذه البلوى، وهو الذي سيربط قلبه، وسيجمع ما تفرق من نفسه. ها قد أوحى إليه: أن تجمل بالصبر،

(١) محتته: مصيئته.

(٢) من لهم به صلة.

(٣) الاعتصار: إزالة النصة بالماء قليلاً قليلاً.

(٤) الكاسف: سبى الحال.

(٥) البلايل: الوسوس.

(٦) امتحنه: اختبره وابتلاه.



واعتصم بالعزاء، فإني جاعلٌ لك من ضيقك مخرجاً، ومن همك فرجاً، وإني مُظهرٌك على إخوتك ولكن بعد حين. عند ذلك ذهبت همومه، ورجعت إليه نفسه، وانتظر يَرُقب أمر الله.

ها هو ذا يسمع من بعيد صدى حركة مُبهمة، وأصوات مختلطة، لقد أرهف سمعه، ووذ لو أن كل جارحة من جوارحه استحالت آذاناً.

وها هي ذي الأصوات أخذت تقترب رويداً رويداً، وتتضح شيئاً فشيئاً، أصوات أسفرت عن وقع أقدام، وخفق نعال، وتباح كلاب. هي قافلة، وأمل يتسم، وزهر الرجاء بدأ يتفتح، وساعة الخلاص آن أوانها.

ألقت السيارة<sup>(١)</sup> عصاها بجانب الجب، وهتف رئيس القافلة بصوتٍ سمعه يوسف، ووقع على قلبه وقوع الماء من ذي الغلّة الصادي<sup>(٢)</sup>: أَلَيْ ذُلُّوك يا هذا في الجب، وامتح<sup>(٣)</sup> لنا ماء ننقع به غلّتنا<sup>(٤)</sup>، ونسد حاجتنا، ونسقي دوابنا بعد أن أجهدنا السير، وأصابنا بُعد الشقة، وأخذ منا الكلال.

فألقي الرجل ذلّوه، ورأى يوسف الدلو فتعلق به. وما راع الرجل إلا غلام متعلق بالحبل؛ وجهه كأنه فلقة قمر! فصاح: يا بُشري، هذا غلام!

فاجتمع القوم، وأخذهم الدهش؛ ثم أجمعوا على أن يتخذوه غلاماً يبيعونه بمصر! ولو أنهم كانوا يحملون بين جوانحهم قلوباً رحيمة؛ أو يحتوون نفوساً كريمة لتعرفوا حاله وردوه إلى أهله، ولكنهم بعض الأنام، يجرون على طباع البشر.

إنما أنفَس الأنيس سِباع يتفارسن جَهرةً واغتيالاً واستأنفت القافلة السير، حتى ألقت عصاها بمصر.

وهناك عرضوه للبيع في سوق؛ وهو الخر الأبي، والرسول الكريم، وباعوه بيع السماع<sup>(٥)</sup> بثمان قليل: ﴿ذَرَّهُمْ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

خشية أن يفتضح<sup>(٦)</sup> أمرهم، أو يهتك سرهم، ولو أنهم باعوه بملء الأرض ذهباً لما كان ذلك عدلاً لهذه النفس العظيمة؛ وكفاء لهذا الغلام الكريم.

(١) السيارة: القافلة، وألقت عصاها: استقرت.

(٢) الصادي: العطشان.

(٣) متح الماء: نزعه وأخرجه.

(٤) ننقع به غلّتنا: ننقع به ظمأنا.

(٥) السماع: المساهلة في البيع.

(٦) يفتضح: ينكشف.

اشتراه عزيز مصر<sup>(١)</sup> ووزيرها الأكبر، فتوسّم فيه معدناً كريماً، وعزقاً طيباً، فقال لامراته: هذا غلام يُخَيَّل إليّ من معارفه وهدوء طبيعه أنه نبيل الفطرة. سري<sup>(٢)</sup> الأخلاق، كريم المنبت، فأكرمي مثواه ومأواه، وحاشاك أن تزجّريه زَجْرَ الخدم، أو تضربيه ضرب العبيد، فإنني لأرجو إذا اكتمل عودُه، ونضجت سنُّه أن ينفعنا، أو نتخذَه ولداً.

وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز، في جدّ وأمانة، ولقيَ فيهم أهلاً بأهل وجيراناً بجيران.

## يوسف وامرأة العزيز

١

لم يكد يوسف يَخْلُص من محنة الجُب، ويخلدُ إلى حياة هادئة في منزل العزيز، حتى ابتدأت الأيام تخطيط له محنة أخرى، يَفْوَى بها عزْمُه، وتقرب إلى الله بها نفسه، ولأقدار قد جاءت في محنته هذه من ناحية حُسنه وجماله، ودخلت إليه من طريق فُتْرته ونضارة شبابه، فشقيّ بهذا الحسن زماناً، وجرّ عليه بلاءً طويلاً.

وكم رَمَتْ قَسَمَاتُ الحُسْنِ صاحبها      وأتعبت قَصَبَاتُ السبِقِ حاويها  
وزهرة الرّوضِ لولا حُسن رُونقها      لما استطالت عليها كفّ جانيتها

ابتدأ يوسف في عمله، وهيأت له الملابسات إظهارَ مكنون حَزْمِه وعقله، وأمانته ونزاهته، فازدادت به ثقة العزيز، وأدخله فيما بين نفسه وأهله، ويوّأه مكان الأشراف الأحرار، ووضعه من قلبه موضع الأبناء الأبرار.

وتقدمت به الأيام، وأظله ربيعُ العمر، وخلع قميصَ الحدائث، ولبس بُردَ الشباب، وإذا امرأة العزيز يشغلها هذا الغلام. فأخذت ترقبه في غدوّه ورواحه، وتلحظه في قيامه وقعوده، وفي يقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وبدت لها محاسنه الخفية، وحيويته القوية، وشعرت أن حبّه ينبت في قلبها، وينبض في عروقها، ويجري مع أنفاسها، فوسوست به في خلوتها، وتمتته - وللجسان تَمَنُّ في لياليها - ولكن كيف السبيل إليه، وهي امرأة العزيز، ومقامه في القصر مقامها ومكانة زوجها في مصر مكانتها؟ لخير لها أن تغلب ميلها، وتسحق

(١) هو رئيس شرطة مصر، واسمه قوطيفار.

(٢) رفيع.

هواها، وتصرف نوازي الهوى عن نفسها، ولكنها كلما رآته مال إليه قلبها، وبعث الحب قوياً في صدرها.

وأشدُّ ما لُقِّيت من ألم الجوى<sup>(١)</sup>      قربُ الحبيب وما إليه وصولُ  
كالعيسِ في البيداء يقتلها الظمًا<sup>(٢)</sup>      والماءُ فوقَ ظهورها محمولُ

ولما ضاق صدرها، ودينف<sup>(٣)</sup> جسمها، رأت أن تجيب داعي الهوى، وتجاذبه ثوب الغرام، ولكن على ألا تُذلَّ نفسها، أو تهبط عن عرشها، فنصبت له حَبَائِلَ الفتنَة، وأطلعت من نفسها على ما عساه أن يصيب نفسه، ويثير داعية هواه.

لكنه أعرض عن تلويحها وتلمييحها، وغضَّ بصره عن محاسنها وزوتق جمالها، وما كان ليوسف - وهو الكريم ابن الكريم - أن يميل قلبه إلى مخزم، أو تُجَنِّح به نفسه إلى معصية. وما كان له أيضاً - وقد مهَّد له العزيزُ من كَنَفه، ويسط له مهَاد صَدْره، واتمنه على أهله - أن يخطانه في منزله، أو يسوءه في امرأته.

ولكن الإعراض ضاعف هواها، والمنع أثار كامينَ غرامها، فرأت أن تصل بالتصريح إلى ما لم تنل بالتلويح، وأن تكون أجراً على ما تطلب، وأشجع فيما تريد؛ فما بقي في قوس الصبر منزع، وما عادت بعد اليوم تُطبق صدره وإعراضه، وأجمعت الرأي وهيأت نفسها لما تريد، بعد أن ألقت صَوْلجان الملك، ولبست شعار المُتَصَبِّية العاشقة، ودَعَتْه لمخدعها فلبى سريعاً، استجابة لأمرها، وجرياً على عادته في طاعتها؛ ثم أسدلت السُّجْف<sup>(٤)</sup> وغلقت الأبواب، وقالت: هَيْتَ<sup>(٥)</sup> لك!

ولكن يوسف، وإن كان في زيعان الشباب، وغضاضة الإهاب، وفراغ البال، وحسن الحال، قد ارتضع لبان الحكمة، وترعرع في كنف الرسالة، وأعدّه الله لشرف النبوة، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فقلبه مشغول بربه، ليس فيه موضع تستميله المرأة، أو تستهويه نزوات الهوى.

أجابها: معاذ الله أن أجيبك إلى ما تريد، أو أذعن إلى ما تطلبين! وحاشائي أن أخون مولاي العزيز، وهو الذي أحسن مَثَوَايَ، وأكرم مأواي وما أنا بمنكِرٍ للنعمة، ولا بجاحِدٍ للجميل.

إن كنتِ قد غلقتِ الأبواب، وأسدلتِ الحُجُبَ، فإن الله: ﴿يَعْلَمُ سَائِبَةَ

(١) الجوى: الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن.

(٢) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة.

(٣) دنف: مرض وذبل.

(٤) السجف: الستور.

(٥) هيت لك: تهيأت لك.

الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١١﴾ [غافر: ١٩]! وحاشاي أن تطاوعني نفسي لمعصيته، أو أن يستجيب قلبي إلى ما فيه غضبه، إنه لا يفلح الظالمون!.

امرأة العزيز في سطوتها وعزتها، وجمالها ودلالها، تدعو فتى من فتيانها بل واحداً من خدامها، فيأبى ويمتنع، ويستكبر ويستعصم، وهي الأميرة الناهية في قصرها والسيدة المُطاعة في خدَمها وحشَمها! إنها لعظيمة لا يحتملها كبرياؤها، وكبيرة لا تسيغها نفسها.

استطار غضبها، وهاج هائجها، فهتت به بطشاً، وأرادت به سوءاً، انتقاماً لعزتها المُضاعة، فهم أن يلقى الشر بالشر، ويصد الضرب بالضرب، ولكنه أحس بإشراق النبوة في نفسه، ورأى برهان الله في قلبه، وأوجي إليه: إن الفوار خير من القتال، والمسألة خير من الموائبة؛ فاستجاب لوحي ربه، وهم إلى الباب جرياً، وهمت وراءه عدواً، حتى أمسكته من قميصه، وجذبتته من ثوبه. وما انتهى إلى الباب حتى رآه العزيز واقفاً وقميصه ممزقاً.

كان موقفاً يبعث على الريبة<sup>(٢)</sup>، ويشير الاتهام، رجعت فيه المرأة إلى كيدها ومكرها، والتجأ يوسف إلى صدقه وصراحته... قالت: إن يوسف لم يزغ حُرمتك، ولم يحفظ ذماتك، فإنه حاول أن يدنس ثوبي، فراودني عن نفسي، ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

فلم يجد يوسف ملجأ إلا الصراحة في القول، والاعتراف بالواقع، إذ كانت جريئة في الكذب، جريئة في البهتان؛ فقال: هي التي راودتني عن نفسي، وجذبتني ثوبي العفيف، وهذا قميصي شاهد على صدق دعواي.

وفيما هو في أمره معها دخل ابن عمها، وكان فطناً، زكياً أريباً<sup>(٣)</sup>، فسمع القضية من أطرافها، وفطن لما وراء قصتها، فقال: إن كان قميصه قد<sup>(٤)</sup> من قبل<sup>(٥)</sup> فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد<sup>(٦)</sup> من دبر<sup>(٦)</sup> فكذبت وهو من الصادقين.

فلما رأى قميصه قد<sup>(٧)</sup> من دبر وجلت الرغوة عن الصريح<sup>(٨)</sup>، ووضح الحق

(١) ما تخون فيه من مسارقة النظر إلى ما لا يحل.

(٢) الريبة: الشك.

(٣) الأريب: صاحب العقل والبصير من الأمر.

(٤) القد: الشق طولاً.

(٥) قبل: أمام.

(٦) دبر: وراء.

(٧) قد: شق.

(٨) الصريح: اللين الخالص، وهو من باب التمثيل.

لذي عينين، وظهرت براءة يوسف، والتفت العزيز إلى امرأته، وقال: إن هذا من كيد النساء ومكرهن، ﴿وَاسْتَفْرَىٰ لِذُنُوبِكُمْ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]. وأنت يا يوسف، اربط لسانك عن الخوض في الحديث، خشية أن تشيع القالة وينتشر الحديث بين الناس.

## ٢

وشاع في المدينة وعلى السنة النسوة، وبين جنّيات القصور، أن امرأة العزيز قد افتتنت بغلامها الفتى، ووقعت في غرامه، واستهامت بجماله، وأنها لما امشحت به من حُبه، واضطلت بنار عشقه، قد نزلت عن عرشها، ودعته لنفسها، وسددت إليه سهام فتنتها وسحرها ولكنه عَزَفَ (١) عنها، وزهد فيها، ولم يفتنه حُسنها ولا دلالها، ولم تستهوه روعتها ولا جمالها، فهي لهذا مسلوبة الفؤاد مضرمة الأنفاس، تُخفي أمرها، فيفضحها الدمع، وتستر وجدها فينم عليه السَّقم.

وأخذت تلك القالة تشيع وتتشعب، وتتخذ لها ألواناً وأشكالاً، حتى انتهت إلى امرأة العزيز، وسقط في سَمْعها كل ما تحدثت به لذاتها (٢)، وأترابها من نسوة المدينة، وما تَزَيَّدَنَّ فيه، وما نلته منها بحصائد ألسنتهن وقارص تأنيهن، فلم تَزِبْدَأ أن تدحض هذا القول، وتفلّ ذلك السلاح، وتقابل مكرهن بمكر، وكيدهن بكيد.

فدعتهن في يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها، وهيأت لهن مُتَكَاتٍ وثيرة وأرائك مُرِيحة، وخلعت عليهن أردية الحفاوة، وأحاطتهن بهالة من النعيم، وقدمت لهن الفاكهة، وآت (٣) كل واحدة منهن سِكِيناً، وقالت ليوسف: أخرج عليهن، وامش بين صفوفهن، فخرج من مَخْدَعِهِ وقد صبغ الحياء غلالة وجهه، وملاه الحسن من أحمصه إلى مَفْرَقِهِ (٤) فشاهدن فتى لا كالفتيان، وشاباً لا كالشبان، أبلج الغرّة، وضيء الطلعة، سمح المعارف، حلو الملامح، ملء أردانه (٥) قوة وشباب، وحشو دزعه مهابة وجلال. وشاهدن من وراء هذه القسامة (٦) نفساً جميلة كريمة، فذهلن عما كن فيه،

(١) انصرف عنها.

(٢) اللدات: جمع لدة، وهي ما يساري المرء في سته.

(٣) آت: أعطت.

(٤) الأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض. والمفروق، بكسر الراء وفتحها: الموضع الذي يفرق فيه الشعر.

(٥) الأردن: جمع ردن، وهو أصل الكم (طرف الكم الواسع).

(٦) القسامة: الحسن.

وَحُولَطَنَ فِي عَقُولِهِنَّ، فَإِذَا السَّكَائِينُ تَقَعُ عَلَى أَيْدِيهِنَّ فَتَقَطِّعُهَا، فَقُلْنَ: حَاشَ اللَّهُ وَتَبَارَكَ خَلْقُهُ ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فصَفَّقَتِ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بِيَدَيْهَا؛ وَكَأَنَّهُ قَدْ سُرِّيَ عَنْهَا، وَقَالَتْ: هَذَا يُوسُفُ الَّذِي لَمَتَّنِي فِيهِ، وَخُضَّتَنِي فِي حَدِيثِي مَعَهُ، وَهَذَا شَأْنُكَ فِيهِ؛ وَقَدْ رَأَيْتُهُ عَفْوًا، وَشَاهَدْتُهُ لِمَحَا، فَمَا بِالْكَفِّ تَلَمَّنْتَنِي فِيهِ، وَقَدْ تَرَعَّرَعُ فِي دَارِي، وَبَلَغَ أَشَدَّهُ أَمَامِي، وَاسْتَوَى بَيْنَ سَمْعِي وَبِصْرِي، فَأَنَا أَشَاهِدُهُ فِي قَعُودِهِ وَقِيَامِهِ، وَمَنَامِهِ وَطَعَامِهِ وَشِرَابِهِ، وَحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، وَأَخْلُو بِهِ فِي لَيْلِي وَنَهَارِي، وَأَتْرَأَى لَهُ فِي زِينَتِي، وَأَعْرَضَ عَلَيَّ نَظْرَهُ مَا ظَهَرَ مِنْ مَحَاسِنِي، فَيُعْرَضُ عَنِّي اسْتِعْصَامًا، وَلَا يَرْفَعُ إِلَيَّ طَرْفًا، وَلَا يُمِيلُ نَحْوِي عَظْفًا<sup>(١)</sup>، بَلْ يَتَجَلَّى فِيهِ الرُّوحُ الْمَلَائِكِيُّ بِأَظْهَرِ مَجَالِيهِ، وَالْعِبَادَةُ الْإِلَهِيَّةُ بِأَكْمَلِ مَعَانِيهَا.

أمِثِلُ هَذَا الْمَلِكِ الْقَاهِرِ يُسَمَّى عَبْدًا طَائِعًا، وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمَقْهُورَةِ تُسَمَّى سَيِّدَةً مَالِكَةً؟ تَأْمُرُ - بَلْ تُشِيرُ - فَتُطَاعُ، ثُمَّ يَنْكُرُ عَلَيْهَا أَنْ تَرَاوِدَ فَتَرَدُّ، وَتُرِيدُ إِظْهَارَ سُلْطَانِهَا فَتَعْجِزُ!

لَا أَخْفِي عَلَيْكَ أَنَّنِي قَدْ رَاوَدْتَهُ عَنِ نَفْسِهِ. وَجَذَّبْتَهُ مِنْ قَلْبِهِ، فَتَأْتِي<sup>(٢)</sup> وَاسْتِعْصَمَ، وَانصَرَفَ عَنِّي وَأَعْرَضَ، وَلَا أَخْفِي عَلَيْكَ أَيْضًا أَنَّنِي سَوْفَ لَا أُطِيقُ عَلَى إِعْرَاضِهِ صَبْرًا، وَلَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَمْلِكَ لِقَلْبِي مَعَهُ زَمَامًا. فَهُوَ قَدْ مَلَكَ أَعْيُنَ قَلْبِي، وَاسْتَرْقَى فُؤَادِي. وَأَطَالَ لَيْلِي، وَسَلَبَ هَوَاهُ الْكَرَى<sup>(٣)</sup> مِنْ أَجْفَانِي، وَلَكِنْتِي - وَقَدْ أَذَلَّتْ نَفْسِي، وَافْتَضَّحَ أَمَامَ النَّاسِ أَمْرِي - لَشَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لِأَدْفَعَنَّ بِهِ إِلَى غِيَابَاتِ<sup>(٤)</sup> السَّجْنِ، يَعْانِي ظِلَامَهُ، يُبْلِي فِيهِ رَدَاءَ شِبَابِهِ، أَوْ لِأَذِيقْتَهُ هَوَانَ نَفْسِهِ، وَإِيذَاءَ جِسْمِهِ، فَهَمَا أَمْرَانِ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ أَهْوَنَهُمَا عَلَيْهِ.

رَأَى النِّسْوَةَ مَا رَأَيْنَ مِنْ جَمَالِ يُوسُفَ وَرُوعَتِهِ وَرُؤْنِقِهِ وَتَأَلَّقَ عُرَّتَهُ، ثُمَّ رَأَيْنَ مَا رَأَيْنَ مِنْ حُرْقَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَصَبُوتِهَا وَتَمَتُّيْهَا فِي عَزِّهَا وَجَاهِهَا وَفِي سَطُوتِهَا وَسُلْطَانِهَا، ثُمَّ سَمِعْنَ مِنْ تَهْدِيدِهَا وَوَعِيدِهَا فَتَأَلَّبْنَ مَعَهَا عَلَيْهِ، وَتَقَرَّبْنَ إِلَيْهِ. قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: أَيُّهَا الْفَتَى الْكَرِيمُ، مَا هَذَا التَّأْبِي وَالتَّمَتُّعُ؟ وَلِمَ هَذَا الْإِنْصِرَافُ وَالْأَزْوَرَارُ؟ أَلَيْسَ لَكَ قَلْبٌ يَلِينُ لِهَذِهِ الَّتِي أَسْلَمْتَ نَفْسَهَا، وَدَفَعْتَ إِلَيْكَ بِقَلْبِهَا؟ أَلَيْسَ لَكَ عَيْنٌ تَنْظُرُ إِلَى مَنْ تُقَيِّدُ الطَّرْفَ بِحُسْنِهَا، وَتَسْتَمِيلُ الْعَصِيَّ بِجَمَالِهَا؟ أَلَسْتَ شَابًا مَكْتَوِلًا

(١) أصل العطف. الجانب، ويقال: ثنى عطفه عني، أي أعرض.

(٢) تأبى: امتنع.

(٣) الكرى: النوم.

(٤) غيابة كل شيء: ما سترك منه.

الشباب، غضيض الإهاب، لك في المرأة نصيب، ومن المتعة بها مقدار؟  
وقالت الأخرى: ودَعَك من جمالها، أَلست تنظر إلى مالها وسلطانها وعزّها  
وجاهها؟ ألم تعلم أن كل ما في هذا القصر مبذول لك لو أطعتها، مُيسر لك لو أجبتهَا؟  
وقالت الثالثة: إن لم يكن لك مآرب في جمالها، أو مطمع في مالها، أَلست  
تخشى ما تَوَعَدتْكَ به من سجن لا تعلم مداه، أو عذاب لا تَدْرِك غايته أو منتهاه؟  
لخَيْرُ لك أن تُسَلِسَ<sup>(١)</sup> من قيادك، وأن تخفف من عنادك فتفوز بالحسنيين: الجمال  
والمال، وتأمّن من شرّين: السجن والعذاب.

قلن ذلك، وحسبن أنهن بالغات بكلامهن قرازه، أبو محركات مكانن الهوى  
من فؤاده، ولكن يوسف اضطرب بين الوعد والوعيد، وبين المنع والإغراء، حتى  
خاف أن يشبهه عليه الأمر، ويوسوس إليه الشيطان، فتوسّل إلى الله. والمؤمن لا  
يزال يفرغ<sup>(٢)</sup> إلى الله في كل ما يحزبه من هم، أو يصيبه من مكروه، أو يشبهه عليه  
من أمر، فيلتمس منه العون والإرشاد.

وكذلك كان يوسف، فإنه توجه إلى الله، وتضرع إليه أن يصرف عنه السوء،  
ويصد عنه كيد النساء، وقال: رَبِّ، إن السجن على ظلامي ووحشته أزوح على  
نفسي، وأميل إلى قلبي من مجاهدة هؤلاء النسوة ومغالبتهن؛ فيه أصبر على  
بلائك، وأزيد إيماناً بقضائك، وأعلم ما خفي علي من شؤون خلقك؛ وقد يفتح  
لي باب الدعوة إلى معرفتك وتوحيدك، وتتهيأ لي الفرصة لعبادتك وتمجيدك؛ وفيه  
أعد نفسي لإقامة الحق، ونصب ميزان العدل، فيما عسى أن تخولني من الأمر،  
كما وعدت أن تمكّن لي في الأرض، ووعدك الحق وقولك الصدق. أما أن أقيم  
بين هؤلاء النسوة، يفيتني بالقول ويؤخرن لي باطل الحياة، فإنني لأخشى من  
هواي أن يميل ومن الشيطان أن يوسوس فيتغلب، فأصبو إليهن، ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ  
إِلَيَّ وَمَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ<sup>(٣)</sup> إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ السَّاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وكل تلك المحن<sup>(٤)</sup> التي ابتلي بها يوسف، والحبائل<sup>(٥)</sup> التي نصبت له،  
والأقاريل، التي نسجت حوله، خرج منها عفيف النفس، طاهر الذليل. فقد افتتت  
سيدته في مُراودته؛ ولكن لم يكن لذلك أدنى أثر في جذب خلسات نظره ولا

(١) أسلس قياده: صيره سلساً سهلاً.

(٢) يفرغ: يلبجأ.

(٣) أصب: الممح: المصائب والبلايا.

(٤) الحبائل: جمع حباله، وهي المصيدة.

حَقَّقَات قلبه؛ بل ظلّ معرضاً عنها، متجاهلاً لها، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعرّ جِلْدُهُ، واستعاذ بربه، وأَيْف أن يخونَ سيده، واتهمته بالاعتداء عليها، فشهد شاهدٌ من أهلها أسقط حجّتها، وأوهى كلامها، واجتمع حوله النسوة يفتنه، فما نقضن له مرة<sup>(١)</sup> ولا حوّلن له قلباً.

ظهرت هذه العلامات دالة على براءته، شاهدة على نزاهته وأمانته، وعلمها العزيز واستيقنتها نفسه، ولكن امرأته - وقد عِيل<sup>(٢)</sup> صبرها، وانقطع من يوسف رجاؤها - فزعت إليه، وكان مطوعاً لها، وجملاً ذلولاً في يدها، وقالت له: إن يوسف قد فضحني في أمري، وافترى عليّ الزور في شرفي، وما أرى إلا أن تسجنه، فتأخذ لشرفي، وتشفي من غيظي.

فانقاد لقولها، وصدّع بأمرها، ودفع بيوسف إلى السجن، بريئاً من ذنبه، كما كان الذنب بريئاً من دمه، فاستقبل فيه محنة جديدة، تلقاها بقلب الصابرين، وعزم المؤمنين.

### يوسف السجين

دخل يوسف السجن - لا كما يدخل مجرمٌ قتل نفساً، أو لص سرق متاعاً - بل دخولَ مظلوم لم تنصفه كلمة القضاء، فأسلم نفسه يرجو عدل السماء، دخله مُرتاح الضمير، رَضِي النفس، منقوع الفؤاد. وما السجن وظلامه، والأسر وأغلاله، في جانب هذه الفتنة التي أثّرت حوله، والمؤامرة التي دُبّرت للإيقاع به؟ ألم يكن السجن نجاة له من هذه الفتنة التي قُصِدَ بها ثلْمُ دينه، والمؤامرة التي دُبّرت ليوكس<sup>(٣)</sup> خلقه، وإفساد عصمته؟ وما ضرَّ يوسف أن يُسجن أو يُمنع من الغدو والزواح؟ أليس هو واجداً في السجن قوماً جفاة ظالمين، أو عتاة مجرمين؟ لخيرٌ له أن يقوم بينهم معلماً راشداً وناصحاً أميناً، فلعله يَخْضِد<sup>(٤)</sup> من شوكة الظلم فيهم، أو ينزع نوازي الشر من صدورهم، فيكون قد طهر الإنسانية من بعض أدرانها، وخفف عن كاهلها ما تنوء به من عبء مجرميها؟

ألا يجد فيهم قوماً مظلومين، وأغفلاً<sup>(٥)</sup> مساكين؟ إنها فرصة طيّبة، وسانحة<sup>(٦)</sup> جميلة، ليواسيهم في آلامهم. ويشاركهم في محنتهم، فيكون ذلك

(١) المرة: طاقة الجبل وقوة الخلق.

(٢) نفذ صبرها.

(٣) الوكس: النقصان.

(٤) يخضد: يكسر.

(٥) الأغفال: جمع غفل، وهو من لا يرجي خيره، ولا يخشى شره.

(٦) سانحة: فرصة.



أرواح لنفسه الرضية، وأنسب لطبعه الكريم، والله قد وعده النبوة، ومناه بالرسالة. وأي شرف يعلو هذه المنزلة؟ وأي عز يطاول هذا المقدار؟ فما يبالي بعد ذلك السجن والعذاب، والقيد والأغلال؟

وامتدت أيام سجنه، ومكث فيه دهرًا، يعودُ المرضى ويواسي الضعفاء، وينصح الأشقياء، وينشر عليهم مع كلِّ صُبح فيضاً من علمه، وقبساً من فضله، حتى أحبه المسجونون، وكلفوا به، واطمأنت نفوسهم إليه.

ودخلَ فيمن دخل معه السجنَ فتيان من حاشية الملك: ساقيه وخازن طعامه، ذاقا معه آلام السجن، واحتملا ذلَّ الأسر والقيد، حتى أصبحت يوماً على رؤيا أهمتهما، وأزعجت طائر الاطمئنان في صدرهما، فأسرعا إلى يوسف يستثبانه عن رؤيتهما، ويستفتياه في أمرهما.

قال الساقى: لقد رأيتُ كأنى في بستان كرم معروش<sup>(١)</sup> زاو مخضِر، وكان بيدي كأس الملك، أعصر من عناقيده فيها.

وقال الخازن: وأما أنا فقد رأيت كأنى أحمل سِلالاً فيها أصناف الخبز والطعام، وكأن سرباً من الطير يتهاوى إليها ويتخطفها، ويذهب بها إلى مكان سحيق، فهل لك أن تنبئنا ما رأينا، بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير؟

وكان يوسف - قبل أن يلجأ إليه الفتيان - قد أكرمه الله برسالته، وآتاه ما وعده، وأمره أن يضطلع بما اضطلع به أبوه من قبل، من الدعوة إلى التوحيد، وإشعال قُبس الإيمان. وعيى به أن تكون دعوته مؤكدة النجاح، مقرونة بالفلاح، فهو في قوم فقراء قد طهر نفوسهم الفقر، ومظلومين يستشرفون إلى الإيمان، وهؤلاء وأولئك أقرب الناس لفهم الدعوى، وأكثرهم استعداداً لما يلقى عليهم من هدي وإرشاد.

وبينما هو يتهيأ للدعوة، ويُعدُّ<sup>(٢)</sup> نفسه لإعلان كلمة التوحيد إذ جاءه الفتيان، ورآها يوسف فرصةً يمهدُ بها للدعوة، فقال: يا قوم، إن وراء هذه الأصنام التي تعبدونها، والآلهة التي تتقربون إليها، إلهاً قد أوحى إلي أن أدلكم عليه، وأرشدكم إليه، وأن ما تعبدونه من رَع أو أيبس<sup>(٣)</sup>، أو تمثال أو صنم، ليست إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان. ولا يحملكم على عبادتها دليل أو برهان، وإن التمستم دليلاً على صدقي، أو أردتم برهاناً على صحة دعوتي، فدوونكم تأويل

(١) معروش: له عرش، والعرش: السقف.

(٢) يعدُّ: يتهيأ.

(٣) رع: علم على الشمس، وأيبس علم على العجل، وكانا من الآلهة عند قدماء المصريين.

رؤيا الفتّيين أما أحدهما فسيخرج من سجنه ويعودُ إلى سابقِ عهده، ساقياً للملك، قائماً بينه وبين نُدَمائه. وأما الآخر فسيصلّب وستأكل الطير من رأسه؛ عرفتُ هذا عن وحي غيب، لا بكهانة<sup>(١)</sup> أو تنجيم، أو ما يشبههما من صناعة أو تعليم، ذلك مما علّمني ربي، إني تركتِ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون.

ويوسف كان عالماً بصدق تأويله، وبوقوع نبوءته فقال للساقى، وقد علّم نجاته، وتوقّع صدور العفو عنه: يا هذا، إذا ما فارقت سجنك، ورجعت في قصر الملك إلى مكانك، فأذكر له أن مظلوماً يحويه السجن، ومتهماً بغير جريمة، يعاني الأشر والأغلال.

وصحّ تأويلُ يوسف، ونجا رجلٌ وصلب آخر، وما ابتدأ الساقى يعود إلى مليكه، حتى اضطرب فيما يضطرب فيه الناس، وأنساه الشيطان أن يذكر يوسف لربه، فلبث في السجن بضع سنين.

### خروج يوسف من السجن

أصبح الملك على رؤيا أهمّته وأفزعته، فدعا إليه علماء دولته، وأشرفَ قومه، وقصّ عليهم ما رأى.

قال: إني أرى سبعَ بقراتٍ سمان، يأكلهنَّ سبعٌ عجاف<sup>(٢)</sup> مهازيل، وسبعُ سُنبلاتٍ خُضِرٍ وأخرٍ يابسات، ثم طلب إليهم تعبيرَ هذه الرؤيا، وتفسير ذلك الحلم. فكلّهم عجز عن التأويل وعي عن التفسير، خيالات وأوهام، وأضغاث<sup>(٣)</sup> أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين!

ولكن هذه الرؤيا ذكّرت ناسياً ونبّهت لاهياً، وأثارت عنده ذكرياتٍ بعيدة، وأياماً في تاريخه ماضية، فساقى الملك ما كاد يسمع هذه الرؤيا، ويحسّ رغبة الملك في التأويل، حتى تذكّر يوسف السجين، ذلك الذي أوّل له الرؤيا فصدّق في التأويل، وهو الآن يمرح في أبراد<sup>(٤)</sup> النعمة، ويتقلّب في أعطاف النعيم.

قال: أيها الملك إن بالسجن فتى كريماً، صائب الفكر، ملهم الرأي، يكشف ودائع الغيوب بنور عقله، ويصيب شاكلة<sup>(٥)</sup> الصواب بثاقب تدبيره، تُعرَضُ عليه

(١) كهن: قضى بالغيب.

(٢) العجف: ذهاب السمن، وهو أعجف، وهي عجفاء.

(٣) أضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها.

(٤) أبراد: جمع برد، وهو ثوب مخطط.

(٥) أصل الشاكلة: الخاصرة.

الرؤيا فيخمرها ويُجبلها، ويجيد الفكرة فيها ويطيلها وثم يخرج بعد ذلك بالرأي الوثيق، والتأويل الصادق، ولو أرسلتني إليه لجئتُك بالخبر اليقين.

وانطلق الساقى إلى يوسف في سجنه، ومهبط آلامه، فوجده كما تركه صابراً مُحْتَسِباً، مؤمناً قانئاً، قال له: يوسف أيها الصديق، جئتُك فيما أرجو أن يكون لك فيه فرج من ضيقك، وعافية من محنتك، أفتينا في سبع بقرات سمانٍ يأكلهنَّ سبعُ عجافٍ مهزِيل، وسبع سنبلاتٍ خُضِر، وأخر يابسات، فلعلك بعلمك تروي نفوساً للتأويل ظامئة، وتجيب على أسئلة في الصدور مختلجة، ثم أرجو أن يعرف بعدها القوم فضلك الواسع، وعلمك الفياض.

ويوسف عليه السلام لم يكن عالماً يؤوّل فحسب، بل كان رسولاً مصلحاً أرسله الله هادياً للناس في دنياهم وآخرتهم، ومعاشهم ومعادهم، فما كان يرى فيه فرصة يتنفس بها برسالته إلا انتهزها، ولا نهزة<sup>(١)</sup> صالحة للدعوة إلا علق بها. فمن سنين مضت سأله الفتيان رؤياهما، فوجدها فرصة لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزئ بها، واليوم يسأله الملك عن رؤياه فيعرف التأويل، فلا يقصّر حديثه عليه، بل يمزج بالتأويل رأيه، ويُسدي إلى الشعب نصحه.

قال: إنكم تستقبلون سبع سنوات لبئنة رُخاء، تكونون في أخصب تربة وأمرع<sup>(٢)</sup> جناب، تزدهر حقولكم، وتزكو<sup>(٣)</sup> غلاتكم، ويصفو لكم العيش، وتطيب الحياة. ثم تأتي في أعقابها سبع شداد يُظلمكم فيها الأمل، وتكشف لكم الأيام عن سحاب خُلب<sup>(٤)</sup>، ووميض خادع، ينكص النيل فلا يفي بوعد، ولا يمدكم برفده، ويتجهم وجه الأرض، فلا تبثكم مكنون خيرها، ثم لا تجدون قائماً يُحصد، ولا حصيداً يخزن، وتصابون من دهركم بالداهية الجلى، والناتبة العظمى.

ثم بعد ذلك تصالحكم الأيام، ويُقبل عليكم الزمان، تتهلل وجوه الشجع، وتنحل عقدة الأمور، ويُظلمكم عام خصيب، تُغاثون فيه من شدتكم، وتصلحون ما فسد من أموركم، تجودكم الأرض بالحنطة والشعير فتأكلون، والقرطم<sup>(٥)</sup> والزيتون والسمس، فتعصرون وتأدُمون. ذلك تأويل الرؤيا، وذلك ما أشرقت به نفسي، وما تلقّيته بالوحي عن ربي.

- (١) النهزة: الفرصة.  
 (٢) أمرع الوادي: أخصب.  
 (٣) تزكو: تزيد.  
 (٤) سحاب خلب: لا مطر فيه.  
 (٥) ومض البرق: لمع لمعانا خفيفاً.  
 (٦) القرطم: العصفر.

وإذا كان ما أُخبرْتُ واقعاً لا محالة، فما حصدتم في سنيكم الرخاء فاخزئوه في أهرائكم<sup>(١)</sup> ودوركم، مصوناً في سنبله، حتى يظل سليماً نقياً، إلا ما تحتاجون إليه ما يقيم أودكم، ويحفظ حياتكم، لتتقوا السبع الشداد، والسنين العجاف.

ولما وصل إلى الملك هذا التفسير؛ وقطنَ لذلك النصيح والتدبير، أدرك أن وراء هذا عقلاً حصيفاً، وفكراً ملهماً، فدعاه إليه ليسبرَ غوره<sup>(٢)</sup>، ويُدرَك به شأوه<sup>(٣)</sup> ويفيد من رأيه وعلمه.

حضر إليه الرسول وناداه: يا يوسف، إن الملك يدعوك إلى حضرته، ويطلبك إلى مجلسه، فقد شام<sup>(٤)</sup> من تعبيرك علماً غزيراً، ولمح من نصحك رأياً حصيفاً؛ ليوثك أن يرتفع مقدارك، ويطلع نهارك.

ولكن يوسف كان رسولاً كريماً، وعلمه ربه كيف يكون صبوراً حليماً، فما استجاب للكلمة الأولى - وهو أحوج ما يكون إلى الانطلاق من الأسر ومفارقة السجن، فقد طال عهده بوحشته وظلامه، وأحزانه وآلامه. وقد مرّت عليه سنوات مجرّمات<sup>(٥)</sup>، لم يز الشمس الطالعة، ولا البدور المتألقة، ولا النجوم المشتبكة، ولا الزروع الناضرة، ولا الحقول المُمْرعة، بل لعله أمضى أيام سجنه لم يذق إلا طعاماً يابساً، وخبزاً قفاراً<sup>(٦)</sup>، وماء كدرأ رنقاً<sup>(٧)</sup>. ولعل رجليه لم تُحرم يوماً من قيد غليظ، ويديه لم تسلم من غلٍ ثقيل، ولعله أيضاً آذته ليالٍ افترش فيها المدر<sup>(٨)</sup>، وتوسّد الحجر، ونام على الأكم. وهو مع تلك الآلام التي شاهد، والمصائب التي لاقى، لم يكن إلا مظلوماً مغلوباً على أمره، يلقى العذاب ثمناً لما ادّرع به من عصمة وإيمان، ونزاهة وطهارة سريال<sup>(٩)</sup>.

فما أحبّ أن يخرج من سجنه مَمْنوناً عليه بعفو، أو مُتفضلاً عليه بشي، بل قال للرسول: ارجع إلى الملك وسلّه أن يتعرف أمر هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ، وأخذت ظلماً بجريرتهن<sup>(١٠)</sup>، ليظهرَ أمرى قبل أن أغادر السجن، وتُعرف قضيتي قبل أن يُفصل فيها بالعفو.

فأهمّ الملك أمرُ يوسف وشغل باله ذكرُ النسوة، وتشعبت أمامه وجوه القضية فما كان يظنّ الأمر يعدّو أن يكون ذلك السجين فتى لا يؤبه له، وهو اليوم يدعو

- |                                   |                                     |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| (١) الأهراء: جمع هري، وهو المخزن. | (٦) قفارا: غير مأدوم.               |
| (٢) يسبر غوره: يختبره.            | (٧) رنق الماء: كدر.                 |
| (٣) الشأو: الغاية.                | (٨) المدر: صغار الحجر.              |
| (٤) شام: رأى.                     | (٩) السريال: القميص أو كل ما يُلبس. |
| (٥) مجرمات: كاملات.               | (١٠) الجريرة: الذنب والجناية.       |

إليه لما ظهر من فضله، وعرف من علمه وخبره؛ ولكن ها هي ذي أمور ظهرت لديه كانت خافية، واتضحَت أشياء كانت غامضة.

فأحضر النسوة بين يديه، وسألهن: ما خطبُكن إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟ فما وجد الإنكار سبيلاً إلى قلوبهن، وما استطاع الكذب أن يسبق إلى ألسنتهن، بل صرَّحن بمحض<sup>(١)</sup> الحق، فقلن: حاش الله! ما علمنا عليه من سوء، وما خَبَرنا فيه إلا فتىً عفيفاً كريماً، نزيهاً أميناً، غير مُتهم في رأي، ولا ظنين<sup>(٢)</sup> في عِفة.

وقالت امرأة العزيز - وقد نالت منها الأيام والسنون: الآن حَصَّحَصَّص<sup>(٣)</sup> الحق، أنا راودته عن نفسه، وجذبتُه للغرام من ضَبْعِه<sup>(٤)</sup>، فقد كان فتىً وسيماً، جميلاً وضيئاً، وقد كان متي قريباً دانياً، وشخصه أمام عيني أبداً ماثلاً، عَلِقَه قلبي، ولم أستطع له دفعا، فدعوته فتأبى، وطلبتُه فامتنع، وكان لربه<sup>(٥)</sup> حافظاً، ولزوجي وfiaً.

وإني أخبركم الآن أنه أعفُ من رأيت نفساً، وأزكى<sup>(٦)</sup> من شهدت قلباً، وأنه احتمل ما احتمل من آلام السجن بريئاً مظلوماً.

أنا قذفتُ به إلى السجن، وأنا ألقيتُ به في هذا العذاب. ذلك الذي أعترف به الآن في وضح النهار، وضوء الشمس، بين سمع الملك وبصره، وبين حاشيته وبطانته، ليعلم يوسف - وهو الآن في سجنه - أنني لم أصِمُه<sup>(٧)</sup> بعيب، أو أرويه بريب، من يوم سجنه إلى هذه الساعة التي يُفصل فيها في أمره. ولقد صرَّحت لهؤلاء النسوة من قبل، بأني راودته عن نفسه فاستعصم. والآن أعترف بأني دعوته لنفسي فأبى، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ﴾<sup>(٨)</sup> [يوسف: ٥٢].

### يوسف عزيز مصر

جاءت شهادة امرأة العزيز مبررة ليوسف من الذنوب، مُنزهة له عن الأغراض والعيوب، وظاهر هذه الشهادة ما رواه الساقى من سيرته في السجن، وما شهد به عليه من صبر يُجَمِّله الحلم، وعلم يزيِّنه التواضع، وما خَبَره عنه الملك من حُسن التأويل، وإحكام التدبير، وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سجنه، فأبى إلا أن يخرج بريئاً.

(١) المحض: الخالص.

(٢) الظنين: المتهم.

(٣) حَصَّحَصَّص: من معاني الرب: السيد والمولى.

(٤) ضبعه: عضده كلها.

(٥) من التزكية.

(٦) وصمه: عابه.

(٨) اقتضت إرادة الله أن يدخل يوسف السجن ليخلو إلى ربه وتصفو نفسه من الأكدار.

هاتيك الأخلاق الكريمة، والشيم الحميدة، أثارت عند الملك رغبة صادقة في أن يقربه، ليكون في حاشيته، زعيماً في بطانته. ومثل بين يديه وحادثه فألفاه حصيفاً<sup>(١)</sup> أريباً<sup>(٢)</sup> وعاقلاً رشيداً، طابق الخبير الخبير، والسمع والبصر.

قال: يا يوسف، إن ما تجملت به من هذا الخلق الكريم، وما خلفته وراءك من ذكر عطر، وماض زاهر، وما نطقت به عن جلم راجح، وعقل حصيف، كل ذلك رفع عندي مقدارك، وأعلى مقامك، وإنك منذ اليوم أمين على هذه الدولة تعمل لخيرها، وتقوم على إصلاحها، مكين<sup>(٣)</sup> فيما تصنع، مفوض فيما تريد.

ولكن يوسف كان يعلم أن الأمة مقبلة على أيام يسر وأيام بلاء، وأن النيل سيمدهم بالماء، وينفحهم بالخير أعواماً، ثم يكف عنهم الرغد، ويخلف عنهم الوعد أعواماً، وأنه لا بُد لمن يتولى أمورهم ويدبر شؤونهم أن يكون بيده زمام المال، وعنده مفاتيح الخزائن، إذ المال عصب الأمة وقوامها، ولثها ومصاصها<sup>(٤)</sup> فأراد أن يمتلك الزمام الذي يستطيع أن يقود به الأمة إلى خيرها، وأن يمسك بالدفة التي يستطيع أن يسير بها سفيتها، فقال للملك: إن أردت أن أكون مسؤولاً عن هذه الأمة، محاسباً عن تدبير شؤونها، فاجعلني أميناً على خزائنها، ووزيراً لأموالها، وستجد الأمة إن شاء الله ما ترجو من صلاح الأعمال، واطراد الأحوال، العسر واليسر، والرخاء والبلاء.

ومكن الله ليوسف في الأرض، فأضحى بين عشية وضحاها وزيراً مطلق اليد، مسموع الكلمة، نافذ السلطان، وحضرته مطلع الجود، ومهوى الوفود وقد كان بالأمس سجيناً أسيراً، ومن قبل غلاماً يُباع ويُشترى، ويُسلب ويُعطى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

ولي يوسف الأمر في مصر سبع سنوات، جاد فيها النيل وأغلت الأرض، فأسهل عيشهم، وامتد خيرهم، وتنفأوا في ظلال الراحة والنعيم دهرًا، وكان يوسف نعم الحاكم اليقظ، والمولى الفطن الأريب، بنى الأهرام<sup>(٥)</sup>. وأعد

(١) حصف عقله: استحكم.

(٢) الأريب: صاحب العقل والبصير في الأمر.

(٣) مكين: متمكن وله منزلة عند السلطان.

(٤) المصاص: خالص كل شيء.

(٥) الأهرام: مخازن الطعام.

المخازن، وملأها بالغلات الوفرة، والخيرات الكثيرة، حتى إذا ما أقبلت السنين الشداد استقبلها القوم آمنين، فلم يتغير لهم حالاً، ولم تنل منهم شيئاً ولم تدق لهم عظماً، ولم تأكل منهم لحماً.

وامتد القحط إلى ما جاور مصر من البلدان، ومس ما حولها من الأقطار حتى وصل إلى كنعان، حيث يُقيم نبي الله يعقوب وأبناؤه الأسباط.

وسطح ذكر يوسف في مصر، وامتد نوره إلى الأصقاع، وشاع بين الناس أن بمصر وزيراً حكيماً، يحمل بين جنبه نفساً كريمة، فقد أعدّ عدته للجوع والقحط، والسنة<sup>(١)</sup> والجذب، فهو يوزع الخنطة بين الناس بميزان عادل، ويقضي حوائجهم بقسطاس، لا يفرق بين شعب وشعب، وقطر وقطر.

قال يعقوب لبنيه: يا بني، إن الجذب عمنا، والقحط يكاد يأتي علينا، فهلتم شدوا ركائبكم، وأعملوا في السير نياقكم<sup>(٢)</sup>، واقصدوا هذا العزيز الذي حملت إلينا الركبان أخباره، وتناقل الناس أحاديثه، وطبق اسمه السهل والجبل، والبُدو والحضر، ولكن اتركوا عندي أحاكم بنيامين، أتعزى ببقائه عن فراقكم، وأسكن إليه حتى يعود جمعكم، ويلتئم شملكم، والله كالثكم<sup>(٣)</sup> وراعيكم، وهاديكم ومبصركم.

واستأذن الحاجب على يوسف، فقال: إن بالباب عشرة رجال تتشابه معارفهم، ويلتئم نور الصلاح في وجوههم، وكأنهم غُرباء عن هذه الديار، أو ضيوف على هذه الأقطار، عرفت هذا من لغاهم<sup>(٤)</sup> ولهجتهم، وحيرتهم وترددهم، وإنهم اليوم ببابك يستأذنون في الدخول عليك، والمشول بين يديك.

وأذن لهم يوسف، ودخلوا عليه، فإذا هم إخوته وبنو أبيه، لم تغير ملامحهم السنون، ولم تُخف معالمهم الأيام، هم إخوته الذين تأمروا على قتله، وتظاهروا على إيذائه، وهم الذين فرّقوا بينه وبين أبيه، وأذاقوه بعده جفناً<sup>(٥)</sup> مؤرقاً، وكبداً مجروحاً، وها هم أولاء يلقاهم اليوم في حضرته من غير سابق تدبير، بل بإحكام من اللطيف الخبير.

وقد يجمعُ الله الشيتيتين بعدما يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقياً

عرفهم وما عرفوه، وتبينهم وأنكروه، وأين يوسف الذي خلفوه في الجب

(١) السنة: الجذب.

(٢) نياقكم: جمالكم.

(٣) كالثكم: حافظكم.

(٤) لغاهم: لغتهم.

(٥) جفناً مؤرقاً: كناية عن الحزن الشديد.

ولا يدرون، أغتالته شعوب<sup>(١)</sup> أم أكله سَبْعُ، أم بيع في سوق الرقيق، من هذا الملك المتوج النافذ السلطان، ذي الحشم والأعوان؟

ولكن يوسف كان حازماً حكيماً، وزكناً<sup>(٢)</sup> أريباً<sup>(٣)</sup>، رزين الحصة<sup>(٤)</sup>، بعيد الأناة، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه، والإفصاح عن أمره، بل حاول أن يصل إلى ما في نفوسهم، ويعرف مكامن أسرارهم، وما خفي عليه من أخبارهم، واحتجب من أحوالهم، بأسلوب الحكيم، ومنطق الحاذق الحصيف.

آواهم وأكرم وفادتهم، وأحسن ضيافتهم، ثم دعاهم يوماً إلى حضرته، وقال لهم: لقد أكرمتمكم ومن حقي أن أسألکم، وأنعرف أحوالکم، فمن أنتم؟ وما شأنکم؟ إني لأنكر عددکم وقد بدأت أشك في أمرکم، وأخشى أن تكونوا عيوناً علينا من مليککم! فهل لواحد منکم أن یفصی إلي بحقیقة حالکم؛ فلعلّه یمزق قناع الشك، ویبدد سحائب الريب؟

قالوا: أيها العزيز، نحن اثنا عشر أخاً، سلالة نبي كريم، ورسول عظيم، عشرة منهم هم رسله الآن بين يديك، وآمالهم منتهية إليك، وأما الحادي عشر فقد خلفناه عند أبيه يقوم على أمره، ويسهر على رعايته، وأما الثاني عشر فقد فقدناه، ولا ندري أختاره الله لجواره، أم هو يضرب في الأرض الواسعة سهلها وحزنها<sup>(٥)</sup>، وغورها ونجدها! ذلك هو أمرنا ظاهره وباطنه، جملة وتفصيلاً.

قال يوسف: قد يكون حقاً ما تقولون، ولكن لا وزن لقول لم يعزب بينة أو يدعّم بشاهد؛ فأقيموا عندي البيّنة أو اتتوا بالشاهد حتى أطمئن لحقيقة حالکم، وأسكن لصحة أقوالکم.

قالوا: أيها العزيز، إنا في غربة عن بلادنا، وعزلة عن أصدقائنا وأهلينا، وإنك تكلفنا محالاً أن نأتي لك من هنا بمن يعرفنا، أو يشهد بصحة أقوالنا، ولكن التمس لنا غير هذا المخرج، وشيئاً غير هذه السبيل.

قال: إني سأجهزکم، وأوقر<sup>(٦)</sup> بالميرة<sup>(٧)</sup> ركائبکم على أن تعودوا ومعکم أخوکم الذي خلفتموه عند أبيکم، ليكون شهيداً علیکم، مصداقاً لأقوالکم، وسأضعف إكرامکم، وأزيدکم حمل بعير في غلاتکم، وهذا هو شرطی،

(١) شعوب: اسم المنية.

(٢) الزكن: الفهم والثفوس.

(٣) أريباً: ذكياً.

(٤) الحصة: العقل والرأي.

(٥) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٦) وأوقر: أثقل.

(٧) الميرة: الطعام.



وذلك هو عهدي . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون .

قالوا أيها العزيز: ما نظنُّ أن أبانا يأذنُ بسفره، أو يصبر على فراقه، ولكننا سناوده عنه ونتلطَّف إليه، وإنا لفاعلون .

وأمر غلمانَه أن يوفِّوا لهم الكيل، وأن يدسُّوا لهم في رحالهم البضاعة التي حملوها، والفضة التي جاؤوا يبتاعون بها، وليكون ذلك أدعى لرجوعهم، وأمكن لعودتهم .

وظعنوا<sup>(١)</sup> عن مصر، وساروا إلى بلادهم، يحملون عن هذا العزيز أطيب الذكريات وأزكاها، وأعدبها وأحلاها . وتلقاهم يعقوب، وأخذ يستوضح أخبارهم، ويستقصي أنباءهم .

قالوا: يا أبانا، إنا لقينا رجلاً عظيماً، ووزيراً كريماً، عَرَفَ فضلنا، وأكرم وفادتنا، ووفى لنا الكيل، وأنزلنا خير منزل، ولكنه أخذ علينا عهداً وشرطاً ألا يكيل لنا من بعدُ حتى تأتيه بأخينا، يخبره بحقيقة حالنا، إذ إنه شكَّ في أمرنا، ودخله الريبُ في رخلتنا، وغداً ستفرغ الميرة ونحتاج إلى غيرها، فأرسله معنا ليكون مُعيناً لنا على الكيل، مساعداً لنا في الرِّفد<sup>(٢)</sup> .

قال يعقوب: لن آذن لكم بسفره، ولن أستريح لفراقه . وهل تروني آمنكم عليه كما أمثكم على أخيه من قبل؟ فاصرفوا عني كيذككم، واكفوني شرِّكم .

وفتحوا متاعهم وفتشوا في رحالهم، فإذا بضاعتهم قد رُدَّت إليهم، وفضَّتْهم قد عادت معهم، ففخَّروا إلى أبيهم مسرعين، وتحدثوا إليه مسرورين، وقالوا: يا أبانا، ما كذبتك حين زعمنا أننا لقينا عزيزاً وافر الفضل، جَمَّ المروءة، وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذن لنا بأخينا، فهذه بضاعتنا قد رُدَّت إلينا شاهدة على كرم العزيز ومروءته، فأرسل معنا أخانا، وسنقديه بأرواحنا ونرفق عليه بأجنتنا .

ورأى يعقوب أن حاجتهم إلى الميرة<sup>(٣)</sup> ماسة، ورجبتهم في الرحلة أكيدة، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهداً فلن يُخفروه<sup>(٤)</sup>، وأن العزيز قد شرط لعودتهم أن يُحضروا له أخاهم فلن يخلفوه، فأذن لهم ببنيامين على أن يأخذ عليهم عهداً أكيداً، وشرطاً وثيقاً: أن يأتوه به سليماً معافى، إلا أن يحاط بهم قدر لم يك في الحُسبان، أو يفجأهم مكروه من الحدثان، وأخذوا على أنفسهم الميثاق، ووكَّدوا الأيمان، وقالوا: واللَّه على ما نقول وكيل .

(١) ظعنوا: رحلوا .

(٢) الرِّفد: العطاء .

(٣) الميرة: الطعام يمتاره الإنسان .

(٤) خفروه: نقض عهده وغدر به، كأخفروه .

وساروا يخفضهم وهد ويرفعهم نَجْد، حتى ألقوا عصاهم بساحة يوسف، ورأى يوسف أخاه، فحنا عليه ورق له، ولكنه أخفى عواطفه، وستر ما في نفسه، ودعاهم إلى طعامه، وأجلسهم مثنى مثنى. وبقي بنيامين وحيداً، فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيننا، وهذا لا ثاني له فيكون معي.

فبات عنده، وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: مَنْ يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه، وقال: إني أنا أخوك الذي تنسده وتهتف باسمه، وتلهف لرؤيته: قد تقلبت بي صُدوف<sup>(١)</sup>، ورمتني صُرُوف<sup>(٢)</sup>، ولقيت من كيد إخوتك ألواناً، وتحملت من غدرهم أحزاناً، وأسقاماً، وابتليت بعدهم بمحنة، وأصبت بفتنة، ولكني صبرتُ وجاهدتُ حتى أبدلني الله - كما ترى - نعيماً ببؤس، وغنى بفقْر، وعزاً بذل، وكثراً بقل، فاكتم<sup>(٣)</sup> عن إخوتك هذا الخبر، واحجب عنهم هذا السر. وقرت نفس بنيامين، وسكنت أحزانه وانسلى<sup>(٤)</sup> همُّه وارتد إليه عازبُ جِلْمه، وغداً يتقلب في نعيم أخيه وعزه وينعم بكرمه وعطفه.

وانقضت أيام الضيافة، وأجمع الركب الرحيل، فأراد يوسف أن يعمل لهم مكرراً، ويُحدِّث بهم أمراً؛ فأمر علمانه أن يجهزوهم بجهازهم، وأن يدسوا السقاية<sup>(٥)</sup> في رخل بنيامين!

وبينما هم خارجون مُودَّعين إذا بمنادٍ جهير الصوت يناديهم: أيها الركب المُزْمِع سفرأ، المجمع رحيلأ، أنيخوا ركائبكم! وأنزلوا متاعكم، فما أنتم إلا سارقون! فدهشوا ودُّهلوا، وأقبلوا على المنادي يقولون: ما هذا الهُجر الذي تنطق به، والفِزْيَة<sup>(٦)</sup> التي ترمينا بها؟ وما حَظُّبك؟ وما الذي فُقد منك؟ قال: لقد فقدنا صُواع الملك، وإنا لنشك أن تكونوا قد سرقتموه وأخفيتموه، فارجعوا عما عزمتم عليه، ولا بأس عليكم ولا حرج في أمركم، ومن جاء به منكم فله حمل بغير نافلة<sup>(٧)</sup> وأنا زعيم لكم بهذا الشرط، كفيل بهذا الجمل.

قال إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْتُمْ فِيهِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾!

[يوسف: ٧٣].

- (١) الصدوف: الأمور الصارفة.  
 (٢) صروف الدهر: نوابه وحدثاته.  
 (٣) اكتم: اخفي.  
 (٤) انسلى هم: ذهب.  
 (٥) السقاية: وعاء جعل للكيل.  
 (٦) الفرية: الكذب.  
 (٧) نافلة: زيادة.

قال المنادي: إننا لا نتجتى عليكم، ولا ننصب الشراك لكم، ولكن ما حكمكم لو وجدنا الصواع عندكم، مستقراً في رحالكم؟ قالوا: إن لنا شرعاً وديناً، وذمة وعهداً، فمن وجدتموه في رحله فخذوه أسيراً عندكم، عبداً لكم، ذلك هو شرعنا، وهذا هو عهدنا، وإنا على يقين من براءة ذمتنا، وطهار أعراقنا.

وطابت نفس يوسف لهذا العهد، واستروح لهذا الرأي، إذ ما كان شرع الملك في مصر يُجيز له أن يحجز السارق، أو يتحكم فيه، ولكن الله مكن له فيما أراد عن طواعية<sup>(١)</sup> من إخوته واختيار.

فبدأ يُفتش أوعيتهم وعاءً وعاءً، حتى انتهى إلى وعاء بنيامين، فوجد السقاية مستقرة بين طياته، فاستخرجها منه، وأشهرها في وجوههم، فسهموا ووجموا وذهلوا وذهشوا، وأطرقوا حياءً وخجلاً<sup>(٢)</sup>.

قال لهم يوسف: عليكم بالشرط، والشرط أملك! فدعوا هذا الذي وجدنا عنده الصواع، نتحكم فيه، ونأخذ حقنا منه.

قالوا: أيها العزيز، إن له أباً شيخاً كبيراً، قد ناهز العُمَين<sup>(٣)</sup>، وإنه ليتعلق بشخصه، وقد أخذ علينا عهداً أن نحافظ عليه ونرده إليه، وها نحن أولاء عشرة بين يديك! ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ السَّخِينِ﴾ [يوسف: 78]. قال: ﴿مَكَانَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنَ وَجَدْنَا مَتَعَةً عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا﴾ [يوسف: 79].

ولما استحكم فيهم اليأس من قبول العزيز لشفاعتهم، ونفضوا الأكف من رواج اقتراحهم، خلصوا إلى أنفسهم يتناجون ويتشاورون. قال يهوذا: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً، واستحلفكم أيماً أن تأتوه بأخيك، وأن تبرؤوا له بأيمانكم؟ فما نقول له اليوم، وها نحن أولاء قد فقدنا الأخ، وحنننا<sup>(٤)</sup> في اليمين؟!!

إن جرح يوسف في كبد أبيكم لم يتدمل<sup>(٥)</sup>، وإن دموعه من عينيه لم تنقطع، ونحن قد جنينا في الأولى، وها نحن أولاء نجني في الثانية: ﴿فَلَنْ أُنْبِرَ الْأَرْضَ حَتَّى

(١) الطواعية: الطاعة.

(٢) لما استخرج الصواع من أمتعة بنيامين قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل تنصلاً من التشبه به زاعمين أن أخاه يوسف سرق من قبل صنماً لجده وكسره فقال يوسف في سره: أنتم شرُّ مكاناً.

(٣) يقال: فلان ناهز العُمَين إذا قارب الثمانين.

(٤) حنن في يمينه: لم يقب بموجبها.

(٥) لم يتدمل: لم يبرأ.

يَأْتِيهِمْ أَوْ يَخْتَكِمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْبُكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقٌ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَتَشَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْمِيرَ الَّتِي أَتَيْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٨٠﴾ [يوسف: ٨٠ - ٨٢].

وذهبت التسعة، وخلفوا كبيرهم يهوذا. وتفقد يعقوب بنيامين فلم يجده فيهم فكان طائراً طار من قلبه، أو كأن قطعة تفضت<sup>(٢)</sup> عن كبده، ثم قال بصوت حزين: ما صنعتُم بأخيكم، وما فعلتم بأيمانكم؟ فقصوا قصصهم، وحدثوه بدخيلة أمرهم، فتولى عنهم، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرُوا جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

لقد فقدت يوسف من قبل، واليوم أفقد بنيامين، وأفقد يهوذا، ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

### اللقاء

وتساورت يعقوب الهموم وتشعبته الأحزان، وأقضت مضجعه الكروب. ولم يعد يجد متنفساً لهمه، أو سُلوة من أمه، إلا ساعتين: ساعة يفزع فيها إلى ربه يصلي ويسجد، ويتحسث<sup>(٣)</sup> ويتجهد، مُستلهماً منه الصبر، مستنجداً بالإيمان واليقين، وساعة يخلص فيها إلى نفسه، ويقضي حق الذكرى لولديه، ثم يستنجد بالدمع ويستروح<sup>(٤)</sup> بالبكاء، فتسح جفونه، وتفيض شؤونه<sup>(٥)</sup>، فمن الصلاة والذكر كان يستلهم صبراً وإيماناً، ومن سخين الدمع كان يلقى راحة واطمئناناً.

لم يُخلق الدمعُ لامرئٍ عبثاً اللهُ أدرى بلوعة الحزن

وما زال به واكف<sup>(٦)</sup> الدمع حتى ابيضت عيناه، وضوى جسمه وتضممر وجهه، وعاد كالخلال<sup>(٧)</sup> شُفوقاً وضُموراً، حتى كان يوم أطل عليه أحد أبنائه وهو في مخدعه، فوجده قد انفتل<sup>(٨)</sup> من صلاته، وانتهى من دعواته، ثم أخذ يولول ويتوجع، ويكي ولديه ويدمع، ويقول: يا أسفاً على يوسف! بصوت وجيع! فهاله ما رأى، ودعا إخوته ليزوا معه كيف يتلوى يعقوب في شقائه، وكيف يتألم لبلائه.

وقال واحد منهم: أي أبانا، أنت رسول عظيم، ونبي كريم: عليك يهبط

- |  |                                    |
|--|------------------------------------|
| (١) العير: القافلة أو الإبل تحمل الميرة. | (٥) الشؤون: مجاري الدموع.          |
| (٢) تفضت: انفصلت.                        | (٦) واكف: منهمر.                   |
| (٣) تحسث: تعبد.                          | (٧) الخلال: العود تخلل به الإنسان. |
| (٤) استروح: وجد الراحة.                  | (٨) انفتل: انصرف.                  |

الوحي، ومنك نتلقى الهدى والإيمان، فما هذا الذي تَبَخَّعُ<sup>(١)</sup> به نفسك، وتحشد له بنات همك؟ ألم تكف هذه الدموع التي ذرقتها حتى هجمت<sup>(٢)</sup> مُقَلَّتَاكَ، وابتضت عيناك؟ ألم تكف هذه الزفرات التي أصعدتها حتى فني جسمك، وذنت<sup>(٣)</sup> نفسك؟ ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا نَدْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾<sup>(٤)</sup> [يوسف: ٨٥].

قال يعقوب: إن عدلكم<sup>(٥)</sup> يبعث شقائي، ويثير كامن دائي، وما دون رؤية يوسف أن تسكن لوعتي، وترقا<sup>(٦)</sup> دمعتي<sup>(٦)</sup>. ويوسف - وإن كان قد أكله الذئب في زغمكم، واخترمته شعوب<sup>(٧)</sup> في رأيكم - حتى يتنفس الهواء، وتظله الخضراء<sup>(٨)</sup> وعلمته إحساساً كميناً في نفسي، وشعوراً ينبعث في قلبي، وفيضاً من الله على علمي، ولكنني لا أدري أيّ وإد سلك، وأي مذهب ذهب؟ ذلك الذي يثير حزني، ويبعث أشجاني، وما أخراكم - لو أردتم - أن تنضوا<sup>(٩)</sup> عني شعار الهم، وتزيحوا عني غواشي الأسي، أن تضربوا في الأرض متحسسين عن يوسف وأخيه، معتصمين بالدأب والصبر، غير يائسين من روح<sup>(١٠)</sup> الله ورحمته ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَيْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وإخوة يوسف يُظَاهِرُونَ أقوال أبيهم في أعماق نفوسهم، ويوافقونه فيما بينهم وبين سرائرهم، فهم ألقوه في الجُبِّ، وهم خَلَّفُوهُ فِي الْفَلَاةِ، وما يمنع أن يكون قد خرج من جُبه، ونجا من فلاته؟ ولكن أين هو، وأي مكان يشتمله؟ وأي وإد يضمه؟ أرض الله وسيعة فأين يبحثون؟ وبلاده عريضة فأين يتحسسون؟ إنهم من يوسف على شفا اليأس، وخيبة الرجاء، ولكن هذا بنيامين يعرفون مكانه، ويعلمون مراحه ومغدها، فليذهبوا إلى العزيز، وليتلطفوا عنده ويتوسلوا إليه، فلعلهم يرجعون به إلى أبيهم، فتخف بعض اللوعة، ويجد في لقائه بعض العزاء.

(١) تبخع: تهلك.

(٢) هجمت: غارت.

(٣) ذنت الرجل: ثقل من المرض ودنا من الموت.

(٤) حرَضًا: مريضاً مشرفاً على الهلاك.

(٥) عدلكم: لومكم.

(٦) رقا الدمع: جف.

(٧) اخترمته شعوب: أخذته المنية وأهلكته.

(٨) الخضراء: السماء.

(٩) نضا الشيء ينضوه: قبض عليه.

(١٠) الروح: الرحمة.

وهبطوا مصر وآمالهم بين الخيبة والرجاء، ووقفوا بين يدي العزيز، ترهقهم ذلة، ويحيطهم انكسار: ذلة العزيز، وانكسار الكريم.

قالوا: أيها العزيز، ها قد رجعتنا الأيام إليك، وأرادتنا أن نقف موقف الضراعة والاستكانة بين يديك، وللأيام تقلبات، وللدهر نكبات، وقد جثناك ببضاعة مزجاة<sup>(١)</sup>، إذ الحال رقيق، والعميش نكد، والدهر غير مُوَاتٍ، فإن شئت تصدقت بما يقيم الأود، ويُصلح مُعْوجَّ العُود، وإن أحسنت إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا، فإنك بذلك تكون قد أرقأت له دمعاً، وخففت عن أبيه لواعج<sup>(٢)</sup> وأشجاناً!

وإذا كان الله قد بلغ بقصة يوسف ويعقوب أسمى ما يطمح إليه المثل الأعلى، من الإيمان بالقضاء، والصبر على اللأواء<sup>(٣)</sup>، فقد أذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه، ويكشف لهم عن حاله، وأن يصفح بكرمه عن زلتهم، ويسمو عن إساءتهم، ليضم إلى الرواية فصلاً في الصّبح والكرم، والعفو والغفران.

قال: ألا تذكرون يوماً في مِيعَةِ الحُدَاثَةِ<sup>(٤)</sup> وغرارة الصبا، زين لكم الهوى، ووسوس الشيطان أن تكيدوا ليوسف وأخيه، فثقلوا بيوسف في الجُب، وتصنعوا مع أخيه صنوف الكيد والإيذاء؟ ثم ألا تذكرون يوم أخذ واحدكم بيده القوية يوسف، وجذبه وهو ضعيف من ثيابه، وأنه قد توسل واستشفع، وبكى وتوجع، فلم تقبلوا منه شفاعته، ولم تأخذكم فيه رحمة، بل أقيتموه في الجُب وحيداً ضعيفاً تعمل فيه الأقدار؟

فتخالجهم الشك في أمره، وداخلهم الريب في حقيقة حاله، إنه ليذكر أشياء وقعت، من أعلمه بها؟ ويحدث عن تاريخ، من قصه عليه؟ أيكون بنيامين؟ ولكن بنيامين وكل الناس في أمر يوسف سواء، أنه لا يعرف شيئاً عن حقيقة أمره ولا حادث إلقائه في الجُب! ورجعوا بعد الحُدُس والتخمين إلى يوسف يتوسمون علاماته، ويتعرفون شِيبَاتِهِ<sup>(٥)</sup>. ويتذكرون ما كانوا يعرفونه عن ملامحه وشاراته. وما غابوا في هذا طويلاً حتى صاح واحد منهم يقول: إنك لأنت يوسف!

وهذا كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار إلى بنيامين: نعم ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

(١) بضاعة مزجاة: قليلة.

(٢) اللواعج: جمع لاعج، وهو الهوى المحرق.

(٣) اللأواء: الشدة.

(٤) مِيعَةُ الحُدَاثَةِ: أولها.

(٥) شِيبَاتِهِ: علاماته.

فامتقعت ألوانهم، واضطربت مشاعرهم وتلجّج الحديث بين أشداقهم، وتمنّوا لو انشقّ نفق في الأرض فابتلعهم، أو هبط عليهم كوكب فصعقهم... ويوسف كان أكرم نفساً من أن يطيل خوفهم، وأوسع صدرأً من أن يكافئهم بزلتهم، فهم ما برحوا إخوته وبني أبيه، وإن تظاهروا<sup>(١)</sup> على قتله، والفتك به وإن توافروا على الكيد له ولأخيه.

قال لهم: ﴿لَا تَتْرِبَ<sup>(٢)</sup> عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

ونعود إلى يعقوب، وقد امتحن حقة من الدهر فتحمل، وابتلي بما تعجز عن حمله الجبال فتجمل<sup>(٣)</sup>، وأن الله لهذا كتبه في صحيفة الأنبياء أولي العزم الأخيار، الطاهرين المحتسبين الأبرار، وأعد له الجنة جزاء وفاقأً، ومكرمة وثواباً، وأراد أن يكافئه في الدنيا، إطماعاً لمن يصبر من خلقه، وعزاء لمن يتلى من عباده.

ذهب إلى مُصَلَّاه يوماً، فصلى وذكر الله، ثم بكى ما شاء الله أن يبكي، وفجأة هدأت ضلوعه، وجفت دموعه، ودخل رُوح على قلبه، ما هذا الشعور الغريب والإحساس الوافد؟ إنه الآن ليُشعر بانسراح في أعماق نفسه، وابتهاج في قرارة وجدانه، ونشوة نبتت في حنايا ضلوعه، إن هذا الشعور الذي يغمره، والفيض الذي يشتمله، ليشبه ما كان في صدر أيامه الماضية، وعهوده الذاهبة، حينما كان يخطر<sup>(٤)</sup> يوسف بين يديه، ويرى ابتسامة الحياة بين شفثيه!

أحسن هذا يعقوب، فصاح بجلء قلبه وجوارحه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾<sup>(٥)</sup> [يوسف: ٩٤] انعكس هذا الريح هزة في أعطافي، وتغريداً في خواطري، ورُوحاً وريحاناً في قلبي.

وما كان يعقوب خاطئاً في وهمه، ولا بعيداً في استرواحه، فقد فصلت<sup>(٦)</sup> العير عن مصر تحمّل القميص، قميص يوسف الذي يحول البشري، ويرد على يعقوب نعمة البصر والحياة.

وقطعت العير طريقها، وجاء البشير، فألقى القميص على يعقوب فإذا بصره قد عاد، ورُشده قد ثاب، وقصّوا عليه قصتهم، وحدثوه بما كان من أمرهم، ثم طلبوا إليه المغفرة والرّضوان.

(٤) يخطر: يمشي بدلال.

(٥) الريح: الرائحة.

(٦) فصلت: رحلت.

(١) تظاهروا: تعاونوا.

(٢) لا تترِب: لا لوم.

(٣) تجمل: صبر.

قال يعقوب: لست أملك من أمركم شيئاً، أو أستطيع لكم من عذاب الله دفعاً، ولكنني أستغفر لكم ربي، وهو الغفور الرحيم. زُمُوا<sup>(١)</sup> إبلكم، وأجمعوا إرادتكم، وهيا بنا إلى ساحة العزيز.

ورأى يوسف أبويه في ساحته، وحولهما أحد عشر من إخوته، والجميع يسجدون له معظّمين، ويقفون بين يديه خاشعين، فرفع يديه إلى السماء شاكراً أنعمه، ذاكراً فضله. وهو يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾<sup>(٢)</sup> [يوسف: ١٠١].

(١) زم البعير: خطمه. أي أعدوها للسفر.

(٢) لما ذاق يوسف الدنيا على وجوها الحلوة والمرة وأما ليست بشيء واشتاق إلى ما عند الله من نعيم ودعا الله يتوفاه وكان أن قبض.



## شعيب (\*)

كان أهل مَدْيَنَ عربياً يسكنون أرض مَعَانَ، من أطراف الشام، وكانوا يكفرون بالله ويُشركون به، إذ عبدوا الأيكة<sup>(١)</sup> من دونه وصاروا يبخسون الناس أشياءهم، وإذا اكتالوا<sup>(٢)</sup> على الناس يَسْتَوْفُونَ، وإذا كالوهم<sup>(٣)</sup> أو وزنوهم يُخْسِرُونَ.

بعث الله فيهم شعيباً رسولاً، وأزره بالمعجزات، وأيده بالبينات، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأمرهم بالعدل، وحذرهم عاقبة الظلم، وذكرهم نعمة الله عليهم إذ كثروهم بعد قلة، وأغناهم بعد فقر، ثم خوفهم نعمة الله وعذابه إن لم يتبعوا ما أرشدهم إليه ودلّهم عليه، فاستهزأوا بقوله، وسخروا منه وتهكموا به، وقالوا: يا شعيب، أصلاتك تأمرُك أن نعبُدَ غيرَ ما كان يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون، وتنهاك أن تعامل الناس كما نحب ونستهي، فندع ما درجنا عليه، ونشأننا فيه، وكثرت أموالنا من طريقه؟

كيف تنهاننا عن دين ألفناه، وشرع ورثناه، وأنت الراجح عقلاً، السيد رآياً، الواسع حلماً؟

ولكن شعيباً لم تبد منه جفوة أو قسوة، بل تَلَطَّفَ في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرفق، وذكرهم بما بينه وبينهم من صلة، فذلك أذعَى لقبول النصيح، والانصياع إلى الرأي، وأدل على الرغبة في الخير والحب للنفع.

ولما أيسرَ منهم ميلاً إليه. وظن أن آذانهم تفتحت لسماح قوله، بيّن لهم أن ظهور البينة له وكثرة نعم الله عليه تحولان بينه وبين الانسياق إلى طريقهم، والاندفاع في غيهم، وتمنعانه عن التفريط في وحي الله والتهاون في تكاليفه، ثم أعلن إليهم أنه قد أوحى إليه بالهدى، وأرسل بالحق، وأوتي من الله الرحمة وأرشد إلى ما لم يهتدوا إليه، وأنه لن يتي عن العمل بهذه الدعوة التي اختير لها

(\*) الأعراف ٨٥ - ٩٣، هود ٨٤ - ٩٥، الشعراء ١٧٦ - ١٩١، المنكوت ٣٦، ٣٧.

(١) الأيكة: غيضة تنبت الشجر.

(٢) اكتالوا: إذا كان لهم حق بالكيل أو الوزن.

(٣) كالوهم: إذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون.

وألقي إليه وحيها، على أنه لن يُكرهه<sup>١</sup>م على اتباع دعوته، ولا يأمرهم بشيء إلا رضي<sup>٢</sup>ه لنفسه. وهو الذي اشتهر بينهم بالحلم، وعُرف فيهم بالرشد: ثم هو لا يطلب منهم أجراً على هديهم ولا جزاء على إرشادهم، بل يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

من كان هذا شأنه فهو أحق أن يتبعوه، وأولى أن يقتفوه، وليس له غرض خاص من دعوته، ولا مأرب من وراء طلبته.

ولكنه أحسن نفورهم من نصيحته، ورأى منهم ميلاً إلى مخالفته ومع أنه لم يُبقي لهم شبهة، ولم يترك لهم حجة، فظن أنهم إنما يأنفون من متابعتهم، ويميلون عن دعوته، بغياً وحسداً، وبغضاً وكبراً. فنهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه، أو تدفع بهم الرغبة في مجانبتهم إلى النأي عما يدعوهم إليه، وخوفهم بأس الله وعذابه، وبين لهم أن اقتراف المعصية، وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله، ويتوبوا إليه لينجوا من العذاب ويتخطاهم العقاب.

ولما أظهر لهم فساد اعتقادهم، وبين لهم عاقبة ظلمهم، وأيد قوله بالحجة البالغة والآيات البينة، لجأوا إلى المراوغة في القول ومدافعة الحجة بالشتم، فقالوا له: إننا لم نثق<sup>(١)</sup> كثيراً من قولك، لأنه ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا أو منفذ إلى عقولنا، فلتكف عن إثارة من هم في عزة ومنعة، وأنت المستضعف الذليل، الذي لا يمنعنا عن أذاك إلا مكان عشيرتك، وحرمة قبيلتك.

ولكن شعيباً لم يباطئ رأسه أمام عزتهم، ولم يضعف أمام قوتهم، بل هب يدفع باطلهم بحقه، ويمحق زورهم ببينته، وتمسكته العزة بنصرة الله، وتاه فخراً بمؤازرته، وأبان لهم أن رهطه<sup>(٢)</sup> ليسوا أرفع قدراً، ولا أشد قوة، ولا أمتع جانباً من الله الذي منحهم هذه القوة، وأفاض عليهم تلك العزة وقال: هلا تركتموني رعاية لحق الله، وحفظتموني إطاعة له؟ إن ذلك أولى من حفظي لمكان قومي وعزة رهطي.

لم يضعف تهديدهم قوته، ولم يقل وعيدهم من عزمه، بل دعاهم أن يبذلوا ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه، وأعلن إليهم أنه لن يألو جهداً في سبيل دعوته، ولن يدخر وسعاً في الوصول إلى غايته. فثقته بنصر الله أكيدة، وعاقبته عنده حميدة، وهو أعلم بما يعملون، خبير بما يصنعون.

ذأب شعيب على الدعوة إلى الله، فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية

(٢) رهط الرجل: قومه وقبيلته.

(١) الفقه: الفهم.

وقلوباً واعية، وآمن به نُفِّرَ قليل، فهلعت نفوس القوم خيفةً أن يعظم أمره، ويشتد ساعده، وينتشر دينه، وتكثر جماعته، فتوعدوه ومن آمن معه أن يخرجوهم من قريتهم وإن لم يبرأوا من دينهم، ويعودوا إلى ملّتهم. ولكن شعيباً أنبأهم أن هؤلاء الذين اتبعوه قد استرقوا الإيمان قلوبهم، ومثلك عليهم مشاعرهم، وخالط نفوسهم، فلن يعودوا إلى حفاة<sup>(١)</sup> الرذيلة إلا كارهين، ولن يرجعوا عن عبادة الله طائعين، فقد أصبحت نفوسهم تعاف ارتكاب المعاصي، بعد أن نجّاهم الله منها، وتأبى أن تتردى<sup>(٢)</sup> في مهاوي الضلالة بعد أن أخرجهم الله من مباءتها<sup>(٣)</sup>.

ولما يش من هدايتهم إلى الحق، وتبين إصرارهم على الكفر، استنصر ربّه عليهم ودعاه أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم، وتضرّع إليه أن يعجل لهم ما يستحقون من عذاب. ولكن القوم عن الحق لاهون، وعلى الدنيا مقبلون، وعمّا خبأ لهم القدر منصرفون. فرجعوا إلى القوم المؤمنين، وأعادوا الكرة على من ظنّوهم مستضعفين، وخوفوهم الخسران إن تركوا الظلم، وعاملوا الناس بالقسط، وهددوهم بالخراب إن لم يطفّفوا<sup>(٤)</sup> الكيل والميزان، وحذروهم العذم إن لم يبخسوا الناس أشياءهم ويعيشوا في الأرض مفسدين.

ثم كزّوا على شعيب بالتكذيب ونسبوا إليه الشعوذة والسحر، وتحذّوه أن يسقط عليهم كسفاً<sup>(٥)</sup> من السماء، وأن ينزل عليهم العذاب إن كان من الصادقين.

استجاب الله دعاءه، وآزره بنصره، وابتلاهم بالحرّ الشديد، فكان لا يروي ظمأهم ماءً، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين. ولكنهم فرّوا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره فقد شاموا سحابة ظنوها لهم من وهج الشمس واقية وحسبوا للحر دافعة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظّلها، ويستريحوا فيثها، حتى إذا تكامل عددهم، وتآلف جمعهم، رمتهم بشرر وشهب، وجاءتهم صيحة من السماء، وأحسوا

(١) الحفاة: الطين.

(٢) تسقط.

(٣) المكان الموبوء.

(٤) التطفيف: نقص المكيال.

(٥) كسفاً: قطعاً علوية مهلكة.

الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ففزِعوا لهول ما رأوا، ولم يكادوا يحسّون ما حلّ بهم حتى أزهقت أرواحهم وهلكت نفوسهم.

رأى شعيب ما حلّ بقومه، فأعرض عنهم، يثقله الحزن على ما أصابهم، لكنه ذكر كفرهم بالله، وتسفيهم لرأيه، واستهزاءهم بمن آمنوا معه، ومخالفتهم نصيحته، فحقّق ذلك من وجده، وتولى عنهم ﴿ وَقَالَ يَتَوَلَّى قَوْمٌ لَمَّا آتَيْنَاهُمْ بِلَايَةٍ وَسَاءَلَتِ رَبِّي وَأَنْصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

## موسى (\*)

### ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعون في غيّه، وعلا في الأرض، وأنزل الخسف بطائفة من رعاياه، هم بنو إسرائيل، إذ عاشوا في ظلاله عيشة البلاء، واصطبروا على الضراء. وبينما هم يضطربون ويرزحون في نكد من العيش وسوء الحال، إذ تقدم الكاهن من فرعون وقال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده. فثارت ثورته، وسدّر<sup>(١)</sup> في بهتانه، وأمعن في غيّه، فذبح أبناءهم، واستبقى نساءهم، ولكن قدرة الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبير خائب، فقدّر في قديم أزله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا ملك هذا الطاغية الجبار على يد طفل يربى في بيته، ولكنه كالورد ينبت من ثنايا الشوك، وكالفجر يذرج من مهد الظلام.

مكّن الله لبني إسرائيل، وأزى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون. جلست يوكابد<sup>(٢)</sup>، في كين<sup>(٣)</sup> من منزلها، وقد جاءها المخاض، فدعت قابلة لتهيئ لها مثل ما يكون في هذه الحال، فعالجتها. فلما وقع موسى على الأرض اضطربت نفسها، ولكن حبه تغلغل في قلبها، فحرّصت على حياته، وجهدت في البقاء عليه، فلم يتسرّب خبره إلى فرعون، عدو الأطفال. واستمر ثلاثة من الشهور كذلك، حتى إذا نشر الملك عيونه في المدينة يتفحصون الأطفال ألهم الله أم موسى أن تهيج له صندوقاً تضعه فيه، ثم تُلقي به في النيل، وترسل على الشاطئ أخته تقصّ أثره، وتلّم بخبره، بعد أن ثبت فؤادها، وهذا روعها بقول كريم.

سارت أخت موسى تقصّ أثره وما كان أشدّ هلعها حينما حُمِل الصندوق إلى فرعون. ولكن رحمة الله قريب منه، فلم تكد تنظره امرأة فرعون حتى ألقي الله

(\*) القصة ٣، ٤، طه ٩ - ١٠١، والشعراء ١ - ٦٨، الأعراف ١٠٠ - ١٥٦ - ١٦٠، يونس ٧٥ -

٩٢، النمل ٧ - ١٤، النازعات ١٥ - ٢٦، هود ٩٦ - ١٠١، إبراهيم ٥ - ٨، المؤمنون ٤٥ -

٤٨، الإسراء ١٠١ - ١٠٤.

(١) سدر: تخير.

(٢) يوكابد: أم موسى.

(٣) الكين: الجانب من المنزل.

محبته في قلبها، فطلبت إلى زوجها أن يكون ابناً لها وله. وقد أصبح قلب يوكابد فارغاً من الهم والإشفاق على وليدها، لأنها استودعته الله، وهي رابطة الجأش وثابتة الإيمان.

وسيقت إليه المراضع، لعله يُقبل على واحدة منهن، فيروي غلته ويشبع جوعته، ولكنه عاف المراضع. فانبرى عامان، وقال: إن هذه الفتاة تعرفه، فخذوها حتى تُخبر بحاله. ولما سئلت الفتاة قالت: إنما أردت أن أكون للملك من الناصحين. فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله، وأقبل يحمل الطفل باكياً. وهو يعلله حتى أقبلت امرأة، فاستأنس بها الوليد، والتقم ثديها من دون النساء.

فدهش فرعون وقال لها: من أنت؛ فقد أبى كلّ ثدي إلا ثديك؟! فقالت أم موسى: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلي. فدفعه إليها وأجرى عليها رزقاً فرجعت به إلى بيتها. وهكذا كافأها الله فقرت عينها به، لتعلم أن وعد الله حق.

### خروج موسى من مصر

أتمت يوكابد رضاع ابنها موسى، ثم أسلمته إلى القصر الفرعوني ليكون لهم عدواً وحزناً.

ولما بلغ أشده واستوى، أوحى الله إليه بالنبوة وآتاه العلم والحكمة.

اتجهت أنظار المستضعفين المغلوبين إلى موسى، ليحميهم مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام، وهؤلاء قومه، وهو ذو النفس الكريمة التي أشربت عزة الله، واستنارت بنور الله.

عاهد موسى نفسه على أن يكون لهؤلاء المظلومين. وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية، إذ وجد رجلين يقتتلان، أحدهما عبري من مشايخه، والآخر فرعوني من أصحاب القوة والسلطان، فسأله مظهره أن يحول بينه وبين اعتداء الفرعوني، فهم موسى بضرب الفرعوني فكانت القاضية. ثم ندم موسى على فعلته، وعدّها من عمل الشيطان، واستغفر ربه على ما فرط منه، فغفر له ربه إنه غفور رحيم.

ولقد كان العُفْران نعمة على موسى، وحافزاً لرحمته، وداعياً لسلامه، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيراً<sup>١١</sup> للمجرمين. ولكن موسى تغلبت عليه بشريته، وانتصرت على حواسه طبيعة الإنسان، فلم يُعلق إرادته بإرادة مديّر الأمر، ومصرف

الكائنات، ولم يستثن مشيئة الله، فوقع فيها عزم على النجاة من غوائله إذ أصبح في المدينة خائفاً يترقب، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه فرماه موسى بالغواية والضلال، ولكنه اندفع إلى مظاهرتة، فظن أن موسى يقصد قتله، فتقدم إليه مسترحماً قائلاً: ﴿يَمْوِسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْنَا نَفْسًا بِالْأَمِينِ إِنَّكَ لَرَبِيدٌ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا أَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. فلم يكذ يسمع الفرعوني هذا الاتهام الصريح - وقد كان قومه في حيرة من أمر قاتيل الأمس، لا يعرفون قاتله - حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى، فتألب القوم يبحثون عن موسى ليمزقوه. شرب مُمزق، ولكن رحمة الله قريب، إذ جاء من أقصى المدينة رجل يسعى، قال: يا موسى إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك. ثم نصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يشاء رب العالمين.

### موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفاً يترقب، متجهاً إلى أن يصرف عنه كيد الظالمين. سار ثماني ليال قاصداً بلاد مدين<sup>(١)</sup> ولا معين له إلا عناية الله، ولا رفيق يؤنسه إلا نور الله، ولا زاد يحملده إلا زاد التقوى. . مشى حافياً حتى تساقطت جلود قدميه، جائعاً حتى لتكاد تترأى خضرة البقل من بطنه هزلاً وضعفاً. ولم يكن له عن ذلك إلا عزاء واحد، هو غنيمته بالبعد عن فرعون وقومه، ونجاته بعيداً عن الرقباء والكائدين.

توجه إلى مدين، فوجد حشداً من الناس قد تزاحموا على مورد<sup>(٢)</sup> ماء، كل منهم يعتمد على قدرته في التقدم والمسابقة إلى البئر، ورأى من دونهم امرأتين تفصيلان أغنامهما حتى لا تختلط بأغنام غيرهما في ضعف وذلة، إلى أن ينكشف هذا الحشد، وينصرف الجمع، فتتقدما للسقي.

ثارت في نفس نبي الله ثورة التصفة، وحماية المستضعفين، فتقدم وسألها: ما خطبكما؟

قالتا: لا نسقي حتى ينصرف الرعاء<sup>(٣)</sup> حذراً من مزاحمة الرجال، وقد جئنا نسقي اضطراراً، لأن أبانا شيخ كبير لا ينهض؛ فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين؛ بل سقى أغنامهما، وتولى إلى الظل، ثم انطلق لسأته يسترحم رب السموات، ويستدر العطف، لأنه فقير محتاج.

(١) بين الشام والحجاز.

(٢) المورد: موضع ورود الماء.

(٣) الرعاء: الرعاة.

بكرت الفتاتان بالرجوعى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة، فسألهما الخبر، فأخبرتا، وقد استجاب الله استرحام موسى، فحنا عليه، إذ ألهم الشيخ أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه، فجاءته الفتاة مستحيية متخففة، فقالت: ﴿إِنَّ أَبَى يَدْعُوكَ لِيجزئك أجر ما سقيت لنا﴾ [القصص: ٢٥].

تبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابة للدعوة، فنزل صدراً رحباً. وأنس حرماً آمناً، ثم قص عليه قصصه، وأفضى إليه بمكنون سره، فطمأنه الشيخ، وقال: ﴿لَا تَخَفْ مَيِّتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

### موسى يصاهر

#### الشيخ<sup>(١)</sup> ثم يعود إلى وطنه

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكريم، وسكنت إلى صحبته، ولا بدع<sup>(٢)</sup> فنور الإيمان يتلألأ في كلا القلبين، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين، وشبيه الشيء منجذب إليه.

ولقد كان موسى كريماً فتياً؛ أثار في نفس الشيخ وبنينه عوامل الإكبار والإعجاب، لما زانه الله به من طبع قويم، وخلق كريم، فتحرّك في نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوته، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته؛ فقالت: ﴿يَكَّابِتْ أَسْتَجِرَّةً إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

أو ليس هو الذي أقلّ الغطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حمله، على ما كان به من تعب وهزال؟ أو ليس هو العف الطاهر الذليل الذي أطرق برأسه حينما بلغته رسالة أبيها وامستدعته إليه، فسار أمامها وسارت خلفه وفاء لحقوق الطهارة وذمام<sup>(٣)</sup> المكرمات، وحتى لا تمتد عينه إليها فيكون من الخائنين؟

مرّ حديث الفتاة إلى أذن أبيها، فلم يتبّه غافلاً، ولم يحرك ساكناً، بل كان صدق يرجع ما كان يجيش في صدر الشيخ من أمل ورجاء، أما وقد مزق التماس الفتاة حجاب السكوت، فقد استقر أبوها في مجلسه، ثم انبرى يقول: يا موسى؛ إني لراغب في أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن تكون عوناً لي وظهيراً أجيراً ترعى الغنم،

(١) يرى الحسن البصري ومالك بن أنس أن الشيخ هو شعيب عليه السلام، ويرى آخرون أنه شعيب آخر وليس بالنبي.

(٢) لا بدع: لا غربة.

(٣) الذمام: الحرمة.



وتقوم بنصرتي ومساعدتي ثمانني حجج<sup>(١)</sup> وإن زدتها اثنتين فتلك مئة جليلة، أرجوها منك، ولا أحمها عليك، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين.

ولقد كان موسى شريداً في بلاد مدين، وحيداً طريداً، نائياً عن الأهل، قصياً عن الأخلاء، مستوحشة نفسه، فلم يكذ يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه مسرى الماء في العود، وانطلق لسانه يقول للشيخ: إني لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم، قوي بمناصرتك، عزيز بمؤازرتك.

طاب مقام موسى واخضر في حياته عود الأمل، فأتى أقصى الأجلين يكلاً أمور الشيخ ويدبر شؤونه برعاية الأمين الناصح الحكيم، وتم الزواج بإحدى الفتاتين. ثم وهب له صهرة الكريم أغماً له خالصة سائغة؛ وبعد ذلك تحركت في صدره نشوة الحنين إلى الوطن، ونزعت نفسه إليه، ولج به الشوق والهيام.

بلاداً ألفتها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن  
وتستعذب الأرض التي لا هوى بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

جمع موسى أشبات متاعه وهياً رخله، واستعد ليذهب مع زوجه إلى مصر، فودعا الشيخ وداعاً حسناً، ودعا لهما بالتوفيق والسداد، ثم سارا نحو الجنوب، حتى طور سيناء، وهناك ضل موسى الطريق فحار في أمره، والتوى عليه قصده. ولكن عناية الله لاحظته، فلم يخب ضياؤه، ولم ينطفئ رجاؤه.

وإذا العناية لاحظتك عيوتها نم فالمخاوف كلهن أمان

سار موسى غير بعيد، فأبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً، فحط رخاله، وأسرع وحده إلى النار بعد أن قال لأهله: ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ<sup>(٢)</sup> نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ<sup>(٣)</sup> مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ<sup>(٤)</sup>﴾ [القصص: ٢٩].

في شاطئ الوادي الأيمن، في البقعة المباركة من الشجرة، في تلك الليلة المسفرة الضاحكة، بسم الزمان لنبي الله الكريم، فنودي: ﴿أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِيَّاكَ أَنَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، فكانت بدء نبوته، إذ خصه الله بكرامته، وبعث برسالته. وهناك سمع نداء الله الكريم ﴿وَمَا تَلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَّىٰ﴾؟ [طه: ١٧]، فعجزت قدرته البشرية أن تسمو إلى سير الإبداع في السؤال الكريم، فأجاب كما يجيب غيره من الناس: ﴿هِيَ عَصَايَ أَنزَلْنَاهَا عَلَيْهَا وَأَهْبَسَ بِهَا عَلَىٰ غَمَمِي وَلِي فِيهَا مَثَابٌ رِيبٌ

(١) حجج: سنين.

(٢) آنت: ابصرت.

(٣) الجذوة: الجمرة الملتهبة.

(٤) تصطلون: تستدفنون.

أُخْرَى ﴿ [طه: ١٨] ، ظناً أن المقصود أن يذكر خصائص العصا، ومنافع العصا. . تسامت قدرة الله، وتعالى سبحانه علواً كبيراً، فلم يكن السؤال إلا تمهيداً لتبينه ومقدمة لإعلانه.

سأل الله عن حقيقة العصا، حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق، واستبان عندها معجزات، علم أن في ذلك آيات بينات، وحُجَجاً صادقات، خصه بها رب السموات، تمييزاً لرسالته وتقوية لدعوته:

فكم طابت به للحق نفس بحبل الله تعصم اعتصاماً

وأمر موسى أن يلقي عصاه فألقاها، فإذا هي حية تسعى، نمت وعظمت حتى غَدَت في جِلادة الثعبان، وضخامة الجان<sup>(١)</sup>، لمحها موسى فخاف وهرب، فسمع نداء العلي العظيم: ﴿ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُوفِ ﴾ [النمل: ١٠].

حَقَّت نبوة موسى، واطمأنت نفسه لنداء الله الكريم، وقرت عينه بنور الحق الواضح، فتوجه ربه بمعجزة أخرى، إذ أمره فأدخل يده في جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء.

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبي الله الكريم أمراً له ما بعده، جعلهما الله تشيئاً لقلبه، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه، وتهيئة للمناداة بالحق، ورفع صوته عالياً، وشهر سيفه قاطعاً، ليمزق به حُجُب الزيف والضلال<sup>(٢)</sup>.

### موسى الرسول

عاش فرعون وأعدائه في بلاد النيل، يحكمون القبط وبني إسرائيل، ويفسدون في الأرض ظلماً واستكباراً، ويتخذون من نفوسهم أرباباً، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهة، يفرضون على السوقة عبادتهم من دون الله. ثم هم بعد قد أنزلوا الخسف ببني إسرائيل، وساموهم سوء العذاب، وأنعبوهم في العمل، وأطفأوا أمامهم سرج الأمل، فكانوا معهم من سقط المتاع.

وأوغلوا في شهواتهم، وانصرفوا عن نور الإيمان ووضح اليقين، وانحسرت نواظرهم عن سبل الهداية، فحادوا عن الطريق المستقيم.

وقوم في الضلالة قد تهاووا أليسوا بالرسالة يرحمونا؟

(١) الجان: نوع من الحيات.

(٢) اختار الله موسى ليكون معلماً يعلم الناس الإيمان وحتى يقبل الناس من موسى دعوته يتبني أن يكون إيمانه يقيناً ولذلك أراه الله تلك الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته.

إذا فلتَقضُ رحمة الله، ولتتفجر ينابيع عدله وكرمه، وليكن أرحم بهؤلاء القساة الجفافة في أنفسهم، فيهيئ لهم مدارج النور، ويفسح أمامهم طريق الهداية، وينير مفاوز<sup>(١)</sup> الظلمات.

نادى الله موسى: أن لديك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه، يعزز الله بهما كلمتك، ويُعلي حُجَّتكَ، فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات إلى النور، وترفع للحق علماً يخفق في بلاد النيل؛ فينبج نور الرشاد، ويتوارى غلس الضلال.

سمع موسى دعوة الله، وتهياً لتلبية النداء الكريم، وهو وإن يكن ربط الله بالإيمان قلبه، ووثق بالبراهين دعوته؛ فأراه حجتين بهما يتقوى ويستد، ويُساجل ويناضل، ويعزز كلمة الله أمام فرعون وقومه - إن يكن له كل ذلك؛ فإن لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون؛ فهم يطلبونه منذ أمد، وهو قد أمعن في الهرب، وفارق الأهل والوطن؛ إنجاء لنفسه، وطلباً للسلامة من أقرب الأبواب. وهو كذلك وإن جاشت في نفسه نزعة الحنين إلى الوطن؛ واختلجت في فؤاده عوامل الشوق والشجن<sup>(٢)</sup>؛ لا يزال يجد أمام الأمل سدة<sup>(٣)</sup>؛ فيغض الطرف عن هذا المطلب البعيد المنال. أما وقد دعاه الله وهياه لرسالته، فقد آن له أن يتقدم حيث أحجم، وأن تنبعث آماله حرّة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان.

فاضت الضراعة من قلب موسى إلى ربه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَسُوا فَأَنَا أَفْ كَانُوا بِآيَاتِي لَا يَحْسَبُونَ﴾ [القصص: ٣٣]، قال قَوْلته؛ ليطمئن قلبه، وليشرف قدره، ويعظم جاهه، فينفحه ربه بقول كريم، يُنير في قلبه مصابيح الرجاء، ويفسح أمامه مسالك الأمل، ويثليج خاطرَه، ويهدئ روعه، ويؤمن نفسه.

أمر موسى أن يذهب إلى فرعون فتهيب الموقف، واستعظم الأمر، وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى، ودلائل الحق؛ لأنها فياضة زاخرة؛ تمتلىء بها مشاعره، وتجيئ بها خواطره، وتملك عليه عقله وقلبه. وهو لا يملك أن يكون قوتي التعبير، رصين الحجّة، مُفوّه المنطق، سريّ البيان، لأن شأنه شأن خطير، وأمره أمر كبير، فدعا ربه فقال: رب اشْرَحْ لي صَدْرِي، حتى يفسح لتحمل أعباء هذا الأمر العظيم، ويسر لي أمري برفع الموانع والصعاب، واحلل عقدة من لساني أكن ناصح البيان، سديد البرهان، حتى ينفذ بلاغي إلى نفوسهم، ويتسرب إلى قلوبهم، واجعل لي شريكاً وزيراً من أهلي، هو هارون أخي، أشدُّ به أُرِّي، وأشركه في أمري.

(١) المفازة: الموضع المهلك.

(٢) الشجن: الحزن.

(٣) السدة: باب الدار.

أجاب الله دعاء نبيه الكريم، تدعيماً للدعوة، وتكريماً لرسوله، وتنبهياً لشأن الحق، فألهم هارون - وقد كان بمصر - أن يذهب إلى حيث يقيم موسى أخوه، ليشاركه في أمره، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير. فلبى هارون داعي الحق، وسار فقابل أخاه بجانب الطور الأيمن.

إذاً قد اطمأن موسى، وتقوى ظهره، وآتاه الله سؤله.  
أوحى الله إلى موسى وأخيه: أن اذهبا إلى فرعون، فقولوا له قولاً لئناً، أرفق بنفسه، وآلف لقلبه، عسى أن تلين قسوته، وتخضع سطوته، فلا تحمله حماقته على أن يسطو عليكم، ولتسدا أمامه منافذ التمحل والاعتذار. وعسى أن تكون دعوتكما لئنة رقيقة، فلا تفجعه في سلطته، ولا تصدمه في عزته.

ومن أولى من رب السماء والأرض بأن يعلم الأدب، ورقة العبارة، وسمو الحس، وحسن المعاملة؟ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً؟  
أليست لفرعون على موسى حقوق التربية؟ فمن حقه عليه ملائنة في القول، ورقة في الأسلوب.

قال الله: يا موسى، اذهب أنت وأخوك بأياتي إلى فرعون وقومه، وتدرجاً معه في الدعوة، فقولوا: إننا رسول ربك، وادعوا ليخلص بني إسرائيل مما هم فيه من ظلم وإيلام.

ذهب موسى وأخوه إلى مصر، فأتيا فرعون، فاستهان بهما، واستنكر بخطبهما، فقال: حتى أنت يا موسى، ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ﴾<sup>(١)</sup> وَلَكِنَّتَ فِينَا مِنْ عَمَلِكِ سِينِينَ ﴿ [الشعراء: ١٨].

فقال موسى: أتمنُّ بتريبتني لديك وليداً فتحسبها نعمة! أليس منشأها ظلمك واستعبادك لبني إسرائيل!

فانطلق فرعون قائلاً: وكذلك فعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا. ودحض<sup>(٢)</sup> موسى حجته، ورد دعوته؛ فقال: بل فعلتها إذاً وأنا من الضالين، ولما جئت بطشكم فررت منكم، فأصابني نعمة الله ورحمته، فوهب لي علماً وحكمة، وجعلني من المرسلين.

حينئذ استغلق باب النقاش أمام فرعون، فعمد<sup>(٣)</sup> إلى طريق آخر، واهماً أن به نضفته، وفيه سلامته، فقال: وما رب العالمين؟

(١) الوليد: الصبي المولود.

(٢) دفع وأبطل.

(٣) عمد إلى الشيء: قصد له.

فقال موسى: إن أيقنت حقيقة الأشياء، وأدركت وجودها وآثارها، فيلهي ربها، رب السموات والأرض وما بينهما.

فتميز فرعون غيظاً، وراح يُثير سخيمة من حوله، ويبعث دهشتهم وعجبهم واستنكارهم، فقال:

أيها القوم، ألا تسمعون؟! أسأله عن حقيقة ربه فيذكر لي أفعاله! فقال موسى: ربي ربكم ورب آبائكم الأولين، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

فتار فرعون واضطربت نفسه، ولج في غضبه، وزاد غيظه، وعجزت حجته، فلجأ إلى حيلة المُحتق الموتور، وعمد إلى قوته، وقال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتَنِهَا فَعَرِي لَأَجْمَعَنَّكَ مِنَ السَّجُونِ﴾ [الشعراء: ٢٩].

لم يُبالِ موسى، واطمأن لدعوته، وانبعث لسانه بدفء الأمل، فقال: ﴿إِزْلُزْ جَنَّتَكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾! [الشعراء: ٣٠] حجة دامغة، ومعجزة (١) قاطعة، تُزيل عنك الريب والشكوك؟

فقال فرعون: إِذَا قَاتَيْتَهُمْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [الأعراف: ١٠٦].

### معجزات موسى

كان موسى قوي الظهر، مسدد الخطأ، يستمد العون والتوفيق من الله العلي الكبير، وكان السحر فناً ذاع في القبط أمره، واشتهر شأنه، فظهر منهم الساحر الذي يخلب العقول، ويسترق الفؤاد، ويلعب بالألباب لعَبِّ النَّكْبَاءِ (٢) بالعود، برعوا في هذا الفن وأتقنوه، فليس يباريهم سابق، ولا يبلغ شأوهم لاحق.

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله أن يُعجزَ القوم، وأن يقفهم دهشين ذاهلين، إذ تُصوب سهامهم إلى نحوهم، فلا يستطيعون ردها، ولا هم يُنظرون.

تلك حكمة أرادها الله، فأجرى المعجزة على يد نبيه موسى تحاكي ذلك النوع الذي برع فيه القوم، حتى يُفرغوا كل كنانتهم، ويستنفدوا كل جهودهم فإذا عجزوا في محط سبقهم، وغاية براعتهم، فهم عن غيره من الأعمال أعجز، وحينئذ فكلمة الله هي العليا. وكلمتهم هي السفلى، و﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

(١) المعجزة: أمر خارق للمادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تأييداً له وتكون مصحوبة بتحد أن يفعلها إنسان آخر.

(٢) النكباء: الريح.

ألقى موسى عصاه التي أودعها الله القوة الخارقة، فإذا هي ثعبان مبین. شُدِه (١) فرعون، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة، ثم قال: هل من غيرها؟ ظاناً بأن ذلك نهاية الشوط، وأن موسى لا بد عاجز. ولكن الرسول أدخل يده في جيبه ثم نزعها، فإذا شعاع ينبعث منها يكاد سنا (٢) بَرِّقه يأخذ الأبصار، ويذيع وينتشر حتى ليكاد يسد الأفق.

بعد ذلك ضاقت مسالك القوم أمام فرعون، وغشيه همٌّ واكتئاب، ولجَّ به حرصه على ملكه وجبروته، وبهره سلطان المعجزة، فأنزله من عليائه، وصغَّر شأنه في عين نفسه، فنسى أنه ربُّهم الأعلى، وأنه ما عَلِمَ لهم من إله غيره، ثم عمَدَ إلى التمسح في أذيال قومه، ومداهنتهم، فأشركهم في الأمر، وتبادل معهم المشورة والرأي وتقدم لمؤامرتهم، وتفيرهم من موسى، مُلبساً الباطل ثوب الحق، والخديعة والتدليس ثوب الصراحة والحقيقة، فقال: يا قوم هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما؛ فما ترون؟ فقال أنصاره وحواشيه: احبسهما، وابعث رجالك في المدائن (٣) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢].

صادف هذا الرأي هوى في نفس فرعون، وهو الذي يتعلق بخيوط واهية، ويتمسك بالأمل الكاذب، ويستند على أوهن أساس لعل فيه الخلاص والنجاة.

فجدَّ في جمع السخرة من كل مكان، كلُّ ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه؛ خوفاً على صَوْلته، وفرقاً (٤) على دولته؛ إذ قال لموسى في نكران ودَهش: ﴿أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوسَى﴾ [طه: ٥٧].

ما بال فرعون اضطرب وجزع، وتقطعت نفسه وهلع؟! أليس هو الإله المتجبر؟ أو ليست له قدرة وكرامة؟ إنه أمام تلك القوة الخارقة التي أجراها رب الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!

قال فرعون لموسى: ﴿فَاجْعَلْ لِي آيَةً وَبَيْنَكَ وَمُوعِدًا وَلَا تُخْلِفُهُمْ عَنْ وَلَا أَنْتَ﴾ [طه: ٥٨].

قال موسى: موعدكم يوم العيد، يوم اجتماع الناس وزينتهم، حتى يشيع الحق، وينبلج انبلاج النهار.

جدَّ فرعون واجتهد، وجمع السخرة، وأتى بهم في ذلك الزمان، وهذا المكان تتمشى في نفسه بقية من الأمل، ورغبة شديدة مُلِحَّة من الحرص والسلطة،

(٣) المدائن: جمع مدينة، كالمدن.

(٤) فرقاً: خوفاً.

(١) شدّه: تحير.

(٢) سنا: ضوء.

يدفعانه دفعاً إلى مساجلة موسى والقضاء على دعواه، ولكن هيهات أن يدنس الشمس غباراً ثائراً، أو يحطّ من قدر العدالة سلطان جائر.

كناطح صخرة يوماً ليوهتها فلم يضرها وأوهى قرته الوعل  
تلقت موسى فوجد حشداً هائلاً من السحرة، فقال لهم: الويل لكم إن افترتم  
الكذب على الله، فدعوتهم معجزاته سحراً؛ ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع والحق  
القاطع، فتظهروا له ما بين سحركم وإعجازي، وتفرّقوا بين باطلكم وحقّي، ومن  
احتال منكم ليطلّ حقاً، أو يُحقّ باطلاً فقد خاب، وباء بالخسران المبين.

كان كلام موسى نداءً الحق رنّ في آذان الساحرين، فأقامهم من غشية  
الضلال، وأزال عن أفئدتهم حلك المحال<sup>(١)</sup>، وفتق أعشية قلوبهم لتصيخ لدعوة  
الحق، ولتستبين طريق الرشاد.

اتتمر السحرة بأمر فرعون، لم يتخلف واحد منهم، فإذا بهم آلاف، مع كل  
واحد منهم حبلٌ وعصا، مقبلين إقبال رجل واحد، ومشمّرين عن سواعدهم، ليكون  
ذلك أدعى إلى تسرب الخوف إلى موسى وأخيه، وبث المهابة في نفوس الرائين.

نادى فرعون في قومه حاثاً لهم على الإسراع والبدار<sup>(٢)</sup> وليشهدوا ذلك الحفل  
العظيم ساعة الضحى من يوم الزينة، يوم يتبارى القرنان<sup>(٣)</sup>، ويتساجل الخصمان.

جاء الناس مدفوعين بالرجاء في نصرة الساحرين، لما رسخ في نفوسهم من  
الضلالة، وران<sup>(٤)</sup> على قلوبهم من الجهالة، فسلبهم سلامة التقدير، وصحة التصوير.

أقبل السحرة مُدليّين بعلمهم ومزهوئين بغرورهم، وكيف لا يُدلون ويُعجبون  
وهم فوارس الميدان، وجياد الرهان، ومناط الأمل ومحط الرجاء!

قالوا لفرعون: ألنا أجر إن غلبنا؟ فقال: لكم أجرٌ وقزبي! تنعمون في جمائي،  
وتسعدون بجواري، وتنزلون موارد الرفاهة<sup>(٥)</sup> والترف والنعيم، لأنكم تشدون أزرّي،  
وتقوون ظهري. فاطمأن السحرة لهذا، ودارت برؤوسهم كؤوس الأمل، فأقبلوا  
مدفوعين، ثم قالوا: يا موسى، إما أن تُلقني، وإما أن نكون أول المُلقين.

فلم يبال موسى سحرهم، واستخفّ بخطبهم، وأذن لهم بأن يُلقوا حبالهم  
وعصيتهم، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم، ويفرغوا غاية جهدهم، ثم يُظهر الله  
سلطانه، فيقذف بالحق فيدمغه<sup>(٦)</sup>.

(٤) ران على قلوبهم: غلب.

(٥) الرفاهة: السعة والرغد.

(٦) يدمغه: يمحوه.

(١) المحال: الكيد والمكر.

(٢) بدر إلى الشيء: أسرع.

(٣) القرنان: الخصمان.

تقدم السحرة وألقوا ما في أيديهم، فحِيلَ لموسى أنها حياتٌ على الأرض تسعى، ولكنه وهَمَّ تسلل إلى خلجات نفسه حذراً وخوفاً أن يؤخِّدَ الناس بهذا الظاهر الممّوه، والباطل المشوّه، فينصرفوا عن دعوته مديرين. ولكنّ حماه الله ورعاه، فقال: لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى، ولا تحفل<sup>(١)</sup> بكثرة هذه الأجراء وعِظَمها، فإن العويذة التي في يدك أخطرُ شأنًا وأعظمُ أثرًا، فآلقها فإنها بقدرة الله تبتلع ما افتعلوه وزوروا، وموهوا وضلّوا، فما كلُّ ذلك إلا كيد ساحر، ولا يفلحُ الساحرُ حيثُ أتى<sup>(٢)</sup>.

هدأت حصاةً موسى، وألقى عصاه، فإذا هي تَلَقَفْ<sup>(٣)</sup> ما يَأْفِكُونَ، وإذا السحرة يلمسون الحقيقة الرائعة، ويتبينون الرُشدَ من الضلال، والحق من المحال، فإذا هم يخرون ساجدين، توبة عما صنعوا وخشوعاً لهيبة الحق، وإكباراً لذلك الأمر الخطير.

غلت مراحلُ الحق والحفيظة في صدر فرعون، واحتدم غيظه لتلك المفاجأة الغريبة التي فجأته، مستظيرة الشرر، شديدة الضرر، على حين كان يرجو من وراثتها تقويةً لسلطانه، وتدعيماً لهيئته، فإذا هي عاصفةٌ هوجاء تقوّض ذلك العرش الذي أسس على الزور والبهتان.

لم يجد فرعون في كينانته إلا أن يُشبع نهم غيظه، ويستر مرارة خجله، فقال: أتؤمنون له، وتخضعون لحكمه من قبل أن أذن لكم؟ أليس في ذلك اتفاق مقرر، ورأي مدبّر؟

حقاً إنه لأستاذكم، وكبيركم الذي علّمكم السحر، فاتفقتم معه على فعلكم. أما وقد أقدمتم على ذلك، وخرجتم على حدود طاعتي، ونقضتم حبال عهدي، فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبكنم في جذوع النخل، عقاباً لكم، وتمثيلاً بكم، لأنكم كفرتم بنعمتي، ونقضتم ميثاقي، ولتُعرفنكم أيامَ الزمن قوة بأسِي، وشدة عذابي.

ولكن قوة الإيمان، وفيض النبوة ربّط على قلوب هؤلاء المؤمنين، فأزال الله عن قلوبهم غشياً الباطل وغمرة البهتان، ودرجوا قُدماً نحو الصراط المستقيم، فقالوا لفرعون: ليس في سبيلك خير، ولا في رضاك أجر، فلن نختارك على ما

(١) حفل بكذا: بالي به.

(٢) السحر قراءات مخصوصة لها تأثير على أرواح الآخرين ويوهم الساحر المشاهد أن الشيء قد تغير ولكنه كما هو.

(٣) لقف الشيء وتلقفه: تناوله بسرعة.



جاءنا من نور ساطع وحق قاطع، فأوغل في وعيدك، وأكثر من تهديدك، فما أنت إلا عوي مُضِلُّ مُبِين، ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقٍ ﴾<sup>(١)</sup> [طه: ٧٣].

### عناد فرعون

شده فرعون لما رأى من سحر موسى كما يسميه، وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان: أقواهما الإبقاء على ملكه، ومجاهدة موسى حتى تنجلي عجاجة ظلامه، وتنكشف سحابة غمته، فيستيب لفرعون المصير، وكيف لا يناضل عتل<sup>(٢)</sup> جبار في سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة؟ إنه لمضطر تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يدافع ويجالد حتى يدحر<sup>(٣)</sup> ذلك الخارج على سلطانه. أصر فرعون على عناده، وظاهره الملا من قومه، فقالوا: ﴿ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ! ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. فتغالى في بطشه وغنوانه، واستطار شرره وبهتانه، فقال: إنا سنقتل أبناءهم ونستحيي<sup>(٤)</sup> نساءهم. ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم واللوان الأذى، فضجوا لاجئين إلى موسى، ليحميهم من أذى الكافر الجبار، وقالوا: يا موسى، لقد أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. فسكن الرسول نوزتهم، وهذا روعهم، ومثاهم الخير والنجاة قائلاً لهم: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

قال موسى هذا، واستمر في دعوته يمهد لقومه سبيل النجاة، ويتجه إلى ربه بقلب ثابت، وإيمان موثق، واطمئنان موفور.

أما فرعون فقد خلص إلى ملا من قومه ياتمرون بموسى ليقتلوه، فذلك أقرب طريق أمامهم، وأدنى السبل لبقاء ملكهم، بعد أن أعيتهم الحيل، وسدت أمامهم منافذ الخلاص. وبينما هم في أخذ ورد، يقلبون أوجه الرأي، ويجيلون الفكر في الإقدام على جريمة القتل، إذا دفعت المروءة والشجاعة رجلاً أنار الله بصيرته، وكشف له سبيل الرشد والإيمان فدافع عن موسى أشد الدفاع، وناضل عنه وجادل، وبيّن لهم سوء أمرهم، وعاقبة تدبيرهم، وفند حججهم، وزيف ضلالهم، وطفق يضرب المثل، ويتقوى بالحجج.

(١) السحرة هم الخبراء الذين سيبتون بأمر موسى فكانوا من عرفوا الحقيقة وأعلنوها على الناس.

(٢) عتل: شديد الخصومة كثير العناد.

(٣) يدحر: يغلب.

(٤) نستحيي: نتركهم أحياء.

فقال يا قوم: ﴿أَنْتُمْ تُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ثم طفق مؤمن آل فرعون يذكرهم ببأس اللّٰه وبطشه، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ كَذَّابِينَ فَاقْتُلُوا قَوْمِي وَمَتِّدُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَىٰ عَنُقِ قَوْمِكُمْ وَكَلِمَاتُكُمْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [غافر: ٢٩].

وَيَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَذَرِكُنِي وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن قَوْمِكَ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ لِمَا يَشَاءُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَبِيًّا

مِنْ هَاهُوَ وَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّينَ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿[غافر: ٣٠ - ٣٤].

ولكن القوم - على الرغم من قوة عارضته - قاوموه وكذبوه ليلجئوه إلى صفهم ورايهم، فقال: ﴿يَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ أَلَنْتُمْ لَكُمْ أَنْ تَدْعُونَنِي إِلَىٰ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤١ - ٤٤].

ضاق القوم ذرعاً بهذا الرجل الذي فجأهم برأيه، وسقاه أحلامهم بهديه، فناووه وسفهوه، وهموا به ليقتلوه، فواقه الله سيئات ما مكروا وحقاق فرعون سوء العذاب.

استمر موسى في دعوته لا يثنيه وعيد، ولا يخيفه تهديد، يدعو فرعون إلى الإيمان بربه، والرُّجعى إلى خالق الأرض والسموات، وأن يطلق معه بني إسرائيل؛ ولكن هذا كان شديداً كل الشدة على ذلك الطاغية الجبار؛ فاشتط في غوايته، وظل في جهالته. وجمع فرعون أشتات الزائغين من قومه، الذين أَلْفُوا الذلة، وارتضوا عيشَ الهوان والاستعباد. جمعهم يريد أن يبهزمهم بالقوة، ويشبثهم على الكفر والمذلة، ونادى في قومه: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فُلُوًّا أَلْفِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

وهؤلاء هم أذئاب شره، وعمد زبغه وظلمه، قد أطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين. لم يبق في قوس الصبر منزع، ولا لحجة المبين موقع، بعد أن عتا فرعون

(١) الأحزاب: الأمم السابقة.

(٢) التناد: القيامة.

(٣) لا جرم: حقاً.

عُتُوا كَبِيرًا، وَسَدَّ مَسَالِكَ الْقَوْلِ بِيَهْتَانِهِ، وَأَنْكَرَ الشَّمْسُ فِي وَضْحِ النَّهَارِ؛ بَلْ أَنَّهُ قَدْ اسْتَمَرَ يَذِيقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْوَاعَ الْمَذَلَّةِ وَصَنُوفِ الْهَوَانِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى أَنْ يُعَلِّمَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَذُمَّ مَذِيقَهُمْ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ وَحَسْبَهُمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِنَقْصِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرَاتِ، فَغَضِبَ مَعِينُ النَّيْلِ، وَغَاضَ مَاءُوهَ، وَقَلَّ عَنَّاؤُهُ، وَقَصُرَ عَنِ إِرْوَاءِ أَرْضِهِمْ. فَنَقَصَتْ ثَمْرَاتُهُمْ، وَذَوَى عَوْدُ خَيْرِهِمْ، ثُمَّ أَغْرَقَهُمُ الطُّوفَانُ<sup>(١)</sup> مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ، فَأَضْرَبَ بِالزَّرْعِ وَالضَّرْعِ، ثُمَّ زَحَفَ عَلَيْهِمْ جَرَادٌ أَكَلَ الثَّمَارَ وَالْأَزْهَارَ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْقُمَّلُ، فَأَقْضَى مُضَاجِعَهُمْ وَأَقْلَقَ رِقَادَهُمْ، وَابْتَلَوْا بِالضَّفَادِعِ، فَغَضِبَتْ عَيْشُهُمْ، وَاحْتَشَدَ جَمْعُهَا فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَبَيْنَ مَلَابِسِهِمْ، وَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ الرَّعَافَ مِنْ آتَافِهِمْ، ثُمَّ مَحَقَ اللَّهُ أَمْوَالَهُمْ وَأَهْلَكَهَا جَزَاءَ خَطِيئَاتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ<sup>(٢)</sup> قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَا مَعْ عَهْدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذَا الْبَلَاءِ، لِيْمْهَدَ لَهُمْ سَبِيلَ الْخِلَاصِ مِنْ حِمَاتِهِمْ، وَلِيَقْوَى بِحِكْمَتِهِ الْحِجَّةَ وَالِدَّلِيلَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ نَكَشُوا عَهْدَ اللَّهِ فَكَانُوا مِنَ الْخَائِنِينَ.

### خروج بني إسرائيل من مصر

أَفْصَحَ النَّهَارُ لَذِي عَيْنِينَ، فَتَبَيَّنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْغَيَّ مِنَ الرَّشَادِ، وَانْحَازُوا لِرَسُولِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، يَلْتَمِسُونَ لَدَيْهِ الرَّحْمَةَ وَالْهُدَايَةَ، وَهُمْ الَّذِينَ ضَلَّتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَسَيِّمُوا سُوءَ الْعَذَابِ؛ فَعَاشُوا عَيْشَةَ الْبَلَاءِ وَاصْطَبَرُوا عَلَى اللَّأْوَاءِ.

وَكَيفَ لَا تَتَفَتَّحُ بِصَائِرِهِمْ وَلَا تَتَفَجَّرُ يَنْبِيعَ إِيمَانِهِمْ، وَقَدْ لَمَسُوا آيَةَ الْحَقِّ نَاصِعَةً مُشْرِقَةً فَفَرَّتْ بِهَا عَيْونُهُمْ، وَاطْمَأْنَنْتْ إِلَى مِهَادِ جَنُوبِهِمْ. فَلَمْ يَحْفَلُوا بِوَعِيدِ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يَأْبَهُوا لَزْمِجَرَّتِهِ وَتَهْدِيدِهِ، وَالتَّمَسُوا الْفِرَارَ مِنْ أَرْضِ الْقَبْطِ طَلِبًا لِلسَّلَامَةِ، وَبُعَدُوا عَنِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ!

سَارَ بِهِمْ مُوسَى أَوَّلَ اللَّيْلِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَقَدْ سَهَّلَ اللَّهُ إِلَيْهَا طَرِيقَهُمْ فَسَارُوا حَثِيثًا، يَدْفَعُهُمُ الْخَوْفُ، وَيَعْصِمُهُمُ الْإِيمَانُ، حَتَّى قَطَعُوا رُقْعَةَ الْيَابَسَةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَإِذَا بِهِمْ أَمَامَ بَحْرِ لُجِّي يَقِفُ أَمَامَهُمْ سَدًّا مَنِعًا دُونَ غَايَتِهِمْ، وَحَائِلًا دُونَ

(١) كانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوت القبط فامتلات بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم وكان ذلك لمدة سبعة أيام.

(٢) الرجز: العذاب.

أمنيتهم، فساورهم القَلْتُ، واستولى عليهم الجزع، وتوزع نفوسهم الرّوع والفرع، أليسوا هم المظلومين لفرعون وجنوده، وهو الذي يجذ في السير ويمعن في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم، لأنهم - على زعمه - عبيد أبقون، وأتباع مارقون! وكان قد جيش جيشه، وحشد خيله ورَجَلَه (١) وسار وراء موسى ومن تبعه حتى صار منهم قاب (٢) قوسين أو أدنى.

هاج بنو إسرائيل وتقطعت نفوسهم همّاً وحسرة.. أليس الموت قد كاد يُدرِكهم، وحبائلُ فرعون قد اقتربت لتقنصهم؟ هنا سُمع صوت يجأر كما تنبعث الهَيْعَة (٣) الصاخبة وسط المفازة المترامية، فيه عتب، وفيه لوم، وفيه استنجاد وفيه يأس، وكان صاحب الصوت يوشع بن نون، من قوم موسى.

قال: يا كليمَ الله، أين تدبيرك، ها قد دَهَمْتنا غوائل القَدَر، فالبحر أماننا والعدو وراءنا، وليس لنا من الموت مَحِيص ولا مَفْر. فقال موسى: لقد أُمِرْتُ بالبحر، ولعلي أومر الآن بما أصنع. فسرت في نفوس القوم ساريةً من الأمل، ولكنه لا يلبث أن يمد شعاعه، حتى تطفئه عواطف اليأس والقنوط، ويُشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى في قلوبهم من رجاء، وما يعللهم به نبيهم من فرج ورجاء، إذا فليستسلموا لقضاء الله، والله لا بد راحمهم وعاصمهم من فتك الظالمين.

أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِمِصْرِكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضربه (٤)؛ فانجابت دياجيرُ الظلام وانحسرت طاعياتُ اليأس، وإذا اثنا عشر طريقاً لاثنى عشر سِبْطاً (٥)، لكل سِبْطٍ طريق، وإذا الشمسُ والرياحُ يهيئهما الله، فتجف هذه الأرض، وتمهد تلك السبل، وإذا القوم يسرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال، وإذا ربهم يؤمن رسولهم، إذ يقول: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ مَطَرِيْقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

انساب الأسباط يُهرعون إلى بر الأمان والسلام، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطُود (٦) العظيم، حتى عبروا سالمين.

- (١) الرجل: المشاة.
- (٢) قاب: قدر.
- (٣) الهَيْعَة: صوت مفرع.
- (٤) انحسر الماء عن أرض السويس واجتمع سحلاً كالجبال من الماء المتجمد، وكل فريق يرى إخوانه خلال الماء الشفاف المتجمد حتى وصلوا سيناء.
- (٥) السبب: الفريق من اليهود.
- (٦) الطود: الجبل.

استشرف القومُ بعيونهم، فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون ليسلكوا في البحر مسالكَ بني إسرائيل التي عبروا منها، حتى يلحقوا بهم، فيُنزلوا بهم أشد العذاب، ففَشِيَهُمْ من اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ، وعاد القلق والاضطراب، بعد أن ظللتهم سحابةٌ من الأمن، وتملكهم الخوف والإشفاق، خشية أن يمتد إليهم عُدْوَان فرعون، بعد أن يجوز البحر من حيث جاوزوه.

اتجهت القلوب، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشف ربه عنهم هذا البلاء المحقق، الذي يكاد يذمهم من حيث لا يشعرون. حينئذ هم موسى ليدعوا البحر فيرجع إلى حاله، حتى يحول بينهم وبين فرعون، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذي يلاحقهم في كل مكان.

لم يكد عزمُ موسى يختلج في فؤاده حتى أوحى الله إليه؛ أن اترك البحر ساكناً على حاله، فلا تضربه بعصاك لئلا يتغير منه شيء، لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلاً بينك وبينهم، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين، بل سبقت كلمة الله في هؤلاء أنهم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ.

تلقت فرعون وجنوده، فإذا سبيل البحر ممهدة أمامهم، فيها يسرون، ومنها إلى بني إسرائيل يصلون، فانفتحت أوداجهم، وأعماهم غرورهم، وتاهوا في ضلال الصلف<sup>(١)</sup> والإعجاب. فقال فرعون لجنوده: انظروا إلى البحر كيف انقلق، طوعاً لأمري، وانصياعاً لإرادتي، حتى أذكر هؤلاء الخارجين.

وكانها كانت معجزة لفرعون في نظر أصحابه الضالين، فتقووا بقوة، واطمأنوا لنصرته، ثم اندفعوا إلى مسالك البحر، وقد لجت بهم العجلة، طلباً لبني إسرائيل. ولم يكادوا يصلون إلى عرض<sup>(٢)</sup> حتى انطبق عليهم، فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلاً للآخرين.

نسي فرعون علياءه ومجده، وأدرك الحقيقة التي طالما خفيت عليه، وأبصر فإذا هو عبدٌ كليل الرأي، حقيق الشئ ولا حول له ولا قوة فانجابت عنه تلك السحابة القاتمة المظلمة، وتسرب إلى قلبه شعاع من الحق المبين.

وقد بهرت فما تخفى على أحد إلا على أحد لا يعرف القمر

في هذا الوقت العصيب آمن فرعون، فقال: ﴿مَأْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي مَأْمَنْتُ بِهِ

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

(٢) عرض البحر: وسطه ومعظمه.

(١) الصلف: التكبر.

لم يقبل الله محال<sup>(١)</sup>، هذا الطاغية الجبار الذي أهلك الحرث والنسل، بل جازاه على شر أعماله وبشّ المصير.

انطبق البحر، فسمع صوت انطباقه صاحباً شديداً، فسأل بنو إسرائيل موسى: ما هذه الضوضاء؟ فقال لهم: إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرّقين. فعاودتهم غريزة تأصلت في نفوسهم، وباطل تمكّن من قلوبهم، وهم تسلّط على عقولهم فقالوا: يا موسى، إن فرعون لا يموت، ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور، لا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه بنو الإنسان؟!!

قالوا هذا، ويغشى على أفئدتهم وهم باطل، ولكن فليختلقوا القدرة والحوّل، والإمكان والطول لفرعون، وليمعنوا في دعاويهم الزائفة الكاسدة، فهذه قدرة الله، وذلك حول الله. أمر فألقى البحر جُثّة فرعون على ساحله حتى لا تكون في موازاة البحر إياها سبيل من سبل التقلّ لفرعون. فربما قالوا: إنه يعيش في عالم آخر، وربما افتروا، وربما كذبوا، إذا فليُخرس الله ألسنتهم، وليكتم أنفاسهم، ولينبذ البحر هذا الجسد المحطم، وذلك السلطان المهدم.

نظر بنو إسرائيل دهشين ذاهلين مصرع ذلك الجبار العاتي، إذ أغرق الله فرعون وجنوده، ونجّى فرعون ببدنه، ليكون آية لمن خلّفه، آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة، وذلك الإنعام الذي تفضل به رب العالمين.

### (\*) مواعدة موسى

استقرّت عصا التسيار<sup>(٢)</sup> بموسى ومن معه، فأقاموا حيث واثاه المقام، ومن ثم احتاجوا إلى منهاج يسرون عليه، وشرع يركنون إليه. فسأل موسى ربه كتاباً يهتدون به، وإلى حكمه يرجعون، فيه من الأمر ما يأتون ومن النهي ما يذرون، حتى لا تتردى بهم أيام الزمان، ولا يخبطوا في أمور المعاش والمعاد خبط عشواء.

أمر الله موسى أن يتطهر، وأن يصوم ثلاثين يوماً، ثم يأتي إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه، فيتلقى أمره في كتاب يكون لهم المرجع والمآب.

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ثم ذهب لميقات<sup>(٣)</sup> ربه، ولكنه تعجّل

(١) محال: كيد ومكر.

(\*) انظر حديث الصون في سنن النسائي.

(٢) التسيار: المبالغة في السير.

(٣) الميقات: الوقت المضروب للفعل، والميقات أيضاً: الموضع.

فسبقهم إلى الطُور، فوصل بعد ثلاثين ليلة، وقد تأخر عنه المختارون من قومه . حينئذِ سُئل عن الأمر الذي بعثه على الإسراع والعجلة، فقال: هم أولاء على أُنبي وعجلتُ إليك ربي لترضى . فأمر أن يُتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة .

وكان موسى قد ترك قومه، واستخلف عليهم أخاه هارون وزيراً، يقوم على شؤونهم، ويُصلح أمورهم، ويرعى أحوالهم، حتى يعود يحمل الأمانة الغالية، ويسعد بذلك الشرف الموعود .

سار موسى إلى طور سيناء، فكلمه ربه وناجاه، وقرّبه وأدناه، حتى سرت في نفسه روعة وهزة، أجمت في فؤاده نار الشوق، وألهبت أوار<sup>(١)</sup> الهيام واللهفة، فقال: رب أرني أنظر إليك، ولم لا يختلج في فؤاد موسى خاطرٌ يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه، وقد نِعِم بتلقّي رسالته، وسعد بالقرب من رعايته، ونال ما لم ينله أحد من العالمين، أليس المأرب شريفاً، والقصد كريماً؟

وموسى نفسه هو الرسول الذي طالبه قومه، فقالوا: أرنا الله جهزة، فلماذا لا يسأل ربه ذلك، ليرى بنفسه أمر الله في ذلك المرغوب، وليكون حكم الله حجة قاطعة لهؤلاء الراجين الملحفين<sup>(٢)</sup>؟

قال ربه: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني . تلقّت موسى فإذا الجبل قد ذك، وغار في الأرض وساخ . . . فارتاع لهول ذلك الخطب الجلل والأمر العظيم، فخر صعقاً . فلطف الله به وشمله برحمته، فأفاق من صعقته، وقام يستبح الله الكبير المتعال .

أخذ موسى الألواح، وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل، موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فقال: يا رب لقد أكرمتني بكرامة لم تُكرم بها أحداً قبلي، فقال، يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، ﴿فَخَدَّمَا آتَيْنِكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] .

وانتظر بنو إسرائيل أن يوافيهم موسى بعد ثلاثين يوماً من بدء غيبته، ولكنه - على غير علم منه - طال غيابُه حتى صار أربعين يوماً، فأجالوا الرأي بينهم وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده، وتركنا في جهل مقيم وليل بهيم<sup>(٣)</sup> وما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك، ويرشدنا إلى سواء السبيل!

عندئذٍ تحركت في نفس السامري نزوة الشر والفساد، فاغتنمها فرصة، وقال

(١) الأوار: الحرقه .

(٢) الملحفين: المتشككين .

(٣) بهيم: شديد الظلام .

لهم: عليكم أن تتخذوا لكم إلهاً، فليس موسى بزاجع إليكم، لأنه خرج ينشد إلهكم فضل الطريق، فأبطأ عليكم وأخلف الميعاد.

قال الشيطان قوله هذا بعد أن استشف ما في نفوس القوم من خورٍ وانحلال؛ أليسوا هم الذين مالت قبل نفوسهم إلى الكفر، وقد مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿يَمْوَىٰ آجَعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

اغتنم السامريُّ هذه الجهالة الجهلاء، وتلك الضلالة العمياء، وأخذ خُلياً، ثم احتفر حفرة، وقذفها فيها، ثم أوقد ناراً، وصنع منها عجلاً جسداً له خوار، فأصبح فتنةً بين القوم، ميزت فيها الغث<sup>(١)</sup> من السمين.

فتن بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه فتقطعت نفس هارون أسي وحرزناً، وقال لهم: ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠ - ٩١].

فأقام هارون مع البقية الثابتين على وفائهم، المتمسكين بإيمانهم، وخشي أن يحارب الضالين الخارجين، حذراً من التحزب، وخوفاً من الفتنة والثورة.

استشعر موسى من ربه هذا الأمر؛ إذ قال: يا موسى، إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري. فلما أنتم ميقات ربه، وسار نحو قومه، وسمع على بُعد لغطاً وضجيجاً أدرك سرَّ الأمر، وحقيقة الحال؛ حيث هم حول العجل يرقصون ويطربون. فتملكته نوبة من الغيظ والثورة؛ فألقى ما بيده من الألواح ثم دلف نحو هارون، وأخذ برأسه يجره إليه قائلاً: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، ألا تتبع طريقي فيهم، فتردَّ شاردهم، وتحارب مُفسدهم، حتى تنطفئ هذه النار المتأججة بالبغي والكفران.

فنساقت نفس هارون همماً وحسرة، وأقبل على أخيه يستلينه ويسترحمه، ويهدئ حدة نفسه، وثورة غضبه، وقال: يا ابن أم، لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي! فإن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني. فلا تُشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الضالين. لقد خشيت أيها الأخ الكريم إن حاربتهم أن تقول: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترُقِّب قولِي!

بعد ذلك سكت عن موسى الغضب، وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأي والعزم. فالتفت إلى منبع الفتنة ورأس البدعة، وداعية الضلالة، وقال: ما خطُّبك



يا سامري؟ فقال السامري: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: ٩٦].

ثم أقبل موسى على قومه، فقال: يا قوم؛ ألم يعدكم ربكم، وعداً حسناً، أفتال عليكم العهد، أم أردتم أن يحوّل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدتي؟ قالوا: ما أخلفنا موعدك بملكنا<sup>(١)</sup>، ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم، فصورها لنا السامري، وأخرج لنا عَجَلاً جسداً له خوار، فأضلنا عن الطريق المستقيم.

ثم ندموا على سقظتهم، واستغفروا ربهم، فقالوا: ﴿ لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَّارَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. فقال لهم موسى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، قالوا: فأتي شيء نصنع؟ فقال: توبوا إلى بارئكم. فسألوه أن يبين لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة.

فقال موسى: عليكم بقتل أنفسكم، اكسروا حدتها، واكبتوا شهوتها، وطهروها من الشر والإثم، وجزدوها عن كل مشتبه مرغوب، وأقصوها عن كل مرجو مطلوب، حتى يضغر شأن النفس الأثمة ويهون خطبها، ويحقر أمرها. فروضوا أرواحهم، وهذبوا نفوسهم، وأقبلوا على نصح نبيهم، ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يُوَسُّوُ الْتَوَابِ الرَّحِيمِ ﴾ [البقرة: ٥٤].

أما السامري الذي أشاع تلك الضلالة المنكرة، فإن الله عاقبه في دنياه بأن أمر بني إسرائيل ألا يخالطوه، ولا يقربوه، فصار وحشياً، لا يألف ولا يؤلف، ولا يدنو من الناس، ولا يمس أحداً منهم، وإن له لموعداً لن يخلفه يوم القيامة، يوم يساق إلى النار آثماً، ليعذب بما جنّت يده، وبس مصير الظالمين. وأما عجله فقد أحرقه موسى وألقاه في اليم. وبذلك انجابت غيابة هذه الجريمة الشنعاء.

### التبیه

لم يكن على عهد بني إسرائيل قوم حباهم الله الخير، وأفاض عليهم النعمة، وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء الأقوام، فقد نجاهم الله من آل فرعون بعد أن ساءوهم العذاب دهرًا! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم، وبين أسماعهم وأبصارهم، ثم جعلهم بعد ذلك أحراراً، بعد أن كانوا عبيداً أذلاء، وجعل فيهم من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضلّالاً جهلاء، وفجر لهم الصخر، وأنزل

(١) ملكنا: اختيارنا.

عليهم المنّ والسلوى، ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ مَالًا تُؤْتِي أَعْدَاءَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وإتماماً لنعمة الله عليهم، ورغبة منه - سبحانه - في الإحسان إليهم، أوحى إلى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام، وهي الأرض التي وعد الله إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكاً للصالحين من ذريته، والقائمين على شريعته.

ولكن بني إسرائيل كانوا، بما تعاور<sup>(١)</sup> عليهم من ظلم القبط، وتراذف عليهم من جور الحكام قد جِدَعَت أنوفهم وذَلَّتْ أخادعهم، وأمكنوا من أيديهم على خنوع، وأعطوا المقادة على خضوع، حتى هان عليهم الهوان، وخبب إليهم الضعف والاستسلام.

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرح بِمَيْتِ إِسْلَامِ

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغزو، أو يكلفون دخول «أريحاء» ليخرجوا منها الحثيين والكنعانيين، ويتخذوها وطناً لكثير الخيرات، وافر البركات، حتى قالوا لموسى - جُبناً وضعفاً، واستخذاً واستسلاماً - : ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُكُمَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

وكانهم طمِعوا أن يخرج القوم منها بما أَلْفُوا من المعجزات، وخوارق العادات، ثم يدخلوا موفورين لم يُكَلِّم أحد منهم في سبيل الله بكلم<sup>(٢)</sup>، ولم يُصَب بجرح، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان!

ولكن رجلين كانا ممن طبعهم الله على الإيمان، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان، لم يَحْطِبا في حَبْلِ أقوامهم<sup>(٣)</sup>، ولم يجريا في الحديث على غرارهم، فتوجها إلى قومهم ناصحين، وقاما فيهم مرشدين: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبُيُوتَ إِذًا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولكنهم عادوا إلى حديث جبنهم، وإعلان خوفهم، وزادوا على ذلك القحة والتمرد، والغباء والتبلد، وقالوا لموسى قولاً يذهب صبر الحليم، ويشير وجميع الجرح الأليم قالوا: ﴿بِمُوسَىٰ إِذْ لَمْ يَدْخُلْهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وعند ذلك تَلَقَّتْ موسى فلم يجد من يثق بمعونته، ويعتمد على نصرته، إلا أخاه هارون وهما شخصان وحيدان، في أضعف جند، وأنكد أتباع، وأمامهما عدوٌّ

(١) تعاور: تتابع.

(٢) الكلم: الجرح.

(٣) لم يشتركا في رأيهم.

قوي المِرَّاسِ، كَثِيرِ الْجُنُودِ فَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ قَائِلاً: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥].

فأوحى الله إليه: أن دَعَهُم يَتِيهون في هذه البيداء، يضربون في مجاهلها، ويخبطون في نواحيها أربعين عاماً، حتى يَفْنَى كبراؤهم، ويهلك رؤساؤهم؛ ويظهر بعدهم جيلٌ عزيز الجانب مَنِيحُ السَّاحَةِ، وحينئذٍ يعودون إلى العَزْوِ، ويركبون متن القتال.

### البقرة (\*)

تقدّم بالشيخ تتابع الأيام، وأحسن بدنو الأجل، وكان عبداً صالحاً لا تفتنه زخارف الحياة عن الثقة والرجاء في الله، ولم يُلْهَم التكاثر في المال والبنين، بل كان لا يملك سوى بقرة يأتي بها العَيْضَةُ، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالض، ونفس ثابتة، فيقول: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر. وما زال الرجل يترقرق في صدره هذا الأمل القوي بنور الله حتى مات. وبقيت البقرة لليتيم، وهي عَرَضٌ من العروض لا تغني شيئاً، إلا أن رحمة الله أبقي وأعز.

واستمر اليتيم يرعى البقرة، يحدوه شُعاع من الأمل ورثه من الصالحات الباقيات لأبيه.

وكان من وجوه بني إسرائيل شيخ موسر مدَّ الله في أسباب دنياه، وبسط له نعمة الغنى، ورزقه ابناً وحيداً تنحدر إليه بعد موت أبيه كلُّ هذه الثروة الواسعة، ولكن بني عمومته نَفَسُوا<sup>(١)</sup> عليه هذا المال، إذ كانوا لا يجدون من قليل ولا كثير. فتألَّبوا عليه فقتلوه، ثم طالبوا قوماً آخرين بدمه. فهبَّت عاصفة هوجاء، وثارت ريح نكباء. فلم يجد القوم ملجأً أمامهم إلا باب موسى عليه السلام، يتحاكمون إليه، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء.

سأل موسى ربه، فأمرهم، أن يذبحوا بقرة، ويضربوه بلسانها فيحيا، فيخبر بقاتله. فضلَّت أحلامهم، وعزَّبت عن عقولهم قوة الله وقدرته وظنوا أن موسى يهزأ بهم، ويسفَه أحلامهم، فراجعوه، فقال: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧].

ولو أنهم ذبحوا أي بقرة من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافية، ولكنهم

(١) نفس عليه: حسده.

(\*) سورة البقرة ٧٧ - ٨٣.

تمادوا في إلحافهم ولجاجهم؛ فشدد الله عليهم، وجعل البقرة مسومةً بعلامات خفي عليهم أمرها، فتأهوا في بيدااء اللجاج.

ولقد كان هذا أمراً خارقاً، وحقيقة تقصّر عن صدقها عقولهم، فسألوا ضالين: ما هذه البقرة؟ أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان، أم هي خلق آخر تفرد بمزية، واختص بإعجاز؟ فأوضح الله سيولهم، ويّين أنها بقرة لا مسينة ولا فتية، بل هي عوان<sup>(١)</sup> بين ذلك، فليفعلوا ما يؤمرون.

ولكنهم - وهم من البشر - قالوا: ادع لنا ربك يبيّن لنا ما لونها؟ قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. فازدادت خيرتهم، وضلت عقولهم، فلم تستطع أن تسمو إلى هذا الإلهام الإلهي العجيب، وكأنهم لم يعوا شيئاً. فكرروا سؤالهم الأول معتردين بأن البقر تشابه عليهم، وهم يرجون بمشيئة الله الهدى والرشاد. فأجيبوا بأنها بقرة غير معدة لسقي ولا لحرث، سلمت من العيوب، لا شية فيها<sup>(٢)</sup>.

فاهتدوا إليها بعد لأي<sup>(٣)</sup> عند ذلك اليتيم الذي بارك الله في بقرته، فاشتروها منه بمال وافر، فذبحوها بعد حيرة طويلة، وتردد كثير.

### موسى والخضر (\*)

وقف موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل ومذكراً لهم بأيام الله بعبارات تثير الأسى وتبعث الشؤون<sup>(٤)</sup>، ففاضت العيون، ورقّت القلوب.

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل، وقال: أي رسول الله، هل في الأرض من هو أعلم منك؟ قال: لا، أليس هو كبير أنبياء بني إسرائيل وقاهر فرعون؟ أو ليس هو صاحب اليد والعصا، وبعضاه انقلب البحر؟ أليس الله قد شرفه بالتوراة، وكلمه جهرة وعياناً، فأئى غاية أبعد من هذه الغاية، وأي شرف أسمى من هذا الشرف؟

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويه رجل، أو يتفرد به رسول، وأن في الأرض من خصّه الله بعلم أوفر من علمه، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه. قال: يا رب، أين مكانه لعلي ألقاه، فأصيب قبساً من علمه، أو فيضاً من إلهامه ويقينه؟ قال: تلقاه بمجمع البحرين، قال: اجعل لي علماً، يدلني عليه،

(\*) سورة الكهف ٦٠ - ٨٢.

(٤) الشؤون: الدموع.

(٥) علماً: علامة.

(١) عوان: وسط.

(٢) لا شية فيها: خالصة الصفرة.

(٣) لأي: مشقة.

وآية ترشدني إليه. قال: آية ذلك أن تأخذ حوتاً في مِكتل<sup>(١)</sup>، فحيث فقدت الحوت فقد وجدت الرجل.

فأخذ موسى للأمر عُدته، واصطحب فتاه، وحمّله المِكتل، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه، وظل سائراً وقيلته الرجل، وأخذ على نفسه عهداً أنه سيظل مجدداً في السير مُمعناً في الطلب، حتى يبلغ هذا المكان، ولو مضت عليه الأيام، أو تعاقبت السنون، ثم أذن الفتى بأن يخبره إذا فقد الحوت.

ولما بلغا مَجْمَع البحرين، في المكان الذي أراد الله أن يلتقي فيه نبي بني إسرائيل بعبده الصالح، أخذت موسى سِنَّةً فنام. وفي أثناء نومه هَضِبَت السماء، فابتل الحوت وانتفض، وسرت إليه الحياة، ثم قفز إلى الماء.

واستيقظ موسى - عليه السلام - ونادى فتاه: هَيَّا نواصل السير والسُرى<sup>(٣)</sup> وأنسى الشيطانُ الفتى ما كان من أمر الحوت، وتابعا المسير إلى أن أدركهما الأين<sup>(٤)</sup> وأحسا الجوع، فقال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً.

ولما همّ أن يأخذ الغداء من المِكتل تذكر ما كان من أمر الحوت وذهابه في الماء، فقال: أرايت إذ أويئنا إلى الصخرة، وحين غَشَاكَ النعاس، فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء، ونسيت أن أذكرك، وما أنساني إلا الشيطان.

وحينئذٍ لاحت لموسى شارةُ الظُفر، ووجد ريح الرجل، فقال: ذلك ما كنا نبغيه وننشده، هَيَّا بنا نعود إلى هذا المكان فإننا سنصيب الغاية، ورجعا يقفوان الأثر<sup>(٥)</sup> ويتعرفان الطريق.

ولما وصلا إلى حيث فقدا الحوتَ وجدا رجلاً نحيل الجسم، غائر العينين، عليه دلائل النبوة، وفي وجهه قَيْضٌ من السماحة والتقوى، قد سَجِي بثوبه، وجعل طرفه تحت رجله، وطرفه الآخر تحت رأسه. فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى! قال: موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم. ومن أعلمك بهذا؟ قال: الذي بعثك إلي. فعلم موسى أنه ضالته التي ينشدها، ويُغيثه التي جهد في سبيلها، فتلطّف في القول وتجمل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث، وفضل التواضع، وقال: هل تأذن أيها العبد الصالح لرجل جاهد في سبيل لقائك، ولقي العناء حتى أصاب موضعك أن تُفيض

(١) مِكتل: ما يعرف بالـمقطف.

(٢) هَضِبَت السماء: أمطرت.

(٣) السرى: السير ليلاً.

(٤) الأين: التعب.

(٥) يقفوان الأثر: يتبعانه.

عليه من علمك، وأن تقبسه شيئاً من هديك، على أن أتبعك، وأسير في ظلك، وألتزم أمرك ونهيتك؟

قال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبراً، ولو أنك صحبتني فإنك ستري ظواهر عجيبة وأموراً غريبة، وستري أموراً منكورة في ظاهرها، وإن كانت حقاً في باطنها، ولكنك بما ركب الله في البشر من إلف القيل والقال والجنوح إلى البحث والجدال، سوف لا تسكت عن الاعتراض، ولا تتورع عن الامتناع، وكيف تصبر على ما يخرج من مألوفك، ويتجاوز معروفك؟ فقال له موسى وكان حريصاً على العلم، تواقاً إلى المعرفة: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾<sup>(١)</sup> [الكهف: ٦٩]

قال الخضر: إن صحبتني آخذ عليك عهداً وشرطاً، أن تأخذ عُدَّتَكَ من الحزم والصبر، ونصيبك من الجلد وضبط النفس، فلا تبتدزني بسؤال، ولا تُثر أمامي أيّ اعتراض، حتى ينقضي الشرك وتنتهي الرحلة، وإني بعدها سأتي على ما في نفسك، وأشفي ما بصدرك.

فقبل موسى الشرط، وقيد نفسه بذلك العهد، وساروا على الساحل، حتى لمحا سفينة في البحر، فطلبها من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون. ولما قرأوا السماحة في وجهيهما، ورأوا بريق النبوة يلمع في عيونهما، حملوهما من غير نؤل<sup>(٢)</sup>، وبالغوا في إكرامهما والحفاوة بهما.

وبينما هما في السفينة، وعلى حين غفلة من أهلها، أخذ الخضر لوحيين من خشب السفينة فخلعهما، فهال موسى - وهو الرسول الكريم الذي أرسل لهداية الناس ورد عادية الظلم عنهم - أن يُقابَل صنيعهم بالإساءة، وجميلهم بالنكران، وخشي أن يصيبهم غرق أو هلاك، فنسي عهده وشرطه، وصاح: أتعمد إلى قوم أكرموا وفادتنا، وأحسنوا إلقاءنا، فتخرق سفينتهم وتحاول إغراقهم؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾<sup>(٣)</sup> [الكهف: ٧١].

فالتفت الخضر إليه، وما زاد على أن ذكره بشرطه، وما قدره من قبل أنه سوف لا يصبر على سؤال، ولا يسكت عن مرأ، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

(١) قال الخضر لموسى أما يكفيك أن التوراة بين يديك أن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه وأن لك علماً لا ينبغي أن أعلمه. ثم نظر إلى طائر أخذ من ماء البحر فقال والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ الطائر بمنقاره من البحر.

(٢) نؤل: أجرة. (٣) شيئاً إمراً: عظيماً.

وحينئذٍ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ، وما تورط فيه من نسيان. فاعتذر إليه واستغفره من نسيانه، وقال: لا تؤاخذني بما نسييت ولا تحرمني شرف الصحبة، وفضل المرافقة، وسأكون بعد الآن كما شرطت.

وغادرا السفينة، وتابعا السير، فوجدا غلاماً وضيئاً يلعب مع لِدانه<sup>(١)</sup> وأقرانه، فأخذه الخضر بعيداً ثم أضجعه وقتله ففزع موسى من هذا القتل، وكبر عنده ذلك الإثم، إذ رأى غلاماً يافعاً، قد يكون وحيداً أهله ورجاء والديه؛ يقتل في غير قود<sup>(٢)</sup>، وأطلق نفسه من ميثاقه، وقال: ما هذا المنكر الذي تأتيه، والإثم الذي ترتكبه ﴿أَنْتَ تَسْأَرِكُنَّ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾<sup>(٣)</sup>؟ [الكهف: ٧٤].

فالتفت إليه الخضر، ولم يزد على أن ذكره بعهده، وما كان من شرطه، وما قدره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف، وامتعاضه مما لا يألف، قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

وهنا استحميا موسى. وأدرك أنه قد أثقل على هذا العبد الصالح، وكان خليقاً به أن يدرع بالصبر، ويُمسك لسانه عن الجدال، حتى يُفصح له بعد عما خفي من أمره، وما تشابه عليه من علمه، وخشي إن تمادى أن يقع منه على موجدة أو كراهية؛ فاتخذ لنفسه شرطاً ألا يعجل بسؤاله بعد الآن، وإلا فإن رفيقه في حل من مفارقتة، وقطع صحبتته، وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصَحِّحْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطوى، ونال منهما النصب والكلال، وصادفا قرية في طريقهما، فدخلتا طمعاً في زادٍ يعينهما على السير، ويُمسكهما على الجوع، ولكن أهلها - بما كانوا عليه من لؤم النحيظة<sup>(٤)</sup> وكزازة النفس - أبوا أن يضيّفوهما، وردوهما رداً غير جميل، فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاماً وخرجا جائعين ساخطين.

وقبل أن يجاوزا القرية وجدا جداراً يتداعى للسقوط، فأقامه الخضر، وأصلح من شأنه، فقال موسى: عجباً، أتجازي هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساؤوا اللقاء، بهذا الإحسان؟ لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجراً نسدُ به حاجتنا ونحافظ به على حياتنا!

(٣) النكر: المنكر.

(٤) النحيظة: الأصل.

(١) اللد والقرين: بمعنى واحد.

(٢) قود: ثار.

قال الخضر - وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبراً: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فيصيبون منها رزقاً، يعينهم على الكسب، ويقطعون به مفازة الحياة، ولكن مَلِكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة سالحة، يأخذها من أهلها عنوة، ويستولي عليها غضباً، فأردت أن أعيها، رفقاً بهم ورحمة لهم، حتى إذا شهدها ملكهم تركها لعبيها، فهذا عمل إن كان ظاهره الفساد ففي باطنه الرحمة، وإن كنت قد حسبته نكراً، فإنما هو جِفظٌ للمساكين وإبقاءً على حياة هؤلاء البائسين.

وأما الغلام فكان وقاحاً مُبغضاً من الناس، وكان أبواه مؤمنين، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقتة، فينتهيا إلى الطغيان والكفر، فقتلته حفظاً لدينهما، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً.

وأما الجدار فقد علمت من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين، تحذراً من رجل صالح كريم، فأردت أن أحمي هذا الجدار، حتى يشتد أزرهما، ويقوى على الحياة أمرهما، فيستخرجا كنزهما، مالا حلالاً طيباً لهما.

وما فعلت هذا بعلمي ولا برأيي، ولكنه وحي من الله وهدى منه: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].



## قارون (\*)

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين، يَمُتُّ إليه بسبب<sup>(١)</sup>، وتصل بينهم رحم، وقد آتاه الله بسطةً في العيش، وسعةً في الرزق، وكثرة في الأموال، فاجتمعت له أسباب السعادة، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل.

وكان قارون ذا حظٍّ عظيم، فقد فاضت خزائنه بالأموال، واكتظت صناديقه بها، ضاق الحفظة ذرعاً بمفاتيحها، وأثقلهم حملها، وناء الغضبُ أولو القوة بها.

وكان يعيش بين قومه عيشةً البذخ والترف، فكان يلبس الملابس الفاخرة، ولا يخرج على قومه إلا في زينته، ويسكن القصور، ويصطفي لنفسه الخدم، ويستكثر من العبيد والحشم، ويستمتع من الحياة بما يُشبع نَهْمَه، ويروي ظمأه، ويريد أن يصل إلى الغاية في النعيم؛ إن كانت للنعيم غاية.

والمال منذ الأزل زينة الدنيا وبهجتها، وأساس الحياة وقوامها، ومن استخوذ عليه طغي وتكبر، واغترّ وتعجّر، وظن أن أحداً لن يقدر عليه، وخيل إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته، أو أنهم ما خلقوا إلا مُسخرين له، فإذا تكلم طأطأوا رؤوسهم عند سماع صوته، وإذا أشار كانوا عند إشارته، وإذا نادى استبقوا لتلبية نداءه، وكانوا خالصاء له، أو يجب أن يكونوا كذلك، وإلا فالويل لمن تُحدثه نفسه بالعصيان، والحرمان لمن يقعد عن نُصرتِه أو يتوانى عن تحقيق أمانيه.

ولن يكون قارون بذعاً في الحياة، وإنما هو كغيره من الناس، يسير سيرتهم، وترسم طريقهم، فبغى على قومه، وفرض سلطانه عليهم، وسامهم بطشه وجبروته.

وليت هؤلاء الأغنياء يخفون من غلوائهم، ويعرفون الحياة على وجهها الصحيح، ويتبينون منها الطريق الواضح، إذا عرفوا أن المال وحده لا يُخضع الرقاب ولا يستدل العباد، وإنما الناس عبيد الإحسان، يستطيعون أن يجعلوهم طوعاً بنانهم إذا أفاضوا عليهم من خيرهم، وأطعموهم شيئاً من طعامهم.

لعلهم بذلك يستميلون القلوب، ويدفعون كثيراً من الشر، ويجلبون لأنفسهم

(١) سبب: قرابة.

الخير، وَيَجْمَعُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِمْ، وَالإلتفاف حولهم، ولعلمهم بذلك أيضاً يُدركون رضا الله، فيكافئهم بثوابه، ويجزيهم بجنته، فينالوا الحسنيين: حسن الأعدوة<sup>(١)</sup> في الدنيا، وحسن الجزاء في الآخرة.

ولكنها القلوب يُغميها المال، والبصائر يذهب بها الزهو والغرور فلا ترى إلا جماعات المرائين، ولا تسمع إلا كلمات المنافقين، ولا تحس نقمة المحروم، ولا لوعة المظلوم.

ورأى القوم أن قارون سادراً<sup>(٢)</sup> في طغيانه وبغيه، لا هم له إلا أن يستكثر من المال وإن تضور غيره جوعاً، وأن يكتسي من اللباس ما يزين به، وإن رأى العري فاشياً. هذا مع غرور واستثثار، وبطر واستكبار... لَمَّا رَأَوْا مِنْهُ ذَلِكَ نَقَمُوا عَلَيْهِ طَرِيقَهُ، وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير، وأن يُنبهوه على ما غاب عنه، ونصحوه ألا يُغويه المَالُ أو يُضله، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه، وإقالة عشرة المحتاجين، ومسح دموع البائسين، فبذلك يكسب الحمد في الدنيا، وينال الثواب في الآخرة، وهذا خير من المال وأبقى.

وقالوا: إنا لا نريدك أن تفض يدك من الدنيا وزينتها، وتتجافى عن مباحها، وتأتى بنفسك عن الاستمتاع بها، فذلك ما لا نريده ونأباه، وإنما نرى لك رأياً فيه خير لنا ولك، هو أن تقصد إلى الطيب من الرزق، والحلال من المتاع، فارشف من منهله، وحُد فيه كما تشاء، على ألا يشغلك ذلك عن الفقراء، ولا ينسبك المحتاجين، فأحسن إليهم كما أحسن الله إليك، ليحفظ عليك نعمتك، ويزيد في مالك، ويُضفي عليك خيره وبركته. على أن المَالُ ظل زائل، ووديعه مستردة، فلا تفرح بما أوتيت، وما حملنا على إسداء النصح إليك إلا حبنا لك، ورجبتنا أن يبقى الله فضله سابعاً عليك، وخوفنا أن يسلب الله مالك أو يحرملك جنته.

وأنى<sup>(٣)</sup> للطاغية أن تتفتح أذانه للنصيحة تُلقى إليه؟ ومن للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمس شغاف قلبه؟

إن قارون قد أشرب قلبه حب المال، وزاده الغنى علواً واستكباراً، فليس لمثل هذا الكلام سبيل إلى نفسه: فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر، وتتناول أعناقهم إلى نُصحه فينتصح؟ إنهم لا شك قد استباحوا جِماه، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعينهم من أمره، بل إن هذا من أموره الخاصة!

(١) الأعدوة: السيرة.

(٢) أنى: أي كيف.

(٣) سادر: متماذي.

لذلك كان جافياً في رده إذ قال: لستُ بحاجة إلى نصحتكم، فأنا أرحمكم عقلاً، وأسدكم رأياً، وما أوتيْتُ هذا المال، إلا لأني به أجدر وأحق، فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم، وقوموا بها أموركم، أما أنا فخيرٌ منكم مقاماً وأكثر عرفاناً. وأراد أن يزيد في إيلاهم، فخرج على قومه في زينته، يُدلّ بما أعطاه الله من خير وفير، ومال كثير.

ورآه المستضعفون من قومه يزفل<sup>(١)</sup> في الثياب الجميلة، ويركب المراكب المطهّمة، وحوله الخدم يحقّون به، فأحدقت به العيون، واستشرف الناس لرؤيته، وحزّ في نفوسهم أن يروّه في هذا النعيم، وهم في ضنك وبؤس مُقيم. وتحدّث بعضهم إلى بعض يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتيّ قارون أنه لذو حظّ عظيم!

ولما كانت النصيحة مع مثله لا تجدي، والنسب لا يكفي عنده سبباً لعطف القلوب، ومنظر البؤس لا يستميلُ النفوس، والفقْر لا يستجيب إلى دعائه مجيب، فليسّل سيفُ القانون لينفدَ إلى تلك الحجب الكثيفة، فيهتك ظلماتها، ويزيل ما تراكم عليها، فتبعث للخير، وتميل للإحسان.

ليعلن إليه موسى في شدة وإصرار أن يؤدّي زكاة ماله، وأن يحسن إلى الفقراء، ففي ماله حقّ معلوم للسائل والمحروم.

ولكن قارون قد طبع الله على قلبه، وران عليه شحّه، فلم يُصغ إلى دعوة موسى، بل هزئ به وسخر، ورماه بالبُهتان، وردّ حديثه في عنف وسخرية، فقال: قد احتملنا منك ما احتملنا، فقد جئتنا بدين جديد، فجاريناك فيه، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لأمرك، فأطمعك فينا وجرّأك علينا، فلم يبقَ إلا المالُ تسلبه، والثروة تريد أن تستحوذ عليها! لقد أسلمنا لك القلوب، وأخضعنا لك الرقاب. ولكن هيهات أن تُسلمَ لك من القلب سُويداءه، ومن الطرف سواده! إنك بهذا قد دلت على كذبك، وكشفت ما حاولت ستره من أمرك، إنك لساحر كذاب!

وحاول قارون وجادل، وأصرّ موسى وقاوم، فهذا أمرُ الله لا يحتمل الجدل ولا المساومة، وخضع قارون بعد لأي<sup>(٢)</sup> وعلى مضض!

ورجع إلى بيته يحسب ما ينال الفقراء من ماله، فهاله ما وجد، وأفزعه ما رأى، فرجع إليه داؤه وتملكه شحّه، وأراد أن يمسك المال حتى لا يرى نفوساً بائسة يدخل إليها النعيم والسرور! واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء، فقال: إن

(١) يزفل: يتبختر كبراً.

(٢) لأي: مشقة، والمراد بعد أن أبطأ واحتبس.

موسى إنما يلبس ثوب الرياء، ليكون له من ذلك عرض الدنيا وزينة الحياة، ولو فتشنا عن مكنون سيره، وما يختلج في ضميره لوجدناه أبعد الناس من الدين وأقصاهم عن الله.

وحاول بالمال أن يفتن الناس<sup>(١)</sup> ويصرفهم عن موسى، ويزلزل عقيدتهم، ولكن الله كشف ما أضمّر، وأظهر ما أخفى، وخرج موسى من هذه التجربة، أضفى نفساً وأعلى مقاماً.

ولما يئس موسى من صلاحه دعا الله أن ينزل به عذابه، ويخلص الناس من فتنه وإغوائه.

فاستجاب الله لدعائه وخسف به وبيداره الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وابتلعته الأرض، وساخت فيها أمواله وقصوره، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من اتباعه. ولما رأى القوم ما حلّ بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله، وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكْفُرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ ظُلْمًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٢ - ٨٣].

(١) تذكر كتب التاريخ والتفسير أنه أغرى امرأة لتنسب إلى موسى الفاحشة، وفعلت ولكنها اعترفت أخيراً أمام حفل جامع بأن قارون هو الذي دفعها إلى ذلك وأن موسى بريء مما رمته به.

## طالوت (\*)

كان التابوت<sup>(١)</sup> نعمة من نعم الله على بني إسرائيل - ونعمه كانت عليهم سابغة وآلؤه متلاحقة - وكان لهذا التابوت عندهم شأن عجيب، ونياً طريف: كانوا إذا اشتبكوا مع أعدائهم في قتال، أو التقوا بهم في ساحة نزال، يحملونه بين أيديهم، ويقدمونه في صفوفهم، فينشُر في قلوبهم سكينَةً واطمئناناً، ويبعث في أعدائهم هلعاً ورعباً، لسرِّ عجيب فيه، ومزايا خصه الله بها.

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم، وغيروا ما بأنفسهم، سلط الله عليهم الفلسطينيين فغلبوهم على أمرهم، وأخرجوهم من ديارهم، وحالوا بينهم وبين أبنائهم، وأخيراً أخذوا التابوت منهم، فانقضت عروثهم، وتصدعت وحدتهم، ثم استكانوا إلى ذلِّ، وأغمضوا جفونهم على هوان.

وظلوا على ذلك حقبة من الدهر، حتى كان نبئهم صمويل، ففزع إليه نفر منهم أرادوا أن يتجافوا بنفوسهم عن مطارح الهوان، وينزعوا بها عن معزة الامتهان، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكاً يتألفون تحت رايته، ويجمعون أمرهم تحت زعامته، لعلهم به يغلِبون العدو، ويكتب الله لهم النصر.

فقال لهم - وقد كان سبر أحوالهم، وعجم عيدانهم، وعرف مَوضع الضعف فيهم -: إني أتوقع تخاذلكم إذا كتب عليكم القتال، وتواكلكم حينما يدعوكم داعي الجهاد.

قالوا: كيف نتخاذل ونواكل، وقد أخرجنا من ديارنا، وجبل بيننا وبين أبنائنا؟ وأي حال أسوأ مما نحن فيه؟ وأي ذل أشد مما ابتلينا به؟

قال صمويل: دعوني أستخير الله في أمركم، وأستوحيه في شأنكم.

واستخار الله فيمن يصلح لملكهم، ويقوم على قيادتهم، فأوحى الله إليه: إني قد اخترت عليهم طالوت ملكاً. قال صمويل: يا رب، إن طالوت رجل لم

(\*) البقرة ٢٤٦ - ٢٥١.

(١) التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع، وكان فيه عصا موسى والألواح وكانوا إذا حملوه سكنت نفوسهم وملئت شجاعة.

أعرفه بعد، ولم أره من قبل، فأوحى إليه: إني مُرسِلُهُ إليك. وسوف لا ترى عسراً في لقائه، ولا جُهْداً في تعرف ملامحه، فوَلِّهِ المُلْكَ وسلّمه رايةً الجهاد.

وكان طالوت رجلاً بادنًا<sup>(١)</sup> فارعاً<sup>(٢)</sup>، وافي التقطيع<sup>(٣)</sup>، شديد الأسر<sup>(٤)</sup> له عينان يلمح الناظر إليه أن وراءهما قلباً ذكياً، وجناناً فتياً، ولكنه لم يك رجلاً بعيد الصيت، أو معروف الذكر، كان يقيم مع أبيه في قرية من قرى الوادي، يرعى له الماشية، ويفلح الأرض، ويصلح الزرع.

وفيما هو في شأنه في الحقل مع أبيه، ضلّت الأتّن<sup>(٥)</sup>، فخرج مع غلامه يَنشُدانها في شعاب<sup>(٦)</sup> الوادي، وبين أودية الجبال، وظلا أياماً يُغذّان<sup>(٧)</sup> السير بين غور<sup>(٨)</sup> الأرض ونجدها، حتى ورمّت منهما الأقدام، وأكلهما السرى.

فقال طالوت لغلامه: هيا بنا نعود أدراجنا، فأني أحزر<sup>(٩)</sup> أن أبي قد كثرت بلايله، وتشعبت هواجسه، وأخشى أن يشتغل بنا عن الأتّن.

قال الغلام: إنا الآن قد وصلنا إلى أرض «صوف» موطن صمويل، وهو فيما أعلم نبي يأتيه الوحي، وتهبط عليه الملائكة وهلم إليه نستوضحه شأن الأتّن ولعلنا نستضيء برأيه، أو نهتدي بوحيه، فارتاح طالوت لهذا الخاطر وتجدد عنده الأمل، وشام بارق النجاح.

ولقيا في طريقهما إلى صمويل فتيات خرجن يستقين الماء فطلبا إليهن أن يرشدنهما إلى صمويل نبي الله الكريم، أين يقيم؟ وكيف يلقىانه؟ فقلن لهما: إن الشعب ينتظره فوق هذا الجبل، وهو يوشك الآن أن يجيء. وبينما هما في الحديث معهن إذ طلع عليهما صمويل يفوح منه أريج النبوة وتحدث معارفه<sup>(١٠)</sup> عن نبي كريم ورسول أمين، والتقت عينا طالوت بصمويل، فتعارفت أرواحهما

(١) البادن: الجسيم.

(٢) الفراع: الطويل المرافع.

(٣) وافي التقطيع: ضخم القد والقامة.

(٤) شديد الأسر: قوي البنية.

(٥) الأتّن: جمع أتانة، وهي الأنثى من الحمير.

(٦) الشعبة: ما انتشعب من الوادي وعدل عنه إلى غيره، وجمعه شعاب.

(٧) يسرعان.

(٨) الغور: ما انخفض من الأرض، والتجد ما ارتفع منها.

(٩) أحزر: أقدر.

(١٠) المعارف: ما يظهر من الوجه.

واتصلت نفوسهما، ووقع في قلب صمويل، أن هذا طالوت الذي أوحى الله إليه بتملكه، وأذنه<sup>(١)</sup> بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان.

قال طالوت: إنني جئتك يا نبي الله مستوضحاً مسترشداً، إن لأبي أثناً ضلّت في شعاب هذا الوادي، وقد خرجت في إثرها مع هذا الغلام نتعرف الطريق ونقف<sup>(٢)</sup> الأثر، فما ظفرنا إلا بالخبية وما عدنا إلا بكواذب الآمال، وقد جئتكم لعل أيضاً من علمكم يهديننا إليها، أو يدلنا عليها.

قال صمويل: أما الآن فهي في طريقها إلى أبيك، فلا تربط قلبك بها، ولا تعلق جبال ذهنك فيها، ولكنني أدعوك لأمر أجل خطراً، وأعظم مقداراً: إن الله قد اختارك على بني إسرائيل ملكاً، تجمع كلمتهم، وتحزم أمورهم، وتخلصهم من أعدائهم، وسيكتب الله لك - إن شاء - النصر، ولأعدائك الكبت والخذلان. قال له طالوت: ما أنا والملك والرياسة، والزعامة والسلطان! أنا من أبناء بنيامين أخمل الأسباط ذكراً، وأقلهم مالاً فكيف أصير إلى الملك، أو أمسك بجبال السلطان؟

قال صمويل: إن هذه إرادة الله ووحيه، وأمره وكلمته، فاشكر له هذه النعمة، وأجمع رأيك على الجهاد. وأمسك طالوت من يده، ووقف به على القوم يقول: إن الله قد بعث لكم طالوت هذا ملكاً له حق الرياسة والسلطان، وعليكم الطاعة والإذعان، فأجمعوا أموركم، واستعدوا للقاء عدوكم.

ولكن ما أشدّ ذهولهم، وأظهر وجومهم عندما أخبرهم صمويل أن الملك فيهم سيصير إلى طالوت، وهو من رأوه خمولاً ذكراً، وقلة مال، وسوء حال. ثم نظر بعضهم إلى بعض ولووا أخادعهم<sup>(٣)</sup>، وزموا بأنوفهم، وقالوا: كيف يكون له الملك علينا، وهو في النسب غير عريق، وفي المختد<sup>(٤)</sup> غير كريم، لا هو من أبناء لاوي فرع النبوة وسرحة<sup>(٥)</sup> الرسالة، ولا هو من غصن يهوذا معدن الملك وأصحاب الرياسة؟ ثم كيف تولي علينا رجلاً فقيراً، فارغ اليد، لا يجد مالاً يُدبّر به الملك، أو يحفظ به حوزة السلطان، وما منا إلا صاحب ثروة وجاه، وذو سطوة ونفوذ؟

قال صمويل: إن زعامة الجيش ورياسة الملك لا يحتاجان إلى نسب أو نسب

(١) أذنه: أعلمه.

(٢) قفا الأثر وقافه: تبعه.

(٣) الأخدع: عرق في المحجمين، وهو شعبة من الوريد.

(٤) المختد: الأصل.

(٥) كان الأنبياء في بني إسرائيل من «لاوي» والملوك من «يهوذا» اختصا بهذا عن سائر الأسباط.

(٦) السرحة في الأصل: الشجرة العظيمة.

وما يُجدي النسب لقدم<sup>(١)</sup> أخرق، لا يعرف من تصريف الأمور شيئاً! وما غناء المال لمتخلف الذهن، وسقيم الفهم لا يملك في سياسة الجيوش حولاً ولا طَوْلًا؟ ولكن هذا طالوت، فضله الله عليكم، لما فيه من الكفاية والقدرة، وما رزقه من مواهب الزعامة والرياسة، وأنتم ترونه رجلاً بسط الله جسمه وسوى في خلقه، ضُلب العَضْل، متين العصب، عريض الألواح وذلك أجلب للمهابة، وأنسب للرياسة. ألا ترون لو أن الله مَلَك عليكم رجلاً قميئاً<sup>(٢)</sup> مُنسرق<sup>(٣)</sup> القوي، مُتَحَل العزيمة، فإنه لا بد أن تقتحمه عيونكم، وتزدريه جنودكم. ثم إن الله رزقه استعداداً فطرياً، وميلاً للحرب غرزيّاً، وأحكم من عقله، وأرهف في ذهنه، حَوْل قلب، رُخب الذراع، طويل الباع، بصير بالحروب، خبير بمواطن الكفاح.

وفوق ما منحه الله من الصفات المحمودة، فإنه قد اختاره لكم وملكه عليكم وهو أعلم بالمصالح وأعرف بالعواقب! ثم هو - جل شأنه - مالك الملك، يؤتبه مَنْ يشاء، ويصرفه عن مَنْ يشاء، وما يليق بكم - وقد اختار الله لكم - أن تكون لكم الخيرة من أمركم، أو الثفرة من جانبكم.

قالوا: أما إذا قضى الله بشيء، أو صدر عنه أمر أو نهي فلا مُعَقَّب لحكمه. ولا مَعْدِل عن أمره، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمره ونعلم قضاءه.

قال: إن الله قد عَلِمَ لجاجكم وعنادكم، وقيلكم وقالكم، فجعل لكم علامة وآية، أن تخرجوا إلى ظاهر المدينة فترؤوا التابوت<sup>(٤)</sup> - الذي ذللتُم بعد ذهابه، ولقيتم الخسف والهوان بعد ضياعه - قادمًا إليكم، وفيه سَكينة لكم تحمِلُهُ الملائكة، وفي ذلكم آية إن كنتم مؤمنين.

وخرجوا كما واعدتهم. فوجدوا التابوت ونزلت عليهم السكينة، وصححت عندهم العلامة، فبايعوا طالوت وأقروا له بالملك والسلطان.

واضطلع طالوت بالملك، وأحسن قيادة الجنود، وأظهر حزمًا وعزمًا، وفطنة وذكاء قال: يا قوم، لا ينتظمَن في جيشي إلا مَنْ كان خاليًا من الهواجس وفارغًا من الصوارف، فلا يدخل فيه مَنْ كان قد شرع في بناء لم يتمه أو خطب عروساً لم يَبِن<sup>(٥)</sup> بها، أو له تجارة وعقله مشغولٌ بها.

(١) القدم: الغبي.

(٢) القميء: الصغير الذليل.

(٣) منسرق القوة: ضعيف.

(٤) التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع، وقيل: لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في التابوت، فلغة قريش بالهاء ولغة الأنصار بالهاء.

(٥) لم يبن بها: لم يدخل بها.



وتم له ما أراد، واستوى أمامه جيش متلاحم النُّسج وقوي القلب وقوي الجناحين، ولكنه أراد أن يتحوط لنفسه، بعدما بدا له منهم الشكُّ في أمره، والجدل حول تملكه، فأراد أن يختبرهم مخافةً أن يخذلوه ساعة اشتباك القنا<sup>(١)</sup> وخفق البُود<sup>(٢)</sup>، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران، فقال: إنكم ستبلغون نهراً، فمن كان صابراً محتسباً، فلا ينهل إلا بمقدار ما يُبرد كبده، ويئُل ريقه، هذا الذي أحسبه مني، وتسكن إليه نفسي، أما من نهلَ وعلَّ<sup>(٣)</sup> فقد جاوز الأمر وركب متن الخلف<sup>(٤)</sup>.

وكان ما خافه طالوت، قد شربوا منه إلا قليلاً منهم، هم الصابرون المؤمنون، المخلصون المجاهدون، وأصبح الجيش أوزاعاً من ضعفاء العزيمة وخائريها، ومن صادقي النية وكاذبيها، ولكنه أذرع بالمخلصين، وصابّر المترددين، وخرج بالجمع يلقي العدو، ويجاهد في الله.

ولما خرجوا إلى الساحة واستشرفوا للقتال، لمحوا، من أعدائهم رجالاً أشداء، ما فيهم إلا ابن كريمة<sup>(٥)</sup> وخواض غمرات، يفضلونهم أهبة، ويفوقونهم عُدّة، وجالوت بهمتهم<sup>(٦)</sup>، وكبش كتيبتهم<sup>(٧)</sup> يصول بينهم ويجول.

وانقسم أصحاب طالوت شعبتين: شعبة منهم خار عُودهم، وانخلع فؤادهم، وتخاذلت قوتهم، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وشعبة منهم ظلت صابرة صامدة، هم الذين عمر قلبهم الإيمان وأشربوا في قلوبهم حبَّ الله، واستعدّوا للموت، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم، ولم تردّغهم قلة عددهم، بل قالوا لطالوت: امض لسانك، وسير في سبيلك، وأنا إن شاء الله لا نخذل من قلة، ولا نُغلب على أمرنا من ضعف، و﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلْبًا غَلَبَتْ قِتَّةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّكِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وخرجوا وعتادهم<sup>(٨)</sup> الصبر، وزادهم الإيمان وتوجهوا إلى الله، طالبين منه أن يُفرغ عليهم صبراً، ويسبغ عليهم نصراً، فإنهم ما خرجوا إلا جهاداً، في سبيله، وابتغاء لمرضاة.

(١) القنا: الرماح.

(٢) البود: الأعلام.

(٣) النهل: الشربة الثانية.

(٤) لعل الحكمة في ذلك أنه خشي لو أباح لهم الهجوم على النهر بعد عطش شديد، وقع أكثرهم في النهر وأفرطوا في الشرب فخارت قواهم، وجبنوا على لقاء عدوهم.

(٥) الكريمة: الحرب.

(٦) البهمة: الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه.

(٧) كبش الكتيبة: قائد الجيش.

(٨) عتادهم: عدتهم.

ولما التقى الجمعان، وحمي الوطيس<sup>(١)</sup> برز جالوث يدعو للمناجزة والمبارزة، فخاف الباقون بطشه، وهابوا صولته ووقفوا حوله بين متقاعس ومحجم، أو منخذل ومتراجع.

كان يقيم في بيت لحم<sup>(٢)</sup> رجل تقدمت به السنون، وأحنت صعدهته<sup>(٣)</sup> الأيام، يعيش سعيداً في نفسه، آمناً في سربه، وادعاً مع بنيه. ولما دقت الحرب، واستنفر طالوت بني إسرائيل للجهاد، انتخب ذلك الرجل ثلاثة من كبار أبنائه وقال: خذوا عدتكم، وظاهروا إخوانكم، وأدوا في الجهاد نصيبكم. ثم قال لأصغر أبنائه: أما أنت فنصيبك في الجهاد أن تحمل الطعام لإخوتك، وأن تكون سفيراً بيني وبينهم، وتُسفر لي صباح كل يوم عن أحوالهم. أما ساحة الحرب فحذار أن تقرّبها، أو تخوض غمارها، أو تصلى بناها، فإنك لست من رجالها ولا فتياها، ودغها لمن زبّنها<sup>(٤)</sup> وزبنته، وعرفها وعرفته.

كان ذلك الغلام داود عليه السلام، وكان - مع حداثة سنة، ولدونة عوده - وضيء الطلعة وأبلج العُرة، متسعر الذكاء متوقد ما بين الجوانح.

سار مع إخوته، وما وصل إلى ساحة القتال حتى وجد رجلاً راعه أنه عملاق طاغية يتحدى، ولكن الأقران تتحاماه، والشجعان تخشاه، فسأل عن هذا الذي يقف متحدياً متغطرساً؟ وما بال هؤلاء القوم ينكصون ويتراجعون؟ فقبل له: هذا جالوت رئيس الأعداء وزعيمهم، وما برز إليه شخص إلا رده جريحاً، أو أزداه قتيلاً، والقلوب قد هلبعت لهيبته، واضطربت من بأسه وشدته. وقد جعل طالوت جزاء لمن يقتله، ويقي المؤمنين كيده وشره، أن يزوجه إحدى بناته، ويوليّه الملك من بعده، فثارت الحفيظة في نفس داود، وهاجت الحمية في قلبه، وكبر عليه أن يرى عملاقاً كافراً يتحدى ويصول ويجول، ويذهب ويجيء، ولا يلقي إلا رعيداً، مخلوع الفؤاد.

فخفّ إلى طالوت، وطلب إليه أن يأذن له في منازل جالوت، لعل مصرعه يكون بيديه. فاستصغر طالوت شأنه، وخشي أن يخرج هذا الحدّث للقاءه، فتناله ضربة تطيحُ بها رأسه، وتذهبُ فيها نفسه، وهو لا يزال فتى أغرّ في ميعة<sup>(٥)</sup>

(١) حمي الوطيس: اشتدت الحرب، والوطيس في الأصل: التنور.

(٢) بيت لحم: بلد قريب من بيت المقدس، وفيه ولد عيسى عليه السلام.

(٣) الصعدهة في الأصل: القناة المستوية تثبت كذلك، والمراد بها هنا القامة.

(٤) الزين: الدفع.

(٥) ميعة: أول الحدّثة.

الحدائث وربيع الأيام، وطلب إليه أن يترك الأمر لمن عساه أن يكون أكبر سناً، وأقوى جسماً وأمضى عزمًا، وأجمع قلباً.

قال داود: لا يخذعنك ما تراه من صغر سني، وقماعة<sup>(١)</sup> جسمي، عن حرارة الإيمان التي تجيش في صدري، ونار الحنق التي تلتهب في قلبي، ولقد هجم بالأمس القريب أسد على غنم لأبي فعدوت وراه حتى أصبته فقتلته. وصادفني مرة في طريقي دبٌ فاتك فنازلته ثم أزديته، والعبرة بقوة النفس لا بكبر السن، وبمضائة العزم لا بضخامة الجسم. ورأى طالوت الصدق في لهجته والحزم والعزم في نيته، فقال له: دونك وما تريد، الله كالتك وحافظك، وهاديك ومبصرك! ثم ألبسه ثيابه، وقلده سيفه وتوجه حُوذة<sup>(٢)</sup> فوق رأسه. ولكن داود لم يكن قد لبس الدرع، ولا عالج السيف، فناء بما حمل، وثقل عليه ما اشتمل، فخلع كل ذلك، واحتمل عصاه واحتقب مقلاعه، واصطحب أحجاراً مُلساً وتهباً للخروج.

قال طالوت: كيف القتال بالحبل والمقلاع، وهذا مقام السيف والثَّشاب<sup>(٣)</sup>؛ قال داود: إن الله الذي حماني من أنياب الدب ومخالب السبع سيمنع عني - بلا شك - ما يريد لي هذا الطاغية من كيدٍ أو نكال.

وخرج وهو من مضاء عزمه في أمتع حزز، ومن صدق إيمانه في أقوى حصن، والقلوب نحوه تهفو، والعيون إليه ترنو.

ورأى جالوت قرنه<sup>(٤)</sup> غلاماً حديث السن، صغير الجسم، لا يحمل سيفاً، ولا يتنكب قوساً، فهزئ به، واحتر شأنه، وقال: ما هذه العصا التي تحملها؟ أكلباً تُطارده، أم غلاماً مثلك تناجزه؟ أين سيفك وترسك؟ وأين سلاحك وعُدتك؟ يخيل إلي أنك كرهت حياتك، وسئمت عيشك، مع أنك لا تزال حديث السن، ولم تحتمل بعد تكاليف العيش، ولا نَصَب الحياة!! تعال، اذنُ مني، فإنه بعد لحظة ستسيل نفسك، وتطوى صحيفة عمرك، وأقدمك لحماً طرياً لوحوش البرية وطيور السماء.

قال داود: لك درعك وترسك، وسيفك ونشابك أما أنا فإنني أتيتك باسم الله، إله بني إسرائيل الذين أذللتهم وأخضعتهم، وسترى عما قريب، أهو السيف الذي يُصرع ويقتل، أم هي إرادة الله وقوته!

(١) قماعة: نحافة.

(٢) الحُوذة: المغفر يقي الرأس في الحروب.

(٣) الثَّشاب: النبل.

(٤) القرن: المكافئ في الشجاعة.

ومدّ يده إلى كتفه، وأخرج الحجر، ووضع في المقلاع، وسدّده نحو جالوت فإذا هو مشجوج الرأس، سائل الدم، مُتْعَن الجراح، ثم قفاه بحجر وحجر، حتى خرّ صريعاً لليدين وللنفس.

وارتفعت راية النصر، وانكسرت بعد جالوت شوكة العدو، وولّوا منهزمين، يتبعهم بنو إسرائيل ضرباً وطعناً وتقتيلاً، وتأروا لأنفسهم، واستردوا عزّهم الذاهب.

### بين طالوت وداود (\*)

انعقد لداود النصر، وتم له الظفر، فائتلفت على محبته القلوب وتأكدت له أواصرُ الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث القوم، وموضع الإشارة، ومحور الحديث.

أما طالوت فقد وقى بشرطه، وبرّ بعهده، وصدق في يمينه، فزوّجه ابنته، وأحلّه بين نفسه وقلبه، وأضحى موضع نصحه، وعيبة<sup>(١)</sup> سرّه. وجمعت بينهما أواصرُ نسب، وألقت بينهما غايةً من جهاد، فتهايماً لداود بذلك فتح مبین، وفوز كبير، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

ولكن القلوب مهما تكن صافية لا يؤمن على الدهر كدرها، والنفوس وإن كانت منخولة نقية قل أن يبقى على الأيام نقاؤها، فقد أصبح داود يوماً، فإذا طالوت عابسُ الوجه، لاوي العذار<sup>(٢)</sup>، مقطبُ ما بين العينين، ابتسامه تكلف وقوله تحفظ، وحديثه ينم عن حقدٍ وافد، وضغنٌ جديد! فماذا غير من قلبه ورنق من صفو مودته؟ وما عسى الواشي أن يكون قد بلغ عنده، ألم يكن داود - ولا يزال - سيفاً سلّه الله حديداً قاطعاً، مجاهداً لا يكلّ، غازياً لا يمل، مظفراً في الحرب، ميمون النقية في ساح القتال؟ ألم يجعل من نفسه وعافيته درعاً لطالوت يدفع عنه البلاء، ويصدّ عنه كيد الأعداء؟ أليس هو صهره وراعي ابنته، ومن يوم أن بنى بها لا يزال بينهما محض الود، وخالص الوفاء؟ فما عسى أن يكون قد غير قلبك يا طالوت؟

قال داود: لعله خاطرٌ متردد، ووهم عارض، ومزاج متعكر، لا يلبث أن يصفو ويلين.

وضمه مع زوجه «مكيال»<sup>(٣)</sup> ليل ساج، وشملهما سكون شامل، فقال لها،

(\*) البقر: ٢٥١.

(٢) العذاران: جانب اللحية.

(١) عيبة سره: موضع سره.

(٣) اسم زوجته، وهي بنت طالوت.

وهو يهمس بصوته، ويتحفظ في حديثه: يا مكيال، لا أدري أمخطئ! أنا فيما رأيت أم مصيب؟ وصادق فيما حزرت أم غير صادق؟ لقد رأيت أباك عابس الوجه، ضائق الصدر، تحدث نظرائه عن غيظ كامن، وتشي معارفه عن شيء جديد. فهل عندك شيء مما رأيت؟

قالت مكيال - وقد أرسلتها آهة حبيسة، وذرفتها دمة سخينة: لست أكتمك يا داود شيئاً أعلمه، وأصونُ عنك أمراً تجهله، إن أبي منذ رأى القوم من بني إسرائيل يُكنون لك في نفوسهم محبة وإجلالاً، ويُغضون عيونهم في حضرتك مهابة وإعظاماً، ومد رأى كلمتك بينهم تعلق، وخطرك فيهم يسمو، ومد رأى تتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئك النصر يتبعه النصر، خشي على ملكه من نفوذك، وخاف على نفسه من سلطانك. والمُلك - كما تعلم يا داود - مَرعى خصيب، وجمى عظيم، يدافع عنه صاحبه بنفسه وسلاحه، وقلبه وجنانه. وصاحبه أبداً يشك حتى في بطانته، ويشفق عليه حتى من صفوته وخلصانه، فهو لذلك يأخذ بالظن، ويتهم بالخدس، ويعاقب لمجرد الإشفاق.

وأبي - وإن كان مؤمناً خالص الإيمان، عالماً وافر العلم - مَلِكٌ تنتابه سورة الملوك، وسلطان تختلج في صدره هواجس السلاطين. وقد علمت أخيراً - وإن لم أكن أجزم بصحة ما علمت - أنه يفكر في التخلص منك والقضاء على سلطانك، والقض من جناحك. والرأي عندي أن تأخذ بالحزم نفسك، وتحوط لحياتك، فإن كان ما توقعته حقاً ظفرت بالسلامة وإن كان بعيداً لم يضرك الحزم شيئاً.

قال داود - وقد أشجاه ما سمع -: ما أنا إلا جندي مقاتل تحت راية السلطان ومؤمن أذافع عن بئضة الإيمان، ولعل ما دخل على طالوت كان من وسوسة الشيطان، أو تسويل النفس الأمارة بالسوء، وربما أخزى شيطانه وقهر هواه. ثم أغمض أجفانه على نوم هادئ، كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً.

واستيقظ داود يوماً على دعوة طالوت، ومثل أمامه، فقال له: يا داود، إن بي اليوم همأ ناصباً، وأمراً حازماً، قد بلغني اليوم عن كتعان أنهم عادوا، فجمعوا جمعهم، وألفوا أحزابهم، فاستحصد<sup>(١)</sup> أمرهم، وأصبح متوقفاً شرهم، وليس لي عون إلا بك، وليس لهذا الأمر سواك؛ فخذ سيفك، واختر من ترى من جنديك، وادهب إليهم، وإياك أن تعود إلا منصوراً، يرغف<sup>(٢)</sup> سيفك بدماء أعدائك، أو مقتولاً محمولاً على أعناق رجالك.

(١) استحصد أمره: يسيل.

(٢) يرغف: يسيل.

وحسب طالوت أنه كُفي أمر داود، ولكن داود على الرغم مما عَرَف من أمر صاحبه، واختلاط إرادة الشر بإرادة الخير في دعوته، أطاع طالوت، وذهب إلى الكنعانيين مقاتلاً بسيفه، مُرخصاً حياته، لا يبالي أَوْع على الموت أم وقع الموت عليه؟ ولا يعبأ أيخْرُج من الحرب سليماً معافى، أم تفلت الحياة من بين جنبيه. وكتب الله له النصر، وعاد إلى طالوت مظفراً منصوراً.

فما زاد ذلك طالوت إلا ضغناً، وما أكسبه عنده إلا حنقاً وكرهاً، فأضمر له القتل، وبيت النكال! وعلمت زوج داود بما أضمر أبوها، وما يُراد بزوجها فذهبت إليه لهيفة حزينة، وحدثته بلفظ خاطف، وقلب واجف: أن انجُ بنفسك، واهرب بحياتك، وإلا أكسبتني حسرة بموتك، وضاعفت همي بمصرعك.

فما وجد داود بدأ من الهروب، وركوب متن الاغتراب، واتخذ الليل جملًا، وهرب طريد الحسد وطريد الحقد، عامر القلب بالإيمان، عظيم الثقة بالله.

وانتهى إلى مَفازة أوى إليها، وألقى بهومومه فيها. وفزغ إليه إخوته، وعلم بمكانه يريدوه من بني إسرائيل، فهُرِعوا إليه جماعات، واثالوا عليه زَرافات.

أما طالوت فقد ضَعف أمره في قومه، وكثر الخارجون عليه والهازيون من جنده، وخاف العاقبة، فأعمل السيف، وعاقب بالظن، وأخذ البريء بذنب المسيء والمؤمن بالعاصي، ثم أذى العلماء، واضطهد القراء<sup>(١)</sup> وألقى الرعب في قلوب الجنود. واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة على سياج من بطش وجبروت.

ولكن داود لا يزال حياً ينافسه في ملكه، ويتحداه في قومه، ولا يأمنه على نفسه، وقد كشف له صحيفة ضِمنه، وزاش له سهام مكره، فلا بد أنه مُضغِن عليه، يريد الشر له. إذاً فلينهض إلى حربه، وليتهيأ لقتاله، مهما يقف في سبيله من عقبات.

وخرج داود من مَفازته، يتحسس أمر طالوت، فإذا هو قد انتهى إلى واد، ومعه ثُلَّة<sup>(٢)</sup> من شيعته وجنده، وقد عقدوا، لما أصابهم من جهد وما أدركهم من أين<sup>(٣)</sup> المسير. فمشى داود وثيداً، حتى استل رمح طالوت من بين جنبيه وعاد. ونهض طالوت يتفقد رُمحه، ويبحث عنم أخذه، وبينما هو حائر مضطرب وافأه رسول داود يقول: هذا رُمحك، وقد مكن الله لداود رأسك ولكنه كان أعز نفساً، وأكرم قلباً، وأذنى إلى الله إيماناً.

ونالت كلمات رسول داود من نفسه، ولمست مكان الإحساس من قلبه،

(١) القراء: طائفة من علماء بني إسرائيل.

(٢) الأين: الإعياء والتعب.

(٣) الثلة: الجماعة من الناس.

فأخذته عبرة من الأسى، ونالته خُرقة من الزدم، ورجع باكياً مستعبيراً، نادماً أنه قد غدر بداود، وما كان أهلاً للغدر، وقتل العلماء والقُرَّاء، وما استحقوا القتل، فما يفعل غداً بين يدي جبار السموات؟

فرجع أدراجه ثم هام على وجهه ومضى في الغلوات يُعلن الندامة، وينشد من الله التوبة، حتى وافاه الجمام<sup>(١)</sup>.

أما بنو إسرائيل فقد هرعوا جميعاً إلى داود مبايعين، وشدَّ الله ملكه، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

(١) الجمام: الموت.

## داود

### فتنة داود (\*)

تاقت نفس (أوريا بن حنان) إلى أن يكون زوجاً لشريكة يسكن إليها، ويقوي بها أمره. وقد صادف هواه مثالاً له صورة رائعة خلاصة جذابة، تأسر الفؤاد، وتملك المشاعر، وتسبي العقول، فيها كل ما ترغب النفس العزيزة الطموح من فتنة وجمال وكمال.

لم يطل ليل أوريا في البحث عن ضالته المنشودة، وتحقيق حلمه الجميل، بل ألقى برسائه على فتاة كريمة من فتيات قومه سابغ بنت شائع؛ فما اكتحل طرفه بجمالها حتى طار إلى أهلها، فخطبها إليهم، ووثق رباطه معهم. وهنا هدأت قطة<sup>(١)</sup> قلبه، وسكنت حصاة عقله، وراح قرير العين بارد الفؤاد.

جعل هذا الفتى بعد ذلك همه في أن يمهد السبل للحياة الهنيئة التي يود أن يحيها بجانب شريكته، وفي هذه الحياة كل سعادة وهناءة، وفيها كل ما يديم حياة السكون والاطمئنان، فصار يستعجل الزمن، ويسترسل في شوقه وتلهفه لذلك اليوم الموعود؛ يوم يجمع الله شملهما بعد الزواج.

ولقد كان أوريا شاباً، وعلى الشباب كذلك جزية يؤدونها قرباناً لوجه الوطن. فعليه إذاً أن يتهيأ، وأن يخلع عن نفسه رداء السلم، وأن يدفع بها وسط الجيش الزاخر الذي أعده نبي الله داود، جهاداً في سبيل الله.

لم يتوان ذلك الفتى المقدم عن تأدية حق الجهاد، بل أقدم وانتظم في عداد الجيش، وبنفسه ما بها من الحب واللوعة. ولكن بلائلاً نفسه سكنت؛ إذ هدهدها<sup>(٢)</sup> بأمل حلو مرجى: أو ليست سابغ خطيبته دون سواه، وهي له وهو لها، مهما يتناول الزمن، ويمتد أمد البعاد؟! إذا فليقض حق الجهاد، ثم ليرجع حيث ييني بحبيبة قلبه، ومطرح أمله.

(\*) سورة ص: ٢١ - ٢٦.

(١) قطة: نوع من اليمام الطائر. وقد استعير هنا للتشبيه.

(٢) هدهدها الصبي: ربت على ظهره ليسكت.



طالت بالجيش أيامه، وتعدّد إصباحه وإمساؤه، واتسعت أمامه الغزوات؛ وليس لفتانا إلا أن يصبر، وأن ينسى في سبيل الحرب كل شيء، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

في تلك الغيبة الطويلة التي كُتبت على ذلك الجندي الشجاع، وهو قصي عن أهله ووطنه. كان في فراق يكاد يكون غيبةً منقطعة، إذ لم يسفر لها صباح، ولم ينكشف عن غيابتها قناع، ولم يبرق في سماؤها أمل، ولم يُضئ في أفقها كوكب لماع... في هذه الغيبة من الزمن تعلقت أنظار داود بهذه الفتاة المكتملة الرائعة سابغ بنت شائع، ثم تعلقت رغبته بأن تكون زوجاً له، فما تردد أن ذهب إلى أهلها يطلب إليهم القربى والمودة. ومن هم هؤلاء حتى يردوا يد نبي الله الكريم؟

أليس في ذلك الشرف لهم كل الشرف؟ أليس أوريا قد طالت غيبته، ورثت جبال خطبته؟ بهذه المعاذير تعلق آمال الفتاة، وزفوا بنتهم حلالاً طيباً لبنيهم داود، فعاشت معه عيشة كلها خير وكلها سعادة.

إلا أن تحت الأفق نفساً كان ذلك الخبر أشد عليها من وقع السهام في غلس الظلام، ولكن ما بها من حيلة، فالأمر لله من قبل ومن بعد، بأسو برحمته جراح المنكوبين، ويمسح عن جبين الإنسانية ما عسى أن يلم بها من أذى أو هوان.

قرت عين داود بزوجه الجديدة التي تعلقت بها نفسه فكانت له، وهو من بعد قد سار على منواله فكان يتبع نظامه الذي شرّعه لنفسه منذ حين من الدهر، قد قسم الدهر أرباعاً، واحداً لنفسه، وآخر لعبادة ربه، وثالثاً للفصل والقضاء بين الناس، والرابع لبني قومه يعظهم ويرشدهم إلى سواء السبيل.

وداود كذلك ملك ونبي، أقام على منازلته الحراس والجنود، وهو لا يغير أنظمتهم تلك ولا يحيد عنها ما تتابع الملوان، وأشرق النيران، بل هو يسلك الطريق الذي يسوي بين تلك القسمة العادلة، وهذا الحساب الحكيم.

رجلان لهما كل ما للرجال من خلقة وصفات، إلا أنهما يختلفان عن رجال بني إسرائيل قوم داود، فأولئك تعودوا أنظمة ملكهم فأطاعوها راضين مختارين، وهذان حرقاً سياج العُرف، وخرجا على المتبع المألوف، فتقدما إلى الجند طالبين أن يَدْخِلا على داود، وذلك في غير وقت القضاء ومقابلة الناس. فليس الحراس إلا أن يذودوهما، وأن يمنعهما عن ذلك الحمى المنيع، حتى يحين الوقت الذي يُباح فيه لأمثالهما أن يتقدما بين يدي نبي الله الكريم.

وما كان للحراس أن يدركوا هذه القدرة الخارقة المعجزة، فليس هذان إلا ملكين في صورة الناس، وهما سيصلان حتماً إلى داود، وسيكون لهما شأن لديه

مشهود، وسينفذان إليه بتلك الحكمة الصادقة، والحجة القاطعة، وسيكون من أمرهما عبرة ناجحة لنبي الله داود.

تسور الملكان المحراب، ودخلا على داود. ففرغ منهما، وقد رأهما بين يديه جالسين بغير إذا ولا شفيع، فقالا: ﴿لَا نَخَفُ حَصَمَانَ بَعْنَ بَعْضَنَا عَلَ بَعْضِنَا فَاتَمَكَّرَ بَيْنَنَا بِالْحِي وَلَا نُقْطَطُ<sup>(١)</sup> وَأَدْبِنَا إِلَى سَوَاءِ الصَّرِطِ﴾ [ص: ٢٢].

وجد داود نفسه أمام أمر واقع، فتهيأ لهما، واستعد للحكم بينهما، واستمع لجدالهما، فإذا أحدهما يقول: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، ولكن أخي امتدت به أطماعه فلم يقهر نفسه، ولم يُغالب هواه، بل قال: أعطينها. فلما ناقشته غلبني نقاشته، وأفحمني ججاجه وجداله، لأنه أفصح مني لساناً، وأقوى حجةً وبيانا.

تلقت داود إلى الرجل الآخر، فاستوضحه الأمر، وسأله رأيه فيما يقول خصمه: فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة، وله نعجة واحدة فأردت أن آخذها منه حتى تكمل نعاجي مائة. فقال داود: أَرَأَيْكَ يَكْرَهُ ذَلِكَ؟ قال: نعم! فاستشاط داود غيظاً، ورماه شذراً، وقال: إذا فإننا لا نَدْعُكَ، وإن رُمت ذلك ضربنا منك أنفك وجبهتك. فقال الرجل: يا داود، أنت أحق مني بهذا! فقد كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا غير واحدة! ومع ذلك امتدت رغبتك إليها وحرمتها إياها، ثم صارت لك زوجة، ولم تزغ لعهدك حقاً ولا حرمة!

تلقت داود بعد هذا القول الحكيم المنبعث عن نفس خبيرة بصيرة، فلم يجد أحداً حوله، فعرف سر الأمر، وفطن إلى حقيقة الحال. فاستغفر ربه، وخز راعكاً، وجاهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو والصفح والعُفْران. فتاب الله عليه وغفر زلته، وأبقى له منزلة الأنبياء المكرمين.

وما كان يدورُ بخلد نبي الله داود أنه بعمله مقدّم على ما يستوجب اللوم والعتاب، ولكن الله حاسبه فألزمه الحجة، على علو كعبه وعظم منزلته، حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه يؤاخذ الناس جميعاً بأعمالهم، سواء في ذلك عامتهم وأنبياءهم، فلا يدع مؤاخذه نبي لنبوته، ولا يغفل عن حق مظلوم أقمده ضعفه عن بسط ظلامته<sup>(٢)</sup>.

(١) لا تشطط: لا تجاوز حد العدل.

(٢) مثل هذه القصص يكون مصدرها على الأغلب من الإسرائيليات التي شوّهت كثيراً من قصص وحياتة النبيين والرسل، ولذلك يجب أن نكون في غاية الحذر في الأخذ بمثل هذه القصص وأن نضعها في حجمها الحقيقي.

## أصحاب السبت (\*)

كان من تعليم نبي الله الكريم موسى أن ينقطع قومه عن أعمالهم يوماً في كل أسبوع، فلا يركنوا إلى مزاولة ما تشغلهم به دنياهم، بل يفرغون فيه إلى عبادة ربهم، ويغكفون على حمده، وتعداد نعمه وآلائه، حتى تطهر قلوبهم بذكر الله.

كان يوم الجمعة هذا اليوم الذي أمروا أن يعبدوا الله فيه، ولكنهم رغبوا أن يكون يوم عبادتهم يومَ فرغَ الله من عبادة الخلق<sup>(١)</sup>، وهو يوم السبت. ولما اختاروه قبلَ الله اختيارهم، فكان موسى عليه السلام يَزْعُم ويعظهم، ويُقبل إليهم فيه مذكراً مرشداً.

مرّت الأيام وقوم موسى على عاداتهم يقدّسون يوم السبت، ويفردونه لطاعة يتقربون بها، أو لعبادة يستبحون الله فيها، وتكاثرت أعقابهم، وتوالت أيامهم، وهم على هذا مقيمون، وعلى تلك السنة دائبون.

وفي قرية على شاطئ البحر الأحمر - قد يُقال لها أيلة - كان يسكن قوم من سلالة بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام<sup>(٢)</sup>، وكان عليهم أن يلتزموا سنة آبائهم وأجدادهم، فيسيروا على عبادة الله في يوم السبت. فكانوا لا يزاولون فيه عملاً من أعمال دنياهم من صيد أو متاجرة أو صناعة.

وكان على ساحل البحر هناك حجران أبيضان، تخرج الحيتان إليهما ليلة السبت ويومه، إذ قد أمنت أن تُصاد، فهي تأنس في هذا الزمن وتأمين، فتتكاثر وتتزاحم، والقوم حينئذ لا تمتد أيديهم إلى ترويع هذه الحيتان بصيد، لأنهم مشغولون بتسبيح خالقهم، محرّم عليهم أن يفزعوا صيداً، أو يمارسوا في الدنيا عملاً. وإذا جاءت ليلة الأحد تسرّبت الحيتان إلى البحر، فانبعثت إلى باطنه، فتعذّر على القوم أن يصطادوها في أيام هي جلّ لهم.

تحركت دواعي الطمع، وثارَت عوامل الجشع في نفوس الفساق من أهل هذه القرية، فغفلوا عن تعاليم أنبيائهم، ونسوا حظاً مما ذكروا به، فتشاوروا فيما بينهم وتبادلوا زمام الرأي، وقالوا: ما بالنا نترك هذه الحيتان في يوم تكثر فيه وتزيد، وتتزاحم متسابقة إلينا، ونأتي إلى صيدها في أيام تُحجم عنا وتدبر؟ فلا سبيل إليها إلا بمشقة وجهاد، إننا بذلك نحائدون عن طريق الصواب.

(\*) الأعراف ١٦٤ - ١٦٦.

(١) انظر الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة.

(٢) تفسير الكشاف: ١ - ٣٥٥.

لا رأي إلا أن نقبل على هذا الصيد في يوم السبت، فنأخذ منه ما نشاء، ونصل فيه إلى ما نبغي ونريد.

أقبلوا على الصيد، فاصطادوا كثيراً بلا تعب ولا عناء، ثم صنعوا به ما شاؤوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشوي، وأقبلوا يُشبعون نهمهم ويملاؤن بطونهم.

علم المتقون منهم بما فعل هؤلاء الفساق المستهترون، فخرجوا إليهم ووعظوهم وحذروهم، فما زادهم ذلك إلا استهتاراً وإمعاناً في غيهم، وانسياقاً في ضلالهم. فثارت نائرة المؤمنين، وحاصروا القرية بسلاحهم يمتنون هؤلاء المارقين من دخولها، لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون.

اشتد ذلك على الفساق، وشق عليهم أن يمتنعوا عن الصيد في يوم السبت، مع كثرة الحيتان فيه، دون غيره من الأيام. فقالوا للمؤمنين منهم: إن القرية لنا ولكم، ولا حق لكم في دفعنا عنها، والانفراد بها دوننا، ولا أحد يُلزمنا بتركها لكم. إنها موطننا وموتلنا ومحط رزقنا، لا سبيل إلى تركها، ولا مفر لنا إلى غيرها، فإن صمتم على رأيكم، ولم تحيدوا عن عزمكم فلتقاسمونا القرية، ولنبن حيطاناً بيننا وبينكم، حتى يعيش كل منا على ما يشتهي وكما يريد.

ارتضى المؤمنون أن يقاسمهم القرية، وأن يقيموا سداً يحجب عنهم هؤلاء المارقين. انفردت كل طائفة، وشغل الفساق بلهوهم وصيدهم، وحفروا نهيرات تصل البحر بقريتهم، فإذا كانت ليلة السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم، فإذا غربت شمس السبت وهمت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النهيرات، فلا تملك الحيتان أن تتسرب إلى البحر.

ولكن المؤمنين لم يغفلوا عن زجرهم وتخويفهم عذاب الله. فلما طال النصح، ولم يزدهم إلا تمادياً وعتوا ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فتركوهم في غيهم يَعْمَهُونَ، وانصرفوا عن وعظهم لأنهم لا يتعظون. استمر الفساق في لهوهم، وسدروا في غلوائهم. وكثرت أموالهم، وتغالوا في فسوقهم وعصيانهم حتى ضاق بهم داود. فاتجه إلى ربه يستنصر به، ويطلب اللعنة لهم. فأجاب الله سؤاله، وحقق أمله فزلزلت قريتهم زلزالاً عظيماً، ففزع المؤمنون من ذلك وخرجوا من بيوتهم، ﴿فَلَمَّا سَوَّأْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَعِيسٍ<sup>(١)</sup> يَمَا كَانُوا يَسْقُوتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

## سليمان

### سليمان وبلقيس (\*)

اتجهت همهٔ نبي الله سليمان إلى بناء هيكل في بيت المقدس، تسهيلاً لأسباب العبادة، وقرباناً إلى الله، فنشط حتى أقامه عالي الأركان، شامخ البنيان. ولما تم له ذلك اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، ثم نزعته إلى أن يؤدي فريضة الله، فلا بد له إذا أن يتهيأ للحج في حشد عظيم.

يَمُّم النبي شطرَ الحرم فوافاه، وأقام به ما شاء، حتى إذا وفي نذره شدَّ رحله وفارقه. ثم جدَّ به السير نحو أرض اليمن، فدخل أرض صنعاء، وأخذ يتفقد الماء، ويتلمس منافذه، ويسبر أغواره، فأعياه البحث، واستعصى عليه المنال<sup>(١)</sup>.

لذلك خفَّ سليمان، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلَّه على الماء، فوجده من الغائبين، فأقسم ليعذِّبته أو ليدبِّحته، إلا أن يأتي بحجة واضحة، يمهدها بعذره ويزيل ما يخالج النفس في أمره. لكن الهدهد غاب غيبة قصيرة، وعاد يخفض رأسه وذنبه تواضعاً لسيده، وتقدم إليه ينزع من نفسه ما عسى أن يكون قد ألمَّ بها من غضب عليه، أو كيد إليه... تقدم الطائر فقال: لقد اطلعت على ما لم يمتد إليه علمك، ولم تصل إلى إحاطة به أسباب قوتك وملكك، وكشفت سرّاً نذراً<sup>(٢)</sup> عنك أمره، واحتفى خبره.

فخفض هذا الحديث المشوق من حدة سليمان، وبعث إلى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال، فاستحث سليمان آنذاك الهدهد أن يأتي بخبره، وأن يُذلي بحجته وعذره. فقال الهدهد: وجدت في أرض سبأ امرأة تملكهم، وقد أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، إلا أن الشيطان قد استبطنهم، وخالط منهم اللحم

(\*) الأنعام ٨٤، الأنبياء ٨١ و٨٢، سبأ ١٢-١٤، النمل ١٥-٤٤، البقرة ١٠٣، سورة ص ٣٠-٤٠.

(١) خرج سليمان مرة ليستسقي فشهد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم أنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك. فقال: سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

(٢) نذراً: غاب.

والدم، والمسامع والأطراف، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ۲۴]، ﴿وَمَدَّنْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ۲۴]، فهالني أمرها وروعي شأنها، وما كان أجدرهم، وأولى بهم - وهم أولو القوة والمجد - أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تكين الجوانح، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ۲۶].

دُهِش سليمان لهذا الأمر العجيب، وقد رأى ألا يفجع الهدهد في خبره، وألا يرذ عليه قوله، بل قال له: سننظر في نبئك، ونتحقق أمر صدقك من كذبك. وإذا كان الأمر كما وصفت، والحق كما صورت، فهذا كتابي، اذهب به فألقه إليهم، ثم تنح إلى مكان تنتظر رأيهم، وترتقب جوابهم.

حمل الهدهد الكتاب، ثم سار إلى بلقيس، فألقاها بقصرها في مأرب، فطرح الكتاب أمامها، فتلقفته، وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّكَ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ۳۰ - ۳۱].

فجمعت الملكة وزراءها وأمراءها، وأكابر دولتها إلى مشورتها، لتطيب نفوسهم، لاعتدادها بهم وزكوبها إليهم، ولكي تعتصم بحكمهم، وتستظهر برأيهم. فقالوا: نحن أبناء حرب وجلاد، لا أهل رأي وسداد، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك وشؤوننا لتفكيرك، فانظري ماذا تأمرين، نكن طوعاً وبناك، وزهن كلامك.

لمحت الملكة في كلام رجالها ميلاً إلى الحرب والمدافعة، فزيفت كلامهم، وخطأت رأيهم، وأبانت لهم أن الصلح خير، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة أن يبدأوا بالتي هي خير لهم وأحسن، فقالت: إن الملوك إذا غلبوا قرية، ودخلوها عنوة خربوها: فأبادوا حضارتها، وجعلوا أعزتها أذلة، وتحكموا في الرقاب، واشتطوا في الاستبداد... ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام، وتوالت الأزمان. وإني مرسلة إلى سليمان بهدية، فيها من كل غالٍ وثمين، ونفيس وكريم، أصابغها بها على ملكي، وأبين بها سبيله، وأتعرف منها نهجه.

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم، فانتقل الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد إلى سليمان بيئته الخبير. فاتخذ سليمان للأمر عُدته، وقدم لما بعده أهبته، لذلك أمر العجز فزينوا له بناء عجبياً، وصرحاً مشيداً، يهز الأفتدة، ويبهر الأعين، ويدهش القلوب.

فلما دنا القوم نظروا قبهتوا، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلق، يرحب بقدمهم ويتهلل للقائهم. ثم بدأ يستشف غرضهم، ويتعرف رأيهم، فقال: ما وراءكم؟ فتقدموا بما حملوا من هدايا ونفائس، يبتغون بها رضاً وقبولاً من النبي الكريم. فتعفف سليمان

وتلطف، وقال للرسول: ارجع إليهم بهديتهم، فإن الله أعطاني الرزق السخي، والعيش الرضي، ومد لي أسباب النبوة والمُلك، وأتاني ما لم يؤت أحدًا من العالمين. وكيف يرضى مثلي أن يمدُّ بمال يصانع به، أو كيف يليه عن نشر دعوته ملء الأرض ذهباً؟ إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فأنتم بهديتكم تفرحون. ارجع أيها الرسول إليهم، فلنأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها، ولا قدرة على احتمالها، ولنخرجنهم من سبأ أدلة، ذاهباً عنهم العزُّ والمُلك والسلطان.

ذهب الرسل فأخبروا بلقيس بما رأوا وسمعوا، فقالت: ليس لنا بدٌ من السمع والطاعة ولتبادر إلى إجابته، ونسارع لقبول دعوته.

فلما سمع سليمان بقدمهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخر له من الجن: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مُسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن ينقضي مجلسُ حكمك، فتقوم من مقامك، وإني لذو قوة على إحضاره، وأمينٌ على ما فيه. قال الذي أوتي العلم والحكمة: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك ظُفُّك<sup>(١)</sup>.

أراد سليمان عرش بلقيس عنده فكان، فقال: هذا من فضل ربي علي، وتلك نعمة من نعمه إليّ، ليلبوني<sup>(٢)</sup> أشكر أم أكفر. ومن حسنت النعمة لديه، وصادفت من قلبه مكاناً طهرت حواشيه، وسكنت نوازيه، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه، لأن مرجع الشكر إليه وأما من كفر بنعمة ربه، وخبثت سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة، والله غني عن العالمين. ثم قال سليمان لجنوده: نكروا<sup>(٣)</sup> لها عرشها، وغيروا رُواءه لننظر: أتتهدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون.

فلما جاءت قيل: أهكذا عرّشك؟ فاستبعدت أن يكون عرشها، وقد خلفته في أرض سبأ، ولكنها رأت معالمه، وتبينت آياته ومحاسنه، فدهشت لذلك الأمر الغريب، وقالت: كأنه هو، ووقفت مشتتة الفكر، حائرة القلب، والهة الفؤاد.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض، ثم دعا ملكة سبأ إليه. فلما رآته حسبته لجة، فكشفت عن ساقبها، قال: إنه صرح ممرّد<sup>(٤)</sup> من قوارير. فانكشف حجاب الغفلة عنها، وقالت: ربّ إني ملثُ حيناً عن عبادتك، وضللت حرساً<sup>(٥)</sup> من

(١) الطرف: العين.

(٢) ممرّد: مطول أو مملس.

(٣) ليلبوني: ليختبرني.

(٤) حرساً: دهرأ.

(٥) نكروه: غيره إلى مجهول.

الزمن رحمتك، فظلمت نفسي، وحبستها عن نورك ورحمتك، والآن قد أسلمت مع سليمان، خالصة لك، متوجهة إلى طاعتك وأنت أرحم الراحمين.

### حكمة سليمان (\*)

هذا داود عليه السلام قد استوى ملكاً على عرش بني إسرائيل، يحكم فيما شجر بينهم، ويصرف أمورهم، ويرعى وحدتهم ومعاشهم، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم، ويسطون خصومتهم، ويُذلون بحججهم، وهو يفصل في كل ذلك بالعدل والقسطاس.

وهذا ابنه سليمان لما يكتمل، فهو في الحادية عشرة من عمره، ولكن أباه قد أصبح شيخاً هماً، أوشكت شعوب أن تخترم أجله، فهو نائب التفكير في أمر قومه، مهمتهم بمن تكون له الولاية من بعده، يرى أبناءه من حوله، وسليمان - وإن كان صيباً - إلا أنه يفضلهم علماً وحكمة: قد نضجت شمائله، واكتملت بوادره، يصرف الأمور تصريف الناقد الحازم، البصير النظار<sup>(١)</sup>.

جرت سنة داود على أن يحضر خصومته ابنه سليمان، حتى تزداد قوته، ويستحصف<sup>(٢)</sup> رأيه، فكان سليمان ملازماً لأبيه في مجلسه، حتى يكون له من آرائه نور يمشي به، ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير.

وفي مجلس من مجالس القضاء جلس الملك داود، وجلس إلى جانبه ابنه سليمان، فأتى خصمان، قال أحدهما: إن زرعاً له قد أتى ثمره، ودنت قطوفه، وصار بهجة الناظر، وعتاد الزارع، انتشرت فيه غنم خصمه، ولم يردها راء، أو يحكم وثاقها راع، بل سامت، وانسابت في الزرع ليلاً، فأهلكته وأبادته، حتى صار أثراً بعد عين.

قال صاحب الزرع ما قال: ولم يدفعه صاحب الغنم بحجة ولا دليل، فلزمته الخصومة، وحققت عليه كلمة القضاء.

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصة له، كفاء زرعه، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركوها، فنقشت<sup>(٣)</sup> في الزرع بالليل. ولكن الصبي سليمان -

(\*) الأنبياء: آية ٨٩ وما بعدها.

(١) النظار: الممعن النظر في الأمور.

(٢) استحصف رأيه: استحكم.

(٣) نقشت الغنم: رعت ليلاً بلا راع.



وقد آتاه الله علماً وحكمة، وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة، وجمله بالرأي فيها تهيئة منه ليتولى ذلك الملك العريض - انبرى في مجلسه؛ وفك عقال صمته، وانفلتت إلى القوم حجته، غير هذا أرفق، ودون هذا أوفق.

فدهش القوم لجراء الغلام، وانتظروا صامتين ما وراءه، فقال: تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، وتسلم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها، حتى تعود كما كانت، ثم يتراذان، فيأخذ كل ما كان تحت يمينه؛ وبذلك لا يكون هناك غنم ولا غرم؛ فهذا أقرب إلى العدل، وأصح في الحكم، وأولى في القضاء.

كان هذا مبدأ لظهور أمر النبي سليمان، الذي كان خير خلف لأبيه.

### سليمان على عرش أبيه (\*)

داود يهيئ ابنه سليمان، ليكون خليفة من بعده مع ما هو عليه من حداثة السن وغضاضة الإهاب، ولعله قد أخذ بأبهة العرش، وازدهى بعزته، فخالط قلبه الفخر، وامتدأ أمله إلى التجليق بغرض من أغراض الحياة. وذلك - وإن يكن عززياً في بني الناس - إلا أنه كثير على من منح هبة النبوة، واصطفاه الله لهداية العالمين. وهذا ابن آخر لداود: هو أبشالوم قوي عتيد، قد استوى ساقه، وعرك تجارب الدهر، وعرف دخائل الأمور، ومع ذلك فهو مقصي عن الملك، مبعد عن الخلافة والسلطان.

وذلك تدبير لا يرضي أبشالوم، ولا يطمئن إليه: فهو لذلك سيشق عصا الطاعة خارجاً على أبيه وأخيه، وسيكافح ويناضل في سبيل هذا الملك، مهما يكلفه ذلك من عزيز.

استمر أبشالوم رديحاً من الزمن يتقرب إلى قومه اليهود، ويغمرهم بعطفه، ويقضي بينهم، ويصلح أمورهم، ويجمع شملهم حوله. وذلك انتظاراً لأمر يدبره وعمل يبيته، حتى لقد غالى في أمره فكان يقف بباب أبيه الملك يصد عنه كل صاحب حاجة، ليقضيها له بنفسه؛ ليكون له على كل إسرائيلي منة ويد، وليعرفهم أنه صاحب حول وطول، حتى يكونوا إليه نازعين ولرأيه خاضعين.

وبعد أن أعد أبشالوم عدته، ودبر مكيدته، واطمأن إلى أنه استرق قلوب اليهود، واستولى على زمامهم، استأذن أباه داود في أن يخرج إلى «جدون»<sup>(١)</sup>

(\*) سورة ص: ٣١ وما بعدها.

(١) جدون: بلد.

ليُوفي بنذر نذره هناك. ثم أرسل جواسيسه في أسباط بني إسرائيل قائلاً: إذا سمعتم بُوقاً يُنذر بجمعكم فانفروا إليّ وأعلنوا الملك لي، فذلك خير لكم، وأوفى لحقوقكم وأمكن لسلطانكم.

ثار الشعب، واشتدّت الفتنة، وتزايد الصّخب، وهبّت على عاصمتهم ريح هَوْجاء تُوشك أن تأتي على الأخضر واليابس.

علم داود بالخبر، فكان شديداً، إلا أنه ربط جأشه، وملك نفسه، ثم قال لمن حوله: هيا بنا نهزّب، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أشالوم. ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن وصعد داود إلى جبل الزيتون باكياً حافياً هو والذين معه.

وكان نَفْرُ قد شمتوا بدّاود، فتألّبو عليه يستونّه، ويؤلّمونه بقوارس الكلم، فهمّ بهم خلصاؤه إلا أنه منعهم في ألم وحسرة قائلاً: إذا كان ابني يطلبني فما أحرى غيره بذلك! ثم تقدم داود إلى الله في ضراعة وذلة: أن ينجيه مما حاق به، وأن يكشف عته البلاء المحيط.

دخل أشالوم بعد مخرج أبيه المطرود إلى العاصمة وامتلك نواصي الأمور. ثم أرسل داود قواده، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالرؤية والحكمة، وأن يحقنوا دم ابنه أشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل. إلا أن القدر قد دبر غير ما اشتهى الوالد الرحيم، فقد دخل القواد إلى أشالوم ولم يروا إلا قتله، فسكنت الفتنة، واستراح الناس.

ورجع المُلْك إلى داود ومن بعده لابنه سليمان.

قرّ سليمان في ملكه، ووهبه ربه ملكاً عريضاً، وجاهاً وسيعاً، وسخر له الريح تجري بأمره، وتسير بمشيئته ورأيه، وعلمه منطلق الطير، فكان يتفاهم بأصواتها، ينتفع بمواهبها، ويطمئن إلى أخبارها.

وأسال الله له عيناً مُضطهرة، تقذف النحاس من باطن الأرض، فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير، ومن الجن من يعمل له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيل وجفانٍ كالجوابي<sup>(١)</sup> وقدور وراسيات.

ورث سليمان داود في نبوته<sup>(٢)</sup> وملكه، وآتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمه منطلق الطير، وسخر له الشياطين، وأطلق بأمره الريح، فكان يعرف تخاطب الطير بلغاتها، ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

(١) الجوابي: الحياض الكبار.

(٢) النبوة لا تورث، ولكن الله يفضل بها على من يشاء.

ولقد ركب نبي الله الملك يوماً في حشد عظيم من الإنس والجن والطيور، حتى نزل أرضاً بَرّاحاً، فأتى على وادي النمل. فَبَصُرَتْ به على بُعد نملة من الشمال، فارتاعت لذلك الحشد، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم، فأهابت بهم أن ادخلوا مساكنكم حتى لا تذهبوا ضحية سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

سمع سليمان قولها، وعرف مرادها في ندائها، فتبسم ضاحكاً لقولها، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب، وإعجاباً بما تجلّى في قول النملة من شعور وإدراك، لأنها أيقنت أنه نبي، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون.

طلب سليمان من ربه أن يقبضه لشكره على ما أنعم عليه من عطية، وما خصه به من مزية، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات، فيهيئ له من أمره رشداً، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين.

### قضاء الله في بني إسرائيل (\*)

استشرى<sup>(١)</sup> الفساد في طبيعة اليهود، وتهافتوا في حماة الضلال، وفشا بينهم العِصيان، واضطرب حبل الأمان، ولم يعد للرحمة مكان في نفوسهم، ولا لهيبة الأنبياء نصيب من قلوبهم. أما أحبارهم وقُرّاءهم فقد أنكروا حق الله، وأما ولاتهم فقد كذبوا الرسل، ونبدوا وراء ظهورهم الكتاب، كتاب الله فاستحقوا من الله أن يُدبِقهم العذاب، وأن يوقع عليهم شديد العقاب، ولكنه - سبحانه وتعالى - أعدل من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يرسل إليهم النذير، أو يعاقب طغاة الظالمين قبل أن يبين لهم وجه الطريق.

وكان «أرمياء» نبياً من أنبيائهم، ورجلاً من صميم بيوتهم، فوقف بينهم يصيح بكلمة الحق، ويصدع<sup>(٢)</sup> بأمر الله: أي قومي وأبناء عشيرتي، لقد طال فسادكم وعمّ داؤكم، وسخط عليكم ربكم. هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه، وذلك حقه فيكم قد جحدتموه، وقد علمتم نعمة عليكم سابعة، وأبرّاد خيره فوقكم ضافية، وآلاءه عليكم ظاهرة وباطنة. قد مكن لكم في أرضه وأنزلكم إلى حمى بيته، وفضلكم على العالمين في زمانكم.

(\*) سورة المائدة: ٧٤ و٧٦، وآل عمران ١٣١.

(١) استشرى: استطار.

(٢) يقال صدع بالأمر: أصاب موضعه، جاهر به.

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة، وفي رحمته بكم عبرة. هذا سنحاريب<sup>(١)</sup> نزح إليكم من بابل في عَسْفِه<sup>(٢)</sup> ويطشهُ، وفي جنده وحزبه، وفي قوته وصبره، حاول أن يغزوكم في عَقْر داركم، وأن يتغلغل في صميم بلادكم، ولو خُلِي بينه وبين ما يريد لأفنى عددكم. وأذهب جَمْعكم، لكنَّ اللهَ رحمكم بنبيكم شعياً، فوقف إلى الله داعياً مُتَحَنِّناً، وإليه راغباً مُتَطَلِّباً: أن يضرِفَ عنكم السوء، ويدفَع الأذى، ويردَّ ما يراد بكم من كيد، فاستجاب الله دعوته، وتقبَّل كلمته، ورجع عدوكم مذموماً مذخوراً، يتعثَر في ثوب الخِزْي، ويتسربلُ سربال الهوان، بعد أن أهلك جنده، ودبَّت إليهم الأمراض وتحوَّتْهم<sup>(٣)</sup> الأسقام.

وماذا كان جزاء شعياً فيكم<sup>(٤)</sup>؟ وماذا كان مقامه في نفوسكم؟ لو كان في قوم غيركم يَزْعُونُ الجميل، ويحفظون يد الكريم، لظل دهره بينهم مرعي الجانب مسموع الكلام. ولكن يا حسرة عليكم، ويا بؤساً عليكم لصنيعكم! لقد أهتَمُوهُ وخذلتموه، ثم قتلتموه وذبحتموه، فأرقتم منه دمأ ذكياً، وأهنتم كريماً وأبياً!! وصعدت روحه طاهرة مقدسة، مبرورة مكرمة، تشكو الجور والطغيان، وتبرأ إلى الله من العقوق والكفران.

ثم ما زلتُم أنتم هؤلاء: تَظَاهرون بالإثم، وتواصون بالعدوان، ولا تتناهون عن منكر تفعلون كأن التوراة لم تُهذَّب نفوسكم، وكأن الرسل تنادي في غير دياركم.

اسمعوها كلمة صادقة، وتلقوه إنذاراً حاسماً: لقد أوحى الله إلي أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم العذاب، والعقاب. لئن لم تُفَيِّقُوا من سَكْرَتِكُمْ، وتزَجُّرُوا غراب جهلكم، وترجعوا إلى كتابكم تُسْتَمْسِكُونَ بعروته، وتحتكمون إلى آياته، وتعودوا قوماً صالحين، ليبعثن عليكم عبيداً أشداء وجنوداً أقوياء، بأسهم شديد، وعزمهم حديد، لا تسكن الرحمة في نفوسهم، ولا تعرف الرأفة سبيلها إلى قلوبهم، يأخذون بناصيتكم، ويُرْغَمُونَ أنوفكم، ثم يجوسون هذه الديار، فإذا تلك القصور التي تنعمون في ظلالها قد استحالت خراباً يباباً<sup>(٥)</sup>، وإذا تلك الآطام<sup>(٦)</sup> المتراصة أصبحت شعاباً<sup>(٧)</sup> وحدائقكم التي ترونها ذات بهجة تُضحِي عريسات<sup>(٨)</sup>

(١) سنحاريب: كان ملك بابل، أراد أن يغزو بني إسرائيل ولكن الطاعون أباد جيشه.

(٢) العسف: الظلم والجور. (٣) تحوَّتْهم: أضعفتهم.

(٤) شعياً بن أموص: كان نبياً من أنبياء اليهود.

(٥) اليباب: الخراب. (٦) الآطام: الحصون.

(٧) الشعب: الطريق.

(٨) العريسة: بيت الأسد.

أسود، وحقولكم تلك التي تجنون ثمارها تمسي مرابض نمور وفهود، والمعابد التي خلقها الله روحاً لقلوبكم، ومثابة لنفوسكم، لِيَتَّهَكُنَّ حرماتها وليستبيحُنَّ عَرَصاتها... وهكذا تُضبحون حَرماً مستباحاً، وكلاً مباحاً، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل.

وقد نصحت لكم ما وسعني النصح، وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح وأنتم بعد ذلك مُفوضون في الطريق التي تسلكون، وفي النهج الذي تنتهجون.

قال كبيرهم: أهذا الذي جمعت إليه حشدنا، ودعوت إليه لفيئنا؟ لقد كذبت على الله، وأعظمت الفرية عليه! أكان الله الذي اختارنا من بين خَلْقِهِ، واصطفانا لتلقي كتابه، أن يُذهب مُلكنا على يد كَفَّار لا يعبدون إلا النار ولا تعنو جباههم إلا للأوثان؟ إنما تُرجمُ بالعيب، وتتظنى بالمنكر، وتضرب في أودية الوهم والضلال.

قال أرميا: يا هؤلاء، إنما يُرسلهم الله عليكم معذبين، ويرميكم بهم معاقبين، كما يرسل الطاعون الجارف، أو السيل العارم. وما الفرق بين أن تصيبيكم دُوبيةً تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملك كافر يُدُلُّ ناصيتكم، ويمزق أوصالكم؟ وأشهد الله أنني نصحتكم وما غششتكم، فانظروا لأنفسكم وتخيروا لأبدانكم. قالوا: جادلنا فأكثر الجدال، وكأنك رأيت رُقعة الحلم وسبعة فأغريت بالكلام، وطائر الصدر ساكناً فبلغت في الملام، وما نرى لك إلا أن تُغَلَّ يداك وتصفد رجلاك، وتُرْمَى في سجن عميق، أو تنفى إلى مكان سحيق. وطلع الصباح وإذا بأرميا مُلقى في سجنه، مُصَفِّداً مغلولاً!

وتلفتوا إلى الشرق يوماً، فإذا بالغياب يعلو حتى يبلغ عنان السماء<sup>(١)</sup>، وينعقد حتى يحجب الضياء، ويتكاثف حتى يملأ الأرض حُلُوكة وظلاماً، ثم ينقشع هذا الغبار، ويفتضح عن أشوس<sup>(٢)</sup> مقدام، يقطع جيشاً كقطع الغمام، ما فيهم إلا حَمْس<sup>(٣)</sup> جمع الفؤاد.

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابل، يريد بهم الشر، ويقصد لهم الهلاك، وهو نِقْمَةُ الله أرسلها، وغضبتُه رمى بها، فما الذي يستطيع صدّه؟ ومن الذي يقدر أن يقف جيشه؟ وتساءلوا: أهذا العذاب الذي خوَّفنا به أرميا؟ إن كان هو فقد حَلَّتِ الداهية ووقعت الكارثة.

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتموا حُدُسهم، ويعرفوا ما وراء زَعَمِهِم، بل انقض

(١) عنان السماء: ما اعترض من أقطارها.

(٢) الأشوس: الجريء.

(٣) خمس: شديد القتال.

على المدينة كاسراً، مخزباً هداماً، جريئاً مقداماً، لم يصادف منزلاً إلا قوضه، ولا صرحاً إلا هدمه، ولا طريقاً إلا أخفى رؤومته، ولا قصراً إلا محاً أعلامه.

وبيت المقدس، انتهك حرُماته، وأسقط شُرُفاته، وعطل العبادة في جنباته. أما القوم فقد حاطهم قتلاً وذبحاً، وأسراً وسبياً، ثم فرّقهم في الأرض بَدَدًا، وترك ديارهم خراباً يباباً.

ومرّت أعوام، وتصرّمت أجيال، واشتعبت بختنصر شعوب<sup>(١)</sup>، وقُطعت أسبابه من الحياة، وتولى عرش بابل ملك خافض الجناح، سهل المقادة، لذن العود. ورأى هذا بني إسرائيل يرسفون في أصفاد الذل، ويغدون ويروحون تحت نير<sup>(٢)</sup> الهوان، فسأل: ما خطبهم؟ وما أسباب هوانهم؟ قالوا: إنهم أسلاف يعقوب، وأحفاد داود، وكانوا يُقيمون في الشام، وبلادهم مشفوهة<sup>(٣)</sup> الموارد، عذبة المناهل، وإن سلفك قد أذل أبيهم، وأرغم حميهم، وفرّقهم في البلاد طرائق، وشردهم في الآفاق حزائق<sup>(٤)</sup> وضرب عليهم ما تراه من ذل وهوان.

فوجدت هذه الكلمات منه قلباً رحيماً، وصادفت عنده طبعاً كريماً، فنأدى فيهم أن اجمعوا شملكم، ولمثوا شتاتكم، وضموا نشركم<sup>(٥)</sup> وثوبوا إلى دياركم، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع، ونسج متلاحم.

ورجعوا إلى ديارهم، وردّ الله الكرة عليهم، وأمدّهم بالأموال والبنين، وأخضب لهم الزرع، ونما الضرع، واطردت لهم أسباب السعادة والوثام.

وكان من حقهم أن يُعتبروا بما كان، وأن يقابلوا النعمة بالشكران، ولكن أنى للنفوس التي طبعت على الشر أن تستزوج الخير، وتميل إلى الصلاح؟! وأنى لسلائل القوم الذين تمالأوا على يوسف، وآذوا موسى من بَعْده، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان، أو تنسى العدوان؟! فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم إلى الشر، وأخذوا يحطّبون في حبال الظلم والبغي، حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيى نبين رحيمين، ورسولين كريمين، سفكوا دمهما، كأن بنفوسهم عطشاً إلى الدماء، وكان وتراً<sup>(٦)</sup> بينهم وبين الأنبياء. وعادوا إلى الشر والعدوان، وعاد الله بهم إلى المكر

(١) شعوب: الميت.

(٢) النير (في الأصل): الخشبة المعلقة في عنق الثورين.

(٣) ماء مشفوه: كثرت عليه الأيدي.

(٤) الحزائق: جمع حزيفة، وهي الجماعة.

(٥) النشر: القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس.

(٦) الوتر: الثأر.

والانتقام، فسَلَطَ عليهم جُودَزَزَ كما سلط من قبله بختنصر؛ وأعاد الكرة عليهم من ذهاب ملكهم، وتخريب معابدهم. وهكذا مُزَقُوا كل ممزق، وتفرقوا تحت كل كوكب، وضرب الله عليهم أبرد الدهر الذلَّة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

## عزير (\*)

دخل حديقته؛ فإذا هي مخضرة العود، وارفة الظلال، دانية القُطوف تُصدح فيها البلابل، وتُطرب الأطيّار، ففضى ساعته متملياً<sup>(١)</sup> بما فيها من جلال، مستمتعاً بما تحويه من شيات<sup>(٢)</sup> الجمال، ثم ملأ سلة من العنب، وأخرى من التين، واصطحب مقداراً من الخبز، وامتنى حماره وأخذ طريقه إلى المنزل.

وبينما هو يفكر في سر الكون، وعظمة الوجود، ضلّ به السير، واضطرب أمامه الطريق، واشتبهت معالم الجهات، وإذا هو في قرية خربة تُحدث عن قوم فرقتهم عدواء الدار<sup>(٣)</sup> واحتبلتهم حبول المنايا: رسوم دراسة، وأطلال عافية، وعظام نخرة، وأجساد بالية.

فنزّل عن حماره، وألقى بالسلتين إلى جواره، وربط الحمار، وأسند ظهره إلى جدار حتى يجمع نفسه، ويسترجع قوته وفكره. ثم طاب له المكان، واستراح إلى النسيم، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تنشر، وتلك الأجساد وأنى<sup>(٤)</sup> تبعث؛ بعد أن أصبحت أديماً للأرض، وتراباً يجود عليها كل أسحم<sup>(٥)</sup> هطال. ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم، ثم أغمضت عيناه؛ وتخاذلت ركبته، ودخل في نوم مشتمل؛ وكأنه لحق بمن في القبور.

ومرّت مائة عام مُجرّمات<sup>(٦)</sup>، وهرمت أطفال، وفنيت أعمار، وامحت شعوب، وتقوّضت صروح؛ وعزير ملقى في مكانه جسداً بلا روح! وعظامه ممزقة الأوصال، مهشّمة المفاصل؛ حتى أذن الله أن يفصل في قضية حار الناس في أمرها، واستعجم عليهم طريقها، واختلفوا في تقريرها بحكم يلمسونه بأيديهم، أو يقع تحت حسهم وأبصارهم، فجمع عظامه، وسوى خلقه، ونفخ فيه من روحه، فإذا هو قائم مكتمل الخلق، شديد البضعة<sup>(٧)</sup> وإذا هو عزير يقوم كأنه منتبّه من نومه، يبحث عن حماره، ويفتش عن طعامه وشرابه!

(\*) سورة البقرة ٢٥٩، سورة التوبة ٣٠.

(٤) آتى: كيف.

(١) متملياً: متمتعاً.

(٥) أسحم: سحاب.

(٢) شيات: علامات.

(٦) مجرمات: كاملات.

(٣) عدواء الدار: بعدها.

(٧) البضعة: القطة من اللحم.



وجاء الملك يسأله: أتظن كم لبثت في رَقَدَتِكَ يا عزيز؟ - ولم يُرو ولم يفكر؛ فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأجداث، ويجودك الطل<sup>(١)</sup>، وتهضب<sup>(٢)</sup> عليك السماء، وتمر عليك السافيات الذاريات<sup>(٣)</sup> ومع هذه السنين الطويلة والأزمان المتعاقبة، فإن طعامك ما زال سليماً، وشرايك لم يتغير، ولكن انظر إلى حمارك تَرَهُ مُفَرَّقَ العظام، مَتَفَضِّي<sup>(٤)</sup> الأعصاب، واللَّه - جلُّ شأنه - سَيُريكَ هذه العظام، كيف ينشرها ويحييها، ويبعث الحياة فيها، لتطمئن نفسك بالبعث، ويزداد إيمانك بيوم المعاد، وليجعلك آيةً للناس تخرجهم من حنَادِس<sup>(٥)</sup> الشك، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان.

وتلفت عزيز، فإذا حماره بأشراطه<sup>(٦)</sup> وسماته: قائم على أربع، تجري فيه شرايين الحياة! فقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وأخذ حماره، وشرع يتعرف الطريق إلى بيته، وقد تبدلت المعالم، وتحولت المنازل. وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر في حُلُم بعيد... حتى انتهى إلى منزله، فإذا عجوز فانية ذَوَى عودها، ووهن عمودها، ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوِين<sup>(٧)</sup>، وتعاقب الجديدين، وقد عَشِي بصرها. كانت هذه أُمَّتُهُ التي خلفها في ربيع حياتها، وريق<sup>(٨)</sup> شبابها.

سألها: أهذا منزل عُزَيْر؟ قالت: نعم، هذا منزل عزيز. وحنقتها العبرة ثم جادت عيناها بدمع هتون، وقالت: لقد ذهب عُزَيْر، ونسيه الناس، وما رأيت من حِقْبَة بعيدة مَنْ ذكر عُزَيْراً إلا الآن!

قال: أنا عُزَيْر، أمانتي الله مائة عام، وها قد بعثني إلى الوجود، وردني إلى الحياة. فاضطرب أمرُ العجوز، وأنكرت عليه بادي الرأي دَعْوَاه، ثم قالت: إن عُزَيْراً كان رجلاً صالحاً، مستجاب الدعوة، ما تَطَلَّبُ أمراً إلا تَقَبَّلَ منه الله، ولا تشفع له في مريض إلا شفاه، فادعُ الله أن يُصَحَّ جسمي ويرد بصري. فدعا الله، فإذا هي ذاتُ بصر حديد، ووجه وضيء! فقَبِلت يديه ورجليه، ثم ذهبت من ساعتها إلى القوم من بني إسرائيل، وفيهم أبناؤه وأحفاده، منهم من بلغ الثمانين، ومنهم مَنْ أخذ بعنق الخمسين، وفيهم أترابه، وقد برى الدهر عظامهم، وأبلى

(١) الطل: المطر الخفيف.

(٢) تهضب: تمطر.

(٣) السافيات الذاريات: الرياح.

(٤) المتفضي: المنفصل.

(٥) الحنادس: الظلمات.

(٦) بأشراطه: بعلاماته.

(٧) الملوان: الليل والنهار، وكذلك الجديدان.

(٨) ريق الشباب: أوله.

أبراد شبابهم، ورددهم<sup>(١)</sup> على حافرتهم. وصاحت: إن عُزيراً الذي فقدتموه منذ مائة عام قد رده الله رجلاً غَضَّ الإهاب، يَخْطِرُ في مطارف الشباب.

وطلع عليهم عُزير رجلاً وافر المُنه، مستوي الخلق، شديد الأشر<sup>(٢)</sup>، فأنكروا صِفته، وأعظموا فِرْيته<sup>(٣)</sup>، ولكنهم أرادوا أن يفتنوه<sup>(٤)</sup> بالرأي ويمتحنوه بالبرهان، قال أحد أبنائه: إن لأبي شامةً في كتفه كان يتميز بها، ويُعرف بصفتها. وكشفوا عن كتفه، فإذا العلامة كما عرفها أبنائوه، وكما سمع عنها أحفاده. ولكنهم أرادوا أن تطمئن قلوبهم، وتستيقن نفوسهم، وتمحى خيوط الشك من بين جوانحهم، فقال كبير منهم: لقد خُدُّنا أنه منذ زحف بختنصر على بيت المقدس، ومن وقت أن أحرق التوراة، لم يكن على الأرض مَنْ يحفظ التوراة إلا قليلاً، ومنهم عُزير، فإن كنت عُزيراً فاتلُ علينا ما كنت تحفظه منها. فقرأها لهم ولم يترك نصاً، ولم يحرف جزءاً، ولم يخرم لفظاً.

عند ذلك صافحوه مُصدقين، وأقبلوا عليه مباركين، ولكنهم - لشقوتهم - ما ازدادوا إيماناً، بل ازدادوا كفرةً، وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ أَيْنُ اللَّهِ﴾<sup>(٥)</sup> [التوبة: ٣٠].

### صراع بين الحق والباطل (\*)

أخوان من بني إسرائيل تحدرا عن رجل واحد، وأرضعتهما أم واحدة، ولكنهما تباينا في طبعهما كما تتباين الثبَّنة والنبَّنة وأصلهما واحد، والزهرة والزهرة وكُمُّهما متشابه، فيهوذا نشأ مؤمناً بربه، عارفاً بمقدار نفسه، عفيفاً كريماً، وقوراً حليماً، أعرض عن الدنيا وخُدَّعها، وعض طُرْفه عن متاعها وزخرفها، وقَطْرُوس نشأ كافراً جاحداً، شحيحاً بخيلاً، كز<sup>(٦)</sup> اليدين، غليظ الكبد، جافي الطبع.

وجمَّعهما أبوهما على ثروة ضافية، ونعمة وافية، حتى إذا عَلِقَه جِمامُه، وطُويت من الحياة أيامه اقتسما المال والعقار، وذهب كل منهما في إنفاقه مذهباً يُوَاطِم طبعه، وينسجم مع نحيزته وهواه.

(١) ردهم على حافرتهم، ويُقال: رجع على حافرتة، أي في الطريق الذي جاء منه، أي رده بعد القوة إلى الضعف.

(٢) الأشر: الخلق.

(٣) الفرية: أشد الكذب.

(٤) يفتنوه: يمتحنوه.

(٥) ذكر الله لنا قصة العزير لنستيقن أن الذي أحياه سيحيي الناس لأجل الحساب.

(\*) الكهف: آية ٣٣ وما بعدها.

(٦) كز: ممسك بخيل.

أما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلاً: يا رب، إني سأخرج من مالي في مَرْضَاتِكَ، وسأبذله في طاعتك، شكراً لنعمائك، وطمعاً في جنتك... وانطلقت كفاه بالإِنْفَاق، فأعطى العافي<sup>(١)</sup>، وفكّ العاني<sup>(٢)</sup>، وحمل الكل<sup>(٣)</sup>، وبذل المعروف، وأعان على نوابث الدهر حتى رَقَّتْ حاشية حاله، ونَفَدَ ماله أو كاد، ولكن ظل دهره هادئاً الضمير، مُرتاح الفؤاد، قانعاً بالكفاف، راضياً بقليل الزاد.

أما قطروس فإنه ما كاد يتسلم ماله، حتى احتواه، ووضع دونه المفاتيح والأغلاق، ثم حرم السائل، وجبّه القاصد، وأصمّ أذنيه عن أنة الفقير، وأغمض عينيه عن رؤية المسكين، ثم ارتفق حائطين<sup>(٤)</sup> أنفق عليهما أيام عُمُرِه، وأراق فيهما ماء شبابه، أنبتهما كرمًا فأورقًا وأثمرًا، وامتد عرشُهما، وأورق ظلُّهما، ثم اتخذ بينهما طريقاً عبدها ومهدّها، وأجرى بينهما الماء، وحاطهما بالنخيل، فكان رائيهما يَحْسَبُ أن جنة الخلد قد نزلت إلى الأرض في أبيه حُلَّيها وأنفس حُلاها: رُبْع خصب، وثمر قريب، وورق نضِر، وماء خَصِر<sup>(٥)</sup>، وزهر ينفتح، ووُزُق تصدح، حتى أضحتا نزهة السمع، وفتنة البصر.

ثم بسط الله في رزقه، وزاد في ماله، وبارك في ثمره، ورزقه بنين وأولاداً، زادوا في مظاهر نعمته، ورفاهية عيشته.

وتلك النعمة التي ظلّ يمرح في أبرادها، ويتقلب على جنباتها كان خليقاً به أن يتدبر صانعها ومُجربها، ومانحها ومعطيها، فيؤمن ويشكر، ويُدْعن ويحمد. ولكن فريقاً من الناس تُطغيهم النعمة، ويغشّي على بصائرهم النعيم، ويظنون سادرين<sup>(٦)</sup> في غلوائهم، ممعنين في إغفالهم، حتى يَقْرَعهم الدهرُ بناه، فإذا الغشاوة ترتفع، والحُجُب تتمزق.

وكذلك كان قطروس، وما ازداد على نعمة الله إلا كفراناً، وما أثمرت عنده إلا طغياناً.

(١) العافي: القاصد والسائل.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) الكل: اليتيم، والثقيل لا خير فيه.

(٤) ارتفق: انتفع. والحائط: البستان.

(٥) خصر: بارد.

(٦) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع. والغلواء: شرة الشباب أي نشاطه.

مَرَّ عَلَيْهِ أَخُوهُ فِي خُلُقَانِهِ <sup>(١)</sup> الْمَرْقَعَةَ، وَأَسْمَالَهُ الْبَالِيَةَ، فَاقْتَحَمَهُ بَعِينَهُ، وَازْدَرَاهُ فِي نَفْسِهِ، وَنَالَ مِنْهُ بِقَارِصٍ قَوْلَهُ:

أَيْنَ مَالِكَ وَتَسْبِكَ <sup>(٢)</sup>؟ أَيْنَ فَضْتِكَ وَذَهَبِكَ؟ لَشْتَانٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ! أَنْتَ رَقِيقُ الْحَالِ مَمْرُوقُ السَّرْبَالِ، فَاقْدِ الْأَعْوَانَ، قَلِيلِ الْإِخْوَانَ، وَأَمَّا أَنَا فَكَمَا تَرَانِي: فِي بُلْهَيْتِي <sup>(٣)</sup> عَيْشٌ وَخَفْضُ أَيَامٍ، وَلِي مَالٌ وَبَنُونَ، وَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ. تَعَالِ، أَدْخُلِ إِلَى جَنَّتِي، تَرِ الْكَرُومَ الْمَهْدَلَةَ <sup>(٤)</sup>، وَالْأَعْوَادَ الْمَخْضِرَةَ وَالْمِيَاهَ الْمَتَفَجِّرَةَ، وَالظَّلَّ الْوَارِفَ، وَالغُضْنَ الْعَاطِفَ، وَالثَّمَرَ الدَّانِي الْقَطُوفَ. ثُمَّ انظُرْ إِلَى هَذِهِ الثَّمَارِ. إِنَّهَا تَرَبُّو فِي كُلِّ عَامٍ، وَتَنْتِجُ وَأَفْرَأُ فِي كُلِّ أَوَانٍ، هُوَ خَيْرٌ دَائِمٌ مَا أَظْنَهُ يَنْقُدُ وَثُوبٌ مِنَ النِّعْمَةِ مَا أَرَاهُ يَيْلَى.

أَمَّا السَّاعَةُ الَّتِي تَرْجُفُ دَائِمًا بِقِيَامِهَا، وَالْبَعْثُ الَّذِي مَا بَرَّحَتْ تَلْهَجُ بِوُقُوعِهِ وَضُرُورَةِ حَصُولِهِ؛ فَمَا أَحْسِبُهُ قَوْلًا مَفْهُومًا، أَوْ سَائِغًا مَعْقُولًا، عَلَى أَنْتِي لَوْ جَرِيتِ فِي عِنَانِ فِكْرِكَ، وَخَضَعْتِ لِمَفْهُومِ قَوْلِكَ فَإِنِّي لَا بَدَّ وَاجِدٌ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، وَأَكْرَمَ مِنْ هَذِهِ الثَّمَارِ. أَلَا تَرَاهُ قَدْ أَثْرَنِي فِي دُنْيَايَ بِالْخَيْرِ؟ فَمَا يَمْنَعُ عِنْدَهُ أَنْ يُوَثِّرَنِي فِي آخِرَتِي بِمَا هُوَ أَكْرَمُ عِنْدَهُ، وَأَحْسَنُ لَدَيْهِ.

قَالَ يَهُودًا: إِنَّكَ لَتَكْفُرُ بِاللَّهِ، إِذْ تُنْكِرُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَكَ، أَوْ يَحْيِيكَ بَعْدَ مَوْتِكَ فَيَحْيِيكَ، أَفَمَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ نَطْفَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ، ثُمَّ أَحَالَ النُّطْفَةَ عَلَقَةً، ثُمَّ صَيَّرَ الْعَلَقَةَ مَضْغَةً، ثُمَّ جَعَلَ الْمَضْغَةَ عِظَامًا، ثُمَّ كَسَا الْعِظَامَ لِحْمًا، ثُمَّ أَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْسَانًا، عَجِيبَ الْأَسْرَارِ... أَفَمَنْ مَرَّتْ أَدْوَارُ حَيَاتِهِ عَلَى هَذَا النُّحُو، يَعَجْزُ خَالِقُهُ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنْ مَرْقَدِهِ، أَوْ يَنْشُرَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ؟ لَا، بَلْ إِنْ ذَلِكَ أَهْوَى عَلَيْهِ، وَأَقْرَبُ لَدَيْهِ، وَلَكِنْ عَلَى قَلْبِكَ غِلَافٌ، وَفِي سَمْعِكَ وَقْرٌ <sup>(٥)</sup>، وَعَلَى عَقْلِكَ حِجَابٌ، فَاسْتَبْهَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، وَتَدَّ <sup>(٦)</sup> عِنكَ الصَّوَابُ.

ثُمَّ تُعَيِّرَنِي بِالْفَقْرِ، وَتُكَاثِرَنِي بِالْمَالِ <sup>(٧)</sup>، وَأَنَا فِي فَقْرِي أَغْنَى مِنْكَ فِي غِنَاكَ، فَلَيْسَتْ الثَّرْوَةُ بِمَا تُحْرَزُ مِنْ مَالٍ، أَوْ تَحْوِيهِ مِنْ مَسْتَعْلَاتٍ وَعِقَارٍ، وَمِمَّا تَشْغَلُ بِهِ دَائِمًا نَفْسَكَ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْلُكَ، بَلِ الثَّرْوَةُ إِنَّمَا تَقْدَّرُ بِقَدْرِ مَا تَزْهَدُ فِيهِ مِنْ حَاجٍ أَوْ تَسْتَغْنِي عَنْهُ مِنْ مَتَاعٍ وَزَخْرَفٍ وَإِنْ تَلَّكَ الْجَوَاهِرُ الَّتِي تَفَخَّرُ بِهَا، وَتُكَاثِرَنِي عَلَى

(١) خُلُقَانٌ: جَمْعُ خُلُقٍ، وَهُوَ الثُّوبُ الْبَالِي.

(٢) التَّسْبِكُ: التَّسْبِيحُ بِمَالٍ كَثِيرٍ.

(٣) بُلْهَيْتِي: سَعَةٌ وَتَرْفٌ.

(٤) الْمَهْدَلَةُ: الْمَدْلَةُ.

(٥) الْوَقْرُ: الثَّقَلُ فِي الْأُذُنِ.

(٦) تَدَّ: غَابَ.

(٧) تَكَاثَرَنِي: تَرِيدُ أَنْ تُغْلِبَنِي بِكَثْرَةِ الْمَالِ.

حسابها، لا تعدو أن تكون في نظري حصى يتألق، أو آلاً<sup>(١)</sup> يلمع، وذلك البستان المونق<sup>(٢)</sup> المعجب، لا يجاوز في تقديري عُشْباً يطلع في الأرض ينمو ويترعرع، ثم يئيبس ويصبح هشيماً<sup>(٣)</sup> تذرؤه الرياح. وذلك النقر الذين تعتدُّ بهم ليسوا إلا أعواناً لك على الشر، يُطغونك ويفتنونك. . أما أنا فحسي بالله نصيراً ووكيلاً.

والنعمة كل النعمة عندي أن أجد الكفاف حاضراً، والصحة فارهة، وأن أكون آمناً في سيزبي، خارجاً من سلطان ما بيني وبين الناس. ولأن أجوع يوماً فادعو الله، وأشبع يوماً فأحمده وأشكره: خير لي من هذا المال الذي قد يُبطرنني ويطغيني، كما أبطرك وأطغاك. وعسى ربي - كفاء لما صبرت على قضائه، وما أنفقت من مالي على فقرائه - أن يكون قد أعد لي جنة خيراً من جنتك، ونعيماً مقيماً خيراً من نعيمك.

أما جنتك هاتان فقد لا تأمن عليهما عوادي العواصف، أو تقلب الأنواء<sup>(٤)</sup>، فإذا الأوراق جافة والكروم كعصف<sup>(٥)</sup> على الأرض مأكول. وهذا الماء التَّمِير الذي يجري سلسلاً بينهما، فيبعث الحياة، وينشر الموات، قد يغور في أعماق الأرض فتطلبه بكل حيلة، وتحتال لاستنباطه بكل سبيل فإذا هو أعزُّ عليك من يتنض الأنوق<sup>(٦)</sup>.

وفرغ يهوذا من قوله، ثم ترك أخاه يعجب ببستانه، ويمرح بين أزهاره ونواره.

وأصبح قطروس يوماً، وذهب كعادته إلى جنتيه يستروح - كما اعتاد - النسيم ويتفياً ظلال الكروم، فما راعه إلا أن رأهما أطلاقاً بالية، ورسوماً عافية، ونبثاً مصوحاً<sup>(٧)</sup> وعروشاً محطمة، وأعواداً ملقاة.

فجف حلقه، وغصن بريقه، وتساقطت خوافيه وقوادمه، ثم ذلت أخادعه<sup>(٨)</sup> ولأن بعد جماحه، ودان بعد طماحه، وأخذ يقلب كفيه حسرة على ما أنفق، ويقول: ﴿يَلَيْتَنِي لَأُشْرِكَ بِرَبِّ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

(١) الآل: السراب.

(٢) المونق: الجميل.

(٣) الهشيم: اليايس المتكسر من النبات.

(٤) النوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع النجر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعة في كل ثلاثة عشر يوماً، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

(٥) العصف: الورق الجاف.

(٦) الأنوق: طائر يخفي بيضه فلا يكاد يظفر به أحد.

(٧) مصوحاً: يابساً.

(٨) ذلت أخادعه: استكان.

## أصحاب الجنة (\*)

تنفس الصباح، وهبت نسائمه هينة ناعمة. وأقبل الشيخ<sup>(١)</sup> وثيد الخطو، مبهور<sup>(٢)</sup> النفس، أحنت ظهره السنون، وألان قناته الإصباح والإمساء، ولم يكد حاجب الشمس يبدو حتى كان يدق بعصاه باب حديقته في ضرّوان<sup>(٣)</sup>.

وكانت حديقة الشيخ جنة دائية القطوف، فواحة الزهر، قد رقت حواشيتها وتأنق واشيها، وجرى الماء في جداولها عذباً سلسلاً، وتنقل النسيم بين خمائلها بليلاً دانياً، وعلى بساطها نشر الريح حله ومطارفه، وحاك أزهاره وأنواره. وفيما وراء ذلك أشجار موقرة الثمار، وبقل وأعناج وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، فغدت مُتعة الناظر، ونزهة الخاطر، واتخذها الناس مثابة وأمناً، لهم تحت أشجارها ظلٌّ ومَقِيلٌ، وبين أفيائها سمرٌ وحديث.

ودار الشيخ في جنباتها، وتنقل بين زوايبيها وأنماطها، فنشق من شذا الأزاهير، وامتلات عينه بداني الثمار، وأصغت أذناه إلى تغريد البلابل وتطريب الأطيّار، ثم ذهب إلى مُصلّاه فسجد شاكراً لله أنعمه، راغباً إليه أن يجنبه طغيان الغنى، وأن يُثنيه عن فتنة الدنيا ووسوسة الشيطان.

وتلك كانت عادة الشيخ مُصَبِّح<sup>(٤)</sup> كل نهار، ثم يتعاقب الجديدان<sup>(٥)</sup>، وتتوالى عشيات وأصائل، حتى يرى الجنة قد آتت أكلها وآذن حصادها فيدعو البستاني وأعوانه، ويُعملون المناجل، ويقطفون الثمار: ثم يَقْدُ إليه جماعات الفقراء على ما عودهم من كل عام، فيعطيهم نصيبهم وأفرأ: هذا يملأ مِكتَله، وذاك يحمل في ثيابه، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المنجل، وما تركه الحاصد، وما تناثر بين الأشجار رزقاً حلالاً طيباً. وجرى على هذا في كل عام.

لم يُطق أبناء الشيخ صبراً: أن رأوا مال أبيهم موزعاً بين الفقراء، وبستانه مستباحاً للمساكين، وأنهم والعافين والسائلين سواء، بل ربما كان هؤلاء أحسن منهم حالاً، وأكثر بالجنة استمتاعاً.

قال قائل منهم: إنك يا أبي بما تنفق على الفقراء وتعطي، وما تخصصهم به من بذل ورفد لتَبْخُسُنَا حقنا، وتضيق علينا في رزقنا.

(٣) ضرّوان: قرية من قرى اليمن.

(٤) مصبح النهار: صباح النهار.

(٥) الجديدان: الليل والنهار.

(\*) القلم: ١٧ - ٣٣.

(١) ذكر ابن كثير أنه من بني إسرائيل.

(٢) البهر: تتابع النفس.

وقال غيره: وإنك يا أبت لو مَضيت في شأنك هذا فإنك سوف لا تُبقي مالا ولا نَسْبا<sup>(١)</sup>، وسوف لا تُخلف ضَرعاً ولا ثمرأ، وسنغدو بعدك فقراء نمد الأيدي وتكفف الناس.

وهم ثالث بالكلام، فأشار إليه بالصمت، وأدار عينيه في وجوه الجميع وقال: ما أراكم إلا خاطئين في الوهم والتقدير، ما هذا المال الذي تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به! ليس المال مالي أو مالكم، وهذا البستان ليس في حوزتي أو حوزتكم، إنما هو مال الله مَكَّنني فيه وآمنني عليه، على أن أنفقه في أكرم وجوهه وأنفعا لخَلقه، فللفقراء والمساكين حقُّهم، ولأبناء السبيل والعافين نصيبهم، وللطيور والبهائم طعامها، وما فَضَّل بعد ذلك فهو لي ولكم... ذلك ما فعلته وعودته الفقراء وأنفذت فيه حكم الله، والمال بهذا يزكو<sup>(٢)</sup>، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد، وتلك خطة درجتُ عليها شاباً طرياً<sup>(٣)</sup>، والتزمتها رجلاً كهلاً، فكيف بي أن أتركها اليوم شيخاً هماً فانياً!

على رسلكم<sup>(٤)</sup>، فما أنتم أولاء ترون شعري قد اشتهب، وجسمي قد نحل، وعودي قد دَوَى، والأسقام قد أخذت سبيلها إلي، ولن ألبث إلا قليلاً حتى ألقى الله، وإنكم سترثون البستان والمال والثَّعم والشاء<sup>(٥)</sup>. وأنتم بين خطتين: إن أنفقتم فإن الله وَعَد مُنْفَقاً خلفاً، وإن بخلتم فإن الله أُنذر مُمسكاً تلفاً، وله فيكم أمر هو بالغه.

ولم يمكث الشيخ طويلاً حتى لَزِمته العلة، وألحَّ عليه السقم. ثم لفظ آخر أنفاسه، وفرغ من شؤون الناس والحياة.

ومضت الأيام سراعاً، وتهيأت الحديقة للجنى، ودنت أثمارها للقطوف، واستشرف الفقراء لنصيبهم في الثمر، دأبهم في كل عام.

واجتمع الأبناء يديرون الرأي، ويعدون شأنهم للحصيد، قال قائلهم: لم يعد بعد اليوم في البستان حق لسائل أو فقير، ولم تصبح الخمائل مأوى لقاصد أو ابن سبيل، ولكل نصيبه يثمره إذا شاء، ويخزن منه ما يشاء. إننا لو فعلنا ذلك فإن شأننا سيعلو، ومالنا سيزيد.

قال أوسطهم - وكان أقرب إلى أبيه نَحِيْزة<sup>(٦)</sup> وجبلَّة، وأدنى إلى الخير واصطناع الجميل: إنكم تقدمون على أمر تظنونونه خيراً لكم. ولكنه يحوي الشر في

(٤) على رسلكم: على مهلكم.

(١) النشب: المال.

(٥) الشاء: الغنم.

(٢) يزكو: يزيد.

(٦) النحيزة: الطبع. وكذلك: الجبلَّة.

(٣) طَرَّ شاربه: أي نبت.

طياته، وتحسبونه نفعاً لكم، ولكنه سيقضي على بستانكم من جذوره إنكم لو حرمتم الفقراء وعطلتم حق المساكين، لا تأمنون منهم شراً واعتداء، ويوشك - لو فعلتم - أن يعلنوها ثورةً وعُدواناً. امنحوهم حقهم، واذهبوا مذهب أبيكم في إرضائهم، وما فضل بعد ذلك فإن الله ينميه، ويبارك فيه.

ولكنهم صاحوا في وجهه: لا تقترح شيئاً فيما لا تملك، وكف عن نصائحك ولن تجد منا إلا آذاناً صماء!

قال: أما إذا رأيتم ألا تسمعوا لقولي، أو ترغبوا في نصحي، فعليكم بالصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد تردكم إلى الحق، وتعطف قلوبكم إلى الفقراء. ولكنهم ما استمعوا ولا أجابوا.

ويأتوا أمرهم عشاءً أن يقوموا في عَمَايَةٍ<sup>(١)</sup> الصبح، وقبل أن ينبلج عمودُ النهار، ويفارق النوم مضاجع الفقراء، ويعمدوا إلى الحديقة يقطعون ثمارها، ويوزعون فيما بينهم أنصباءهم منها، ﴿أَسْمُوا لِبَصْرِمَنَّا<sup>(٢)</sup> مُصِيبِينَ وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ١٨].

وعلم الله سوء نيتهم، ودخيلة نفوسهم، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المسكين، وأكل نصيب السائل والمحروم، فأرسل إلى جنتهم طائفاً قلع نبتها، وأسقط ثمرها، وجفف أوراقها وأعوادها.

وطلع عليهم النهار وهم على أسوار الحديقة يتساءلون: أهذه جنتنا، وقد تركناها بالأمس مُورِقَةً الشجر، جارية الماء، فوَاحَةَ الزهر، دانية القطوف؟! ما نظن أن هذه حديقتنا، وإننا لضالون.

قال أوسطهم: بل هي جنتكم حرمتم منها قبل أن يحرم الفقير، وجوزيتم بأسوا ما يجزي لحز<sup>(٤)</sup> شحيح! ﴿أَلْأَقْلَ لَكَ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّ كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴿﴾ [القلم: ٢٨ - ٣٢].

(١) عماية الصبح: أوله.

(٢) لبصرمنها: ليقطعنها.

(٣) الطائف: البلاء.

(٤) لحز: بخيل.



## أيوب (\*)

تَشَقَّقُ الحديث بين ملائكة الله عن الخَلْق وعبادتهم، ومعصيتهم أو طاعتهم، قال قائل منهم: ما على الأرض اليوم خيراً من أيوب، إنه مؤمن قانت، ساجد عابد بسط الله في رزقه، وأنساً<sup>(١)</sup> في أجله، وفي ماله حق معلوم للسائل والمحروم، وأيامه عبادة لربه، وشكر لنعمائه، وعبادته حجة على الأغنياء والمُتَرَفِّين إليه من خَلْقِهِ؛ فكلُّهم ظاهرَ قوله، وصدق دعواه.

سمع إبليس قائلهم، ولم يكن محجوباً عنهم، أو بعيداً عن ساحتهم، فساء أن يكونَ رجل في الأرض يعبدُ الله كما يعبدُه أيوب، وهمته في الأرض إغواء للنصالح وإفساد للمؤمن، ووسوسة للطائع المُذْعِن. فَخَفَّ إليه يغويه أو يضلّه، فوجده امرأ يَمْرح في مطارف النعمة، ويجول في حقول الثراء، ولكنه لم يُبْطِرْهُ الغنى، ولم يغوهِ المال، فهو أبداً لاهجٌ بذكر ربه، بَرَّ بأهله، حَدَبَ عاطف على عبيده وخدمه، يُطعم الجائع، ويكسو العاري، ويفك العاني<sup>(٢)</sup>، ويبسط وجهه للعافي<sup>(٣)</sup>. ثم هو يرد الظالم، ويعلم الجاهل، وينشر العلم والمعرفة بين الناس.

فحاول أن يقترب من قلبه، أو يوسوس إليه وراء أذنه، وأن يُزَيِّنَ له الدنيا ومجاليتها، وأن يزهد في العبادة وما فيها، ولكنه وجد أذنأ صماء عن الخنا<sup>(٤)</sup>، وقلباً أغلف عن الهوى... وجده من عباد الله المخلصين، الذين ليس له عليهم سلطان. فكثرته ما رأى، وحزبه<sup>(٥)</sup> ما لقي من أيوب، ثم رجع إلى الله، ووقف منه الموقف الذي كان يقفه منه من قبل أن يطرده من رحمته، ويقصيه عن سُدَّتِهِ، وقال: يا رب، عبدك أيوب الذي يعبدك ويقدُّسُك، ويهتِفُ قلبه بذكرك، ويلهج لسانه بتسبيحك وما يعبدك تطوعاً عن نفسه، ولا نافلة من عنده، إنما يعبدك ثمناً لما منحتَه من مال وبنين، وما أسبغته عليه من ثروة وعقار، وطمعاً في أن تُبقي له ماله، وتحفظ له دنياه: ألوف من الغنم والإبل، ومئات من الأثن والبقر، وعدد من

(\*) ص: ٤١ - ٤٤، الأنبياء ٨٣ و٨٤، الأنعام ٨٤.

(١) أنساً: آخر.

(٢) العاني: الأسير.

(٤) الخنا: الفحشاء.

(٣) العافي: طالب العطاء.

(٥) حزب الأمر: شدد.

الفدادين<sup>(١)</sup> والعبيد، وبنون وبنات، وأرض عريضة، وحقول خصيبة. أليست هذه النعم جديرة بأن تُعِينه على شكرك، وأن تحمله على عبادتك، خشية أن يمسيها الزوال، أو يصيبها الفناء؟ فعبادته مشوبة بالرغبة والرغبة، مُشْرِبة بالخوف والطمع. انزع منه هذه النعمة، وجرّده من هذا الثراء، فإنك تراه وقد خرس لسانه عن ذكرك، وأعرض قلبه عن طاعتك.

قال الله تعالى: إن أيوب عبد مؤمن خالص الإيمان، لا يعبدني إلا لما يراه من حق العبادة ولا يذكرني إلا لما يعرفه من حق الذكر، ذكر وعبادة مجردان عن حب الدنيا، بريثان من المطامع والأغراض.

ولكن، ليكون أيوب قَبَساً وهاجاً في الإيمان، ومثلاً عالياً في الصبر واليقين، قد أبحاثك ماله وعقاره، اجمع لهما جنودك وأعوانك، وشيعتك وحزبك، وافعلوا بهما ما تريدون، ثم انظروا ما تنتهون.

فنكص إبليس على أعقابهِ، وراح يجمع الشياطين من شيعته وأوليائه، وأرعى إليهم أن الله رخص له في مال أيوب، يذهب به ويُفنيه، وأنه يطمع في أوليائه أن يصنع كلَّ مِهم في الإهلاك نصيبه، ليعود أيوب مجرداً من ماله، ثم يرجع بعد ذلك سلباً من إيمانه.

فانطلقت الشياطين، وفعلت أفاعيلها، حتى أتت على الغنم والإبل، والأثن والعبيد، والناطق والصامت، والأخضر واليابس، وأصبح بعدها أيوب فارغ اليدين، صفر الراحيتين.

أما إبليس فتمثل لأيوب رجلاً هماً<sup>(٢)</sup> حكيماً مجرباً. وقال له: إن النار قد أتت على ثروتك من قواعدها، وقد هلك الزرع والضرع، وذهب المال والنسب، ووقف الناس أمام هذا واجمين مبهوتين، من قائل يقول: إن أيوب ما كان إلا في غرور من عبادته، وضلال من زكاته وصلاته. وآخر يقول: لو أن الله استطاع دفع شر وجلب خير لكان أيوب أولى بذلك وأجدر. ومن آخر يقول: إن الله لم يفعل ما أراد إلا ليثمت به عدوه، أو يفجع فيه صديقه.

وظن إبليس بما ألقاه من خبر فاجع، ونبأ مروّع، أنه سيزحزح من إيمانه، أو يُفسد من جنانه. ولكن أيوب كان أقوى إيماناً وأشدّ إذعاناً، وأعمر بالتقوى قلباً، وأحكم ما يكون رأياً ولُبّاً. قال: عارية الله استردها، ودیعة كانت عندنا فأخذها،

(١) الفدادين: جمع فدان، والفدان: الثور أو الثوران يقرنان للحرث بينهما.

(٢) المهم: الشيخ الفاني.

نَعْمَنَا بِهَا دَهْرًا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَسَلَبْنَا إِيَّاهَا الْيَوْمَ فَلَهُ الْحَمْدُ مُعْطِيًا وَسَلَابًا، رَاضِيًا وَسَاخِطًا، نَافِعًا وَضَارًّا، هُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، ثُمَّ خَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا وَتَرَكَ إِبْلِيسَ خَزِيانًا يَنْظُرُ!

ولكن إبليس رجع إلى الله يحاول أن يحوك للشّر ثوباً جديداً، وَيَنْسِجُ لِلإِغْوَاءِ رِداءً قَشِيباً<sup>(١)</sup>. وقال: يا رب، إن أيوب وإن كان لم يقابل النعمة إلا بالحمد، والمصيبة إلا بالصبر، فليس ذلك إلا اعتداداً بمن يعتز بهم من أولاد، وإنه يطمع أن يشتد بهم ظهره، وَيَسْتَدَّ عَضُدَهُ، فَيُرَدُّ إِلَيْهِ مَا ذَهَبَ مِنْ مَالِهِ؛ وَيَرْجِعُ مَا فَقَدَ مِنْ ثَرَوَتِهِ وَعَقَارِهِ. وَإِنْ سَلَّطْتَنِي عَلَى أَوْلَادِهِ أَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَكْرَهُ فَأَنَا مَوْقِنٌ أَنَّ أَيُوبَ سَيَصِيرُ أَشَدَّ مَا يَكُونُ كَفْرًا وَجَحُودًا، وَأَعْظَمُ مَا أَرْجُو مِنْهُ جَهْلًا وَعِنَادًا؛ فَلَا أَشَدَّ مِنْ فَتْنَةِ الْوَلَدِ، وَلَا أَحْفَظُ لِلنَّفْسِ مِنَ الْفَجِيئَةِ فِيهِمْ.

فأجاب الله قائلاً: لَقَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى وَلَدِهِ، وَلَكِنَّكَ سَوْفَ لَا تَنْقُصُ ذَرَّةً مِنْ إِيْمَانِهِ، أَوْ تَذْهَبَ بِقَطْرَةٍ مِنْ صَبْرِهِ وَعِزْمِهِ.

انصرف إبليس، ودعا إليه شيعته وحزبه، وذهبوا إلى حيث يقيم ولد أيوب في قصر مشيد، بين نعمة ضافية، وبُلْهِيئَةٍ مِنَ الْعَيْشِ سَابِغَةٍ؛ فَزَلْزَلَ قَصْرَهُمْ، حَتَّى تَصَدَّعَ بِنْيَانُهُ، وَوَقَعَتْ حَيْطَانُهُ، وَأَصِيبُوا جَمِيعُهُمْ، وَفُتُوا عَنْ آخِرِهِمْ.

ولما بلغ إبليس ما أراد، ذهب إلى أيوب متمثلاً في رجل ينعاهم، وقال له: لَوْ رَأَيْتَ أَوْلَادَكَ الْيَوْمَ قَتَلَى مُضْرَجِينَ: هَذَا مَجْرُوحٌ، وَذَلِكَ مُشْدُوخٌ، لَعَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْفِئْكَ بَعَادَتَهُ، وَلَمْ يَزَعْكَ حَقَّ رِعَايَتِكَ.

فاستعبر أيوب وبكى؛ وَلَكِنَّهُ قَالَ: اللَّهُ أَعْطَى، وَاللَّهُ أَخَذَ، فَلَهُ الْحَمْدُ مُعْطِيًا وَسَلَابًا، سَاخِطًا وَرَاضِيًا، نَافِعًا وَضَارًّا؛ ثُمَّ خَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا، وَتَرَكَ إِبْلِيسَ يَكَادُ يَتَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ، وَيَتَمَرَّعُ مِنَ الْحَقِّ.

ثم رجع إبليس إلى الله يقول: يا رب؛ لَقَدْ ذَهَبَ الْمَالُ عَنْ أَيُوبَ، وَفَنِيَ الْوَلَدُ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي عَافِيَةٍ مِنْ بَدَنِهِ، وَصِحَّةٍ مِنْ جَسْمِهِ؛ وَإِنَّهُ لَيَعْبُدُكَ، أَمَلًا فِي أَنْ يَعُودَ الْمَالُ وَيُرَدَّ الْوَلَدُ، وَلَكِنْ سَلَّطْتَنِي عَلَى جَسْمِهِ؛ وَرَخَّصْتَ لِي فِي أَنْ أَنَالَ مِنْ عَافِيَتِهِ، وَأَنَا زَعِيمٌ أَنَّهُ لَوْ مَشَهُ الدَّاءُ، وَأَنْهَكَهُ السَّقَمُ، وَأَدْنَفَهُ<sup>(٢)</sup> الْمَرَضُ أَنْ يُهْمَلَ عِبَادَتِكَ وَيَخْلَعَ ثُوبَ طَاعَتِكَ، وَيُشْغَلَ بِأَسْقَامِهِ عَنْ ذِكْرِكَ.

(١) القشب: الجديد.

(٢) دَنَفَ الْمَرِيضُ: اشْتَدَّ مَرَضُهُ وَأَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ.

فأراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً، صابراً شاكراً، تكون قصته عبرة للمصابين، وعزاء للمكروبين، وسلوى للمرضى والمحرومين، وليكون أيوب على الدهر المعلم الأول للصبر، والمثل العالي في الإيمان، ويرفع في الدنيا ذكره، ويعلي في الآخرة مقامه. فقال إبليس: لقد سلطتُك على جسده، ولكن حذار أن تقترب من رُوحه ولسانه، وعقله وجنانه، فإن فيها سرّاً إيمانه، ومظهر دينه وعرفانه.

فذهب إبليس في كيد، ونفخ في أيوب، فاستحال سقيماً مريضاً مُدنفاً عليلًا ولكنه ما ازداد إلا إيماناً، وما أذرع إلا صبراً وحزماً، وكلما ألح عليه الداء وتخونه<sup>(١)</sup> السقم ازداد شكره وإذعانه؛ وتقوى إيمانه وبقينه.

ومرت الأيام وتحدرت الأعوام، وأيوب لا يزال على شكاته، حتى هزل جسمه، وذهب لخمه، وأصبح منقوفاً<sup>(٢)</sup> الوجه، شاحب اللون، لا يقَرُّ على فراشه من الألم. ففرَّ عنه الصديق، وجانبه الرفيق، ورغبت عنه شيعته ومن حوله، إلا زوجه الرؤوم العطوف، فإنها تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان، وغنيت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ورقت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شكّت إلا هموماً تساورها من آلامه، ومخاوف تحذرُها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

أما إبليس فقد أعياه أمر أيوب، وشق عليه ما رآه من إيمانه وبقينه. وأهمه ما صادف من الإخفاق، فجمع أعوانه مرة أخرى، وشكا إليهم ما امتنع من أيوب، وما يستلثم به من إيمان وصبر، بعد أن سلط على ماله وولده، فلم يزد إلا إيماناً وشكراً، وبعد أن سلط على جسده فما فتر لسانه عن ذكر الله، وما تزعر قلبه عن الإيمان بالله.

فقالوا له: أين مكرك وحيلتك، وتلطفك في الوسوسة، وحسن تأنيك في الإغواء، بطل كل ذلك في أيوب؟!!

فقال أحدهم: لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة، فمن أتيته؟ قال: أتيته من قبل امرأته، فقال: فشأنك في أيوب من امرأته، قال: أصبتم الرأي، ولم تجاوزوا الحق. وانطلق إلى امرأته، وهي في بعض شأنها مع أيوب، وتمثل لها رجلاً، وقال: أين زوجك؟ قالت: هو هذا، عميداً<sup>(٣)</sup> وقيداً يتصور من الحمى، ويتقلب مما ألح عليه من الداء، لا هو ميت فينعي، ولا هو حي فيرجى.

(١) تخونه السقم: أصابه.

(٢) منقوف الوجه: ضامره.

(٣) عميداً: ضعيفاً. وقيداً: مشرفاً على الموت.

فلما سمع قولها طمع في إغوائها، فأخذ يذكرها بما كان لزوجها من صدر شبابه، وعَضاضة إهابه من صحة وعافية، ونعمة ضافية، فأعادت لها الذكرى الأشجان، وأثارت لديها كوامن الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر، وينساب إلى قلبها اليأس.

وذهبت إلى أيوب، وقالت: حتى متى يعذبك ربك؟ أين المال؟ أين العيال؟ أين الصديق؟ أين الرفيق؟ أين شبابك الذاهب؟ أين عزك القديم؟ قال: لقد سؤل لك الشيطانُ أمراً! أترك تبكين على عزّ فات، وولد مات؟ فقالت: هلا دعوت الله أن يكشف حزنك، ويزيح بلواك؟ قال: كم مكثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين. قال: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين.

قال: أستحي أن أطلب من الله رفع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي! ولكن يخيل لي أنه بدأ يضعف إيمانك، ويضيق بقضاء الله قلبك، ولئن برئت وأتنتي القوة لأضربنك مائة سوط، وحرام بعد اليوم أن آكل من يديك طعاماً أو شرباً، أو أكلفك أمراً أو عناء، فاعزبي عني حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولما رأى أيوب أنه قد أصبح وحيداً فريداً، وقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه، فرع إلى الله، لا مُتسخطاً ولا متبرماً، بل داعياً متحنناً. وقال: يا رب، ﴿أَيُّ مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وإلى هذه الساعة كان أيوب قد بلغ غاية الإيمان. وصمد لوسوسة الشيطان، وأذرع بصبر عجيب، واحتمل همّاً تنوء به الجبال، وبلغ ما أراد الله له: من أن يكون مثلاً عالياً للصبر، ورسولاً من رسل الإيمان، فاستجاب الله دعاءه، وأصاخ لشكواه، وأوحى إليه أن اركض برجلك ينفجر لك نبع الماء، فاشرب منه واغتسل به، تعذ إليك صحتك، وترد إليك قوتك، فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحه وبرئت جروحته، وصح جسمه، وصلح بدنه، ونَسَل<sup>(١)</sup> عنه المرض، وعاد أكمل ما يرى صحة وعافية.

وكانت زوجه قد رقى قلبها له، وحدثت عليه، ولم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وشأنه. وقد لزمته من أول مرضه، وكانت من قبل قد شاركته في نعمائه، فرجعت إليه تعاوده لإصلاح شأنه، والقيام بأمره، فرأت عجباً: رأت شاباً مكتمل الشباب، غضّ الإهاب، مكتمز اللحم، وافر المنّة والقوة، فأنكرته بادي الرأي، ولكنها ما عرفته حتى عانقته، وحمدت الله على ما رَدَّ إليه من صحة وعافية، وهو أوفى ما يكون إيماناً و يقيناً.

(١) نسل عنه المرض: ذهب عنه.

ثم أوحى الله إليه أن خُذْ حُزْمَةً مِنَ الْقَشِّ واضرب بها زوجك ضرباً خفيفاً رقيقاً، رُخْصَةً لَكَ فِي يَمِينِكَ، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التي احتملتك في مرضك وشاركتك في آلامك. وجازاه الله على صبره، فردّ عليه ماله، ورزقه ولداً أضعاف ولده، إذ كان مثالَ العبد المؤمن الأواب<sup>(١)</sup>.

(١) أواب: مقبل بنفسه على الله تعالى.

## يونس (\*)

في نينوى، وتحت ضلال الأصنام، وبين حنادس<sup>(١)</sup> الجهل والشرك، أشعل يونسُ قَبَسَ الإيمان، وحَمَلَ عَلم التوحيد، وأهَابَ بقومِهِ الجاهلين، أن اربأوا بعقولكم عن عبادة الأصنام، وكرُموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان، وتبصروا في أنفسكم، وأنعمُوا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم، تجدوا أن وراء هذا الكون البديع إلهاً كبيراً، فزداً صَمَداً، جديراً بأن يختص بالعبادة، ويُقصد وحده بالتقديس، أرسلني هدايةً لكم، ورحمة بكم، لأدلكم عليه، وأرشدكم إليه إذ كان الجهل قد رَانَ على قلوبكم فلم تبصروه، وَغشي على بصائرکم فلم تتدبَّر.

فدهش القوم أن سمعوا قولاً لم يألّفوه، وحديثاً عن إله لم يعرفوه، وكبر عليهم أن يروا واحداً كان منهم فخرج عليهم، ورجلاً من عامتهم ينصب نفسه رسولاً إليهم، وهادياً لهم.

قالوا: ما هذا القول الذي تهذّر به، والبهتان الذي تدعو إليه؟ هذه آلهة عبدها آباؤنا من قبل، ونعبدها نحن اليوم، وما الذي حدث في الكون أو ظهر من الأحداث، حتى نترك هذا الدين الذي نعتقه، ونستريح إلى دينٍ أبدعته واخترَعته، وجئت تدعو إليه، وتجاهد فيه.

قال: يا قوم، ارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد، ومزقوا عن عقولكم نسيج الأوهام، وفكروا شيئاً، وتدبروا قليلاً. أهذه الأوثان التي تتوجهون إليها في صباحكم ومسائلكم، وتعتمدون عليها في قضاء حاجاتكم أو دفع الشر عنكم، تجلبُ لكم نفعاً، أو تستطيع أن تدفع عنكم شراً؟ أهي قادرة على أن تخلق شيئاً، أو تُحيي ميتاً، أو تشفي مريضاً أو ترد ضالاً؟ أهي تستطيع دفع الشر عنها لو أردته بها، أو تقيم نفسها لو حطمتها وهشمتها؟

ثم ما لكم تُعرضون عن هذا الدين الذي أدعوكم إليه، وهو يأمركم بما فيه صلاحُ أموركم، واستقامة أحوالكم، وتقويمُ جماعتكم؟ إنه يأمر بالمعروف وينهى

(\*) الصفات ١٣٩ - ١٥٨، الأنبياء ٧٨ و٨٨، الأنعام ٨٦ و٨٧، يونس ٩٨.

(١) الحنادس: الليل الشديد الظلمة، جمعها: حنادس.

عن المنكر، ويُبغضكم في الظلم، ويحبب إليكم العدل والسلام، وينشر فيما بينكم الأمان والأطمئنان. ثم هو يحثكم على العطف على المسكين والحدب<sup>(١)</sup> على الفقير، وإطعام الجائع، وفك العاني: مما فيه صلاح الحال، واستقامة الأعمال. فما ظفر منهم إلا بجواب الجاهلين، وما جادلوه إلا بسفسطة<sup>(٢)</sup> المتعنتين. قالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وواحد منا، ولا سبيل إلى نفوسنا أن نسير في هديك، أو تدعنا لدعوتك، فكفكف عن غزبك، وأقصر من قولك، ودون ما ترجو غاباث بعيدة، وحُجز قائمة.

قال: لقد دعوتكم بالهودة واللين، وجادلتكم بالتي هي أحسن، فإذا كانت دعوتي تصل إلى قرارة نفوسكم، كان الخير الذي أرجوه، والإيمان الذي أبتغيه، وإلا فإني أنذركم عذاباً واقعاً، وبلاء نازلاً، وهلاكاً قريباً، ترون طلائعه، وتتقدم إليكم دلائله.

قالوا: يا يونس، ما نحن بمستجيبيين لدعوتك، ولا خائفين من وعيدك، ﴿فَأَنبَأْنَا مِمَّا بَعَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ولم يُطق يونس صبراً، بل ضاق بهم ذرعاً، وقطع الرجاء فيهم قبل مطاوتهم، ومد الحبل لهم، فرحل عنهم مغاضباً لهم، يائساً من إيمانهم، نافضاً الكف منهم. أما دعاهم فلم يؤمنوا، وبصرهم فلم يتدبروا، وجادلهم فلم يستمعوا! وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان.

ولعله لو كان قد أطل مدته، واستمر في نشر دعوته، لوجد فيهم من يؤمن ويستجيب، ولوجد فيهم من يستغفر ويُنيب، ولكنه رحل ليلقى من الله قضاء ويتلقى جزاء...

ولم يكذب يونس قليلاً عن نينوى، حتى وافق أهلها نُذر العذاب، واقتربت منهم طلائع الهلاك: اغبرَّ الجوُّ حولهم، ثم تغيرت ألوانهم، وتشبَّات<sup>(٣)</sup> وجوههم. فداخلهم القلق، وساورهم الخوف، وعلموا أن دعوة يونس حق، وإنذاره صدق، وأن العذاب لا بدُّ بهم واقع، وأنه سيصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح.

ولكنه وقع في نفوسهم أن يلجأوا إلى إله يونس فيؤمنوا، ويتوبوا إليه

(١) الحدب: العطف.

(٢) السفسطة: المعاندة الشبيهة بالحكمة.

(٣) تشبَّات: تشوهت.



ويستغفروا، فخرجوا إلى شعاف<sup>(١)</sup> الجبال، ويطون الصحراء، شاكين متضرعين باكين متوسلين، وفرّقوا بين الأمهات وأطفالها، والإبل وفُصْلانها، والبقر وأولادها، والغنم وحملاتها، ثم أعول الجميع، فصاحت الأمهات، ورغّت<sup>(٢)</sup> الإبل، وخارت البقر، وثغت<sup>(٣)</sup> الغنم، وكانت ساعة بسط الله عليهم بعدها جناح رحمته، ورفع عنهم سحائب نِقْمَتِهِ، وتقبّل منهم التوبة والإنابة<sup>(٤)</sup>، إذ كانوا مخلصين في توبتهم، صادقين في إيمانهم، وردّ عنهم العقاب، وحبس العذاب، ورجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين، ووذوا لو يعود إليهم يونس، ليعيش بينهم رسولاً ونبياً، ومعلماً وإماماً.

ولكنه - وقد فارقهم، وترك ديارهم - أخذ يضرب في الأرض ويغذ<sup>(٥)</sup> في السير، حتى انتهى إلى البحر. وهناك وجد جماعة يغيرون، فسألهم أن يصحبوه معهم، ويحملوه في سفينتهم، فقبلوه على ارتياح، وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً، ومقاماً عزيزاً، إذ كان يظهر في وجهه الكرم والسماح، وتحدث غرته<sup>(٦)</sup> عن تقوى وصلاح. ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطئ، وجاوزوا البر، حتى هاجت الأمواج، واصطلحت على السفينة الأعاصير، وتوقع الراكبون سوء المصير. فراغت الأبصار، وانخلعت القوائم، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا. فاشتوروا ما يصنعون، ثم اتفقوا على الاقتراع، فساهم<sup>(٧)</sup> الجميع، ووقع السهم على يونس. ولكنهم ضنوا به على البحر، تكريماً لشأنه وعزفاناً بمكانه. فعادوا للمساهمة، وعاد السهم على يونس، فضنوا به أيضاً وعادوا للمساهمة، فعاد السهم عليه!

فعلم يونس أن من وراء ذلك سيراً، وأن لله في ذلك تدبيراً، وأدرك خطيئته وما كان من تركه لقومه قبل أن يؤذّن له في الهجرة، أو يستخير الله في الرحيل. فألقى بنفسه في اليم، وأسلم نفسه للأمواج، يتقلب بين طيَّاتها، ويتخبط في ظلماتها.

وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه، وأن يطويه في بطنه، ويهوي إلى الأعماق في ظلمات متضاعفة، وحناس<sup>(٨)</sup> متعاقبة. فضاقت صدره<sup>(٩)</sup>، واعتلج همّه، وفرغ إلى الله غياث الملهوف، وملجأ المكروب، وواسع الرحمة، وقابل التوبة وغافر

(١) شعاف: جمع شعفة، وهي رأس الجبل.

(٢) الرغاء: صوت الإبل.

(٣) الثغاء: صوت الغنم.

(٤) الإنابة: العودة إلى الحق.

(٥) يغذ في السير: يسرع.

(٦) غرته: علامته الظاهرة.

(٧) ساهموا: اقترعوا.

(٨) الحناس: جمع حندس، وهي الظلمة.

(٩) ضاقت صدره: أصابه هم شديد.

الذنب، ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾  
[الأنبياء: ٨٧].

فاستجاب الله الدعاء، وأوحى إلى الحوت في الماء، أن ألقِ بضيفك في  
الغراء فقد أوفى على الغاية، ونال ما قُدِّرَ له من جزاء. فألقاه الحوت على الشاطئ  
سقيماً هزيراً، مُدْنَفِياً عَلِيلاً<sup>(١)</sup> وتلقته رحمة الله فأثبتت عليه شجرة من يقطين<sup>(٢)</sup>،  
طعم بثمرها، واستظل بورقها، ودبَّت إليه العافية، وظهرت فيه تباشير الحياة.

ولما استوى على سوقه، ورجع إلى سابق عهده، أوحى الله إليه: أن ارجع  
إلى بلدك، وموطن أصرتك وعشيرتك، فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان، ونبذوا الأصنام  
والأوثان، وإنهم الآن يتحسسون مكانك، ويترقبون مجيئك.

وعاد يونس إلى قريته، وما راعه إلا أنه خلفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف  
على الأصنام، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن<sup>(٣)</sup>.

(١) مدنفأ: مريضاً.

(٢) اليقطين: نبات لا ساق له.

(٣) النبي نبي حتى يموت وإذا أراد ترك هذا الشرف لا يُسمح له بذلك وكذلك الإيمان شرف  
للإنسان المؤمن إذا ارتد عنه فإنه يُقتل.

## زكريا ويحيى (\*)

تقدمت بزكريا السنون، وهو الآن مُشتهب<sup>(١)</sup> الرأس، واهن العظم، معوج القناة، لا يستطيع من المشي إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل يتعهد شؤونه ويُلقى مواعيظه، ثم يتنسك ويتأله<sup>(٢)</sup>، ويعود في أعقاب يومه يقضي ظلام الليل، في بيت يحوي زوجته وهي عجوز مثله، قد اشتعل الرأس منها شيباً، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعة من نهار، فإن أصاب بعض مال مسح دمهة البائس، وقضى حاجة السائل، ثم رجع إلى داره فارغاً إلا من فضل الله، صامتاً إلا عن ذكر الله.

ولكنه حتى هذه السنة التي أشرف فيها على التسعين، لم يُرزق طفلاً، ولم يُثمر ولداً، يتخذه سبباً بالحياة، ويصل ما بينه وبين الوجود. فكان يدخل البيت حزيناً، كاسف البال، قليل الرجاء... ثم هو عما قريب يطوي صحيفة أيامه، ويمضي إلى جِمامه<sup>(٣)</sup>، فمن الذي يقوم على وراثه حكمته، والاضطلاع بأمانته؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار، لا بد لهم من وازع، وسوائم مطلقة يُعوزهم الراعي الرادع، ولو خُلوا ونفوسهم فإنهم يَمْحُون الشريعة، وينشرون الفساد، ويُغيرون معالم الكتاب.

ظلت هذه الخواطر تجزُّ في نفسه، وتضطرب بين لفائف صدره، ولكنه كان صابراً متحملاً متجماً، إلا من زفرات كان يلفظها كلما جَنَّ عليه الليل، وأثبات كان يُصعدّها كلما احتواه الظلام.

ذلك قضاء الله فمن أجدر بالنبي من أن يتلقاه بالارتياح؟ وتلك حكمته، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان؟ فلعل من وراء ذلك حكمة لا يعلمها، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها. والحمد لله على ما أنعم، ومنا الصبر على ما أراد.

(\*) مريم: ٢ - ١٥.

(١) الشبهة في الألوان: البياض الغالب على السواد.

(٢) يتأله: يتعبّد.

(٣) الجِمام: الموت.

ويذهب زكريا إلى الهيكل يوماً كعادته، ويصلي ويتنسك، ويعبد ويتهجد، ثم يدخل على مريم في محرابها، فإذا هي غارقة في تفكيرها، ذاهبة في صلاتها؛ ثم يرى أمامها شيئاً يذهله، ويشي سؤاله: هذه فاكهة أمامها، عجباً تلك فاكهة الصيف ولكنها في الشتاء؛ ثم من أين دخلت إليها، إنها من يوم أن تنازع مع القرءاء في شأنها، وفاز سهمه بكفالتها، لا زالت حبيسةً في محرابها، محجوبة عن أترابها؛ حتى أن أمها من يوم أن أودعتها الهيكل وفاء بنذرهما، وتقرباً إلى ربها، لم تسع يوماً إلى لقائها، فمن أين لها هذا الرزق العجيب؟ وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب؟

ليسألنها ويستكن أمرها؛ فقال: يا مريم أتى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله؛ يصبح الصباح فأرى رزقي حاضراً، ويمسي المساء فأرى رزقي حاضراً على أنني ما سعيت لهذا الرزق، ولا سألت الله ذلك الخير، ولكنه يأتيني عفواً وأجده أمامي سهلاً. وما لك تدهش وتعجب، وما لك تؤخذ وتشده؟ أليس ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

عند ذلك أدركت زكريا حالً جديدة، ودخل في تأمل عميق؛ فقد أثارت في نفسه هذه الفتاة الكريمة، وتلك الربانية<sup>(١)</sup> المقربة الحنين إلى الولد، والرغبة في البنين! حقاً إنه قد وهن منه العظم، ورق الجلد، وبلغ به الكبر، ولم يعد فيه للولد مطمح، وامراته العجوز العاقر ليس في نفسها للنسل رجاء، ولكن أليس الله - الذي اختص مريم بالكرامة، وحبها بالنعمة، ورزقها الفاكهة الغربية، تأتيها كل يوم في غير أوانها - بقادر على أن يرزقه ولدًا، وإن كانت امرأته عاقراً، وإن كان قد أصبح شيخاً فانياً؟ ليدع الله، فما هو بيأس من استجابة دعواه!

ويسط زكريا يديه متوسلاً، وهمس بصوته داعياً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. وزكريا كان أكرم على الله من أن يردّ دعوته، وأعز عليه من أن يخيب رجاءه، فإنه ما مكث طويلاً حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: ﴿يَرْزُقْنَا إِنَّا نُنشِرُكَ يُعَلِّمُ اسْمَهُ بَحْيٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وسمع زكريا النداء، فشده وعجب. وحاشاه أن يكون غافلاً عن قدرة الله، أو يئساً من استجابة دعواه. ولكن أدركه ما يدرك المؤمل وجد رجاءه، والسائل العافي وجد حاجته. ثم عاد فسأل الله: كيف يرزقه طفلاً، وقد أصبح شيخاً فانياً، وامراته أصبحت عجوزاً عاقراً، كما سأل إبراهيم ربه من قبله: كيف يحيي الله الموتى؟ وكيف يبعث الناس يوم النشور؟ وما كانا بسؤالهما جاحدين، ولكن ليزداد قلبهما اطمئناناً.

(١) الربانية: المتألهة العارفة بالله.

وقالت الملائكة: أليس الله - الذي خلقك من قبل ولم تك شيئاً - بقادر على أن يرزقك الولد، وإن كنت في أعقاب<sup>(١)</sup> أيامك، وأطراف حياتك؟  
سأل زكريا ربه أن يجعل له علامة تتقدم هذه العناية، وتدلل على وقوعها؛ فأجابته الله: إن آيتك أن تَعَجِزَ عن خطاب الناس بحضرة يعترى لسائلك ثلاثة أيام، وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزاً.

ورزقه الله على الكبر يحيى، غلاماً زكياً، فأحكم الله عقله، واستنبأه<sup>(٢)</sup> صيباً. ثم عَشَقَ العبادَةَ حتى أصبح منهوِك الجسم، نحيل الظل، مُتَضَمِّرُ<sup>(٣)</sup> الوجه، معروق العظام<sup>(٤)</sup>، واشتهر بالعلم، حتى أحصى مسائل التوراة واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها، وأضحى فينصل أحكامها، وقاضي معقولها؛ وعُرف بين الناس أنه جريء في الحق، شديد على الباطل، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا صولة عاتٍ ظالم.

نقلوا إليه يوماً أن هيرودوس حاكم فلسطين، قد هوي هيروديا بنت أخيه إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل فتانة المحاسن، جميلة التكوين، وأنه قد عَزَمَ على زواجها، والدخول بها؛ وظاهرته على ذلك أمها، وذوو قرباها، فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لا تقره شريعة، وتأباه رُوح الكتاب، وقال: إني لا أعترف به وأجهر باستنكاره.

وشاع رأيه في المدينة، وفي القصور، وفي الخدور، وفي أماكن اللهو، وفي مواطن العبادة. وبلغ هيروديا ما جهر به يحيى، وما اشتهر به بين الناس؛ فسخطت عليه في نفسها، وأضمرت الحسيكة<sup>(٥)</sup>، وأبطنت الغل. ثم استحال غيظها إلى حزن وكمد، وهم وأسى، وخافت أن تذهب هذه المقالة برجائها المعسول، وربما صرفت عمها عن الزواج، ولكنها عزمَت على أن تستعين بحسنها وجمالها، فلعل جمالها يُبيلها غرضها، ويحقق غايتها. فتجملت ما استطاعت أن تتجمل، وعنيت بزينتها ما قدر لها أن تعنى، ودخلت على عمها قسيمةً وسيمةً، حسنة الشارة، جميلة الهيئة. فاقتنص بحبائل فنتتها، واختلب بعذوبة منطقتها، ثم سألها أي أمنية تمنين؟ قولي فأنا زهن لإشارتك، قيد بكلمتك!

(١) أعقاب: أواخر.

(٢) استنبأه: جعله نبياً.

(٣) يُقال: تضمر وجهه، إذا انضمت جلده هزالاً.

(٤) من قولهم: عرق العظم: إذا أكل ما عليه من اللحم.

(٥) الحسيكة: العداوة.

قالت: إن رضي الملك فلست أبغي إلا رأس يحيى بن زكريا، ذلك الذي سَمِعَ بالملك وبني في كل مكان، وغمزه في كل نادٍ، إن رضي الملك بذلك فإنني قريرة العين، هادئة البال، منقوعة الغليل.

فأجاب هيرودوس لداعي الهوى، وأصاخ لكلمة الجمال، وأصمَّ عن نداء الضمير والوجدان. وما هي ساعات حتى كان رأس يحيى بين يديها، فشفقت عليها، وأطفأت وقْدَةَ غيظها، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بني إسرائيل.

## (\*) مريم

لم تُرزق أمها بولد، لأنها كانت عاقراً، وطالما تمنته، نفسها بمرآه، وتقرّ عيناً بطلعته؛ وكلما رأت طائراً يُطعم فزخه، أو سيدة تحمل طفلها، اشتدت رغبتها فيه، وأحست زيادة الميل إليه. ولقد عانت في ذلك مثل ما تُعاني المرأة حينما تجد نفسها قد حرمت الطفل الذي هو سلوتها في وحشتها، وسميرها في وحدتها، والذي تُبسم به حياتها، وتهون به مصاعبها وأوصابها<sup>(١)</sup>.

وأقضى ذلك مضجعتها، ووذت لو بذلت أعلى ما تملك، ثم تنظر فترى ولدها يزئو إليها بنظره، ويُقبل عليها بوجهه، فتفرغ عليه خانها، وتغمره بعطفها، وتبذل له من نفسها ما يريح جسمه، وينمي جسده، ويسمو بروحه، حتى يشب فيصير ملء سمع الأرض وبصرها.

وقد تكون أمضت الأيام، بل السنين، ترقب تحقق هذا الرجاء وتنتظر نوال هذه الأمنية؛ وقاست فيها المتاعب: وذاقت مرارة اليأس، وقد تكون أيضاً غبّطت<sup>(٢)</sup> الشجرة المثمرة، والمرأة الولود.

وأنا أراها في ذلك قد لبث نداء جبلتها، وطاوعت غريزتها؛ فأحلى أماني المرأة أن تجد ولدها بجانبها، وترى طفلها بمرأى منها؛ حتى لقد نرى ذلك في البنات الصغيرات، فهنّ يدلّفن العرائس، ويُناغين الدُمي.

التجأت إلى ربّ السموات والأرض، وتوسلت إليه في خضوع وخشوع، ونذرت له إن أنالها أمنيتها، وحقّق رجاءها، ورزقها ولداً، تتصدق به على بيت المقدس فيكون له خادماً وسادناً<sup>(٣)</sup> فيه. وأخذت العهد على نفسها ألا

(\*) آل عمران ٣٣ - ٤٧، النساء ١٥٦، مريم ١٦ - ٢٤، الأنبياء ٩١، التحريم ١٢.

مريم بنت عمران من سلالة داود: قال ص: خير النساء أربع: مريم بنت عمران وأسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

(١) الأوصاب: الأمراض.

(٢) غبّطت: بمعنى حسدت. إلا أن الحسد مذموم. والغبط محمود. وهو أن تتمنى نعمة دون أن تمنى حرمان الناس منها.

(٣) السادان: خادم بيت الأصنام.

تستخدمه في شيء بأمر، بل هو لخدمة البيت محرراً، ولسدائته مُخلصاً. ليس ذلك دليلاً على أنها لا تبغي الخلف إلا لإشباع رغبتها واستقرار نفسها؟ فهي لا تريده ليكون عائلاً لها، أو عُضداً تشدّ به أزرها، بل ترجوه وتأمله. حتى إذا تحقق الرجاء، واستجيب الدعاء، وهبته لله وحرّرت له لخدمة بيته؛ ويكفيها أنها ولدت ليطمئن قلبها، ويشيع السرور في فؤادها.

أجاب الله دعاءها، وآتاها سُؤلها، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها، فاحضر عودها، وأشرقت الدنيا في عينيها، وفارقها عبوسها وافتّر ثغرها، وأصبحت مرحلة مُقبلة على الحياة بصدر منشرح، تجلس إلى زوجها، تحدّثه عما يجول بنفسها، وما تقدّره لولدها: وهو يستمع إليها مبتهجاً، ويصغي إلى شهى حديثها مغتبطاً. وعمرتّها نشوة من السرور، أنستهما ما قاسيا في الحياة من ألم ومسحت ما فاضت به عيونهما من شؤن<sup>(١)</sup>.

وبينما هي سابحة في أحلامها وآمالها، تُعدُّ للمولود عدته، وترجو الحياة من أجله، قلب لها الدهر ظهّر المِجنّ، فبدّلها بسرورها حزناً، وغير فرحها ترحاً، إذ مات زوجها عمران. فاشتدّ حزنها عليه، وفاضت دموعها غزيرة لفقده، وقد كانت تمنى لو أبقاه حتى ينعم برؤية قلدة كبده، ويتملى بقرّة عينه ويقطف جناة بذره؟ ولكن قضاء الله حُمّ<sup>(٢)</sup>، ولا راد لقضائه.

صارت وحيدة مهیضة الجناح عابسة الوجه، وكلما تقدمت بها الأيام اختلط حزنها بأملها، وأحست آلامها تكثر، ورأت صرح آمالها ينهار. ولكن رجاء في الله عمّر به قلبها، وشعاعاً من الأمل فيما تحمل بين جنبيها، كانا يخفّقان ما بها من لوعة وأسى، ويسريان عنها ما كانت تجد من حزن ووخشة.

هُيُّ لها مثل ما يهياً للنساء عند الوضع، ووضعت، وإذا المولود أنثى. ولما عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها، وعكس تقديرها، وتحزنت<sup>(٣)</sup> إلى ربها، إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تهبّه لبيت المقدس، وتقفه على خدمته، تقرباً إلى الله، وشكراً على نعمته.

ولكن المولود أنثى، والبغات لا يصلحن لذلك. فغشيتها<sup>(٤)</sup> سحابة من

(١) الشؤن: الدموع.

(٢) حُمّ: محمّم.

(٣) يُقال فلان يقرأ بالتحزين: إذا أرق صوته.

(٤) غشيتها: أصابتها.



الحزن، وغمرتها موجة من اليأس، وسَمَتها مريم<sup>(١)</sup>، وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته، وأن يكلاها برعايته وأن يجعل فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يُعيدها<sup>(٢)</sup> وذريتها من الشيطان الرجيم.

ألا ترى الآن قلباً محطماً، ونفساً سَحَقها الحزن، وامرأة توالى عليها المحن حتى لتكاد تضيق بها، عاشت جُل أيامها، وزهرة حياتها كثيبة كاسفة البال، لأنها لم ترزق الولد، فلما انفرج كربها، وانقشعت غمّتها، وسمع الله دعاءها، واستشعرت الجنين في أحشائها عَدًا عليها الدهر، فاختطفت المنيّة زوجها، وقد كانت تتمنى أن يَهَبَ لها الله ولداً، لتجعله مُخلصاً لخدمته، فولدت أنثى، فزاد حزنها، واشتد كربها!

ولكنها انطوت على همّها، والتجأت إلى ربها، فرحم الله ضعفها، واستجاب دعاءها، وقَبِل هبتها، وأتم نعمته عليها، بأن رضي أن تكون ابنتها وفاء للندر، وأخبرها بأنه أعلم بما وضعت، وبقدر ما وُهب:

حينئذٍ سُرِّي عنها، وعلمت أن الله قد اختصها بإكرامه، وأفردها بنعمته! فلفتها في خِرقة، وحملتها إلى بيت المقدس، وقدمتها إلى الأحبار، ودفعتها إليهم قائلة: دونكم هذه البنت فإنني نذرتها لخدمة البيت. وتركها وانصرفت.

لنترك هذه الأم التي فقدت بالأمس زوجها، وأودعت اليوم فلذة كبدها بين يدي سَدنة البيت وخدمه: ولنتصورها استسلمت لقضاء الله، ورضيت بما قدره لها، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين.

ولنتخيل أيضاً أنها قد دفعها الحنو، وحركتها عوامل الشفقة على بنتها، فذهبت إلى بيت المقدس: - تستفسر - من بُعد - عن حالها، وتتعرف خبرها، حتى إذا اطمأنت عليها قفلت راجعة، تحمد أن قَبِل الله قربانها، وأسبغ نعمته عليها.

ولنتبع الآن حال هذه البنت التي حلت ضيفاً على أهل هذا البيت المقدس، فحَفُوا إليها سراعاً، وتنازعوا في كفالتها، كل يريد أن يكون المدير لشؤونها، والقائم على تربيتها، لأنها بنتُ إمامهم، وسليمة صاحب قربانهم.

وكان أشدهم حُداً عليها، وأكثرهم رغبة في كفالتها زكريا، فقال لهم: أنا زوج خالتها، فأعطوني إياها، وخصّوني بالعناية بأمرها، فأنا أقربكم رحماً إليها، وأوثقكم صلة بها.

(٢) يعيدها: يحصنها.

(١) مريم: معناها العابد.

اشتد النزاع، وكثر الجدل، وطال الحوار، واسترسل كلٌ يدلي بحجته، ويبين فضله على غيره، ويطلب في إلحاح وعنف أن يستأثر بها، ويختص بكفالتها. ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد، لأن كلاً منهم كان يرجو الزُّلفى<sup>(١)</sup> إلى ربه.

وقد كان زكريا يرى نفسه أحق بهذا الفضل، وأولى من غيره بذلك الشأن. وبعد ما لمسوا استحالة اتفاقهم، وأحسوا افتراق شملهم، أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه، أو يؤثره على أنفسهم، حتى يقترعوا عليها. فرضي زكريا بذلك حكماً بينه وبينهم. وانطلقوا جميعاً إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم<sup>(٢)</sup>، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم. فانصاعوا لرأيه، وخضعوا لإرادته، وسلموها إليه، فتكفلها، وصار وليها، والقائم بتربيتها.

أراد زكريا أن يمهّد سبيل الراحة لتلك التي ألقى الله إليه مقاليد أمورها، ودفعه حب الاستئثار إلى أن يتأى بها عن الناس، ويُبعدّها عن ضوضائهم، ويخص نفسه بخدمتها، ويحرّم على غيره الدخول إليها، فبنى لها غرفة عالية في بيت المقدس، لا سبيل إليها إلا بالصعود في سلّم.

وكان دائماً يتفقد شؤونها، ويتردد عليها في محرابها، ليطمئن على حالها، ويمهد لها سبيل عيشها.

ولا ريب أنه كان قرير النفس بكفالتها وأنه لذلك عُني براحتها، وتوفير أسباب السعادة لها، واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له، بل شُدّه وتحير في أمره.

ذلك أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب<sup>(٣)</sup> وجد عندها رزقاً، وعهده بها ألا يدخل إليها أحد، أو يطرق باب حجرتها طارق؛ ولم يحمل إليها مثل هذا الرزق، أو يعلم شخصاً قد أدخله عليها! وكثر تفكيره في الأمر، ومال إلى الوقوف على سره.

لم يستطع تعليل ذلك، فحاول الوقوف على السر العجيب، وطرق لذلك أبواباً عدّة فلم يوفق. وأشكل عليه الأمر والتوى، فدخل إليها، وقال: يا مريم؛ أنى لك هذا الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آتٍ في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك، ولا سبيل للدخول إليك؟

(١) الزُّلفى: القرية والمنزلة.

(٢) الأقلام: سهام الاقتراع.

(٣) المحراب: المصلى.

فقالت: إنه من عند الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَزَقُكَ مِنْ يَشَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].  
 هناك عظم تقديره لها، واشتد حذبُه عليها، وعلم أن الله قد اختصها بمنزلة  
 دونها منازلُ الناس، وأنه قد اصطفأها على نساء العالمين.  
 وقد أثارَت في نفسه تلك المكرمات التي أجزاها الله على يدها، كامنَ الرغبة  
 في أن يهب الله له ولدًا من صلبه.

وليس من شك في أنه الآن قد جاوز السن التي يُرزق فيها الرجال بالأولاد،  
 وأن زوجته قد يئست من ذلك، ولم يُعُدْ لها أمل فيه، لكن رحمة الله واسعة،  
 وقدرته لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض، وهو يعلم ذلك ويعرفه.  
 لذلك اتجّه إلى فاطر السموات الأرض، وناداه نداءً خفيًا، وتمنى أن يسبغ عليه  
 هذه النعمة، وأن يحقق له تلك الرغبة وقال<sup>(١)</sup>: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ  
 شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ<sup>(٢)</sup> مِن وِرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا  
 فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا بَرِيئٌ مِّنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٤ - ٦].

فاستجاب الله دعاءه، وآتاه سؤله؛ وقال: ﴿يَنزَكِنَا إِنَّا تَنَزُّكِرُكَ بَعْلَمِ اسْمُهُ يَحْيَىٰ  
 لَمَّ يَجْعَلْ لَّمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

نمت مريم وترعرعت، وشبّت واستد<sup>(٣)</sup> ساعدها، وعمر قلبها بالتقوى  
 والصلاح، ومكثت بالبيت تعبد الله الذي يرسل إليها رزقاً رغداً، وأخلصت في  
 القيام بسدانة البيت وخدمته؛ حتى صارت مَضْرِبَ الأمثال<sup>(٤)</sup>.

(١) مريم ٢ - ١٥.

(٢) كان موالیه عصبته إخوته وبنو عمه؛ شرار بني إسرائيل. فخافهم على الدين أن يغيّروه ويبدلوه  
 وألا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين  
 (الكشاف ٢ - ٢).

(٣) استند: اشتد وقوي.

(٤) جعل الله نفسية كل نبي مماثلة لدينه حتى يكون النبي متمثلاً بشريعته قلباً وقالباً. لذلك نجد  
 اختلافاً بيناً بين شرائع الأنبياء فيما لا يتعلق بالأمور الاعتقادية.

(\*)

## عيسى

## عيسى الوليد

في يوم ما اعتكفت مريم كعادتها، تصلي لله وتعبده، فاضطربت نفسها فجأة وداخلتها رهبة لم تعهدها من قبل، وظهر أمامها ملك من السماء، وقد تمثل لها بشراً سوياً، لتأنس به، ولا تنفر منه. فحاولت الهروب، واستعاذت بالله إذ ظنته معتدياً أثيماً، وفاجراً زليماً<sup>(١)</sup>، وهي التقيّة المؤمنة، العفيفة الطاهرة. ولكنه أعاد إليها طمأنينتها، وسكن روعها، ثم أخذ يتحدث إليها قائلاً: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾<sup>(٢)</sup> [مريم: ١٩].

فغشيتها سحابة من الحزن، وطافت بها موجة من الأسى، ولكن هؤل الموقف وشدته لم يعقد لسانها؛ بل استجمعت شاردة قوتها، وخرجت من صمتها، وحاجته قائلة: ﴿ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بِعَيَّةٍ ﴾ [مريم: ٢٠].  
﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١]. ثم مضى واختفى.

جلست مريم حائرة تفكر فيما سمعته، وأوجست في نفسها خيفة، ولا شك أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بغل<sup>(٣)</sup>، وأنها قد أفرعتها هذه الأفكار، وصيرتها قلقة مضطربة؛ إذ قد بدت تفتن إلى الريبة التي سوف تخامر قلوب الناس، والشكوك التي ستخالج نفوسهم. فأصبحت تحب العزلة، وتميل إلى الانفراد. واستحوذ عليها الحزن، وغلب عليها الخوف، وصارت دائمة التفكير في ذلك السر الرهيب الذي أغلق عليه داخل أحشائها.

(\*) مريم ١٦ - ٢٤، البقرة ٨٧، آل عمران ٤٥ - ٦٠، النساء ١٥٦ - ١٥٩ و ١٧١ و ١٧٢، المائدة ١٧ - ٤٦ و ٧٢ و ٧٥، التوبة ٣٠ و ٣١، المؤمنون ٥٠، الزخرف ٥٧ - ٦٥، الصف ٦ و ١٤، المائدة ١٠٩ - ١٢٠، الحديد ٢٦ و ٢٧، التوبة ١١١.

(١) الزنيم: اللثيم المعروف بلؤمه أو شره.

(٢) زكياً: صالحاً.

(٣) البعل: الزوج.

مرت أشهر، وهي تقاسي الآلام النفسية المبرحة، وتعاورها الأحزان، وتنتابها الوسوس، وتمضي أكثر أوقاتها منفردة كئيبة، لا يهنأ لها عيش، ولا يطيب لها طعام ولا شراب؛ وكثيراً ما كانت ترى شاردة الفكر، موزعة النفس، لا تصغي إلى حديث، ولا تغني بأمر.

حَلَّت تلك الفتاة المثقلة بالهموم في «الناصر»<sup>(١)</sup>، منبتها ومسقط رأسها، وأقامت في بيت ريفي، خلا من كل بهجة وزُواء. وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنة<sup>(٢)</sup> لها تستتر فيه عن أعين الناس، وتختفي به عن أنظار الرقباء. وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها، والاتصال بعشيرتها، متظاهرة بالتعب والإعياء، خوفاً من أن يُفصَّس مكنون سرها، ويُكشف مستور أمرها، فتلوك الألسنة اسمها، ويتحدث الناس في شأنها. وكانت كلما تقدمت بها الأيام زاد همُّها، وكثر حزنها؛ فسيظهر ما تحرص الآن على أن تخفيه، ويشيع ما تحاول أن تستره!

رُخماك يا رب! ما هذا الذي يخبئه لها القدر، وما الذي تكنه لها الليالي؟ إنها من أسرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لم يكن أبوها امرأ سوء<sup>(٣)</sup>، وما كانت أمها بغياً؛ فكيف تلوك الألسنة الحديث في عرضها؟ وبماذا تدفع عن نفسها تلك التهمة التي سئرى بها؟ حقاً إنه أمر ترتعد له الفرائص، ويشيب من هوله الولدان. أيزعمون أنها فقدت أئمن ما تحرص عليه الفتاة، ويقولون: إنها أودت بكرامة أهلها، ووسمت أسرتها بما يثلم شرفها، ويُنزله من عليائها، ويُلصق بالرغام<sup>(٤)</sup> أنفها! إن ذلك لعظيم! كل ذلك كان أو سيكون، مع أنها لم ترتكب إثماً، ولم تقترف ذنباً، وهي براء<sup>(٥)</sup>، من كل ما يجول بنفوسهم، وأبعد ما تكون عما يمرُّ بخواطرهم.

وهل تستطيع، وهي في هذا الحرج والضيق، إلا أن تستسلم لقضاء الله، وتنتظر ما يأتي به القدر، وما تكنه الأيام؟

وليس من شك في أن ما درجت عليه من عبادة الله وتقواه خفف عنها بعض ما كانت تعانيه، وجعلها تتربح لضيقها فرجاً، ولنفسها الفرعة<sup>(٥)</sup> سكوناً وأمناً. أولم يُنبئها المَلَك أنها ستلد من يكلم الناس في المهد؟ أليس ذلك كافياً لرد كيد الناس، وأوضح برهان على براءتها وطهرها؟

(١) جُنة: ستر ووقاية.

(٢) سوء: شر.

(٣) براء: بريئة.

(٤) الرغام: التراب.

(٥) الفرعة: الخائفة.

كان ذلك هو سلّوتها، وأمّلها الذي تتعلق به، وترجو الخلاص من طريقه .  
 اقتربت ساعة الوضع، وأحسّت ألمّ المخاض<sup>(١)</sup>، وخرجت من القرية،  
 فأجاءها<sup>(٢)</sup> المخاض إلى جذع نخلة يابسة، وهي وحيدة منفردة بلا يد شفيقة  
 تسددها وتساعددها، وتخفف آلامها وتعالجها. هناك قاست تلك الأم العذراء آلام  
 الوضع، وفي الفضاء الواسع ولدت الطفل .

آلمتها تلك الوحدة، وحزّ في نفسها رؤية تلك الثمرة، فنظرت إلى الطفل في  
 حسرة واكتئاب، وجعلت تتمنى لو ضمّها القبر، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أمّاً  
 من غير أن تتزوج، فقالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

هني الآن لا تدري ماذا تفعل! سقط في يدها، وتحيّرت في أمرها، واشتد  
 حزنها، وغلى مِرْجُل غيظها، وجلست حانقة ساخطة. ولكنها ما لبثت أن سمعت  
 صوتاً يرنُّ صداه في أذنها. فبدد الصوت مخاوفها، وكفكف دموعها، وناداه من  
 تحتها: ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَالُفًا سَرِيًّا﴾<sup>(٣)</sup> [مريم: ٢٤]. يجري ماؤه في تلك  
 البقعة الجرداء ﴿وَهَزَى إِلَيْكِ يَجْذَعُ النَّخْلَةَ تَسْقُطُ﴾<sup>(٤)</sup> عَلَيْكَ رُطْبًا حَيًّا [مريم: ٢٥]، فكلي  
 منه ليعيد إليك بعض ما فقدت من قوة، وقرّ عيناً، واطمئن قلباً، بما تَرين من  
 قدرة الله التي أخضر بها جذع النخلة اليابسة، وطيبى نفساً بما حباك الله من جريان  
 الماء في تلك البقعة المقفرة .

قد كانت تلك المعجزة<sup>(٥)</sup> - بلا شك - أقوى دليل على براءتها وأسطع برهان  
 على طهرها، وقد كانت آية بيّنة تردُّ بها قذف القاذفين، وعيب العائنين. ولكنها إنما  
 تدفع بها التهمة، وتقيم بها الحجّة على مَنْ يحاجونها في هذا المكان الذي أجاءها  
 المخاض إليه، وهي تريدُ الجواب الذي تجيب به لؤاها، والزارين<sup>(٦)</sup> عليها،  
 والمعيّرين لها، وهم الذين سيستقبلونها في القرية، ويسلقونها بألسنة حداد. لذلك  
 لم تتبدد مخاوفها، ولم تنقش سحابة حزنها .

وكان ذلك المولود الصغير، وقد أطلعه الله على سبب حيرتها، وكشف له  
 عن دخيلة نفسها. فكفاها الكلام بما يبرئها، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجّه  
 إليها. فقال: ﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَمْدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَإِنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾  
 [مريم: ٢٦].

(١) المخاض: وجع الولادة.

(٢) فجاءها: فأجأها.

(٣) السري: الجدول.

(٤) تساقط: تسقط.

(٥) المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة.

(٦) الزارين: العائنين.

اطمأنت نفسها، وعاد إليها ما عَزَبَ<sup>(١)</sup> من لُبِّها، واستجمعت قوتها، ورجعت إلى القرية، وأتت به قومها تخمِله. وسرعان ما شاع أمرها، وعُرف خبرها، فسرحوا في عرضها، وتحدثوا في طهرها، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها، ويشتد في تأنيبها وتقريعها، ويذكرونها بشرف أسرتها، وكرم مَحْتَدِها<sup>(٢)</sup> فقَالوا: ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا<sup>(٣)</sup> يَأْتِخْتِ هَنُورُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨].

لم تنفج شفاتها، وعقدت الحياء لسانها، فالتزمت الصمت، وأبت الكلام، وقالت: إني نذرت للرحمن صوماً، فلن أتكلم بكلمة أو أردّ سؤالاً. وإن أردتم الوقوف على جَلِيَّةِ الأمرِ فهذا - وأشارت إلى الغلام - أن كلّموه! فعجبوا من أمرها، وسخروا من إشارتها، وقالوا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير<sup>(٤)</sup>، وأطلق الصوت من تلك اللهاة التي لمّا يكتمل تكوينها بعد، وحركت تلك الشفاه التي لم تهتد إلى موضع الأثناء فالتفت الغلام موجهاً إليهم الخطاب في وضوح وبيان، ولكنه لم يتحدث إليهم فيما وجهوه إلى أمه من لوم، أو يجادلهم في تهمتهم التي ألصقوها بتلك البازة، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

أترأه بعد هذا في حاجة إلى دليل يمحق باطلهم، أو برهان يبين كذبهم؟ ألم ينطقه الله بالحكمة، ويعدّه للنبوّة، هو لم يزل في المهد صبيًّا، وفي حجر أمه طفلاً؟ قد كان هذا آية على براءتها، ومعجزة دالة على طهرها؛ إذ القدرة التي أنطقته بالحكمة في هذه السن لا تعجز عن خلق مثله من غير أب. فبكلمة منه خلق فليكنوا إذاً عن لومهم، وليتجنبوا الخوض في عرضها، وإشعال الفتنة حولها.

ولا نظن إلا أن هذا الصوت قد بهّره، وتلك الآية أخرست ألسنتهم، وأن هذه الحكمة من طفل في مهده قد ذاع أمرها في القرية، وانتشر خبرها في هذه الجِلَّة<sup>(٥)</sup>، وصارت حديث الناس في دورهم، ومجال القول في أنديتهم. فأكبروا

(١) عزب: يُعَدُّ وغاب.

(٢) محتدًا: أصلها.

(٣) فريًا: جديدًا منكرًا.

(٤) قال رسول الله ﷺ: ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج ورواه ابن كثير.

(٥) حلة القوم: البيوت.

من شأن هذا الوليد، وبدلوا بظنهم السيئ يقيناً ببراءتها، وعلموا أن هذا الصبي ليس كصبيّة القرية، بل سيكون له شأن خطير، وخطب جليل.

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقد الناس جميعاً! فمحال أن تجتمع كلمتهم على شيء، بل إنني لأرى بعضهم قد ظنه حديث خرافة، أو حسبه شيئاً ابتدعه أهلها، رغبة في إظهار براءتها وستر فعلتها، وحباً في قطع السنة السوء التي شوّظها يُلهبهم ويؤذيهم. ولا شك أن هؤلاء الذين لم تفرّع أسماعهم الحجة، ولم يمحُ شكهم البرهان الواضح كانوا قلة، وكانوا من الجهالة بحيث لا ينصاعون للحق، ولا تبدد وسأوسهم الحجة البالغة، والآية البيّنة، فلم تستسغ عقولهم أن اللّه الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا، ويبيده ملكوتهما، قادر على أن يخلق إنساناً بكلمة منه، وأن ربهم الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون يستطيع أن يخالف المنهج الذي ألفوه، والطريق الذي اعتادوه.

وخلّق هذا شأنهم أجدر بأن تنبذهم نُبذ النواة، وأولى ألا تقيم لكلامهم وزناً. ولا لرأيهم قدراً. ولعلّ حقداً نشب<sup>(١)</sup> في صدورهم، وغلاً تمكن من نفوسهم، فأعمى أبصارهم، وطبع على قلوبهم، لذلك نراها لم تحفل<sup>(٢)</sup> بتلك الفئة القليلة الظالمة، ولم تُغنّ بتلك الجماعة المكابرة، وأقامت في القرية تُغنى بطفلها، وتُربي وليدها، قريرة النفس، منشرحة الصدر، لأنها تعلم أن اللّه سوف يكلاه<sup>(٣)</sup> برعايته، ويحفظه بعنايته، حتى يؤذي رسالته.

### نبوة عيسى (\*)

نشأ عيسى كما ينشأ كثير من الأطفال، وشبّ كما يشبّ جُلّ البنين، إلا أنه قد ظهرت بوادرُ فضلته، وبدت مظاهر نبوته. فهو إذ يلعب مع لِداته، ويلهو مع أقرانه، يبتئهم بما يأكلون وما يذخرون في بيوتهم. وهو إذ يذهب إلى معلّم القرية، ويجلس إليه، لا يتَهَجُ منهج غيره، ولا يسلك سبيل أُنذاده، بل تراه يستمع إلى حديثه في جدّ واهتمام، ويُصغي إلى دروسه في شوق ولهفة. ثم هو لا يعلم شيئاً إلا بَدَرَه<sup>(٤)</sup> إليه، وساءله عنه، فلا تغيب عنه شاردة، ولا تنبو عن ذهنه مسألة.

ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه. ولم تعد<sup>(٥)</sup> سنّه الثانية عشرة من عمره، فلا يبهره ما يرى من جماعات مختلفة، وألوان من الناس متباينة، ولا يفتنه ما يقع

(\*) آل عمران ٤٩ - ٥١.

(٤) بدر إليه: استبق إليه.

(٥) لم تعد: لم تجاوز.

(١) نشب: علق.

(٢) لم تحفل: لم تبال وتهتم.

(٣) يكلاه: يرباه.



عليه بصره من مشاهد رائعة، ومظاهر خلافة ساحرة، ولم تُلهه تلك المدينة بزيفها، أو يَزُخ بصره من زخرفها. وهو في هذه السن التي هي في مجرى العادة لا توحى إلا بالعبث، ولا تدفع إلا إلى اللهو، ولكنه يُغضي عن كل ذلك، ويلقي بنفسه في ميدان العلم، يستقي من مَوْرده، ويرتوي من منهلها، ويلزم حلقة الدرس يصغي لمن اتخذوا لأنفسهم سنت العلماء، وهم يُزخرفون للناس أحاديثهم.

ولما اندمج في جماعتهم، واحتوته حَلقتهم، أنصت إلى حديث الكهنة كما ينصت الناس، واستمع إلى آرائهم كما يستمعون، فوجد القوم يؤمنون بكل قول، ويصدقون كل حديث، وهم جميعاً ينصتون كأن على رؤوسهم الطير. فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلاً، وانتضى سيف الحق مقاتلاً. فنقم<sup>(١)</sup> بعض الناس منه جرأته، وأنكروا عليه مسألته، وضاق العلماء به ذرعاً، وأوسعوه تأنيباً، إذ لم يعهدوا قبله أن يجترئ أحد على جدالهم، أو يُقدم سامع على البحث في قولهم.

ولكنه لم يعبأ بما كالوا له، ولم يصرفه ما قابلوه به، بل استمر يُمطرهم بأسئلته ويسد المسالك أمامهم بمحاجته.

وأنساه ذلك طعامه، وألهاه عن شرايه، وانتظرت أمه أويته<sup>(٢)</sup>، ولكنه لم يرجع، فبحثت عنه في كل مكان تظنه يهواه، وفتشت عنه في كل مجال تحسبه يروده، ولكنها عادت يائسة من لقاءه، ورجعت غير آملة في العثور عليه.

ولما أعياها البحث ظننته قد رجع مع بعض أقاربه، أو سافر به بعض أهل بلده، فعادت إلى قريتها، وهي تحسب أنه قد سبقها إليها. وسألت عنه فلم تجده، وحاولت أن تقف على خبره. وتستمع نبأه، ولكنها لم تجد صدق لصوتها، ولا أثراً لندائتها، فقفلت راجعة إلى بيت المقدس تعيد الكرة في سؤالها، وتطلب المزيد من بحثها.

ولم تترك في هذه المرة مكاناً إلا دخلته، أو باباً إلا ولجته، وبينما هي مجدة في بحثها، وقعت عليه عيناها، وقد اندمج في زُمره العلماء، وزج بنفسه في لجة الباحثين. وهو يكثر معهم الحوار، ويتناول عليهم في الجدال، فدهشت لما رأت، وأزعجها ما شاهدت، ودعت إليها، وسألتها عما ألهاه عنها، وأثبتته لفعلته، وعثفته لغيايه، ولا مته على أنه قد أتعبها في البحث عنه، وأضناها في السؤال عن مكانه. فأجابها بأنه قد استهوته مناقشة الحكماء، ومناقلة العلماء.

ثم سار مع أمه، ورجع إلى «الناصر»<sup>(٣)</sup>.

(١) نقم: غضب وحقد.

(٢) أويته: رجوعه.

(٣) الناصرة: البلدة التي نشأ بها.

ولما بلغ الثلاثين من عمره هبط عليه الرُّوح<sup>(١)</sup> الأمين، فكان ذلك بدء الرسالة، وفاتحة النبوة. ثم تَلَقَّى عيسى من ربه الكتاب الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، فأخذ يؤذّن في الناس برسالته، ويدعوهم إلى متابعتة، ويسعى في أن يرد اليهود عن زَيِّغِهِمْ، ويصنِّعهم عن ضلالهم. . . فقد انحرفوا عن الطريق القويمه، وحزفوا شريعة موسى السميحة، وجعلوا همهم جَمْعَ المال. فصاروا يحرضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكُل ما استطاعوا من نذور، ويؤثرون بما ملكت أيماهم من هبات، ليسيل النُّضار<sup>(٢)</sup> إلى جيوبهم، ويتدفق الذهب في خزائنتهم، وإن كان من يحرضونهم في أمسّ حاجة إلى المال: يعولون به آباءهم، ويمسكون به رَمَقَهُمْ<sup>(٣)</sup>، ويسترون به أجسامهم.

وكان من اليهود طائفة أنكروا القيامة، واستبعدوا الحشر، وكذبوا بالحساب والعقاب، وطائفة غيرهم ألهتهم الحياة الدنيا، وانغمسوا في ملاذها، وأقبلوا على شهواتها يَنسْتسرون بها ويَنسْتسرون عن أعين الناس وهم يقتطفونها، يُراوون الناس، ليوقعوهم في مخالبتهم وبيتزوا أموالهم.

هذه كانت الحال عندما بزغ نجم عيسى، وأشرقت شمسُه، وبعثه الله ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا باباً إلا طرقة: يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة، ويخلصهم من تلك الحَمَاة.

وشعر رجال الدين بالتيار يجرفهم، وأحسوا بالخطر يدهمهم، فها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات، وتهالكهم على اللذات، وتسابقهم إلى جمع المال، ثم هو يفضح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم!! فأجمعوا أمرهم بينهم على مناواته<sup>(٤)</sup> أينما حلّ، وتكذّبه حيثما ذهب.

ولكنه لم يبال جمعهم، ولم تننيه مناواتهم، بل صمد في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق، وسار متنقلاً بين القرى يزيّف آراءهم، ويفنّد أقوالهم. فطالبوه بما يؤيد رسالته، وبثبت دعوته، ويدلهم على نبوته. فأيده الله بالمعجزة الباهرة، وآزره بالآية البيّنة، فصار يَخْلُق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويرى الأكمه<sup>(٥)</sup> والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله<sup>(٦)</sup>.

ولا شك أن ذلك أمراً لا يستطيع أحد أن يعالجه، ولا يقدر بشر أن يأتي به

(١) الروح الأمين: جبريل.

(٢) النضار: الذهب.

(٣) رمقهم: حياتهم.

(٤) مناواته: معاداته.

(٥) الأكمه: الذي وُلد أعمى.

(٦) آل عمران: ٤٩.

إلا بتأييد من الله، ونصير من عنده. ولكنهم مع قيام حُجَّة عيسى، ووضوح آيته، تمادوا في طغيانهم، وثبتوا على ضلالهم، وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

ثم وجدت دعوته آذاناً صاغية، وقلوباً واعية عند كثير ممن لم تفتنهم زخارف الدنيا، ولم تمتد أعينهم إلى متاعها. ودفعته الحمية لدينه، إلى أن ينقض على رجال الدين في حُجرهم، ويقترجم عليهم حصنهم. فرحل إلى بيت المقدس، واختار يوم عيدهم، ووقت اجتماعهم، وعرض دعوته على الوافدين من شتى القرى، والنازحين من مختلف المدن. فالتف الناس حوله، وتفتحت قلوبهم لحديثه، وكثر أنصاره، وانتشر أتباعه.

فأثار ذلك حفيظة<sup>(١)</sup> الكهنة، وحرك كامن غيظهم، ودفعهم إلى التفكير فيما يريحهم منه. ويكفيهم شره. ولكنهم لم يستطيعوا أن يمسوه بأذى، أو ينالوه بضرر، فقد وعد الله بحفظه، وأيده بنصره. ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [آل عمران: ٥٤].

### المائدة(\*)

خرج عيسى يَجُوب<sup>(٢)</sup> البلاد، ويجول في القرى: يدعو إلى دين الله، ويؤذُن في الناس برسالته، ويحاول أن يقوِّض صروح الظلم، ويطمس معالم الشرك. وكان معه الحواريون<sup>(٣)</sup>، يشدون أزره، ويشتد بهم عضده، ويقاسمونه سروره، ويخفقون عنه أحزانه، ويحتملون معه وغشاء السفر، وشظف العيش، ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظلّه أينما سار، ويطاردونه حيثما حلّ. فقد كان عيسى من أسرة قلّ أعوانها، وعز نصرائها، وخدمت جذوة العصية فيها، وللعصية أثرها في دفع المعتدين، وردّ كيد الظالمين: ألم يقل قوم شعيب لنبيهم: ﴿مَا نَقَعُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِتْنًا صَعِيمًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾<sup>(٤)</sup> [هود: ٩١].

أقاموا بقرية، وارتحلوا إلى أخرى، وتلبّثوا بثالثة، وخطّوا رحالهم بغيرها، وهكذا حتى أدت بهم خاتمة المطاف يوماً إلى مفازة<sup>(٥)</sup>، مترامية الأطراف، وقد أجدبت أرضها، وأقفرت جنباتها... هناك طوّوا<sup>(٦)</sup> من الجوع، وجفت منهم

(١) الحفيظة: الغضب.

(\*) المائدة ١١٢ - ١١٥.

(٢) يجوب: يتجول.

(٤) هود: ٩١.

(٥) المفازة: الصحراء المقفرة.

(٦) طوّوا: خلت بطونهم.

(٣) الحواريون: خالصاء عيسى وأنصاره.

الخلوق، ووهنت قوتهم، وفترت عزيمتهم، واشتد بهم الكلال والإعياء. فنزلوا على غير ماء وطعام، وجلسوا يتبادلون الحديث في شؤونهم، ويقلبون وجوه الرأي في أمرهم، عليهم يهتدون إلى خير الطرق لبث دعوتهم، ومغالبة الصعاب التي تعترضهم، والنجاة من الأعداء الذين يترصدونهم. وكان عيسى يُحيي آمالهم، ويشجذُ عزيمتهم، ويخفف آلامهم، ويواسي المكتئب منهم، ثم لا يفتأ يبين لهم ما استغلق عليهم فهمه، ويوضح ما أئبهم أمامهم أمره.

وهؤلاء الحواريون - وإن كانوا قد شهدوا برسالته، وآمنوا بنبوته، واجتمعوا تحت رايته، واستماتوا في سبيل نصرته - لا يزالون في حاجة إلى أن يزدادوا يقيناً إلى يقينهم، وإيماناً إلى إيمانهم.

وجاشت تلك الرغبة في نفوسهم، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما اختلج في صدورهم، فقالوا: يا عيسى، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟

لم يكن ذلك منهم شكاً في قدرة الله، أو طعناً في نبوة عيسى، فحاشاهم أن يكونوا من الشاكين في قدرة الله، أو المرتابين فيها، بعد أن آمنوا بالله وبرسوله وقالوا لعيسى: آمنا واشهد بأننا مسلمون، أسلمنا لك قيادنا، وألقينا إليك مقاليدنا.

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلاً إلى نفوسهم؛ وإنما سألوه تلك الآية كما سأل إبراهيم ربه من قبل، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِكَ مُّؤْمِنٌ قَلِيلٌ وَلَٰكِن لِّئَلَّا يُطْمِئِنَّ قُلُوبُهُمْ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قال لهم عيسى، وقد عجب من أمرهم، وخاف عاقبة سؤالهم: ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، واحذروا أن تقترحوا أمثال هذه المعجزات، لئلا تكون فتنة لكم، وسبباً في فساد أركانكم، أو نم تزووا ما تطمئن به نفوسكم، ويزيل كل شك تحسونه في قلوبكم؟

إن ذلك قد ينبئ عن عناد ومكابرة؛ فما لكم تقترفون هذا الإثم، وترتكبون ذلكم الجرم، وتطلبون تلكم المعجزة بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يدي، من إبراء الأكمه<sup>(٢)</sup> والأبرص، ثم ما شاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله؟ فهل انتابكم الشك، وداخلكم الريب، وتصرب إلى نفوسكم الظن، بعد أن رأيتم من الآيات ما يمحق كل باطل، ويمحو كل شك؟ يا قوم، دعوا هذا اللجاج<sup>(٣)</sup>، واتركوا تلك الوسوس إن كنتم مؤمنين.

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) اللجاج: الخوض في الباطل.

(٣) الأكمه: الذي ولد أعمى.

هدأوا روعه، وسكنوا من جأشه، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وجليته فقالوا: قد كنا صادقين في إيماننا، مخلصين في إسلامنا، ولسنا منكرين لآياتك، أو شاكين في رسالتك، ولا زلنا مقرين بنبوتك، مؤمنين بدعوتك، وما دَفَعْنَا إِلَى انتهاج هذه الطريق، وحملنا إلى اختيار تلك الآية؛ واقترح هذه المعجزة إلا أن لها فضلاً ومزية. فنحن نريد أن نأكل منها<sup>(١)</sup>، ألم ترنا وقد حَوَّثَ مِنَّا البَطُونَ، وأصبحنا لا نجد ما يمسك رفقنا، ويخفف من سَعْبِنَا<sup>(٢)</sup>!

على أننا قد علمنا قدرة الله بالدليل، وشاهدنا آثاره بالبرهان، وعرفنا آياته بقراءة صُخْفِ الكوْنِ، فأَمانا به، وصدَّقنا برسالته إليك. فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمانت قلوبنا، وازداد يقيننا، وثبت إيماننا.

ولتعلم أننا على يقين أن معجزاتك تشفي أمراض القلوب، وتستأصل بذور الشك، وقد سبق أن أيدت لنا نبوتك، وعلمنا بها صدق دعوتك، فلن ترى منا شكاً، ولن تجد انتقاضاً، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحاً، والقلب اطمئناناً، والجنان ثبوتاً.

حنانيك! فإننا نعلم أنك صدقتنا، واستمددت وحيك من ربنا، وأن الله مؤيدك بنصره، مُسْبِغ<sup>(٣)</sup> عليك نعمته؛ ولكن معجزاتك السابقة كانت أرضية، وهذه الآية التي نطلبها سماوية؛ سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجب مما شاهدنا، فإذا أتيت بها كنا لها مُدْبِعِينَ؛ وبخبرها شاهدين، فيكثر تابعوك، ويزداد المؤمنون بك.

ولما رأى عيسى منهم إصراراً على طلبها، وإلحافاً<sup>(٤)</sup> في سؤالها، وعلم أنهم لا يقصدون إلى عنت؛ ولا يدفعهم إليها شك أو عناد، وتبين له صحة قصدهم وصواب غرضهم، دعا الله تعالى فقال: اللهم يا مالك الملك، ومدبر السموات والأرض، ومتولي شؤون خلقك ومسير أمور عبادك ﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَادِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤].

أجاب الله دعاءه، وسمع ضراعته، فقال: إني منزلها عليكم، ليزدادوا إيماناً بك وثقة بنبوتك، ولكن ليعلموا أن هذه الآية تلزمهم الحجة، وتوحي إليهم بالبرهان الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمن يكفر بعدئذ منهم فإني أعدُّه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.

(١) قال بعض المفسرين: إنهم كانوا صائمين، ولذا قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا بأن الله قبل صيامنا.

(٢) مسبغ: مغم.

(٣) السبغ: الجوع.

(٤) إلحافاً: إصراراً.

أنزل الله عليهم مائدة من السماء، فاضت بالرزق السابغ، والخير الوافر، إنجازاً لوعده، وتأييداً لنبيه، واستجابة لدعوته. وخشي عيسى الفتنة إذ رآها، فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم، ونعمة عليهم، وسأل ربه أن يهديهم إلى الإيمان الثابت والطريق القويم، ثم قال لهم: ها هي المائدة قد أنزلها الله عليكم، فكلوا مما سألتهم، واشكروا له، يزدكم من فضله.

طعموا منها ما شاؤوا، وقرت بذلك أعينهم، وقوي إيمانهم، ثم تحدث الناس بتلك المعجزة الباهرة، والآية البيّنة، فأمن خلق كثير، وازداد المؤمنون يقيناً في الإيمان وثباتاً عليه.

### النهاية(\*)

كان عيسى جاداً في رسالته، غير متوانٍ في دعوته: ينكر على اليهود ما درجوا عليه من النظم التي درت عليهم الأموال الطائلة، وجعلتهم في بسطة من العيش وسعة، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولة الألفاظ؛ وتأسيرهم ظواهر الشريعة، وينعى عليهم أن يطمسوا معالم الدين، ويبعدوا عن صراطه السوي، ويبين لهم أن ما هم عليه لا يوافق ما يدعو إليه ربهم.

ولم يثنه عن مناوأتهم ما أعلنوا من حروب، وما ألّبوا من جموع، وما بثوا من عيون.

حتى إذا قهرت البيّنات ألبابهم<sup>(١)</sup>، وبهرت الآيات بصائرهم، وخصّم<sup>(٢)</sup> نور الحق حجّتهم، لم تجد عقولهم سبيلاً إلى دفع حقه، أو طريقاً إلى مغالبتة وصدّه، ولكنهم مع ذلك كذبوه بأفواههم وبألسنتهم، بغياً وعداوة، وحسداً ولجاجة، يخافون أن تبيد دولتهم، وتميد عروشهم، وتطوى صحيفة سلطانهم.

وكثّر مع ذلك أتباعه وأنصاره، وإن كانوا من طبقات دنيا، وأخلاق جاهلة.

حاول اليهود أن يخفّفوا من أثر دعوته، أو يموهوا على الناس أمره فلم يستطيعوا، فقد كان كالفلك الدائر، والنجم السائر، يُدويّ صوته بالدعوة إلى الله في كل مكان، ويقيم على اليهود حيشما حلّ.

بل كان يجهل أحلامهم، ويفند مذاهبهم، حتى غضبوا عليه؛ وضاقوا ذرعاً به فصوروه لرجال السياسة مؤلباً للجموع، مثيراً للفتن، متطلعاً للملك؛ لينضم هؤلاء تحت لوائهم في معاداته. وفي ذلك شفاء لنفوسهم، وتحقيق لآمالهم.

(\*) آل عمران ٥٥، النساء ١٥٧، ١٥٨.

(٢) خصمه: غلبه.

(١) ألبابهم: عقولهم.

وعيسى على كل حال وحيد فريد؛ ليست له عصبية تحميه؛ ولا قبيلة تؤازره وتنصره؛ ولكنه لا يحفل بغضب هؤلاء، ولا يرهب عنت أولئك، فقد تكفل الله بحفظه، ورعاه بقدرته، وطهره من الكافرين بدعوته، وعصمه من الجاحدين برسالته، ووعدته أن يحبط مكرهم ويرد كيدهم في نحرهم.

هال اليهود ما رأوا من تألب الناس عليهم وانصرافهم عنهم، وخيبت لهم نفوسهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنة، وتكاد تشب من بين أنصاره الثورة، مع أنه قد جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة، ولكن أين هم منها؟ وقد بدلوا نعمة الله كفرأ، وأحلوا قومهم دار البوار، واستبدلوا بدين الله ما ينمي ثورتهم، ويغدق الخير عليهم، ويقي السلطان في أيديهم، وزمام الشعب في حوزتهم.

ولما يسوا من مقاومته، وعجزوا عن صد تيار دعوته - وقد كاد يجرفهم ويمحو أثرهم - بثوا العيون والأرصاء له في كل طريق، ينفثون سموم الدسائس ويحيكون له خيوط العداء، ويذيعون أنه ساحر، وأن ما يظهر من معجزات، وما يدعي من آيات إنما يمليه عليه الشيطان، وأنه لا ينحو نحوهم، ولا يقتفي<sup>(١)</sup> أثرهم، فلا يكف عن أعمال الدنيا في يوم السبت، وهو يوم عيدهم وعبادتهم. ثم رموه بالبعد عن دينهم، والكفر بنبيهم، والمروق من عقائدهم.

ولكن ذلك لم يخف من صوته، ولم يثنه عن عزمه، بل ذأب في دعوته، واستمر يؤذن برسالته، وهم يخالون كل كلمة سهماً، ويحسون لكل همسة وقعاً. فلاكت الألسنة الحديث في شأنهم، وابتدأت الجماعات تنفض من حوله. خاف هؤلاء أن ينضب معين ثروتهم، وتنقطع موارد أرزاقهم، فقلبوا وجوه الرأي، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يببدوا أصل الداء، ويستأصلوا شأفته، وبيتوا له الشر، ودبروا القتل، حتى لا يتألب الناس عليهم، ويتقضوا على سلطانهم.

وما كان أجهلهم بدين الله، وأبعدهم عن صراطه، حين هموا بقتل نبي يؤمن بكتابهم، ويقر دينهم، وهو لم يجترم<sup>(٢)</sup> جرماً إلا دغوتهم إلى التزام حدود الله، ونبد المآثم والذنوب، ولم يقترف إثماً إلا أنه رغب في أن يردهم إلى حقيقة الدين، ودعاهم إلى حسن القيام به. وحثهم على الإخلاص له.

عقدوا العزم على قتله، ولكن أتى لهم ذلك، وهم لا يعرفون مكانه، ولو أنهم بحثوا عنه بأنفسهم لأعياهم البحث، بل لرجعوا بالحسرة وباؤوا بالخيبة! إذا فليلجأوا إلى الوعود الكاذبة، والأمانى المعسولة، يبذلونها لمن يأتيهم به، وليزكئوا إلى العيون

(٢) يجترم: يرتكب جريمة.

(١) يقتفي: يتبع.

يُثَوِّنُهَا حَوْلَهُ، وَإِلَى الْأَمْوَالِ يَغْدِقُونَهَا عَلَى مَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ، وَأَخِيرًا إِلَى الْوَالِي يُثِيرُونَ غَضَبَهُ، وَيُوْهِمُونَهُ أَنَّ فِي دَعْوَةِ عَيْسَى زَوَالًا لِمَلِكِ قَيْصَرَ، وَتَقْوِيضًا لِسُلْطَانِهِ.

وَاجْتَمَعَ رِجَالُ الدِّينِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ يَجْلِسُونَ الرَّأْيَ فِي أَمْرِ عَيْسَى، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إِلَى مَكَانِهِ، فَيُثَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْهُ، وَيَشْفُوا غَلْمَهُمْ، وَيَدْرِكُوا وَتَرَهُمْ. وَبَيْنَمَا هُمْ فِي اجْتِمَاعِهِمْ - وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ السَّبِيلُ - وَتَمَلَّكَهُمُ الْحُزْنُ وَالْيَأْسُ وَحَارُوا فِي أَمْرِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ تَضْمَحَلَّ دَوْلَتُهُمْ وَتَزُولَ عُرُوشُهُمْ، وَيَنْصَرِفَ النَّاسُ عَنْهُمْ - وَبَيْنَمَا هُمْ فِي هَذَا الْحُزْنِ الشَّامِلِ، وَذَلِكَ الْيَأْسِ الْقَاتِلِ، ذَلَّفَ إِلَى الْحَارِسِ <sup>(١)</sup> رَجُلًا مِنْ أَتْبَاعِهِ، يَقْدُمُ رِجَالًا وَيُوَخِّرُ أُخْرَى، وَأَسْرَّ إِلَيْهِ فِي خَوْفٍ وَحَذَرٍ، أَنْ لَدَيْهِ أَمْرٌ يَرِيدُ أَنْ يُقْضَى بِهِ إِلَى الْمَجْتَمِعِينَ.

وَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمْ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَسْتَنْبِئُونَهُ عَنْ حَاجَتِهِ، وَيَسْأَلُونَهُ عَنْ سَبَبِ مَقْدَمِهِ فَأَفْضَى إِلَيْهِمْ بِمَا سَكَنَ اضْطِرَابَهُمْ، وَأَذْهَبَ خَوْفَهُمْ، وَأَدْخَلَ السَّكِينَةَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَحَدَّثَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أَهْمَتَهُ خُرُوجُ عَيْسَى عَنْ دِينِهِمْ، وَأَقْضَى مُضْجِعَهُ إِنْكَارُهُ نَظْمَهُمْ، وَأَقْذَى عَيْنِيهِ أَنْ يَرَى النَّاسَ يَلْتَفُونَ حَوْلَهُ، وَيُؤَيِّدُونَ دَعْوَتَهُ. ثُمَّ أَبْدَى - فِي حَذَرٍ وَاضْطِرَابٍ - رَغْبَتَهُ فِي أَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَيْهِ، وَيَعْرِفَهُمْ بِمَكَانِهِ، لِيَرِيحَهُمْ مِنْ مَصْدَرِ كَمْدِهِمْ، فَيَصْفُو عَيْشَهُمْ بَعْدَ كَدْرِهِ، وَتَسْتَقِرَّ حَالُهُمْ بَعْدَ قَلْقَلَتِهَا.

وَمَا كَادِ يُتِمُّ كَلَامَهُ حَتَّى تَنْفَسُوا الصُّعْدَاءَ، وَطَفَعَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْبِشْرِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَمْتُونَهُ الْأَمَانِي، وَيَبْسُطُونَ لَهُ وَاسِعَ الْأَمَالِ فَاطْمَأَنَّ إِلَى حَدِيثِهِمْ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ بِمَعْسُولِ كَلَامِهِمْ، وَلَعَلَّهُ كَانَ كَذَلِكَ يَشْفِي غَلًّا نَشَبَ فِي صَدْرِهِ، أَوْ حَقْدًا عَلِقَ فِي قَلْبِهِ.

ذَهَبُوا بِهِ إِلَى الْوَالِي، فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ، وَخَبَّرَهُ بِمَكْنُونِ أَمْرِ عَيْسَى، فَابْتَعَثَ مَعَ ذَلِكَ الشَّيْخَ جَنْدًا يَأْتُونَ بِعَيْسَى، لِيَقْضُوا فِيهِ أَمْرَهُمْ، وَيَنْفِذُوا حُكْمَهُمْ.

وَكَانَ عَيْسَى حِينَئِذٍ قَدْ عَلِمَ مَا يُخْفِي الْقَوْمَ، وَمَا بَيْتُوا لَهُ مِنْ شَرِّ، وَانْتَهَى إِلَيْهِ مَا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَيْهِ، وَعَرَفَ أَنْ عِيُونَ الْكَهْنَةِ تَتَرَصَّدُهُ، وَرِجَالُ السُّلْطَانِ يَجْدُونَ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ، فَأَخَذَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، يَخْتَفِي حِينًا وَيُظْهِرُ آنَاءً، وَهُوَ لَا يَبْنِي عَنْ بَثِّ دَعْوَتِهِ، وَلَا يَقْصُرُ فِي إِعْلَانِ رِسَالَتِهِ، وَلَا يَفْتَأُ يَحْضُرُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَيَدْعُو إِلَى الْبَعْدِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْآثَامِ، وَتَلَامِيذِهِ لَا يَفَارِقُونَ ظَلْمَهُ، وَلَا يَنْأَوْنَ عَنْهُ.

وَأَوَى مَعَهُمْ يَوْمًا إِلَى بَسْتَانٍ يَسْكُنُونَ إِلَيْهِ لَيْلَتَهُمْ، وَظَنُوا أَنَّهُمْ بِمَنْجَاةٍ عَنِ الْعِيُونَ، وَلَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى مَكَانِهِمُ الْبَاحِثُونَ. وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا وَاهِمِينَ، إِذْ لَمْ يَكِدْ

(١) هُوَ يَهُودًا الْأَسْخَرِيوطِي.



يجنهم<sup>(١)</sup> الليل، ويسترهم الظلام، حتى تهدي الباحثون إلى مكمنه وعثروا عليه في مخبئه، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم.

ولما رأى التلاميذ ما كاد يحيق بهم وبصاحبهم تركوا نصرتهم، وانفضوا من حوله، وولوا هارين.

أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه، وقد أيده بالمعجزات، وأزره بالبينات، ووعده بنصره على أعدائه، ونجاته من كيد الكائدين.

في هذه الساعة الرهيبة الفاصلة، تجلت قدرة الله، وامتدت إليه يد العناية، فأخفاه الله عن أعين الناظرين، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به؛ وما لبثوا أن حسيبوه هو فانقضوا عليه، وأخذوا بتلابيبه. فتملكته الدهشة، وعقد لسانه الخوف، فلم يستطع الدفاع عن نفسه، ولا الإعلان عن حقيقة أمره بل استسلم خائفاً مذعوراً. ولا غرو<sup>(٢)</sup> فالجماعات وقت أنفعالها واضطرابها لاتتحزى ولا تستكنه الأمور، بل سبيلها التسرع والاندفاع، والاكتفاء بما يشبه الدليل والبرهان، بلا روية ولا إمعان.

ذلكم الرجل هو يهوذا الذي دلهم عليه، فردّ الله كيده في نحره، وجازاه على خيائه ومكره.

فاستاقوه إلى ساحة صُلب فيها بين الصخب والضجيج، والفرح والتهليل، وهم يزعمون أنهم قتلوا عيسى. ﴿ وَمَا قُلُّوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَٰكِنَّ شُبُهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَيَشْكُرَنَّ مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ الْقِيَامِ ﴾

[النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

(١) يجنهم: يحترقهم.

(٢) لا غرو: لا عجب.

## ذو القرنين (\*)

فصل ذو القرنين إلى المغرب غازياً فاتحاً، محارباً مجاهداً، لا يصادف في طريقه حَزناً<sup>(١)</sup> إلا سلكه، ولا عالياً إلا ظهره، ولا عدواً إلا كَسر سلاحه، وقَصَّ جناحه؛ ولا يُبالي في الجهاد الحرّ ولا القُرّ، ولا السهل ولا الوعر؛ إذ كان الله قد مَكَّن له في أرضه، ورزقه الطاعة والانقياد في جنده، وآتاه من كل شيء يحتاج إليه في توطيد ملكه سبباً، ومنحه في القتال حظاً سعيداً، وفتحاً مبیناً.

وما زال في طريقه يسير ويسري، حتى انتهى إلى عين اختلط ماؤها وطينها. فترأى له أن الشمس تغرب فيها، وتختفي وراءها، وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو، ولا سبيل للجهاد. ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم، وكبر عليه ظلمهم وطغيانهم، إذ كانوا قد عَتَوْا في الأرض، وأكثروا الفساد، وسفكوا الدماء؛ استجابة للشيطان، وجرياً وراء نوازغ النفوس. فاستخار الله في أمرهم، وما يصنع بهم، فخيره الله بين سبيلين يختار إحداهما، ويسلك ما يريد منهما: إما أن يذيقهم القتل ويوقع بهم النكال، جزاء كفرهم وطغيانهم، وإما أن يُمهّلهم ويدعوهم، لعلّ منهم من يهتدي، أو يرتدع ويرعوي. فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل، والحسنى على الإثخان<sup>(٢)</sup>، ثم قال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧ - ٨٨]. وأقام فيهم مدة، ضرب على يد الظالم، ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف، وأقام عمود العدل، ونشر لواء الإصلاح.

ثم بدا له أن يثني عنان عزمه إلى الشرق، فسار غازياً مجاهداً، منصوراً موفقاً، حسن الطالع، مظفراً، حتى انتهى في سيره إلى غاية العمران في الأرض، وهناك وجد أقواماً تطلّع الشمس عليهم، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم، أو أشجار تُظِلُّهم، ولعلمهم كانوا على حال من الفوضى، ونصيب من الجهل... فبسط على بلادهم لواء حكمه، وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه، وخلفهم إلى الشمال غازياً

(١) الكهف ٨٣ - ٩٨.

(٢) الحزن - بالفتح: المرتفع من الأرض.

(٣) يقال: أثن فلان في الأرض قتلاً، إذا أكثر.

مجاهداً مظفراً منصوراً، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين، يسكنها أقوام لا تكاد تُعرف لغاتهم، أو يفهم في الحديث مرأهم، ولكنهم قد جاؤوا بأجوج ومأجوج، وهم قومٌ في الأرض مفسدون، وأوزاع من الخلق ضالون ومضلون.

وما إن رأوا ذو القرنين ملكاً قوي البأس، شديد المراس، واسع السلطان كثير الأعوان، حتى فزعوا<sup>(١)</sup> إليه أن يقيم سداً بينهم وبين جيرانهم، يفصل بلادهم ويحول دون عدوانهم، إذ كان يأجوج ومأجوج قوماً قد ركب الشر في نفوسهم جبلة، وامتزج الفساد بين جوانبهم خلقة، السيف لا يمكنه أن يزدعهم، والتصح محال أن ينفعهم، وشرطوا على أنفسهم نولاً يدفعونه إليه، وأموالاً يضعونها بين يديه.

ولكن ذا القرنين - بما طبعه الله على الخير، وما فطره على الصلاح وما أعطاه الله من كنوز الأرض وخيراتها - أجابهم إلى سؤالهم، وردّ عطاءهم، وقال لهم: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ [الكهف: ٩٥]. ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل، ويساعدوه على ما يضنع، فحشدوا له الحديد والنحاس، والخشب والفحم، فوضع بين الجبلين قطع الحديد، وحاطها بالفحم والخشب، ثم أوقد النار. وأفرغ عليه ذائب النحاس، واستوى كل ذلك بين الجبلين سداً منيعاً قائماً، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تظهره لملاسته<sup>(٢)</sup>، تثقبت لمتانته، وأراح الله منهم شعباً كان يشكو من أذاهم، ويألم من عدوانهم.

أما ذو القرنين فإنه لما رأى السد منيعاً حصيناً هتف من قرارة نفسه قائلاً:  
﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ<sup>(٣)</sup> وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨].

(١) فزعوا: هرعوا.

(٢) تظهره: تعلق عليه.

(٣) الدكاء: الأرض المستوية.

(٤) يأجوج ومأجوج يعيشان على وجه الأرض يحملان لواء الحرب ضد الإيمان بالله تعالى خلقهما الله ليمحص المؤمنين في كل زمان. وهذان الشعبان يشكلان أكثر أهل الأرض.

## أصحاب الكهف (\*)

خرج أهل أفسوس<sup>(١)</sup> في يوم عيدهم، يحتفلون بأوثانهم، ويتقربون لأصنامهم، ولكن شباباً من أشرافهم، وأكرم بيوتهم، لم تطمئن نفسه إلى ما رأى، ولم يسترخ عقله إلى الآلهة التي يعبدون، فشك وارتاب، واضطرب تفكيره وتحير، ثم انسل من بين جموعهم، وخرج مختفياً من صفوفهم، حتى انتهى إلى شجرة جلس إليها، ساهماً<sup>(٢)</sup> مطرقاً، مرتاباً متحيراً.

وما لبث أن تهادى إليه آخر، ممن ذهب مذهبه في شكه وحيرته، واضطرابه وارتبابه، ثم آخر وآخر، حتى انتهى عددهم إلى سبعة. وما أسرع ما تعارف أرواحهم، وتعانقت آراؤهم، وألقت بينهم فكرة واحدة، وإن لم يكن بينهم نسب جامع، أو رجم ماسة. وأعلنوا لأنفسهم شكهم وارتبابهم، وإنكارهم لآلهة أقوامهم. ثم جالوا في رحاب الكون ببصائرهم النافذة، وفطرتهم السليمة حتى ضاءت نفوسهم بنور التوحيد وهُدوا إلى الله منشئ الخلق وسر الوجود. واستراحوا إلى هذا الدين واطمأنوا إليه، واتفقوا على أن يكتموه بين جوانحهم، ويستروه في أعماق نفوسهم، إذ كان الملك وثنيّاً معنأً<sup>(٣)</sup> في الوثنية، مشركاً ظهيراً للمشركين.

وظل كل واحد يخوض فيما يخوض فيه القوم، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، حتى إذا ما خلا بنفسه، واجتمع مع قلبه، اتجه إلى الله عابداً مُصلياً، ومنزهاً ومقدساً. حتى إذا كانت إحدى ليالي اجتماعهم، وانتظام عقدهم، قال أحدهم في صوت خافت، وحذر مرعب: لقد سمعتُ يا رفاق بالأمس خبراً لو صدق روايه - ولا إخاله إلا صادقاً - فإن فيه إفساداً ديننا، أو ذهاب حياتنا. سمعت أن الملك قد علم بأمرنا، وافتضح عنده عقيدتنا وديننا، فثار ثائره، وهاج هائجه، وتوعدنا شراً إن لم نصبأ<sup>(٤)</sup> عن هذا الدين الذي أشربته نفوسنا وانسجم مع عقولنا

(\*) الكهف: ٩ - ٢٦.

(١) أفسوس: بلد بغير طرسوس.

(٣) معنأً: متعمقاً.

(٤) نصبأً: نرجع.

(٢) ساهماً: شاردأً.

وتفكيرنا، وإنه يوشك أن يطلع علينا الغد، فإذا جميعنا في حضرته، وبين وُغده ووعيده، وسيفه ونُطْعُه<sup>(١)</sup>، فتدبروا أمركم، واحزموا رأيكم.

قال الثاني: هذا خبر كنت سمعت به من قبل فحسبته من إرجاف المرجفين، وتأويل الجاهلين، ولكن يظهر أنه استفاض وذاع، حتى دل على صدقه، أو إمكان وقوعه. وما أرى إلا أن نثبت على ديننا، ونصمد لاضطهاد يراد بنا، ومحال أن نرجع إلى هذه التماثيل التي يعبدونها، بعد أن عرفنا فسادها وبطلانها. لسنا براجعين عن عبادة الله، ومع مطلع شمس كل يوم دليل على وجوده، وفي كل سُبْحَة من سبحات التفكير شاهد على عظمته.

وصدقت الإشاعات، وصحت الأخبار، وانتظم جمعهم أمام الملك، بعد أن انتزعوا من منازلهم، وأخذوا من بين أهليهم.

قال لهم: لقد حاولتم ستر أمر فلم تفلحوا، وجاهدتم في كتمان دين ولكنكم لم تنجحوا، وقد انتهى إلي عَجْرُكُمْ<sup>(٢)</sup> وِبُجْرُكُمْ، وخُبركم. ووصل إلي أنكم صَبَأْتُمْ عن دين الملك والرعية، إلى دين لا أدري كيف هبط عليكم، أو وصل علمه إليكم. وقد كان يهون علي أن أترككم تهيمون في دينكم، وأن ألقى حبلكم على غاربكم، لولا أنني علمت أنكم من أشرف قومكم، ومن أوساط عشائركم، وتوشك العامة - لو علمت بأمركم - أن ترد شريعتكم، وتدخل دينكم، وتتقبل<sup>(٣)</sup> طريقتكم، وفي ذلك ما فيه من إفساد الملك، وانتقاض حبل الأمان.

ولست بمعجل لكم العذاب، أو موقع عليكم العقاب، حتى تفكروا فيما أنتم مُقَدِّمُونَ عليه، فإما رجوع إلى ملتنا وإذعان لما فيه الناس، وإما أن يرى الرائي فإذا أمامه رؤوس ملقاة، وأشلاء ممزقة، ودماء منكم تسيل.

وربط الله على قلوبهم، وأيدهم في إيمانهم، فقالوا: أيها الملك، إن هذا الدين لم ندخل فيه مقلدين، ولم نعتنقه مُكْرَهِينَ، ولم نَسِرْ فيه جاهلين، وإنما دعشنا إليه الفطرة فليئنا، وأضاء لنا العقل وفي ضوئه سرنا، هو الله الأحد، لن ندعو من دونه إلهاً. أما قومنا هؤلاء فقد عبدوا أصنامهم جاهلين مقلدين، لم يأتوا عليها بسُلطان، ولم يُدْلُوا عليها ببرهان<sup>(٤)</sup>... هذا ما انتهى إليه علمنا ورأينا، فأقض ما أنت قاض.

(١) النطع: الجلد يوضع عليه القنيل.

(٢) عجركم وبيجركم: ما أبديتم وما أخفيتم.

(٣) تتقبل طريقتكم: تتبعها.

(٤) لم يدلوا عليها ببرهان: لم يحضروا دليلاً، ولم يأتوا بحجة.

قال الملك: اذهبوا اليوم على أن تأتونني في الغد أنظر في أمركم، وأفصل في قضيتكم.

وخلصوا إلى أنفسهم يشثرون فيما يفعلون، ويُجِيلون قِدَاحَ الرَّأْيِ كيف يصنعون! قال واحد منهم: أما وقد عَرَفَ الملكُ أمرنا فلا مقام لنا بين وعده ووعيده، وإطعامه وتهديده، ولنُفِرَ بديننا إلى ذلك الكهف من الجبل، فإنه قد يكون على ظلامه وضيقه، أفسح صدرًا، وأطيب مكانًا من هذه الأرض الوسيلة التي لا نستطيع أن نعبُدُ اللهَ فيها كما نريد، وأن نجهر بديننا كما نعتقد، ولا قرار في مكان تُراد فيه على دين لا نظمئن إليه، ولا كرامة في وطن نُقهر فيه على رأي لا نعتقده.

وأصبحوا جميعاً يحملون زادهم، مفارقين أوطانهم، مهاجرين بدينهم. ولمحهم كلب في الطريق فسار في إثرهم، وتعلّق بهم، فلم يروا بأساً في أن يرافقتهم، ويصحبهم أو يحرسهم.

وما زالوا في سيرهم حتى انتهوا إلى الكهف، وهناك وجدوا ثماراً فأكلوا، وماءً فشربوا، ثم اضطجعوا قليلاً ليُبرِدوا أقدامهم، ويعيدوا ما ذهب من عافيتهم في أثناء سيرهم، ولكنهم ما عتَمُوا أن أحسوا إغفاءة خفيفة، داعبت جفونهم، ثم أسلمت رؤوسهم إلى الأرض في نوم عميق.

وتعاقب ليلٌ إثر نهار، ومضى عام وراء عام، والفتية راقدون، والنوم مضروب على آذانهم والكَرَى<sup>(١)</sup> معقود بأجفانهم، لا تزعجهم زُفجرة الرياح، ولا يوقظهم قصف الرعود، تطلع الشمس فتنفذ إلى الكهف من كوته، فتمنحه الضوء والحرارة، ولكن أشعتها لا تصل إليهم، وتغرب فتميل وتبتعد، تحقيقاً لما أراد الله من حفظ أجسادهم، وبقاء جثثهم. ولو اطلع مطلع عليهم لرآهم يتقلبون مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، وقد تغيّرت حالهم، يبغثون الرعب فيمن يراهم، والهول فيمن يطلع عليهم.

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة منذ نومهم، انتبهوا بعدها، وهم لا يكادون يُمسكون نفوسهم من الجوع، أو يجمعون أعضاءهم من التعب، ظانين أن الزمن لم يمض بهم، وأن عجلة التاريخ واقفة عند كهفهم.

قال واحد منهم يسأل: يُخَيَّلُ إليّ أن ساعات طويلة رقدناها، فما تظنون

يا رفاق؟

(١) الكرى: النوم.

وقال الثاني: ربما نكون قد لبثنا يوماً، فإنَّ الجوع الذي نُحسُّه، والتعب الذي نشعر به، ليُؤدِّن بما أظن.

وقال الثالث: نحن قد رقدنا في الصباح، وهذه الشمس لم تطفُل<sup>(١)</sup>، فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضاً من يوم.

وقال الرابع: دعونا من تساؤلكم، فالله أعلم بما لبثتم، ولكنني أحس الجوع شديداً، وكأنني لم أطعم منذ ليال، فليذهب واحد منكم إلى المدينة يلتبس لنا طعاماً، وليكن حذراً لبيياً، فطناً أريباً، حتى لا يعرفه أحد، ولا يفطن إليه إنسان، إنهم لو ظهروا علينا، وعرفوا مكاننا، يقتلوننا أو يقتنوننا في ديننا.

فخرج إلى المدينة واحد منهم يلتبس الطعام، وهو خائف حذر، ودخل أفسوس. وما راعه إلا تغيير في معالمها، وانقلاب في مبانيها: هذه خرائب أضحت قصوراً، وتلك قصور أمست خرائب وأطلالاً، وتلك وجوه لم يعرفها، وصور لم يألّفها:

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحي غير رجاله

وتحيّرت نظرائه، وكثرت لفتاته، وظهر الاضطراب في مشيته، والوجوم في حيرته، وألح عليه الاضطراب، وتتابع الوجوم<sup>(٢)</sup>، حتى لفت الناس إليه.

قال له أحدهم: أغريب أنت عن هذا البلد؟ وفيه تأمل؟ وعلام تبحت؟ قال لست غريباً، ولكنني أبحث عن طعام أشتريه، فلا أرى مكان بيعه. وأخذ الرجل بيده حتى انتهى به إلى صاحب طعام. وأخرج صاحب الكهف دراهمه، ونقدها التاجر، وما راعه إلا أن رأى نقوداً ضربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام، فحسب أنه عثر على كنز، وأن من وراء دراهمه دراهم كثيرة، وأموالاً عظيمة، فجمع الناس من حوله ودلّفوا<sup>(٣)</sup> إليه من كل مكان.

فقال: يا قوم، ليس الأمر كما زعمتم، وليست هذه النقود كما توهمتم، وإنما هي دراهم قد وقعت لي في بعض معاملتي مع الناس بالأمس، وأنا أشترى بها طعامي اليوم، فما يدعوكم إلى الدهشة؟ وما يدفعكم للافتراء عليّ بما تظنون؟ ثم هم بالعودة، خشية أن يفتضح أمره، أو تظهر حقيقة حاله، ولكنهم عادوا فرفقوا به وتلطفوا معه في القول، وحاوروه في الحديث. وما كان أشدّ ذهولهم حينما

(١) لم تطفل: لم تدن للغروب.

(٢) الوجوم: السكوت بسبب الاندهاش.

(٣) دلّفوا: أقبلوا واجتمعوا.

علموا أنه أحد الفتية الأشراف، الذين هربوا من تسع وثلاثمائة سنة من ملكهم الجائر الكافر وأنهم هم الذين - فيما سمعوا - تطلبهم الملك فلم يظفر بهم، ونشدهم فلم يهتد إليهم. وما كان أشد خوف الرجل حينما علم أنهم فطنوا لأمره، وعرفوا قصته، فخاف على نفسه وإخوانه، وهم بالهرب.

قال له أحدهم: لا تُرغ يا هذا إن الملك الذي تخافه قد مات من نحو ثلاثمائة عام، وإن الملك الذي يجلس الآن هو مؤمن بالله كما تؤمنون، وأما أنت فأين بقية صحبك؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله، وعرف تلك الفجوة من التاريخ، التي تفصل بينه وبين الناس، فهو الآن لا يعدو أن يكون شبحاً يمشي، أو ظلاً يتحرك. ثم قال لمن يحدثه، دعوني أذهب إلى صحبي في الكهف، أحدثهم عن شأني وشأنهم، فربما يكون قد طال انتظارهم، واشتد قلقهم.

وسمع الملك بأمرهم، فخف إلى لقائهم، وسعى إلى كهفهم، فرأى فيهم قوماً أحياء تُشرق بالحياة وجوههم، وتجري الدماء في عروقهم. فصافحهم وعانقهم، ودعاهم إلى قصره، والإقامة في داره، فقالوا: وما نبغي بالحياة، وقد مات الحفيد والولد، وعفت الدار والسكن، وانقطع ما بيننا وبين الحياة من أسباب؟ ثم توجهوا إلى الله طالبين أن يختارهم إلى جواره، وأن يشملهم برحمته، وما هو إلا ارتداد الطرף حتى وقعوا أجساداً لا حياة فيها.

أما القوم فقالوا: لعل الله أعثرنا عليهم، لنعلم أن وعد الله حق، والبعث صدق والساعة آتية لا ريب فيها. ثم تنازعوا أمرهم بينهم، ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِيَانًا لِّبُنِيهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].



## أصحاب الأخدود (\*)

صنعاء<sup>(١)</sup> قد لفتحها الشمس بسهامها المحمأة، ومستها الصحراء بأوارها المتسعر<sup>(٢)</sup>، ولهذا أفقرت شوارعها، وسكنت حركتها، وختت من الناس، إلا رجلاً ظهر فجأة من الشمال، وكأنه قادم من الصحراء، وقد جاوز الأرياض والحدود، واتخذ سبيله نحو قصر الملك ذي ثواس.

وكان كل ما فيه يبعث على الشك والارتياب: وجه يعلوه الوجوم، وعينان تختلج فيهما الحيرة، وخطوات مضطربة غير مطمئنة، وكأن بين جنبيه سراً يريد أن يُفضي به، أو أمراً جليلاً قدم من أجله. إلا أن حارس القصر لم يدعه يستمر في اضطرابه، بل سأله ما قدمه في هذه الساعة التي ألزم فيها الحرّ الناس الدور، وسكن فيها الإنسان والحيوان، والطير والنبات؟

قال الرجل: أتيت في أمر جليل الخطر، عظيم المقدار، أكاشف به ذا ثواس.

قال الحارس: إن الملك في شغل عن لقائك، ولقاء غيرك من الطراق والوافدين، وإن يكن انتهى من قتل ذي السناتير، وتوطيد الملك في صنعاء، وإرجاع اليهودية في اليمن إلى ما كانت عليه في عهد تبع، إلا أنه يعدّ العدة، ويهيئ الرحلة لغزوة بعيدة في الأرض تنتظم الشرق والغرب، والسهل والجبل. وقد أقسم يميناً غليظاً ألا يقرب له جنب على وساد، ولا يغمض له جفن على نوم هادئ حتى يرى اليهودية ديناً شاملاً، وحكم التوراة في الأرض نافذاً. وهو حينما تضيّف<sup>(٣)</sup> الشمس للغروب، وحينما تخف وطأة الحرّ، يخرج إلى هذه الحديقة من القصر، ويجمع إليه الأذواء والأقبال<sup>(٤)</sup> والأشراف والقواد، الذين تألفهم لطاعته، وأرادهم على دينه، فيشاورهم في الأمر، ويهيئون جميعاً سبل الغزو والجهاد.

قال الرجل: إنني لم أبعد شيئاً عما فيه الملك، وإنني ما قدمت عليه إلا في

(\*) البروج، والأخدود: هو الخندق الطويل في الأرض.

(١) صنعاء: مدينة باليمن.

(٢) بأوارها المتسعر: بحرّها المتقد.

(٣) تضيّف: تميل.

(٤) الأذواء والأقبال: ملوك اليمن.

أمر له صلة بهذا الدين الذي يَسَلُّ سيفه في سبيله، ويريد أن يحمل الناس على اتباعه، ولو أنك حدثته بما قدمت له فإنني لا أرتاب في أنه سيدعوني إليه، ولا أشك في أنه سيهتم لهذا الشأن، وسيكون منه موضع تفكير وتدبير.

ثم أوى إلى زاوية من زوايا القصر، ريثما تخف وطأة الحر، وينزل الملك ليأخذ مع من يجيء إليه فيما يهمهم من شؤون.

وخرج ذو نواس من مخدعه، وأخذ سبيله إلى مكانه من حديقته، واجتمعت حوله حاشيته. وقبل أن يخوضوا في الحديث جاء الحاجب يقول: إن رجلاً قدم اليوم من نجران<sup>(١)</sup> للقاء الملك، وإنه - فيما يزعم - يريد أن يُفْضِيَ إلى الملك بأمر دين جديد، يخشى منه على اليهودية.

قال ذو نواس: دين جديد؟! عليّ بالرجل من فورك. وجاء الرجل فقال: أيها الملك المتوجّع نَعِم مساؤك، ودام لك سلطانك، وليهينك الظفر بأعدائك، وليهين لك الله هداية وتوفيقاً فيما تريد. جئتك يا مولاي لا طالباً رفاً، ولا مُستعدياً بك على مظلوم، ولكنّ حادثاً بنجران قد وقع، وإنه إن لم يتدارك أمره، فإنه يوشك أن يمتد إلى غيرها من البلدان، وربما امتد إلى اليمن، وربما جاوزها إلى غيرها من أصقاع الأرض.

فقال ذو نواس: قد رَوَّعْتَنِي بأخبارك، وشغلت بالي بحديثك، فهاتِ لما أجملت تفصيلاً، ولما لوحت به بياناً وتبييناً.

قال الرجل: إنه منذ أيام دخل على نجران دين جديد يدعونه النصرانية، ويُبشرون له باسم عيسى المسيح، فأما الوثنيون من أهلها فقد ارتاحت قلوبهم إليه، وتغلغل في نفوسهم، ودخلوا فيه أفواجا، وأما اليهود ففريق منهم صبأ عن دينه، ودخل فيما دخل فيه الوثنيون، وفريق ظل على اليهودية، ولكنه مُمتحن بالأذى، مُبتلى بالكيد، وإن لم يتدارك الملك اليهودية بنجران فإنه يوشك أن يَمحي ظلها، ويعفو رَسْمها، وينتهي تاريخها.

فاستوى ذو نواس في جلوسه؛ وكأنه قد غُص بريقه وقال: كيف دخل هذا الدين نجران؟ وكيف مكن له في هذه الأرض؟ وكيف استطاع أن يصل إلى القلوب على قرب عهده وحدثه ميلاده؟ زدني إيضاحاً.

قال الرجل: قد وفد على نجران فيمن يفد عليها من الأرقاء رجلان: أحدهما رومي واسمه فيميون، والآخر عربي واسمه صالح، أما فيميون فاشتراه رجل من

(١) نجران: إقليم باليمن من ناحية مكة.

الوثنيين عبّاد النخلة، فوجده كريماً مسماًحاً، يجول في عُرتَه ماء التقوى، ويفوح من خلّائه عَرَف الصّلاح، فكان يعمل له عامة يومه، لا يعرف الكلال ولا الشكوى، فإذا كان المساء أوى إلى حجرة أفردّها ليصلي فيها.

وطلع عليه سيده يوماً فوجده يصلي، والحجرة مضيئة من غير سراج! فعجب منه وسأله عن دينه، وهل يؤدي عبادة أخرى لغير هذه النخلة التي يعبدونها، ويستلهمون أسرارها، قال: إنما أعبد الله مالك الملك ومدبّر الخلق، ومصدر الوجود، ذلك الذي أرشد النبي عيسى إلى وجوده، ودلّ على قدرته، وأما هذه النخلة فإنها لا تملك ضراً ولا نفعاً، بل لا تستطيع جلب خير لها، ولا دفع شر يُراد بها، ولو شئت لدعوت الله أن يرسل عليها ريحاً تجففها، أو ناراً تحرقها، فربما فعل، وربما استجاب.

قال له سيده: أو تستطيع؟ قال فيميون: أتؤمن بديني لو فعلت؟ قال: نعم، فصلى فيميون - فيما يزعم أصحابه ومريده - ودعا الله فأرسل على نخلة سيده ريحاً جففتها وألقته. فعند ذلك آمن الرجل، وشاعت هذه القالة في نجران، ودخل الناس في النصرانية أفواجاً. ولست ترى الآن في هذه الأرض إلا من دخل، أو هو سيدخل في هذا الدين<sup>(١)</sup>.

قال ذو نواس: وهل بقي عندك فضل<sup>(٢)</sup> من حديث؟ قال الرجل: لو شئت لحدثك ما يتناقله أهل نجران عن فيميون، لتعلم مبلغ حبه لدينه. وتعلقهم بذاته.

قال ذو نواس: هات كلّ ما عندك، فإنك قد شغلت بالي بحديث هذا الدين وأمر هذا الرجل.

قال: زعم رفيقه صالح - من تاريخه معه - أنه بينما كان يعمل في قرية من قرى الشام، بصّر بفيميون سائراً في إحدى طرقاتها، فشهد عليه علائم التقوى وتحدّث معارفه عن عقل راجح، فأحبه وعلق به. وقد تبعه أنى ذهب من حيث لم يشعر بذلك، حتى خرج في يوم من أيام الأحاد إلى الصحراء يصلي، وبينما هو في صلاته أقبل نحوه تئین فاغرّ فاه! فدعر صالح وارتاع، وصاح: يا فيميون، احذر

(١) وفي رواية لأحمد: أن سبب شيوع الإيمان بالله هو غلام آمن على يد راهب ثم عجز الملك عن قتله لأن الله أيده فقال الغلام للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال وما هو: قال تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل باسم الله رب الغلام.

ف فعل الملك ورماه بهذا السهم فقال الناس: آمنا بالله رب الغلام.

(٢) فضل: أي بقية.

التنين فإنه مقبل نحوك، ولكن فيميون أقبل على صلاته، وما اقترب منه التنين حتى مات<sup>(١)</sup>! عند ذلك ظهر له صالح، واستأذنه أن يرافقه ويأنس به، فأذن له، وما زالا ينتقلان من قرية إلى قرية، وفيميون يظهر من كراماته وعجائبه، مما زاد صالحاً فيه حباً، وبه تعلقاً. حتى كانا بإحدى البوادي إذ طلع عليهما بعض قطاع الطرق، وأخذوهما أسيرين، ثم باعهما، وكان من أمر فيميون ما سمعت.

وما انتهى الرجل من حديثه، حتى ثارت حفيظة<sup>(٢)</sup> ذي نواس، واضطربت نار الغضب في صدره، أن يظهر في نجران دين غير اليهودية، و يعلو فيها حكم لغير التوراة. وحلف لا يغمد سيفاً، ولا تسكن منه ثائرة، حتى ينكل بأهل نجران، أو يرجعوا إلى اليهودية مذعنين.

وخرج ذو نواس من صنعاء بجيش يملأ أقطار الأرض قاصداً نجران، فلما وصل إليها ضرب من حولها نطاقاً، فارتاع<sup>(٣)</sup> أهلها وذهلوا! ولكنه قبل أن يبدأهم بعذاب أو ينالهم بمكره جمع ساداتهم، وأصحاب الزعامة فيهم، وقال: إني قد رأيت - كرمياً وتفضلاً - قبل أن يستحز فيكم القتل، ويعمل فيكم السيف، وينالكم الأذى؛ أن أخيركم بين اليهودية، ديني اليوم ودين تبع من قبل، وبين ما اعتنقتموه من دين جديد. ولست بصانع لكم العذاب حتى تفكروا، ولا بمُعْجِلٍ فيكم السيف حتى تندبروا.

فقالوا: إنما ديننا الجديد دين أشربته نفوسنا، ودخل شغاف قلوبنا، وما لنا عنه محيص ولا معدل، وسواء علينا أوسعت لنا في الأجل، أم عجلت لنا بالموت! فلما رأى منهم إصراراً وعناداً وتمسكاً بدينهم واعتصاماً، أمر بشق أخدود<sup>(٤)</sup> في الأرض، وأحضر وقوداً وحطباً. ثم أشعلوا النار، وبعثوا الدخان، وأخذوا أهل نجران يلقونهم في لهبها، لم يعفوا شيخاً، ولا امرأة عجوزاً، ولا طفلاً رضيعاً حتى خلت نجران من النصارى، ولم يبق بها غير اليهود.

### سبل العرم (\*)

قامت دولة سبأ على أطلال الدولة المعينية باليمن، وخلفتها في لغتها وعاداتها، واقتبست منها حضارتها ومدنيتها وتدرجت من الإمارة البسيطة، إلى

(١) وهذا من مزاعم آباء الكنيسة، ولا تنين في الأرض، بل هو خرافة.

(٢) الحفيظة: الغضب.

(٣) ارتاع: خاف.

(٤) الأخدود: الشق الكبير في الأرض.

(\*) سبأ ١٥ - ٢٠.

الدولة المحدودة، إلى الملك الواسع العريض. وأسسوا القصورَ الشامخة بصرواح<sup>(١)</sup>، ثم انتقلوا منها إلى مأرب واتخذوها حاضرة لهم، حيث أخصب لهم العيش، وطابت الحياة، وتقلبوا في أعطاف النعيم.

كانت اليمن بلاداً مُستفيضة الرقعة، ذات أودية عريضة، وتربة خصيبة، ولكنها كانت شحيحة بالماء مقفرة من الأنهار، إلا وابلأ<sup>(٢)</sup> من المطر يتحدّر من سفوح الجبال، ثم يمضي قُدماً إلى الصحراء ولا يلوي على شيء، حتى يأخذ سبيله إلى باطن الأرض، فلا يلبث إلا كما يلبث الطيف، أو تقيم سحابة الصيف، فألجأتهم الحاجة إلى أن يبتدعوا أمراً يتوقّون به هذه السيول، ثم ينتفعون بها، فهُدوا إلى طريقة السدود والحواجز، يقيمونها بين الأودية، ويصطنعون الطرق الهندسية التي تسهّل الانتفاع بما تخلفه وراءها من مياه.

كثرت هذه السدود، وتعدّدت تلك الحواجز، بكثرة الأودية وتعدّد الجبال حتى جاوز عددها المئات، ولكن سد مأرب كان أقواها وأمتنها، وأجداها وأنفعها. تقع مدينة مأرب في نهاية وإد فسيح يتجه إلى الجنوب، ثم يقصر أمده، وتضيق رقعته رويداً رويداً، حتى يكون أضيق ما يكون، ثم يمتد حتى يلتقي بمجرى السيول المتحدرة من جبال السراة.

ففي هذا الوادي أقام الملوك الصّيد<sup>(٣)</sup> من سبأ سداً عريضاً منيعاً حصيناً، قوياً مكيناً؛ وجعلوا على جانبيه مصارف بطرق هندسية منتظمة، هيأت لهذا الوادي أن يصبح بفضل ما احتجزوه من الماء أرضاً خصيبة، فيها زروع نضرة، وحدائق ذات بهجة، ونطقت تلك الحجارة الصماء بألفاظ من الأشجار مورقة، وأساليب من الأزهار مُعجبة، واستحالت رمال الصحراء بسطاً هندسية خضراء، تجري بينها القنوات الملتوية، وتصدّح في خمائلها الشحارير<sup>(٤)</sup> المغنية، إلى الأثمار الدنية القطوف، والأزهار المعجبة الألوان.

كانت المرأة تسيّر وسط هذه الحدائق حاملة مكّتلها<sup>(٥)</sup> فوق رأسها، فلا تمضي في السير غلوة<sup>(٦)</sup>، حتى يكون قد امتلأ المكّتل من الثمر المتساقط من

(١) صرواح: مدينة ذات حصون باليمن.

(٢) الوابل: المطر الكثير.

(٣) الصّيد: جمع أصيد، وهو الملك العظيم المتكبر.

(٤) الشحارير: جمع شحرور، وهو نوع من الطيور.

(٥) المكّتل: وعاء من خوص.

(٦) غلوة: مسافة كبيرة.

شجرة... واتسعت لديهم النعمة وفاض عندهم الخير، واشتغل جماعة منهم بالتجارة والرحلة، فكانوا يسبرون إلى القرى التي بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين، لا يسبرون مرحلة أو مرحلتين حتى يكون الله قد هياً لهم مكاناً يُبردون فيه أقدامهم، ويريحون أبدانهم، ويتغللون، بطيب الزاد، وعذب الماء، وهم فيما بين ذلك آمنون مطمئنون، نعمة تظاهر نعمة، وفضل من الله يعقب فضلاً: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

فكانوا خُلُقَاء<sup>(١)</sup> أن يشكروا لله نعمته، وأن يحمده على ما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ولكنهم جَرَوْا في عِنان بعض مَنْ سبقهم من الأمم، وساروا في دروبهم، وتقلوا<sup>(٢)</sup> طريقهم ومذهبهم، فكفروا بالنعمة، وبالغوا في البطر والأثرة<sup>(٣)</sup> حتى أرسل الله فيهم أنبياء نصحوهم، فأعرضوا، وهداة مرشدين حاولوا إصلاحهم وشغلوا عن العمران، فأراد الله أن يذيقهم وبال أمرهم، وأن يريهم عاقبة كفرانهم، ليكونوا عبرة لغيرهم ومثلاً لما يأتي من بعدهم، وعقوبة قاسية لمن تحدثه نفسه أن يسلك طريقهم، ويفعل فعلتهم.

فتهدم السد، وتقوض البناء، ولم يستطع أن يحجز السيول المتدفقة، والأواذي المتلاطمة. وانطلقت المياه الحبيسة في شعاب الوادي، وبين الغياض، فغرق الزرع، وهلك الضرع، وتقوض البناء، وعاد الوادي كما كان في صحراء مقفرة صامتة مجدبة لا نبات فيها سوى أشجار لا تثمر إلا كل مُرْبَشِع، وأثل لا غناء فيه، وشيء من سِدْر<sup>(٤)</sup> قليل، وهربت العصافير والبلابل، وخلفها البوم يصيح فوق الخرائب العافية، والغربان تتعق في ذرى الأشجار الجافة. أما الأهلون فإنهم لما رأوا أن معين رزقهم قد غاض، وتبع نخسهم قد فاض، لم يطيقوا صبراً على أن يقيموا في صحراء كانت بالأمس جناناً، وخرائب قطنوها قصوراً، ففارقوا أوطانهم على الكره منهم، ونزحوا عن ديارهم بقلب محرور، وعين عبرى. ثم تمزقوا في شتى البلاد، غسان إلى الشام، وأنمار إلى يثرب، وجذام إلى تهامة، والأزد إلى عمان، ومزقوا كل ممزق، حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل، وحكايات تروى، وأحاديث تتداول.

كانوا في نعمة سابغة فلم يحفظوها، وثياب من العز ضافية فلم يصونها، فجزاهم الله بما كفروا، ﴿وَهَلْ يُجِزِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سبأ: ١٧].

(١) خُلُقَاء: جديرين.

(٢) تقلوا طريقهم: حاكوها وشابهوها.

(٣) الأثرة: حب النفس.

(٤) السدر: شجرة التبق.

## أصحاب الفيل

ملك ذو نواس بلاد اليمن، وهي تلك البلاد التي تكثر خيراتها، وتفيض بالأرزاق أرجاؤها، ولما قبض على ناصية الملك فيها نَقَم<sup>(١)</sup> من سلفه لانغماسه في اللذات، وجنوحه إلى دواعي الشهوات، وأنكر عليه ميله إلى الإثم، وإغراقه في الفحش، فأنبأ ذلك عن نفس تطمح إلى الزهد في الدنيا، وتميل إلى التأني عن المآثم والفجور، وتحب البعد عن مباحج الحياة وزخرفها، وترغب في إصلاح النفوس وبث روح الدين في الرعية. وقد كان منه بعد ذلك ما صدق هذا الحدس وأكد هذا الظن.

مرّ ذو نواس يوماً يثرب<sup>(٢)</sup> مجنازاً، وقد كان بعض أهلها استجابوا لليهودية، وأشرت بها نفوسهم، وتأصلت في قلوبهم مبادئها، واتخذها دعاة اليهود منبراً لدعوتهم، ومعقلاً لديانتهم، وانتشرت فيها معابدهم، وصارت وكرّاً لمبشريهم، وعشاً لدعاتهم. وسرعان ما هرعوا إليه يلقون شيئاً من مبادئ اليهودية، ويبسطون له ما عرفوا من خصائصها، عليهم يجدون منه عضداً لهم، ومساعداً على نشر دينهم. فصادف هذا الدين هوى في نفسه، ورغبة كانت كامنة في فؤاده، فأحبه وجاهر بالدعوة إليه، ونصب نفسه داعياً له ونصيراً، ثم دعا العرب جميعاً إلى مشايعته فيه، والدخول في زمرته، واشتد في عقاب من خالفه. فأطاعه بعض العرب، منهم من يخاف بطشه وقوته، وقليل منهم انخرط في سلك هذا الدين بعد أن رآه يصلح نفسه، ويوافق هواه. وشاع أمر ذي نواس، وعظمت شوكته، وخاف الناس بأسه، فدخلوا في الدين الجديد أفواجا.

ولكن أهل نجران قد تفتحت قلوبهم لدين جديد، وهو الدين المسيحي، علق بأنفسهم، واختلط بقلوبهم، فكانوا خارجين على دولة ذي نواس.

ووفد إلى ذي نواس من يثبته عليهم، ويغيره بهم، عله يهدم ذلك الصرح الذي امتنع عليه دخوله، ويفتح هذا الحصن الذي أعياه ولوجه، ويمحو هذا الدين الذي يوشك أن يُمحى به ظل اليهودية، ويعفو رَسْمها، وينتهي تاريخها.

فاستجاب لهذا الدعاء، وأندفع وراء هذه الغواية، وخرج إلى أهل نجران يدعو إلى نبذ<sup>(٣)</sup> دينهم، ويأمرهم بالأخذ بدينه، والدخول في زمرة أشياعه وأتباعه.

(١) نَقَم منه: عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله.

(٢) يثرب: هو الاسم القديم للمدينة المنورة.

(٣) نبذ: ترك.

فأبوا الانحراف عن دينهم، وأصروا على امتناعهم، ولم تُزهِبهم عزته، أو تُلِزَّ قناتهم صولته. فعزَّ عليه أن يجد له مناوئاً، ولدينه مخالفاً، فحفر لهم حُفْرَةَ أضرم النار فيها، ثم أذن فيهم مؤذنه<sup>(١)</sup>، أن هذه جزاء لمن لم يدخل في دينه، وهي عقاب لمن يصرَّ على مخالفته. فلم يثنهم أوارها<sup>(٢)</sup>، أو تزغ أبصارهم من وهجها، بل استمسكوا وتشبثوا بعقيدتهم، فرماهم في الأخدود، وصير أجسادهم وقوداً للنار، جزاء عنادهم ومخالفتهم.

فرَّ رجل من هؤلاء الذين اصطلوا بتلك النار، فمضى حتى أتى قيصر ملك الروم، فاستنصره على ذي نواس وجنوده، وأخبره بما كان منهم، فقال له: بَعُدَتْ بلادك منا، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة، فإنه على هذا الدين وهو أقرب من بلادك<sup>(٣)</sup>.

وكتب إليه يأمره بتصره، والطلب بثأره. فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر وشكا إلى النجاشي ما حلَّ بقومه من الهلاك والدمار، وأسمعه أنين القتلى، وِعَوْتُ الشهداء، ونعى إليه رجال المسيحية والحامين ذمارها<sup>(٤)</sup>.

وعزَّ على النجاشي أن يخبو ضوء الدين المسيحي في هذا البلد، وتنظف شعلته في ذلك المعقل؛ فصمَّ على الثأر من ذلك الذي أراق دماءهم، واستباح أموالهم، وأهلك زروعهم. وجَهَّز جيشاً كثر عدده، وتوافرت عُذَّته، وبعث به إلى اليمن يغزو ملكها، وينتقم من أهلها.

ولما التقى الجمعان، واشتبك الخصمان؛ تتابعت الهزائم على ذي نواس وأصحابه، وأخيراً أسلمت<sup>(٥)</sup> اليمن إلى النجاشي قيادها، وألقت إليه بزمامها، وبذلك أصبحت بلاد اليمن ولاية تابعة لنصارى الحبشة يتجبرون فيها.

ثم صار أبرهة والياً على الحبشة؛ فأراد أن يعيد إلى الدين المسيحي شأنه،

(١) أي أعلمهم.

(٢) أي فلم يصرفهم عن عقيدتهم شدة حر هذه النار.

(٣) السبب الحقيقي لاستعداد الحبشة على اليمن هو الطمع في استغلال الطريق التجاري لتوابل الشرق، لا حرصاً مصطنعاً على المسيحية.

(٤) الدمار: كل ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه. وإن ضيعته لزمك اللوم.

(٥) كانت اليهودية هي دين الأقلية الحاكمة المتسلطة. وهذه زالت وأسلمت قيادتها للغزاة المسيحيين الجدد.

أما عامة اليمنيين فقد ظلوا يمجِّتون اليهودية والمسيحية على السواء، ولم يقبلوا أيًّا منها كديانة للشعب.



ويرجع إليه قوته؛ ولما رأى الناس جميعاً يقصدون مكة، يحجون بيتها الحرام وكعبتها المقدسة، فكر في أن يغتصب ذلك الإكليل الذي ازينت به قريش، وأراد أن يصرف الناس عن مكة وبيتها، ويجذب قلوب الناس نحو بلاده، ويستميلهم إلى دينه، فبنى كنيسة بصنعاء<sup>(١)</sup>، وزينها بما يُبهر الأبصار، ويأخذ بالألباب، وعُني بزخرفتها غاية العناية، وجلب لها فاخر الأثاث وثمان الرياش ما خيل إليه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه. ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن أنفسهم يدعون البيت الذي بناه، وينصرفون إلى مكة. واشتد غيظ العرب، واشتعلت نيران الحقد في نفوسهم، إذ رأوا لبيتهم مناوئاً<sup>(٢)</sup>، ولموئل أصنامهم عدواً، فعمدوا إلى تحقير بيته، والخط من قدره، فأحدث فيه رجل من كنانة ليلاً

ولما علم أبرهة بذلك اشتد غضبه، وغلى رجل غيظه، وأقسم ليهدم الكعبة، وليزيلن بيت إبراهيم وإسماعيل، وليثأرن لكنيسة من العرب، حتى ينصرفوا عن كعبتهم، ويؤلوا وجوههم نحو بيته.

تهيأ للحرب، وقاد الجحافل تتقدمها الأفيال، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب، الذي هو مؤئل حجيجهم، ومغقد آمالهم، ومكان اجتماعهم.

ولما سمع العرب بذلك النبأ عز عليهم أن يقدم رجل نصراني على هدم بيت حججهم ومقام آلهتهم، فهب رجل من أشراف اليمن يدعى ذا نفر، فاستنفر قومه، واستثار حميتهم، ودعا أهل وطنه وغيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة، وصدّه عن عزمه. ولكنه لم يستطع مقاومته، ولم يصمد للقائه، فهزم ومن التف حولَه، وأخذ أسيراً.

ولكن هل كان هذا مما يثني غيره عن مقاتلة أبرهة، ويُقعد العرب عن محاربتة؟ لا، فإن كثيراً من العرب قد دفعتهم الغيرة على جزيرتهم، والحمية لنصرة دينهم، أي مناوأة أبرهة ومقاتلته، ولكن جيش أبرهة كان أقوى.

سار أبرهة نحو مكة بعد أن ازين رأسه بتاج النصر، وتحلى صدره بوسام الفوز، وخضعت له ضعاف قبائل العرب، وسعت إليه وفودها، تُقدّم له الطاعة، وتظهر له الخضوع، ويسعى أمام جيوشه من يذله على الطريق، ويرشده إلى آمن السبل.

خرج أبرهة ومعه أبو رغال<sup>(٣)</sup> حتى أنزله المغمس<sup>(٤)</sup>. ولما استقر به وبجيوشه

(١) قصة اليمن.

(٢) أي أنه اقترف جريمة الخيانة الوطنية بتعاونه مع العدو الغازي. ولذلك حُق عليه الرجم.

(٣) موضع بطريق الطائف، فيه قبر أبي رغال دليل أبرهة.

(٤) مناوئاً: معادياً.

المقام بعث أبرهة رجلاً من جنده، فساقوا إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، ومن بينها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ صاحب السقاية<sup>(١)</sup>، وشريف قومه، وسيد عشيرته. فهتت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتال أبرهة، ولكنهم رأوا أن لا طاقة لهم به، فاستكانوا لما نالهم من أبرهة، واحتملوا الضيم الذي لحقهم منه.

وبينما هم في هذا الضيق الذي شملهم، وذلك الحزن الذي تخالج في نفوسهم وفد إليهم رجل من رجال أبرهة، يسأل عن سيد مكة، وصاحب السلطان فيها، فأتي به إلى عبد المطلب بن هاشم؛ فلما مثل بين يديه قال له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت؛ فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأنتي به.

فقال له عبد المطلب: واللّه ما نريد حربه، وما لنا به طاقة. قال الرسول: فانطلق معي إليه؛ فإنه أمرني أن آتية بك. فسار معه عبد المطلب ومعه بعض أبنائه وغيرهم من أهل مكة وأصحاب الرأي فيها، حتى معسكره. ولما دخل عبد المطلب عليه قيل: إنه سيد قريش، الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبل؛ وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً، تعلوه الهيبة ويحفه الوقار، فلما رآه أبرهة أكرم وفادته، وأجلّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن يراه الأحباش يجلس معه على سرير ملكه، فجلس على بساطه، وأجلسه معه إلى جانبه؛ ثم أقبل عليه يستفسره عن طلبته، فطلب إليه ردّ ما اغتصبت جيوشه من إبله. فقال أبرهة؛ وقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، فقد جئت لأهدمه، ولا تكلمني فيه؟!!

قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال أبرهة: ما كان ليمنتع مني. قال عبد المطلب: أنت وذاك!

وأسرع أبرهة إلى إرضائه، احتقاراً، وردّ عليه أذواده<sup>(٢)</sup>، وعرض وفد مكة على أبرهة أن يرجع عن هدم الكعبة، على أن ينزلوا له عن ثلث ثروة تهامة؛ ولكنه أبى الإصغاء إلى أي حديث في هذا الشأن، ورفض أن يقبل أي فدية، فانصرفوا وقد أفرغهم الخطب، وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة.

(١) في الحديث: «كل مائرة من مائر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسقاية البيت» وسقاية الحاج هي ما كانت قريش تسقيه الحاج من الزبيب المنبوذ في الماء.  
(٢) الذود من الإبل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وجمعه أذواد.

ونصح لهم عبد المطلب أن يخرجوا إلى شَعَاب الجبل، إبقاءً على نفوسهم، وحفظاً لأرواحهم، وتخوفاً عليهم من مَعْرَةِ الهزيمة. وكانت ليلة ليلاء<sup>(١)</sup>، تلك التي فكر فيها القوم في هجر بلدهم، وفيما هو نازل بها وبهم، فاشتد الهزج والمزج وتعالى الضجيج والعيول، وكنت ترى الناس وقد اكتظت بهم شُعُوف<sup>(٢)</sup> الجبل، وضافت بهم شوارع المدينة، وكنت تسمع رُغَاء الإبل، وثغاء الغنم، ووعويل النساء، وبكاء الأطفال<sup>(٣)</sup>.

وخرج عبد المطلب من بين تلك الجماعات النازحة، وذهب معه نفر قريش إلى البيت، وأمسك بحلقة باب الكعبة، وجعل يدعو ويدعون، يستنصرون الله على أبرهة وجنده، ويضرعون إليه أن يمنع بيته، ويحمي كعبته، ثم انطلق ومن معه من قريش، حتى صعدوا في الجبل، ومكثوا ينتظرون ما يفعل هذا الطاغية بمكة إذا دخلها!

وخلت مكة منهم، وأن لأبرهة أن يوجّه جيشه ليهدم البيت، فتهاياً لدخول مكة، وجّهز فيله<sup>(٤)</sup> وعبئ<sup>(٥)</sup> جيشه، ولكن الله أرسل عليهم أسراباً من الطير، تحمل في مناقيرها حجارة رمتهم بها، فهشمت رؤوسهم، وأدمتهم، ففتك بهم المرض حتى جعلهم جثثاً هامدة، وأشلاء مُمزقة.

وأصاب أبرهة شيء مما أصاب جنده، فأخذه الرّوع<sup>(٦)</sup>، وداخله الفرع، فأمر من بقي معه بالعودة إلى اليمن، بعد أن فني عدد عظيم من جنده، وتشتت شمله وتفرق جمعه، وبلغ صنّعاء، وقد وهنت قوته، ثم لحق بمن مات من جيشه.

وبذلك حفظ الله لقريش بيتها، وأبقى لها زعامتها. وزاد هذا الحادث العجيب في مكانة مكة، وجعل أهلها يحتفظون بتلك المكانة الرفيعة، ويتربصون لكل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها.

وقد كان ذلك إرهاباً لنبوّة محمد، الذي تفرّع من هذه الأرومة<sup>(٧)</sup> الطيبة، ونشأ في ظل هذا البيت العتيق، وعدّ هذا الحادث من أعجب الحوادث، لأن الله

(١) ليلاء: شديدة.

(٢) شعفة كل شيء: أعلاه وشعفة الجبل: رأسه، والجمع شعوف.

(٣) لقد هربوا إقراراً بالعجز لا تديباً لخطة معينة.

(٤) برك الفيل في وادي المحسر ما بين مزدلفة ومنى في المكان الذي يضيق فيه الوادي وجعل كلما لفت أبرهة رأسه تجاه الكعبة برك وإذا وجهه إلى اليمن قام ليمشي.

(٥) عبئ الجيش: هياه للحرب.

(٦) الرّوع: الخوف الشديد.

(٧) الأرومة: أصل الشجرة وما يبقى منها في الأرض بعد قطعها ويراد بها الحسب.

رد أصحاب الفيل على أعقابهم خاسرين، فأزخ العرب بعامه<sup>(١)</sup>، وتحدثوا بوقوعه، وصار ذكرى لهم، وحديث أبنائهم.

### بلال (\*)

دَلَفَ<sup>(٢)</sup> الرجل إلى أمية بن خلف، وهو في مجلسه من ناديه في قريش. وقال له: أوما بلغك الخبر؟ قال أمية: وما كان؟ قال: لقد شهدت عبدك بلالاً يختلف إلى محمد في قائلة النهار أحياناً، وفي ظلام الليل آنأ، وهو خائف في مشيته، يبدو عليه الحذر في لفتته، ولقد يخيل إليّ فيما توسمته في وجهه، واستقرأته من حالته، أنه دخل فيما يدعو إليه محمد، وانخرط فيما تهاوى فيه كثير من قومنا في هذا الدين.

قال أمية لمحدثه: أحقاً ما تقول؟ وعلى بيّنة أنت مما تروي؟ قال الرجل: نعم، ولهذا نفضت عليك الخبر، وأفضيت إليك بما أرى، لِيُتَهَذَّبَ هذا العبد وتقضي على هذه الفتنة، التي توشك أن يتدلح لهيبها بين الموالى، وقد أخذت سبيلها بين الأشراف.

انفتل أمية من مجلسه إلى داره، وإن قلبه ليحترق من الغيظ، وهو يعدّ لبلال الشر والمكروه.

وجاءه بلال، ووقف بين يديه يضطرب ويرتعد بعد أن رأى الشرّ يلمع في عينيه، ونار الغيظ تكاد تخرج جمراتٍ من بين جنبيه. قال له أمية: ما هذا الذي بلغني عنك وترامى إليّ من أمرك؟ أحق ما يقال إنك تختلف إلى محمد تحت رواق من الظلام، وستار من قائلة النهار، وإنك آمنت بدعوته، واستجبت إلى أوهامه وضلاله، كافرأ باللات والعزى، صابئاً عن آلهة قريش والعرب؟

قال بلال: أما إذا وصل إليك علمي، وانتهى إليك إسلامي، فإني لا أكتمك أني قد جئت محمداً فأمنت برسالته، وصدّفته فيما يدعو إليه، ولا عليّ بعد أن حدّثتك أن يعلم الناس جميعاً أمري.

قال أمية: أوما علمت أنك مظلوك في يميني، وعبد رقيق كبقية متاعي وأني من يوم أن اشتريتك إنما اشتريت جسمك وعقلك، وتملكت روحك وجوارحك

(١) كان ذلك سنة ٥٧٠ م. وفي هذا العام انتشر الطاعون في الحجاز لقذارة الأحباش.

(\*) الليل ١٤ - ٢١.

(٢) دلف: قدم.

وأنه لا قدرة لعقلك أن يعتقد ما يشاء، ولا لتفكيرك أن يذهب أنى شاء؟ فما هذا الذي تجاوز به حدك، وتخرج به على دين سيدك؟

قال بلال: أما إنني عبدك وأسيرك، وخدامك ومولاك، فهذا ما لا أنكره عليك، ولو أمرتني بقطع وإدْ مُشبع في جوف الظلام لفعلت، أو كلفتني حمل الأحجار في رَمضاء الظهيرة لما شكوت، أما عقلي وفكري، وعقيدتي وإيماني، فهذا الذي لا يقع تحت سلطانك، ولا يدخل في حوزتك، ولا إمكانك، وما يضيرك من إيماني وإسلامي؟ وما يهملك في أن أملك عقلي وتفكيري، ما دمت قائماً على خدمتك، حافظاً لعهدك؟

قال أمية - وقد ثار ثائره، وهاج هائجه: لستَ أيها العبد إلا مملوكاً لي من مَفْرُق<sup>(١)</sup> رأسك إلى أخمص<sup>(٢)</sup> قدمك، وفيما بين ذلك من عملك وتفكيرك. حتى خلجات قلبك، وخَطرات نفسك، وهمسات لسانك، لا تملك من كل ذلك شيئاً. وسأذيقك من ألوان العذاب وضروب النكال حتى أستل ما تعتقده من قلبك، وأمزق نسيج ما تتوهم بين ألفاف صدرك. ثم هجم عليه مغيظاً مهتاجاً، عزيزاً قادراً، غليظ الكيد، شديد الوطأة<sup>(٣)</sup>، وشد وثاقه وقيد يديه ورجليه، ودفع به إلى الصبيان في بطحاء<sup>(٤)</sup> مكة يتلعبون به ويقذفونه كالكرة، ويدفعونه كسقط المتاع.

وعاد أمية في أعقاب يومه إلى بلال يشهد مَضْرع الإيمان في قلبه، ويرى مبلغ العذاب من نفسه وجسمه، ولكن ماذا عسى أن يبلغ العذاب من نفس أسلمت لله، ووجهت وجهها له. وما القيد والأغلال، وما الكيد والنكال بجانب حلاوة الإيمان التي ذاقها، ونعمة الإسلام التي ينعم قلبه بها؟

قال له: كيف وجدت العذاب يا بلال؟ أخيراً لك ما أنت فيه من هم وبلاء، أم عودة إلى اللات والعزى، وكفر بما جاء به محمد، وما يزعمه؟ فنظر إليه نظرة جمع فيها كل ما تطويه نفسه من احتمال للعذاب، واستعداد للبلاء، واحتقار لما يوقعه به أمية من تعذيب وإيذاء، وكأنه يقول له: قد تملك السوط تنال به جسمي، والحبل تغلُّ به عنقي ورجلي، بل لك السهم الذي تستطيع أن تُسَدَّه إلى نحري، والسيف تضرب عنقي، أما أن تملك عقلي وقلبي وتحتكم في ديني وعقيدتي، فهذا الذي لا

(١) المَفْرُق: وسط الرأس.

(٢) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض.

(٣) شديد الوطأة: شديد القوة.

(٤) البطحاء: مؤنث الأبطح، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى.

يستطيع أن يناله بطشك، والذروة التي لا تستطيع أن تريقها بقوتك وسلطانك. ثم زاد بعد نظرته على أن قال: «أحد أحد» إعلاناً لسيده بأنه سيظل على توحيده وإيمانه، وعقيدته وإذعانه، وإن ترادفت عليه ضروب المحن، واستقبلته صنوفُ البلاء.

وظلعت الشمس في اليوم الثاني قوية ملتبهة، انبسطت أشعتها على الصحراء، فاستوقد أديمها واضطرم بالنار إهابها، وجاء أمية ببلال، فأضجعه على الرَّمضاء<sup>(١)</sup> وأتى بصخرة عاتية فأراحها على صدره. وظل بلال بين رمضاء ملتبهة، وصخرة ثقيلة، وفيما بين ذلك الشمس تقذفه بسهامها، والرياح تُزجي إليه غبارها، ولكن كل هذا وبلال لم يُغيّر حرفاً من الكلمة التي أصبحت شعاره وعقيدته، وعنوان إسلامه وإيمانه: «أحد أحد»، هو الله الذي أعبدته وأتوجه إليه، وهو الذي أقصده وأعتمد عليه، لا يضيرني هذا العذاب، ولا يزعجني عن الإيمان به هذا العقاب.

«أحد أحد»، هو الله وحده الذي أستدفع به البلوى؛ وألتجئ إليه في المحنة الكبرى، وإن ضاقت منافذ الأمل، ورثت حبال الرجاء.

«أحد أحد» هو الله وحده الذي بعث محمداً رسولاً، ومرشداً أميناً، ومن نعماء عليّ أن كنت من تابعيه، ومن مُحببيه ومريديه، وكفاء لهذه النعمى سأصبر على هذا البلاء، وأصمد لذلك القضاء.

ثم ما زالت الأيام تتوالى وتتابع، وألوان العذاب على بلال تترادف<sup>(٢)</sup>، وأميه ما يزداد إلا غيظاً وحقدًا، وما يلقي من بلال إلا صبراً واحتساباً، حتى كان أبو بكر يمشي يوماً في بعض شعاب مكة. فإذا بلال يشنُّ من آلامه، ويتلوى في محنته، وأميه واقف أمامه في كبره وجهله، وظلمه وعسفه، ينظر إليه وكأن قد سُفي من غيظه، أو أطفأ وقدة من الحقد بين جنبه! فأدركت أبا بكر الرحمة، وتحركت في نفسه بناتُ العطف والشفقة، فقال لأمية: حرام ترك هذا المسكين غرضاً لعذابك، وهدفاً لبلاتك! وما حظك من هذا الأنين تسمعه، ومن هذه الدموع تبعثها من مآقيها؟ أيّ جرم اقترفه؟ وأيّ إثم أتاه؟

قال أمية - في صلفه وعُجبه وخيالاته: هذا عبدي، وملك يميني أعذبه كيف أشاء، وأطلقه متى أشاء. وما أوقعه في بلائه، وجرّ عليه أسباب شقائه، إلا أنت

(١) الرمض: شدة وقع الشمس على الأرض، والأرض رمضاء.

(٢) تترادف: تتتابع.

وصاحبك؛ وإذا كنت مشفقاً به، وخذباً<sup>(١)</sup> عليه فدوئك اشتريه، وخلصه مما هو فيه. أما ما دام هذا العبد في ملكي، فلن أرفع عنه العذاب، حتى يعود إلى اللات والعزى. وانتزها أبو بكر فرصة يخلص بها بلالاً من محنته، ويرفع عنه عذاب سيده، فقال لأمية: قد اشتريته منك. وليس لك عليه الآن من سبيل، وأما أنت يا بلال فقد أعتقتك حسبة لله وابتجاراً.

فهذا أمية وهذا أبو بكر؛ هذا مؤمن وذاك كافر، وهذا برٌّ وذاك فاجر، وقد سجل الله عاقبتهم، وفصل في أمرهما: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيَجْزِيهَا الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَتْرَكُوهُ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتَيْنَاهُ وَسِعَهُ رَبُّهُ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٤ - ٢١]. وستان ما بين الرجلين، ويا بُعد ما بين العاقبتين.

### الإسراء (\*)

أمضى رسول الله ﷺ ليلة في منزل أم هانئ بعد أن فرغ من شؤون الناس، وصلى العشاء الآخرة، حتى إذا ما كاد النهار ينسلخ من إهاب الليل، وتفتحت الأعين على تباشير الصباح، أهيب به أن يستيقظ للصلاة فنهض، ودعا بالوضوء<sup>(٢)</sup> فتوضأ، وحضرت الصلاة فصلى، ثم دعا إليه أم هانئ ليحدثها، إذ هو ﷺ قد شهد الليلة أمراً عظماً، ورأى مشهداً عجبياً! وقد اختصه الله بفضل، وآثره بشرف، ما يعلم أنه قد حباه أحداً من قبله، أو يتاح لأحد من بعده ولا معديل عن الإفضاء به والتحدث عنه.

وجاءت إليه أم هانئ - وهي بنت عمه أبي طالب، ومن شيعته وأنصاره ومن مؤازريه وأعوانه - فقال لها: يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين. وأعلنها أنه خارج الآن ليلقى قريشاً ويخبرهم بما رأى، ويقف عليهم ما شاهد، تحدثاً بالنعمة وإعلاناً لقدرة الله.

كانت أم هانئ مؤمنة قوية الإيمان، مسلمة أكد الإسلام، ولهذا لم يخامرها شك في صدق ما رأى، ولم يداخلها ريب في صحة ما روى، ولكنها عرفت قريشاً، مكرهم وإيداءهم، وشاهدت قومها، كيدهم وتكذيبهم، فخافت على

(١) حذباً: أي مشفقاً.

(\*) الإسراء.

(٢) الوضوء (بالفتح): الماء الذي يتوضأ به.

رسول الله ﷺ من الكيد والتكذيب، وأشفتت عليه من الأذى والاستهزاء فأخذت بطرف رداءه، وتعلقت به من ثوبه، وقالت: إني أذكرك الله يا ابن عمي، أن تأتي قوماً يكذبون رسالتك، وينكرون مقاتلتك، فأخاف أن يسطوا بك. وتمنت من وراء توسلها، وأملت من وراء تعلقها أن يكتنم حديثه، وأن يحفظ ما رأى بين طيات صدره، حذباً وعظفاً وخوفاً وإشفاقاً.

ولكنه ﷺ يحتمل رسالة البشرية كلها: حاضرها ومستقبلها، فكيف السبيل به إلى الخوف؟ ويتنزل إليه أمر عظيم فكيف يحوطه بالكتمان؟ إنه لا يخاف الكيد والأذى، ولا يخشى الاستهزاء والتكذيب، ولهذا جذب رداءه، وجمع عزمه وخرج.

ذهب رسول الله غير هيب يحدث قريشاً، ولكن أم هانئ تضاعف همها وزاد وجلها. فدعت إليها تبعة - وكانت جاريتها وموضع سرها وثقتها - وقالت: انطلقني خلف رسول الله واسمعي ما يقول، وتعالى بعد ذلك حديثني بما سيكون.

وذهبت نبعة تفص أثر الرسول، ثم عادت إلى سيدتها، وقالت: لقد أدركت رسول الله في الحطيم، بين الكعبة والحجر الأسود، وما أن رآه أبو جهل حتى ابتدره قائلاً - مستهزئاً كعادته، متعنناً كدأبه<sup>(١)</sup>: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله: نعم، أسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال رسول الله: إلى بيت المقدس، قال له: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال رسول الله: نعم، فعاد أبو جهل وقال: أرايت إن دعوت قومك أن تحدثهم بما حدثتني؟ قال رسول الله: نعم وانطلق أبو جهل يعدو كالثور، وينادي: يا معشر بني كعب بن لؤي.

قالت أم هانئ: اجلسي يا نبعة، ثم أتمي الحديث فما أرى إلا أنه سيطول، وجلست نبعة، واستأنفت الحديث، وقالت: ما راعني إلا القوم ينثالون من كل ناحية وينسلون من كل حدب، يقدمهم أبو جهل حتى أحاطوا برسول الله من كل جانب، وطلب أبو جهل أن يخبرهم الرسول بما رأى، وحسب أنه سيغير من قالته، أو يبذل من خبره، فقال رسول الله: إني أسري بي إلى بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى، وصليت بهم وكلمتهم.

قال أبو جهل مُمناً في هزئه ومكره: إن كنت قد رأيتهم فصفهم، قال رسول الله: أما عيسى فوق الرنعة ودون الطول، تعلقه حمرة كأنما يتحادر عن لحيته الجمان، وأما موسى فضخم آدم طويل كأنه من رجال شؤنة<sup>(٢)</sup>. وأما إبراهيم فإنه والله لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه.

(١) الدأب: العادة المستأصلة.

(٢) قبيلة عربية.



ثم عادوا فطلبوا منه آية تدل على صدق ذلك، فقال: آية ذلك أني مررت بعير<sup>(١)</sup> بني فلان بوادي كذا وكذا، فأفترهم حسُّ الدابة فَنَدَّ لهم بعير، فدللتهم عليه وأنا مُوجِّهٌ إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان<sup>(٢)</sup> مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء، وقد غَطَّوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيته كما كان. وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء، يقدمها جمل أورق<sup>(٣)</sup>، عليه غرارتان<sup>(٤)</sup>؛ أحدهما سوداء والأخرى بَرَقَاءُ<sup>(٥)</sup>.

وابتدروا إلى الثنية، فوجدوا العير كما ذكر الرسول، يقدمها جمل أورق كما أخبر. قالت أم هانئ: يا نبعة، وماذا كان من أمر القوم بعد هذه الآيات البيّنات؟

قالت: لقد رأيتهم لَوْوًا رؤوسهم، وغمزوا بعيونهم، ثم صاحوا منكرين بملء حناجرهم. وقد اجترأ المَطْعَمُ بن عدي، فقال: كان أمرك قبل اليوم أمراً يسيراً، فإذا بك اليوم تُعجب وتغرب! نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس نصعدُ شهراً، وننحدر شهراً، وأنت تزعم أنك أتيت في ليلة واحدة! واللات والعزى لا أصدقك، ولقد أشهد أنك كاذب.

وما وصلت نبعة في الحديث إلى هذا المقدار، حتى علت وجه أم هانئ سحابة من الهم، وتحيرت في عينيها دمعة من الإشفاق.

ولكن نبعة استأنفت حديثها وقالت: أما أبو بكر فإنه نطق من فوره، وقال لرسول الله: أشهد أنك صادق. فقال له المَطْعَمُ بن عدي: أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يُصبح؟ قال أبو بكر: نعم، إني لأصدقُه فيما هو أبعد من ذلك، أنا أصدقُه في خبر السماء في غُدُوهِ ورواحه، أفأكذبه في إكرام الله بأن ينقله مسيرة شهر؟ وتبع المسلمون أبا بكر، ولكن وأسفاه! لقد ارتد نفر قليل منهم، لم تتسع عقولهم لأن تدرك قدرة الله، ولم تستروح<sup>(٦)</sup> قلوبهم لما اختص به رسول الله.

قالت أم هانئ: لا بأس على دين رسول الله من هؤلاء النفر الذين ارتدُّوا، فلعل من الخير أن يتعدوا عن صفوف المسلمين، ويمحوا من صحيفة المؤمنين، إذ لا خير للمسلمين في ضعيف متردد، ولا نفع لهم في مذئذب مضطرب.

(١) العير: الإبل تحمل الميرة.

(٢) ضجنان: جبل بمكة.

(٣) الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.

(٤) الغرارة: جمل من اللبن.

(٥) برقاء: كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض.

(٦) تستروح: تستريح.

## الهجرة (\*)

قالت الأوس: إن الحرب قد ضُرستنا، وألقت بصدورها علينا، وهؤلاء بنو عمنا الخزرج قد ألبّوا اليهود علينا: ليشتدّ بهم أزرهم في القتال، فالتمسوا لنا عليهم حلفاً عند بعض قبائل العرب.

وكانت الأوس والخزرج<sup>(١)</sup> قبيلتان تنحدران عن أصل واحد، وتقيمان في المدينة، ولكنّ نار الحرب ما كانت بينهما تنطفئ، ولا ثورة الخلاف تهدأ، وما زال ما بينهما يشتد، حتى كان يوم «بُعث»<sup>(٢)</sup>، ففنيّ فيه رؤساء القبائل وزعماء العشائر، ثم وقعت بينهما هُدنة حالفت الخزرج فيها اليهود، وأخذت الأوس تلتمس الحلف عند العرب.

وفصل عن المدينة رهط<sup>(٣)</sup> من الأوس: أبو الحيسر، وإياس بن مُعاذ وآخرون وولوا وجوههم نحو مكة يلتمسون الحلف عند قريش على بني عمهم من الخزرج، وكان رسول الله ﷺ لا يعرف موسماً يُقام أو جمعاً يَختشد، أو نفرأ يفيد، إلا أذاع فيهم دعوته، ونشر رسالته، لا يبالي الكيد ولا الأذى، ولا الصد ولا الإعراض، فلهداية البشر يدعو، وفي سبيل الله ما يلقي.

وسمع بهؤلاء الرهط، فأتاهم وجلس إليهم، وقال لهم: هل لكم من خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب. وتلا عليهم القرآن، ثم ذكر الإسلام. فقال إياس، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا! فصمت إياس، وقام رسول الله، وانصرف القوم.

وفي الموسم من هذا العام وفد على مكة نفر من الخزرج، ولقيهم رسول الله، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: من موالي يهود<sup>(٤)</sup>؟ قالوا: نعم، قال تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، ودعاهم إلى الله عزّ وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

(\*) الأفعال: ٣١.

(١) هما الأوس والخزرج: ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو... من كهلان سبأ، ملوك اليمن.

(٢) بعث: من أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج، وهو موضع قرب المدينة.

(٣) رهط: جماعة.

(٤) موالي اليهود: أحلافهم.

فقال بعض لبعض: يا قوم تعلموا<sup>(١)</sup> واللّه إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه. ثم أجابوه فيما دعا إليه، وصدقوه فيما بلّغ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم اللّه بك، فسنقذهم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليه، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة، وهناك دعوا قومهم إلى الإسلام، فلقي في نفوسهم الكريمة قبولاً. ومن سؤداء قلوبهم استثناساً، وفشا بينهم الإسلام، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ لرسول اللّه ﷺ.

واستبشر ﷺ خيراً بإيمانهم، وفرح بإسلامهم، واتسعت أمامه رُقعة الأمل، وامتدت خيوط الرجاء. فهؤلاء قريش ما فتئوا يسفّهون رأيه، ويحولون دون قصده، وهم ما برحوا أيضاً يقعدون لأنصاره كل مَرَضِد، ويؤذونهم في كل مكان، ثم هو ﷺ قد عرض نفسه على القبائل، وأعلن دعوته في العشائر: أعلنها في ثقيف وكندة، وفي بني عامر وبين حنيفة، فلم يكونوا خيراً من قريش رأياً، ولا أقلّ منهم صدأً أو إعراضاً. أما هؤلاء القوم من الخزرج فلم يجد عُسراً في إيمانهم، ولم يلقّ جهداً في إقناعهم، إنهم آمنوا مخلصين، وهُدوا مطمئنين، ومن يدري؟ لعلهم يكونون من أنصاره وأعوانه، ومن شيعته وخلصائه.

ومضى عام، وترقّب رسول اللّه الموسم: موسم الحجيج، وإذا اثنا عشر يفتدون مُسلمين: اثنان من الأوس، وعشرة من الخزرج، وأعلنوا للرسول إسلامهم، ومدّ يده الكريمة لبيعتهم، فبايعوه وعاهدوه ألا يُشركوا باللّه شيئاً ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بيهتان يفترون بين أيديهم، وأرجلهم، ولا يعصوا اللّه في معروف. فإن وفّوا فلهم الجنة، وإن عَشُوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى اللّه، إن شاء عذب، وإن شاء غفر. ثم عاهدهم على كتمان أمرهم عن قريش، ووعدهم اللقاء في العام المقبل.

وأرسل معهم رسول اللّه ﷺ مصعب بن عمير<sup>(٢)</sup>، يفقّهم في الدين ويقرّتهم القرآن، ويعلمهم قواعد الإسلام.

(١) تعلموا: اعلموا.

(٢) لم يكن وراء مصعب إلا نبي مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الاغراء ما يطمع طلاب الدنيا. كل ما لديه ثروة من الكياسة والفتنة قبسها من النبي وإخلاصه لله جعله يضحي بمال أسرته وجاهاها في سبيل الإسلام.

وعادوا إلى المدينة ونور الله يضيء بين جوانحهم . وسمات<sup>(١)</sup> الإسلام  
تعلو وجوههم .

ومضت الأيام، ودعوة الرسول تصادف في نفوسهم مكاناً خصيباً، وصدراً  
رحيباً، وذهبت من نفوسهم الأحقاد، وذابت الأضغان، وصبغت منهم تقويب،  
حتى كان العام المقبل، فوفد على المدينة - فيمن وفد عليها - سبعون رجلاً  
وامرأتان من مسلمي الخزرج والأوس . وعلم الرسول بقدمهم، فواعدهم العقبة  
من أوسط أيام التشريق<sup>(٢)</sup> .

ولما كان الموعد، ومضى من الليل ثلثه وخرجوا من رجالهم مستخفين،  
يتسللون تسلل القطا، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، ثم أقبل رسول الله  
ﷺ، ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو إن كان لا يزال على دين قومه، إلا أنه  
أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

قال العباس: يا معشر الخزرج<sup>(٣)</sup>، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد  
منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه، ومنعة في  
بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه  
وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده .

فقالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ونربك  
ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ: وتلا القرآن، ودعا إلى الله، ثم قال: أبايعكم على  
أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فقام البراء بن مغرور، وقال: نعم! فوالذي بعثك بالحق لئلمنعنك مما تمنع منه  
ذرائعنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، ورثناها كابراً عن كبير .

وقال العباس بن عبادة: يا معشر الخزرج، هل تدرون علامة تبايعون هذا  
الرجل؟ قالوا: نعم! قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود<sup>(٤)</sup> من الناس،  
فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وذهبت أشرائكم قتلاً سلمتموه،

(١) سمات: علائم .

(٢) العقبة: منزل في طريق مكة .

(٣) أيام التشريق: من أيام الحج: يُنحر فيها اللحم ويُشرق، أي يقذف .

(٤) العرب يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج خزرجها وأوسها .

(٥) يريد بالأحمر والأسود الناس جميعاً .

فمن الآن، فهو والله إن فعلتم جزئي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيتنا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك نبايعك، ثم بايعوه.

واعترض أبو الهيثم، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود حبالاتاً<sup>(١)</sup>، وإننا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم<sup>(٢)</sup>، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم. ثم قال لهم: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، ولما انتخبوا نقيباًهم قال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى، وأنا كفيل على قومي.

وشاع في مكة أمر البيعة، وعلمت قريش بظهور الإسلام في المدينة، فاضطرب حبلهم، وزاد غيظهم، واشتدت الحفيظة<sup>(٣)</sup> في صدورهم. ثم ضاعفوا الأذى بالمسلمين، وأخذوا يوقعون عليهم ضروب المحن، ويضؤون فوق رؤوسهم ألوان العذاب: من تنكيل واستهزاء، إلى سخرية وإيذاء. وهم فيما بين ذلك مضيق عليهم في العبادة، مضطهدون فيما يعتقدون، فساء حالهم وكثرت أحزانهم. رأى رسول الله ما هم عليه من محنة وفتنة، فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة وقال لهم، إن الله جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها. فاستجابوا لله وللرسول، وهاجروا إلى المدينة أرسالاً، ونزحوا إليها جماعات ووحداناً، تاركين - ابتغاء مرضاة الله - ديارهم وأوطانهم، وأولادهم وأموالهم.

وما عليهم لو هاجروا؟ أليسوا قد امتحنوا بأنكى ألوان الأذى، وفئتوا بأشد صنوف الآلام؟ أو لم يضيق عليهم في العبادة، وتسد عليهم منافذ الطرقات فاضطروا للزوم الدور أحياناً، والهجرة إلى الحبشة أحياناً!

وذلك رسول الله - وهو أكرم من طلعت عليه شمس، وأفضل من أظلته سماء - ألم يَضَعْ واحد منهم الثوب في عنقه حتى كاد يميته خنقاً، ألم يحمل واحد منهم الحجر ليشج به رأسه، ولولا أن عناية الله لاحظته لأزاده قتيلاً؟

(١) حبال: عهود ومواثيق.

(٢) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والهورار: دمي دمك، وهدمي هدمك. يعني أنا منكم وأنتم مني.

(٣) الحفيظة: الغضب.

هذه مكة وقد أصبحت دارَ بلاء وعذاب، فما المقام على دار الهوان - وهم العرب آباء الضيم والإذلال! وهم المسلمون - والإسلام دين العزة والمنعة .

ثم هو الإسلام دين عام شامل، ليس دين مكة وحدها، وليس دين قريش وحدها، بل هو دين البشر كلهم: حاضرهم ومستقبلهم، ودين الخلق أجمعين: عربيهم وعجميهم، وأسودهم وأحمرهم، من تلك الساعة التي هتف فيها محمد داعياً إلى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

وإذاً فليخرج هؤلاء المسلمون مهاجرين إلى المدينة يضربون أحسن الأمثال، ويُلقون درساً على من يُضطهد في عقيدته ممن يأتي بعدهم من الأجيال . وكذلك خرجوا، واستقبلهم الأنصار بالمدينة، ولقوا فيها أهلاً بأهل، وجيراناً بجيران .

عَلِمَ رجال قريش خروج المسلمين إلى المدينة، فَسُقِطَ في أيديهم، ورأوا أنهم إن لم يتدبروا في أمورهم، وينظروا في غدِهِم، فإن أمر محمد غالب، وشأنهم في ذهاب، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ويتدبرون، ويبرمون وينقضون، وكذلك كانوا يفعلون حين يحزبهم<sup>(١)</sup> الأمر، وتشتبه عليه الآراء . واجتمع أشرفهم وبهاليلهم<sup>(٢)</sup>، ورؤسائهم وخطاريفهم، ثم قام واحد منهم، فقال:

لقد جمعناكم اليوم ليُدلي واحد منكم برأيه في محمد، فهو كما علمتم قد ظهر أمره واتضح، وقد جاوز مكة، وامتد إلى يثرب، وربما امتد إلى غيرها من البلدان . واعلموا قبل أن تشققوا بالآراء: أنا قد فُتِنَّا بأنواع الأذى، فوجدناه صابراً جليداً، وأنا بلوننا أصحابه بصنوف المحن فوجدناهم صامدين أقوياء . ولقد ارتاحت نفوسنا حينما علمنا ما لقيه من خذلان عند بني حنيفة، ومن كيد وأذى في ثقيف، ومن تكذيب عند غيرهما من أحياء العرب بل تنفسنا الصُعْداء حين مات أبو طالب، ذلك الذي يؤويه وينصره، ويحميه ويخفئه<sup>(٣)</sup>، ولكن وأسفاه! لقد وجد اليوم عند الخزرج عضداً ونصيراً، وولياً وظهيراً، بل لقد أصبحوا بعد دعوته فيهم إخواناً وكانوا أعداء، وأقوياء وقد كانوا متخاذلين ضعفاء! وذهبت من صدورهم الإحْن، وأمّحت الأحقاد . وليت المصيبة وقفت عند هذا الحد، ولم تجاوز ذلك المقدار! فها هم أولاء أصحابه قد هُرِعوا إليهم، وانثالوا عليهم، غير مبالين أوطانهم أو ديارهم، ولا عابئين بأموالهم أو أولادهم . وأكبر الظن أن محمداً سيلحق بهم، وإذا

(١) يحزبهم: أي يداهمهم .

(٢) البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير .

(٣) يخفئه: يجيره .

تكون المصيبة أشدَّ، ويكون الخطب أنكى، وما تأمنون أن يثب علينا بهم فيسقط الأمر من أيدينا، وتعود الدائرة علينا.

قال أبو البَختريُّ بن هشام: احبسوه في الحديد، وغلقوا عليه الأبواب، حتى يصيبه ما أصاب غيره من الشعراء.

قالوا له: ليس هذا برأي، وقد علمتم أصحابه، وحبَّهم له وتعلَّقهم به وإنه ليوشك - لو علموا - أن يكاثرونا، ويطلقوه من أيدينا، فلا نكون قد فعلنا شيئاً. وقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو: نخرجه من بين أظهرنا، وننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع!

قالوا: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقته، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحلَّ على حَيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. أديروا فيه رأياً غير هذا!

وقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأياً، ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى، شاباً جليداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمد هؤلاء إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرَّق دمه في القبائل، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ثم يرضوا منا بالعقل<sup>(١)</sup> فننقل لهم<sup>(٢)</sup> فصفقوا لرأيه، واستراحوا لقوله، وتفرقوا على ذلك.

وكان أبو بكر رجلاً رضي القلب، سخي النفس، حلو السمائل؛ أحبَّ رسول الله من كل قلبه، وأثره على خاصة نفسه، وودَّ له لو يُفدَّيه بروحه وماله وعرف رسول الله فيه هذه الصفات، فقربه إليه، أدناه منه وسماه صديقاً، ودعاه من النار عتيقاً.

وأذن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلا أبا بكر، فإنه كلما استأذنه في الرحيل واستشاره في الذهاب إلى المدينة يستبقيه، ويقول له: لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمئن أبو بكر، ويودَّ لو يكون الرسول صاحبَه في هجرته، ورفيقه في سفرته، ولهذا اشترى راحلتين أعدهما ليوم رحيل<sup>(٣)</sup>.

(١) العقل: الدية.

(٢) عقل له: اكتفى بالمال عن القتل.

(٣) لم يتوان رسول الله أن يتخذ الأسباب اللازمة لنجاح أعماله ليعلمنا الطريقة المثلى في التعامل مع رب العالمين، مع أن الله لا يعجزه أن يعطي العبد بسبب وبغير سبب، ولكن هكذا شاءت حكمة الله.

ويوم أن اجتمعت قريش في دار نُدوتها، وأعدت مكرها، وهيأت كيدها، أوحى الله إلى رسوله: إن القوم قد أجمعوا لك كيداً، ويبتئوا لك مكرآ، ولكن الله عاصمك من كيدهم، وحافظك من مكرهم، فخذ عزمك للسفر، وهيب نفسك للرحيل إلى المدينة.

فتوجه الرسول من ساعته لأبي بكر: وقال له: يا أبا بكر، إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، فقال رسول الله: الصحبة. وواعده العتمة<sup>(١)</sup>. وفرح أبو بكر، وراح يهيب الراحتين.

وعاد رسول الله ﷺ إلى داره، وهو عالم أن القوم سيحيطون به، وفي أيديهم سلاحهم، وبين جوانبهم كيدهم ومكرهم. وجاء القوم، وتربصوا ينتظرون خروج رسول الله، ولكنه لم يعبأ بجمعهم، ولم يبالي كيدهم، لأن الله وعده بالعصمة، ومثاء النجاة. وما انتصف الليل حتى خرج عليهم بعد أن أمر علياً أن ينام في فراشه، وأن يتسجى<sup>(٢)</sup> بيثريه. وألقى عليهم النوم فناموا، وخرج رسول الله فلم ينتبهوا. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وذهب رسول الله إلى دار أبي بكر، وخرجا من خوخة<sup>(٣)</sup> هناك، وسارا حتى بلغا غار ثور<sup>(٤)</sup>، وهناك كما فيه.

أم القوم الذين ظلوا يترقبون خروج الرسول ليقتلوه، فقد كشف لهم الصباح أنهم إنما باتوا يحرسون علي بن أبي طالب، لا محمد بن عبد الله! وعندئذ دُعروا وهرعوا إلى أشرفهم. وهؤلاء أدركتهم الخيزة، وعلاهم الوجوم، وذهب أبو جهل إلى منزل أبي بكر، وسأل أسماء بنته: أين أبوك؟ فقالت له: لا أدري، فلطمها على وجهها، ثم خرج مع قومه يقتفون الأثر حتى وصلوا إلى الغار!

ولكن الله ردهم على أعقابهم، وخذلهم في كيدهم، إذ بان لهم أنه غار مهجور، وأنه مكان لم تطأه قدم منذ أزمان!

ثم عادوا إلى مكة، وجعلوا لمن يدل على محمد مائة ناقة. وعرض سراقه

= وعندما خالف رماة الجبل في غزوة أحد أحد الأسباب الظاهرية خسروا. أما إن أفلس العبد من الأسباب فلا بأس أن يسأل ربه النصرة بما شاء.

(١) العتمة: ثلث الليل الأول.

(٢) يتسجى: يتغطى.

(٣) الخوخة: كوة تؤدي الضوء إلى البيت.

(٤) ثور: جبل بمكة فيه الغار.



الكناني لهذا الأمر، وأعد نفسه لتلك الغاية، على أن يوفوا له بالشرط، ويأخذ النياق إذا دلهم عليه.

ومكث رسول الله وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، يمر عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بالأغنام في أعقاب اليوم، فيحتلبان ويأكلان، ويأتي لهما عبد الله بن أبي بكر بالأخبار حتى سكن الطلب، وغفل عنهما الناس<sup>(١)</sup>.

وجاءهما عبد الله بن الأزيقظ بالراحتين، وخرجا متوجهين إلى المدينة، وأبو بكر لا يفتأ يذكر الطلب فيتلفت خلفه، ويخاف الرصد فيتلفت أمامه، حتى أدركهما سُرّاقة. وما اقترب منهما حتى عثر به فرسه، وساخت قوائمه في الأرض، ثم ثار من حوله الدخان والإعصار، فأدرك سُرّاقة أن محمداً رسول الله ممنوع منه، ولهذا استغاث واستنصر، على ألا يخبر قريشاً بشيء مما رأى، فدعا له الرسول، وعاد سُرّاقة ولم يقل لقومه شيئاً.

ونعود إلى المسلمين من أهل المدينة، فإذا بهم يخرجون إلى ظاهر البلد كل يوم، من ساعة أن علموا بخروجه عن مكة، لا يعودون إلى منازلهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال، إلى أن كان يوم سَعَفْتِهِمْ<sup>(٢)</sup> الشمس، وتحرقت منهم الأقدام فرجعوا إلى منازلهم، وما راعهم إلا صائح يهتف<sup>(٣)</sup> بهم: إن محمداً قد جاء، فخرجوا إليه مهرولين، وإذا به ورفيقه أبو بكر يتفَيَّانَ ظلال النخيل، فأحلّوه في قلوبهم، وحاطوه بنفوسهم ونزل على بني عمرو بن عوف، وأقام فيهم أياماً، وأسس المسجد بقباء<sup>(٤)</sup>.

ثم خرج بناقته، وقد وضع لها زمامها، وكلما مرت يقوم تهافتوا عليها، وقالوا للرسول: هلّم يا رسول الله إلينا، إلى العُدَد والعدة والمنعة، ولكن رسول الله يقول: خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ. وما زالت تسير حتى إذا أتت دار مالك بن النجار، بركت على باب المسجد، وهو يومئذ مِرْبَدٌ تَمْرٍ<sup>(٥)</sup> لسهل وسهيل ابني

(١) لم تكن هجرة النبي هروب رجل خائف على نفسه أو على أصحابه، ولكن لأن رسول الله صاحب دعوة هدفه أن تعم كلمة التوحيد كل الخلائق فهو يجري حيث يتحقق هدفه. لقد ذهب للطائف على أهلها يساعده حتى يبلغ دعوة ربه. فلما لم يجد فيهم معيناً تركهم ووجد ذلك في يثرب.

(٢) سَعَفْتِهِمْ: لفحتهم وقرصتهم.

(٣) يهتف بهم: يصيح منادياً.

(٤) قباء بئر المدينة، ثم عرفت بها مساكن عمرو بن عوف.

(٥) مريد تمر: مكان يجمع فيه التمر ويرص ويجفف.

رافع بن عمرو، وهما يتيमान في حجر أسيد بن زُرارة. ثم سارت ورسول الله ﷺ عليها، حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري، فقال عليه السلام: ها هنا منزل إن شاء، ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] فاحتمل أبو أيوب رحله، ووضعه، في منزله، وجاء أسيد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته. فكانت عنده.

ثم دعا من جاء من مكة، وسماهم مهاجرين، ومن أسلم من أهل المدينة أنصاراً، وأخى بينهم وجمعهم على المَحْجَّةِ<sup>(١)</sup> الواضحة، والصراط المستقيم، ثم بدأ يستأنف الدعوة إلى الله بعزم جديد.

(\*)  
بدر

١

ما كاد يستقر أمر المهاجرين بالمدينة، حتى عقدت أواصر المحبة بينهم وبين الأنصار؛ فعاشوا بها إخواناً متآلفين، وجيراناً متعاونين؛ غير أنهم لم ينسوا ما حاق بهم من إيذاء خصومهم بمكة، وما برحوا يتطلعون إلى نشر دينهم، ويستشرفون إلى وطنهم، ويهيمون بواديهم الذي فيه نشأوا، ومن مائه شربوا، ومن هوائه تنفسوا، وفيه أبنائهم وأقاربهم، وخؤولتهم وعمومتهم، وطريفهم وتليدهم.

ورأى هؤلاء - الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد، وما لاقوا من الأذى - أن لا بد من التعرض لتجارة قريش: في ذهابها أو رجوعها، حتى يحس هؤلاء قوتهم، ويشعروا بآسهم، وحينئذ يخافون على تجارتهم أن تبور وقوافلهم أن ينقطع بها الطريق، فيزول ما بينهم وبين المهاجرين من إحن، ويصفو ما بينهم من كدر، وينفسح المجال أمام المسلمين، لنشر دينهم، والدعوة إلى عقيدتهم<sup>(٢)</sup>.

في السنة الثانية من الهجرة<sup>(٣)</sup>، بعث رسول الله عَبْدَ اللَّهِ بن جَحْش، ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره الله به، ولا يستكره أحداً من أصحابه.

(١) المحجَّة: وسط الطريق. وقد سُميت بذلك لأنها تُقَصَّد.

(\*) البقرة ٢١٧ و٢١٨، الأنفال ٥ وما بعدها.

(٢) لم يكن هدف المهاجرين استرداد أموالهم وإنما الله أراد أن يسلم رقاب المشركين للمؤمنين ليذاهبهم بعد أن استكملت لهم أسباب القتال وصار لهم أرض وشعب.

(٣) هذه هي سرية عبد الله بن جحش.

ويمضي عبد الله في طريقه، وهو لا يعرف له وجهة، ولا يقصد إربة<sup>(١)</sup>، ولكنه يندفع في سيره، طوعاً لأمر الله، وتنفيذاً لإشارته، ثقة بالله، واطمئناناً إلى رأي رسوله.

سار يومين كاملين، ثم فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة<sup>(٢)</sup> بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم<sup>(٣)</sup> لنا، من أخبارهم».

وأعلن في أصحابه أمر الرسول، وقال لهم: أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة، أزد قريشاً، حتى آتية منهم بخبر؛ وقد نهاني أن استكره منكم أحداً، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله.

فاستجابوا لدعوته، واستعدوا لمعاونته، وساروا جميعاً نحو غرضهم الأسمى، تدفعهم الثقة بالله ورسوله، وتحذوهم<sup>(٤)</sup> عناية الله، وتشد من أزرهم قوته، ولكن اثنين منهم ضلّ منهما بعير، كانا يتعاقبان<sup>(٥)</sup> فتخلفا في طلبه، فأسرتهما قريش.

ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، ومرت به عير<sup>(٦)</sup> لقريش تحمل تجارة لهم، وما إن أراه حتى فرعوا لتلك المفاجأة، ودهشوا لهذه المقابلة. وتساور أصحاب عبد الله فيما بينهم، فقال قائل منهم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليَدْخُلَنَّ المسجد الحرام، فليمتنعن منكم به، وإن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام.

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، وخافوا أن يقاتلوهم، ولكنهم ما لبثوا أن أقدموا على الاشتباك معهم، وأجمعوا أخذ ما يحملون من مال ونسب.

التقى الخصمان، فرمى وأقد بن عبد التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسير عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال، وخلص لهم ما جمعوا من تجارة.

## ٢

أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالبعير وبالأسيرين، حتى قدموا بهما على رسول الله في المدينة، فلما رآهم، وعلم أنه قد التقى الفريقان، فانهزم المشركون وفاز المسلمون بالغلبة والنصر، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!

(٤) تحذوهم: ترعاهم.

(٥) يتعاقبانه: يركبانه واحداً بعد الآخر.

(٦) العير: الإبل التي تحمل الميرة.

(١) الإربة: الحاجة.

(٢) نخلة: موضع.

(٣) تعلم: أعلم.

ووقف العيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذَ من ذلك شيئاً، حتى يفصلَ الله في أمرهما بحكم، ويقضي في شأنهما بوحي.

وسُقَطُ<sup>(١)</sup> في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وثارَت قريش حين علموا بالتعرض لتجارَتهم، وإيذاء قومهم، وقالوا: قد استحلَّ محمد وأصحابُه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال.

ولكن الله أنزل على المجاهدين رحمته، وأظلمهم بعطفه ورعايته، وأوحى إلى نبيه الكريم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة: ٢١٧].

فلما نزل هذا القرآن، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق<sup>(٣)</sup>، سُزِّي عن أصحاب هذه السرية، وانقشعت غياهب الحزن عن تلك الفئة المقاتلة، وقبض رسول الله العيرَ والأسيرين.

ثم بعثت إليه قريش، تطلب منه فداء أسيرها، ولكنه أبى إلا أن يكون ذلك برء صاحبيه اللذين أسروهما، وقال: لا فداء حتى يقدم صاحبانا، فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم.

فنزّلوا على رأيهِ، واستسلموا لشرطه، وردوا إليه أسيريه، وأتم الله نعمته على المسلمين، وأنجز لهم وعده، إذ أيدهم بنصره.

أما عبد الله بن جحش وأصحابه، فما تجلى عنهم ما كانوا فيه من الحزن، وانقشع ما غمرهم من اليأس، حتى طمعوا في الأجر، وتطلّعوا إلى الثواب، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة تُعْطَى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله في شأنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

بذلك انجابت<sup>(٤)</sup> أحزانهم، واطمأنت قلوبهم، وشاع السرور في نفوسهم، إذ غمرتهم نعمة الله، وأظلمتهم رحمته.

(١) سقط في يده: احتار.

(٢) البقرة: ٢١٧.

(٣) الشفق: الخوف.

(٤) انجابت: ذهب وغابت.

كانت هذه السرية مفترق طرق في سياسة الإسلام، وأول دِعامَة استقر بها نظامه، وقام عليها عماده، فيها أُجيب المشركون على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام بأنه كبير، ولكن هناك ما هو أكبر منه، وهو الصدُّ عن سبيل الله، وردُّ المسلمين عن دينهم بالوعد والوعيد، والخوف والتهديد. والكفر بالله وإخراج أهل المسجد الحرام منه. وهذا هو ما ارتكبه المشركون، وما اقترفه أعداء المسلمين، لذلك شرع بعد ذلك قتال من يصدُّون عن دين الله، ويفتنون<sup>(١)</sup> الناس عن عقيدتهم التي رسخت في نفوسهم، وتمكنت من قلوبهم.

## ٣

شعرت قريش بالحط من كرامتها وعزتها، والنيل من بأسها وقوتها، إذ أُغِير على أموالها، وقتل أبناؤها وأسْر رجالها.

لذلك حاولوا إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه: أن قاتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقن المسلمون أنه لم يبق في مصانعتهم أو الاتفاق معهم رجاء.

وكان يوم أخبر فيه النبي المسلمين أن أبا سُفيان بن حرب قد أقبل من الشام في غير لقريش، فيها أموالهم وتجارتهم، ونَدبهم إليها، وقال لهم: هذه غيرُ لقريش، فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلَكُوهَا<sup>(٢)</sup>.

فخفت بعضهم، وثقل بعضهم، لأنهم ما كانوا يظنون أن رسول الله يلقى حرباً.

أما أبو سُفيان، فقد كان يتحسس الأخبار، ويتسمع الأنباء، ويسأل من لقي من الأعراب: تخوفاً على تجارته، وحرصاً على أمواله، فأصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر<sup>(٣)</sup> أصحابه لك ولعيرك. فخاف العاقبة، وحذّر الأمر، وأراد أن يأخذ للأمر عدته، فاستأجر ضَمُضَم بن عمرو الغفاري وأرسله إلى مكة. وأمره أن يأتي قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرّض له في أصحابه.

(١) يفتنون: يردون.

(٢) أنفله إياه: أعطاه نفلاً وغبناً.

(٣) استنفر أصحابه: طلب منهم النصرة.

## ٤

قال العباس بن عبد المطلب - وقد لقي الوليد بن عتبة بمكة: إن عاتكة قد رأت رؤيا أفزعته، ولما قصتها عليّ تخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة. قال الوليد: وماذا رأت؟ قال رأت راكباً أقبل على بعيره له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته، ألا انفروا يا لُغدر<sup>(١)</sup> لمصارعكم في ثلاث! ثم دخل المسجد والناس يتبعونه. فبينما هم حوله مثل<sup>(٢)</sup> به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ: ألا انفروا يا لُغدر في ثلاث! ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس<sup>(٣)</sup>، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ترفضت<sup>(٤)</sup> فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلها منها فُلقة<sup>(٥)</sup>.

ها هي ذي رؤياها<sup>(٦)</sup>، فاکتم مني ما أحدثك به. ولكن الوليد حدّث أباه بها، وفشا أمرها، حتى أصبحت حديث قريش في أنديتها، ومثار الجدل في مجالسها.

وغدا العباس يطوف بالبيت، وأبو جهل في رهط<sup>(٧)</sup> من قريش يعود يتحدثون برؤيا عاتكة أخته، فلما رآه أبو جهل قال: يا أبا جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك، فأقبل إلينا.

فلما فرغ جلس معهم، فقال له: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبئة؟ قال العباس: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأتها عاتكة. قال: ما رأت؟ قال أبو جهل: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها أن راكباً قال انفروا في ثلاث. فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول، وإلا كنتم أكذب أهل بيت في العرب. فأنكر العباس أن تكون قد رأت شيئاً، ثم افترقوا.

وأمسى المساء فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس، وصحن به، فقلن له: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمع! ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت!

(١) غدر: إذا نقض العهد، ورجل غادر، وغدر. وأكثر ما يُستعمل هذا النداء في الشتم، يقال: يا غدر، ويُقال في الجمع يا لغدر.

(٢) مثل: قام منتصباً.

(٣) أبو قبيس: جبل بمكة.

(٤) ترفض الشيء: إذا تكسر.

(٥) الفلقة: الكسرة.

(٦) رؤيا: حلم، منام.

(٧) الرهط: ما دون العشرة من الرجال، والمراد: الجماعة.

قال العباس: قد والله فعلتُ، ما كان مني إليه من كبير، وإيّم الحق<sup>(١)</sup> لأتعرضن له، فإن عاد لأكفيكته.

وغدا إلى المسجد في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وهو حديد مُغْضَب<sup>(٢)</sup> يرى أنه قد فاته أمر يجب أن يُدرِكه. ودخل المسجد، فرأى أبا جهل ومشى نحوه يعترض له ليعودَ لبعض ما قال، فيقع به.

ولكنه رأى أبا جهل يتجه نحو باب المسجد، فظنه قد فرّق<sup>(٣)</sup> منه أن يشاتمته. ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه، ورأى في أذنه صدى لم يعهده، فشغل به، وخرج إليه.

٥

كان ضَمْضَمُ بن عمرو الغفاري رسولُ أبي سفيان قد وصل إلى مكة، ووقف على راحلته، وقد جَدَعَ أنفَ بعيه، وحَوَّلَ رَحْلَهُ، وشق قميصه من قُبُلٍ ومن دُبُرٍ، وجعل يصيح: يا معشر قريش، اللطيمة<sup>(٤)</sup> اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عَرَضَ لها محمد في أصحابه، ولا أرى أن تدركوها، العَوْتُ!َا

وشغل الناس بهذا الأمر، واجتمعوا يُجِيلُونَ قَدَاحَ الرَّأْسِ، ثم أجمعوا على أن يتجهزوا سِراعاً، فكانوا بين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً. وأوعِبَت<sup>(٥)</sup> قريش، فلم يتخلف من أشرفها أحد، إلا أبا لهب، فقد بعث مكانه من استأجره بأربعة آلاف درهم، كانت ديناً عليه.

ولما أجمعوا سيرهم، وفرغوا من جهازهم ذكروا ما كان بينهم وبين كِنَانَةَ من إْحْنٍ<sup>(٦)</sup>، وما وقع بينهما من حروب، وقال قائل منهم: إننا نخشى أن يأتونا من خلفنا. وكاد ذلك يثنيهم، ويقعد بهم عن الخروج، ولكن سُرَاقَةَ بن مالك - وكان من أشرف كنانة - قال: أنا لكم جار من أن تأتیکم كِنَانَةَ من خلفكم بشيء تکرهونه.

إذ ذاك رجحت كَفَّةُ رأي الدعاة إلى الخروج، ولم يبق بمكة متخلفٌ قادر على القتال.

(١) أحد أشكال اليمين عند العرب.

(٢) رجل حديد: يكون في اللسان والفهم والغضب.

(٣) فرق: خاف.

(٤) اللطيمة: المال والتجارة.

(٥) أوعب: جمع.

(٦) إحن: خلافات وعداوة.

أما محمد فقد خرج<sup>(١)</sup> من المدينة وأمامه زائتان سوداوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع الأنصار.

وسار مع أصحابه يتعاقبون في الإبل<sup>(٢)</sup>، حتى إذا لقي رجلاً من الأعراب سأله عن الناس، فلم يجد عنده خبراً، فواصلوا السير والسرى حتى إذا كانوا قريباً من الصفراء<sup>(٣)</sup> بعث رسول الله من يتحسس أخبار أبي سفيان بن حرب، وسار حتى كان بدفران<sup>(٤)</sup> نزل به، فأنته العيون تخبره أن قريشاً قد سارت إلى أبي سفيان، ليمنعوا غيره.

استشار النبي أصحابه فيما عرض لهم من أمر قريش، فقد تغير وجه الأمر، وصار أمام عدو لا بد أن يلتحم معه في حرب، ويشتبك معه في قتال!

قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا نَاهَاهُمَا فَقُولُ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد<sup>(٥)</sup> لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له النبي خيراً، ودعا له به.

ثم قال: أشيروا علي أيها الناس - وإنما يريد الأنصار، فقال سعد بن معاذ: لكانك تريدنا يا رسول الله؟ قال: قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا في الحرب، إنا لضبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك: فسر بنا، واستمد العون والتوفيق من الله.

وما إن أتم كلامه، وانتهى من حديثه حتى أشرق وجه الرسول، وشاع السرور في نفسه؛ ثم قال: سيروا وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين<sup>(٦)</sup>

(١) هذه هي بدر الكبرى.

(٢) يتعاقبون الإبل: يختلفون عليها: أي يركبونها واحداً بعد واحد.

(٣) الصفراء: قرية بين جبلين.

(٤) دفران: واد قرب الصفراء.

(٥) برك الغماد: موضع باليمن. أو أقصى معمر الأرض.

(٦) إحدى الطائفتين: القافلة بالنصر أو الجنة بالشهادة في قتال قريش.



والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم! وارتحلوا حتى نزلوا قريباً من بدر .  
 وبعث النبي بعض أصحابه إلى ماء بدر<sup>(٢)</sup> يتحسسون أخبارهم، فأصابوا  
 رجلين يستقيان لقريش، فأتوا بهما، وسألوهما: إلى أين يذهبان؟ وإلى أي قبيلة  
 ينتسبان؟ وأي غرض يقصدان؟ فقالا: نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء،  
 فكره القوم خبرهما، وقد رجوا أن يكونا لأبي سفيان، فانهالوا عليهما ضرباً،  
 وأشبعوهما لطمأ، فلما أذلقوهما<sup>(٣)</sup> قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

ولما رأى النبي ما كان من أصحابه - وقد كان يصلي - أقبل عليهم، يقول:  
 إذا صدقاكم ضربتموهما، وإن كذباكم تركتموهما! صدقا والله إنهما لقريش.

ثم التفت إليهما يقول: أخبراني عن قريش، قالا: هم والله وراء هذا الكثيب  
 الذي ترى بالعدوة<sup>(٤)</sup> القصوى، فقال رسول الله: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما  
 عدتكم؟ قالا: لا ندرى. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً.  
 فقال الرسول لأصحابه: القوم فيما بين التسعمائة والألف. ثم أقبل على  
 الناس، فقال: هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها.

### ٧

هذا أبو سفيان قد تقدم غيرَه حذراً من أن يفاجئه أصحاب محمد، ولما علم  
 بمكانهم، وأفضت<sup>(٥)</sup> إليه عيونه بنمستور أمرهم رجوع إليه أصحابه سريعاً، وغير  
 وجهة سيره وجانب الطريق بعيره، ترك بدرأ يساراً، وانطلق حتى أفلت من محمد  
 وأصحابه، واستخلص عيره من بين أظفارهم.

ولما رأى أنه قد استخلص عيره، وأحرز تجارته ونجا بأمواله، أرسل  
 إلى قريش: إنكم إذ خرجتم، لتمنعوا عيبركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجوت  
 بها، فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم ثلاثاً، فننحر الجزر،

(١) بدر: بئر مشهورة على الطريق من مكة إلى المدينة.

(٢) بدر: ماء على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة في طريق مكة، وقد نزلت قريش بالعدوة

القصوى من الوادي خلف العققل. والقلب ييدر: هو في العدوة الدنيا.

(٣) أذلقوهما: أضفوهما.

(٤) العدوة: شط الوادي.

(٥) أفضت: أعلمت.

وَتُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتُسْقِي الخَمْرَ، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا: فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

ولكن الأخنس بن شريق عارض رأيه، ونقض حجته، وقال لبني زهرة وكان حليفاً لهم: يا بني زهرة، قد نجت أموالكم، وخلص لكم صاحبكم، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة<sup>(١)</sup> لا ما يقول هذا.

وقد كان الأخنس فيهم مطاعاً، فلم يشهدا زهرتي واحد، ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي.

وأسفر الصباح، والمسلمون في انتظار مرور العير بهم، فإذا الأخبار تصلهم أن أبا سفيان قد فاتهم، وأن مقاتلة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم، فدوى في نفوس جماعة منهم الأمل الذي كانوا ينعمون به، وجادل بعضهم النبي، كي يعودوا إلى المدينة، ولا يلقوا القوم الذين جاؤوا من مكة لقتالهم. فأنزل الله عليهم: ﴿وَإِذْ<sup>(٢)</sup> بَعَدَكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ<sup>(٣)</sup> أَنَّهُمَا لَكُمْ وَوَدُّوا أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

فأجمع المسلمون أن يضمّدوا للعدو إذ اشتبكوا معه في القتال، وبادروا إلى ماء بدر، وبعث الله السماء<sup>(٤)</sup>، فأصاب الوادي ماء: لبّد لهم الأرض، ولم يمنهم عن السير، وأصاب قريشاً منها ماء، فلم يقدرُوا أن يرتحلوا معه وخرج رسول الله، حتى إذا جاء أدنى ماء من بَدْر نزل به.

## ٨

استقرّ بهم المقام، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، رأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال النبي: بل هو الرأي والجهاد. قال: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل،

(١) الضيعة: العقار والأرض المغلة وتجارة الرجال.

(٢) الأنفال: ٧.

(٣) الطائفتان: العير والنفير، وغير ذات الشوكة: العير. والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم.

(٤) السماء: المطر.

فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فتنزله، ثم نُغُور<sup>(١)</sup> ما سواه من القلب<sup>(٢)</sup>، ثم نبني عليه حوضاً فملاًه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله: لقد أشرت بالرأي.

فساروا، حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم نزلوا عليه، ثم أمر بالقلب فغُورت، ثم بنوا حوضاً وملاوه ماء.

بنوا الحوض، وأخذوا عدتهم للقتال، وبينما هم يتحدثون ويتشاورون تقدم سعد بن معاذ قائلاً: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً<sup>(٣)</sup> تكون فيه، ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام - يا نبي الله - ما نحن بأشد لك حياً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى رسول الله على سعد ودعا له بخير. ثم بني العريش للنبي، حتى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه، لم يقع في يد عدوه، واستطاع اللحاق بأصحابه في يثرب، يؤذن فيهم بدعوته، وينشر بين غيرهم من أبناء العرب دينه.

## ٩

ونزلت قريش منازل القتال، ثم بعثوا من يقص<sup>(٤)</sup> لهم خبر المسلمين، وجاء رائدهم يُنبئهم بأن أصحاب محمد ثلاثمائة أو يزيدون أو ينقصون، وليس لهم كمين ولا مورد، ولكنهم مع ذلك قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم، ولا منعة لهم إلا إيمانهم الثابت، ويقينهم المكين.

وداخل الرعب قلوبهم، وخاف بعض ذوي الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم، فلا تبقى لمكة مكانتها، فقام عتبة بن ربيعة، وقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته! فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرهون.

(١) غور: نردم حتى ينضب الماء.

(٢) القلب: جمع قليب: البئر العادية القديمة.

(٣) عريشاً: خيمة من خشب.

(٤) يقص: يتجسس.

وبلغت أبا جهل مقاتته، فاستشاط غيظاً، وذكر القوم بما بينهم وبين المسلمين من إحن<sup>(١)</sup>، وما فشا بينهم من عداوة، وما وقع من دماء، فأعجل ذلك القتال، وتزاحف الناس، والتقى الجمعان.

١٠

ورأى رسول الله كثرة أعدائه، ووفرة عدتهم، فخرج إلى أصحابه يشدد من عزمهم، ويمدل صفوفهم، ويأمرهم ألا يحملوا عليهم حتى يأمرهم وقال لهم: إن اكتفكم القوم فأنصحوهم<sup>(٢)</sup> عنكم بالنبل.

وعاد إلى العريش معه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير أصحابه، وأكثر ما يكون إشفاقاً مما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين.

ثم لجأ إلى الله يستمد منه النصر، ويستنجزه الوعد، وجعل يضرع إليه ويقول: «اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها وفخرها، وتحاذك<sup>(٣)</sup> وتكذب رسولك. اللهم فتصرك الذي وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة<sup>(٤)</sup> اليوم لا أتعبد».

وما زال يدعو ربه، باسطاً يده، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه. وجعل أبو بكر من ورائه يردُّ على منكبَيْه رداءه ويهيب به. يا نبي الله، بعض مُناشدتك ربك! فإن الله منجز لك ما وعدك من النصر.

ولكن النبي ﷺ ظل فيما هو فيه من ضراعة إلى الله واستغاثة بربه، حتى أخذته سنة، رأى خلالها نصر الله، إذ أوحى إليه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُرْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ مَسِيرُونَ يَنْبَلُوا بِأَتْنِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَنْبَلُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(٥)</sup> [الأنفال: ٦٥].

فخرج النبي إلى أصحابه يحرضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة». ثم أخذ حَفَنَةً من الحصباء<sup>(٦)</sup>، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شامت الوجوه»،

(١) الإحن: الأحقاد.

(٢) نضح فلان بالنبل: رماه.

(٣) المحاذة: المعادة والمخالفة والمنازعة.

(٤) العصابة: الجماعة القليلة والمراد بها المسلمين.

(٥) الأنفال: ٦٥.

(٦) الحصباء: الحصى.

ثم أمر أصحابه، فقال: شدُّوا. فازداد المسلمون قوة، وصاحوا مهللين: أحد أحد! وأمدَّهم الله بالملائكة يُبشرونهم، ويزدادون بهم يقيناً وإيماناً، ووقف النبي وسط المعركة<sup>(١)</sup>، يُقوي من عزيمتهم، ويشدُّ من أزرهم، ويبشرهم بنصر الله لهم.

## ١١

ازداد المسلمون قوة بتحريض النبي لهم، ووقوفه بين صفوفهم، وأمدَّهم الله بملائكة، فأكثروا في قريش القتل والسبي، وخاضوا وطيست المعركة، فثار النقع<sup>(٢)</sup>، وامتلاً الجوّ بالغبار، وجعلت هام<sup>(٣)</sup> قريش تطير من أجسادها.

ورأى بلالٌ أمية بن خلف يخطر في صفوف المقاتلين، ويسير وسط هؤلاء المشركين، وقد كان يغريه بمكة أن يترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء<sup>(٤)</sup> مكة إذا حميت، ويضعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد:

رأه بلال، فاقتمته<sup>(٥)</sup> عينه، وأقبل نحوه، وقال: رأس الكفر أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا، وحاول غيره أن يأسره، ولكنه صرخ بأعلى صوته، وأقبل عليه بسيفه فأزده قتيلاً.

## ١٢

وتبدد الغبار، وانجلت المعركة عن جثث هامة، وأشلاء متناثرة، وولى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم، خُشعاً من الذل أبصارهم.

وأمر رسول الله بالقتلى أن يُطرحوا في القليب، ووقف عليهم، فقال: «يا أهل القليب، وبئس العشيرة كنتم لنبيكم: كذبتموني! وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً!».

فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جيفوا<sup>(٦)</sup>؟ فقال لهم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

(١) معمة: شدة الحرب.

(٢) النقع: الغبار. (٣)

(٤) الرمض: شدة وقع الشمس على الرمل وغيره، والأرض رمضاء.

(٥) اقتحمه: احتقره.

(٦) جيفوا: أنتوا.

وبينما النبي في حديثه مع قومه في شأن قتلى قريش إذ أبو حذيفة بن عتبة كتيب قد تغير، فقال يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له: أحزنتني ذلك! فطمأنه الرسول، ودعا له بخير<sup>(١)</sup>.

وانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها، وإلى الأسلاب يضمون أشتاتها، وهم ينصر الله فرحون، ولنعمته شاكرون.

### (\*) العتب في الفداء

عادت قريش يوم بذر كسيرة الفؤاد مقصوفة الجناح، يطأطي الذل همامتهم، ويصدع الأسى أكبادهم، ويأكل الحقد لفائف صدورهم، فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ثار فيه التثع، واشتبك القنا، وتلاقت الأبطال بالأبطال، ثم تكشف القتام، وتجلى اليوم عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى، دَع الغنائم والأسلاب، والخيل والركاب، ولو أن أولئك القتلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عامتهم ودَهْمائهم، أو صغارهم وسوادهم، لهان الخطب وخف المصاب، ولكنهم، يا بؤس لهم! فقدوا رؤوسهم وشجعانهم، وبهاليلهم<sup>(٢)</sup> وأعلامهم، فهم اليوم أشد ما يُرَوَّن ذلة، وأعظم ما يكونون مهانة وانكساراً.

أما رسول الله - وقد عقد الله له النصر، واختار له التوفيق - فقد أمر بالقتلى أن تلقى في القليب أجسادهم، وأن توارى بالتراب أشلاؤهم، وعمد إلى الغنائم فقسمها عدلاً، ووزعها إنصافاً.

وجاء دور الأسرى. ماذا يفعل بهم؟ وكيف سلوكه معهم وليس عنده - ﷺ - فيهم أمر صريح، أو حكم منزل؟ عمد إلى صحابته يستشيرهم، ويتعرف الصواب

(١) في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء والأخوة بالأخوة خالف بينهم الإيمان. كان أبو بكر مع رسول الله وابنه عبد الرحمن مع المشركين وقاتل أبو عبيدة أباه وقتله. واستمرت المعركة من الصباح إلى الظهر. سأل علي من أشجع الناس؟ قالوا: أنت. قال: أشجعهم أبو بكر كان مع رسول الله في العريش فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهر بالسيف على رأسه.

(\*) الأنفال: ٦٨ وما بعدها.

(٢) البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير.

في ضوء آرائهم - وكذلك كان دأبه ﷺ في كثير مما كان يعرض له من أمور الحرب والجهاد - وإن كان أوفرهم عقلاً، وأنفذهم في المشكلات رأياً، وأمضاهم في الحادثات عزماً، ليضع سنناً صالحة يستنُّها ملوك الأنام<sup>(١)</sup>، ومن يكون بيدهم زمام الأمور والأحكام.

قال لهم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأن<sup>(٢)</sup> بهم، لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك. وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، اضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء.

فسمع رسول الله رأيهما، وأصاخ إلى غيرهما، ولكنه دخل مخدعه، لم يبد رأياً، ولم يتخذ حكماً. واشتجرت الآراء بين المسلمين، من قائل يقول: إنه سيفك إسارهم، وما هو إلا أن طلع عليهم فقال: إن الله ليؤلن قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حين قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين قال: ﴿إِنْ تَعِدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَعْفُرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح حين قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾<sup>(٣)</sup> [نوح: ٢٦]. وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدِّدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. أتمت عالية، فلا يبقى أحد إلا بفداء أو ضربة عنق.

وشاع في جنّات مكة وبين أندية قريش أن محمداً قد أعلن في الأسرى أن خيرهم بين القتل والفداء، فحفوا سراعاً إلى المدينة، ودفعوا المال، وفكوا عن أسراهم الأغلال<sup>(٤)</sup>.

وما انتهى رسول الله ﷺ من أمر هؤلاء الأسرى، حتى أوحى الله إليه يعاتبه في إشار الفداء على القتل؛ إذ كان المسلمون في بدء دولتهم ومطلع ملكهم،

(١) الأنام: الناس.

(٢) استأنى بفلان: لم يعجله.

(٣) دياراً: أحداً.

(٤) مرّ مصعب بن عمير بأخيه أبي عزيز الأسير يربط صحابي على يديه. فقال له مصعب: شدّ عليه فإن أمه غنية تفديه بمال كثير. فقال له أخوه: أهذه وصاتك يا أخي؟ فقال له مصعب: إن هذا هو أخي دونك.

حاجتهم إلى إذلال عدوهم بالقتل أشد؛ ليعظم شأنهم، ويعلو في الأرض سلطانهم، وتستقرّ في نفوس الأعداء هيبتهم، وتضعف شوكة أعدائهم، وهم في عنقوان<sup>(١)</sup> قوتهم وكثرتهم، أما المال فهو نفع عَرَضِيٍّ، ومرتبة ثانية بعد إضعاف العدو بالقتل. على أنه سبحانه وتعالى قد جرت سنته، واقتضت رحمته وحكمته ألا يؤاخذ مجتهداً وإن أخطأ؛ ولا متأولاً وإن أضله رائد التوفيق، فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لِي أَسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ<sup>(٢)</sup> فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَوَلَا كَيْتَبُ<sup>(٣)</sup> مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكِكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(٤)</sup>﴾ (٥) [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

### أحد (\*)

في السنة الثانية بعد الهجرة، والصراع قائم بين الكفر والإيمان، غلب كفار قريش، ورجع فلهم<sup>(٦)</sup> إلى مكة مذموماً مدحوراً، بعد أن هزموا يوم بدر، فقتل منهم من قُتل، وأسير منهم من أُسِر.

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيمهم يعود الحَيَزَلِيَّ<sup>(٧)</sup> بحزب الشيطان، وقلوبهم تصطلي ناراً، وتتقد أواراً، مما أصابهم يوم نصر الله المسلمين ببدر.

وهذا رسول الله الكريم في صحابته يقبل فداء الأسرى، ويتفرق بضعيفهم، ويمنّ على فقيرهم، ومن بين هؤلاء أبو عزة الجُمَحِيَّيَّ يقول: يا رسول الله، إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن عليّ! ويفيض كرم الرسول، فيمنّ عليه ويعطيه مما أفاء الله.

(١) عنقوان: بداية عزهم.

(٢) يشخب في الأرض: يقوى ويشتد ويغلب.

(٣) كتاب: أي حكم.

(٤) روي أنه لما نزلت هذه الآية دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله، أخبرني فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال: ابك على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة.

(٥) خرج العباس عم النبي مع المشركين وكان في الأسرى. ولم ينم النبي ليلة بعد الحرب فقال له بعض أصحابه ما يسهرك يا نبي الله فقال أسهر لأنين العباس فقام رجل فأرخى وثاقه فقال له رسول الله: لافعل ذلك بالأسرى كلهم. ثم طلب من عمه أن يفدي نفسه وأبني أخويه وحليفه فقال العباس: تركتني فقير مكة. فقال له رسول الله: فأين المال الذي دفعته لأم الفضل قبيل الحرب. فقال العباس: أشهد أنك رسول الله ما علم بهذا الأمر أحد.

(\*) آل عمران ١٢٥ وما بعدها.

فلهم: ما بقي من جيشهم.

الحيزلي: المشي في تناقل.



استمرت قريش سنة تعدّ سلاحها، وتؤلف عديدها، حتى إذا كانت السنة الثالثة بعد الهجرة مشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب أبأؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، يحرضونهم على القتال والأخذ بالثأر، فينادون: يا معشر قريش، إن محمداً قد وترَككم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربيه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا.

يدب هذا النداء في آذان القوم، فيتبارون في حشد الجنود، وبذل الأموال، فهذا جُبَيْر بن مُطْعِم يقول لغلامه: إن قتلت حمزة عمَّ محمد بعلمي قتيل بدر فأنت طليق: وهذا غيره من طغاة القوم يقدمون أموالهم وعبيدهم وعتادهم للقاء هذا اليوم العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفَوِّنُهُمْ لَكُمْ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً تُمْ يَأْتِيُونَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْتَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وبهذا وعدهم الله، ومن أصدق من الله قبلاً؟ ولقد صدق الله وعده، ونصر جُنْدَه يوم الفتح العظيم.

اجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ، يقودها أبو سفيان، ومعهم جمْع من كثانة وأهل تهامة، وانبت شياطينهم، ينفرون المقاتلين لحرب الله، فهذا صفوان بن أمية يقبل على أبي عزة طليق بدر، فيقول: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، فإخرج معنا، فيرد أبو عزة قائلاً: إن محمداً قد منَّ عليّ فلا أريد أن أظاهر<sup>(١)</sup> عليه. فيقول صفوان: فأعنا بنفسك، فلك عليّ إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت<sup>(٢)</sup> أن أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر.

خرج كبار قريش ومعهم نساؤهم، فهذه هند بنت عتبة زوج أبي سفيان احتشدت في نساء من أشرف قريش! تحمّس الجيش وتنفّر المقاتلين، وهم يخبّون في سيرهم ويؤضعون<sup>(٣)</sup>، حتى تستقر رحالهم بجبل أحد<sup>(٤)</sup> مقابل المدينة. وهذا رسول الله الكريم في جمع من صحابته يشاورهم في الأمر، ويجيل معهم قداح الرأي<sup>(٥)</sup> إذ يقول: فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا فشرُّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم. فينطلق عبد الله بن أبي بن سلول مجبداً رأي رسول الله، داعياً إلى الأخذ بما يراه! إلا أن نفرأ ممن حبّب الله إليهم

(١) أظاهر عليه: أعين عليه.

(٢) أصبت: قتلت.

(٣) الخبب والإيضاع: نوعان من السير.

(٤) أحد: جبل تلقاء المدينة.

(٥) القداح: جمع قدح، وهو ما له نصيب في الميسر، والمراد: أنواع التفكير.

الاستشهاد في سبيله قالوا: يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جبئنا وضعفنا. فيرد دعوتهم عبد الله بن أبي: أن يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه.

وما زال القوم في أخذٍ وردٍّ حتى قام رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة، فلبس لأمته<sup>(١)</sup> وتهيأ للقتال، فقال القوم: يا رسول الله، استكرهناك، وليس لنا ذلك، فإن شئت فاقعد، فيقول عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى تقايل».

ثم خرج الرسول في ألف<sup>(٢)</sup> من أصحابه بعد أن خلف بالمدينة ابن أم مكتوم يوم الناس في الصلاة، حتى إذا كان الجيش بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس، وهم بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، متعللاً بأن الرسول أطاع غيره وعصاه، ثم قال: لو تعلم قتالاً لاتبعناكم، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس. ولكن عبد الله بن عمرو اتبعهم يقول: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم وتبيكم. ولكنهم ولو اعادوا عنه مدبرين فكان هذا جلاء لسر كشفه رب الأرض والسموات: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَبُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ آذِقُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا<sup>(٣)</sup> عَن أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧ - ١٦٨]. ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد في غدوة الوادي إلى الجبل، ثم جعل ظهره وعسكره إلى الجبل، وقال: لا يقايلن أحد منكم حتى تأمره بالقتال<sup>(٤)</sup>.

وتعباً رسول الله للقتال، وهو في سبعمئة رجل، وتعبات قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فارس، جاعلين على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل.

(١) الامة: الدرع.

(٢) رد النبي ١٧ فتى لصغر أعمارهم منهم: أسامة بن زيد، عبد الله بن عمر، وبيد بن ثابت، أبو سعيد الخدري، التعمان بن بشير، رافع بن خديج، سمرة بن جندب.

(٣) فادرءوا: ارفعوا.

(٤) جعل النبي على الرماة عبد الله بن جبير وعددهم خمسون فأقامهم على جبل صغير مرتفع وقال لهم: احموا ظهورنا لا يأتونا خلفنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقوم على النبل. إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم؛ اللهم إني أشهدك عليهم.

قام الرسول ممكساً سيفاً، فقال: من يأخذُ هذا السيف بحقه؟ فقال أبو دُجانة: وما حقه يا رسول الله؟ أن يضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا أخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، فلما أخذ السيف من يد الرسول أخرج عصابة له فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفيين، فقال الرسول عليه السلام حينما رآه: إنها لمِشِيَةٌ يُبَغِضُهَا اللهُ إلا في مثل هذا الموطن.

وهذا أبو سفيان يتقدم إلى أصحاب اللواء من بني عبد الدار، يحرضهم على القتال ويقول:

يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من راياتهم إذا زالت زالوا. فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

فهمُّوا به وتوعده وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع!

وهذه هند بنت عتبة في النسوة اللاتي احتشدن معها، أخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال محرضات على القتال.

التحمت الموقعة، واستعر القتال، وحميت الحرب، وأبو دجانة يقاتل بسيف الرسول. وبينما هو في كفاحه وجلاده إذ بإنسان يحرض الناس ويدفعهم دفعا شديداً إلى قتال المسلمين، فصمد له أبو دجانة، حتى إذا حمل السيف، فسأله على رأسه ولؤل<sup>(١)</sup> وانتحب، وضجَّ وصخب، فإذا هي هند بنت عتبة، فأكرم أبو دجانة سيف الرسول أن يضرب به امرأة.

وهذا وحشي الحبشي يتحين الفرص، لينفذ إلى قتل حمزة حتى يعتق، فإذا به يراه صائحاً كالجمال الأورق<sup>(٢)</sup>، فيقدم عليه وحشي فيطعنه بحرْبته، فيخرّ صريعاً شهيداً في سبيل الله<sup>(٣)</sup>.

اشتد القتال يوم أُحد، وجلس الرسول تحت راية الأنصار يقوّي عزم المسلمين، ويربط على قلوبهم بالصبر والتقوى، ويحذّرهم المخالفة فلا يتركون

(١) ولؤل: صاح بخوف.

(٢) الأورق: ما في لونه بياض إلى سواد.

(٣) لما انتهت المعركة شقت هند صدر حمزة واستخرجت كبده ولاكت بضعة منها ولفظتها، فرأى النبي عمه وقد مثل به وحلف أن ينتقم من سبعين منهم فنزل قوله تعالى: ﴿لئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾. عندئذ عفا وكفر عن يمينه.

مراكزهم، ولا يفترون ببوادر النصر، ولا يؤخذون ببريق من متاع الحياة، ولا يحرصون على جمع الغنائم، وتعقب المشركين طمعاً في زينة الحياة.

أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، حتى أزالوا المشركين عن عسكرهم وكانت الهزيمة منهم قاب قوسين أو أدنى، وولى الكفار الأدبار. إلا أن نزوة من النزوات الشيطانية، وهفوة ما تزال تعتري النفس الإنسانية، صرفت جموع المسلمين عن متابعة النصر، وموالة المشركين حتى النهاية، وأنستهم نضح نيتهم. وقد كان في أخراهم يدعوهم: «إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيَّ عِبَادِ اللَّهِ!» فانصرفوا عنه، وانكبوا على الغنائم، وانخذلوا عن مواقفهم، وعصوا أمر الرسول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقع هذا بعد أن كان النصر معقوداً لواءه للمسلمين، وكان لواء الكفار مع غلام لأبي طلحة، فقاتل به حتى قُطعت يداه، ثم أخذه بصدره وبرك عليه، فأسرعت إليه عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته، فلاذت به قريش، واجتمعت تحت ظلاله.

تراجع المسلمون، وخضدت شوكتهم، وغشيهم فتور وضعف، وداخل قلوبهم الهم، وشغلوا عن ذكر الله، فرجع عليهم القوم، وكان اليوم يوم بلاء وتمحيص<sup>(١)</sup>، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين الشهادة، حتى خلس العدو إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فأصبحت رباعيته، وشج وجهه، وكلمت شفته.

ثم شاع أن محمداً قد قُتل، فاضطرب أمر المسلمين، وانفرط عقدهم، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْتُمْ مُؤْتَلِفًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٥].

ثم أبصر كعب بن مالك الرسول، وعيناه تزدهران تحت مغفره فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين: أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فلما عرف المسلمون الرسول نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، ومعه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبد الله، والزيبر بن العوام ورهط من المسلمين، فأدرکه أبي بن

(١) تمحيص: اختبار وامتحان.

(٢) المغفر: حلقة يتقنع بها المتسلح.

خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا! فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال الرسول: دعوه، فلما دنا تناول الرسول عليه السلام حربة ضرب بها عنقه، فكانت سبباً في موته.

ثم قدم عليٌّ للرسول ماء، فغسل دمه، ثم أصابه عليه السلام ضعف، فكان يصلي من قعود.

وقفت رحى الحرب بين المسلمين والكفار في أحد<sup>(١)</sup>، وقد هُزم المسلمون فيها، واستشهد منهم سبعون من الأبطال الطاهرين، بعد أن لمسوا النصر بأيديهم، هكذا قدر الله وهو خير الحاكمين، ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَ اللَّهِ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ<sup>(٢)</sup> بِأُذُنَيْهِمْ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَنَنَزَعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَغَضَبْنَا بِمَا أَرَّسْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي كُنْتُمْ تُرِيدُونَ وَمَنْ يُرِيدِ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَّكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٤﴾ إِذْ تَضَرَّعْتُمْ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْرَابِكُمْ فَآتَيْتُمْكُمْ غَمًّا يَغْرِبُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَاغٍ أَمَنَةً نَسَاً يَنْشِي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٢ - ١٥٤].

انتهت الموقعة، وأراد أبو سفيان بن حرب الانصراف، فأشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال<sup>(٣)</sup>، يوم بيوم! فقال الرسول: قم يا عمر فأجبه، فقال: الله أعلى وأجل لا سواء! قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار. فلما أجاب عمر قال له أبو سفيان: هلتم إلي يا عمر. فقال الرسول لعمر: اتته فانظر ما شأنه، فجاءه، فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً! قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

(١) تضعض جيش المشركين فترك الرماة المسلمون الجبل ليشاركوا إخوانهم في جمع الغنائم وخالفوا وصية رسول الله بالثبات في أماكنهم. رأى خالد تحولهم عن مكانهم فالتف بفرقة من وراء الجبل وحول هزيمة المشركين إلى نصر.

(٢) تحسونهم: تتصلونهم قتلاً.

(٣) سجال: متقلبة.

ولما انصرف أبو سفيان بعث الرسول علياً أن اخرج في آثار القوم، فإن جئبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليها فيها، ثم لأناجزنهم.

ولكن أبا سفيان وقومه رجعوا إلى مكة بعد أن مثل المشركون بكثير من قتلى المسلمين، فكانت نساؤهم يجذعن الأنوف، ويقطعن الآذان ويتخذن منها قلائد، وبقرت<sup>(١)</sup> هند بطن حمزة عم رسول الله عليه السلام، ثم أخذت كبده وجعلت تلوكها فلم تسعها فلفظتها، وقد أمر رسول الله بحمزة فسجى<sup>(٢)</sup> ببرده، ثم صلى عليه، ثم أتى بالقتلى إلى جانب حمزة، فصلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة، ثم أمر بدفنهم جميعاً. ثم خرج عليه السلام في أثر العدو واللواء معقوداً لم يحل، حتى وصل حمراء الأسد، على ثمانية أميال من المدينة، ليهرب قريشاً. ولعلموا أن قوة الله لا تغلب ولا تُفَل.

فلما علم بذلك أبو سفيان وأصحابه فُت<sup>(٣)</sup> في عضدهم، فمضوا سراعاً إلى مكة، ينتظرون بطش محمد في كل حين ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَكَفَرُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَدَاؤُ اللَّهِ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَاتُوا مَاتُوا شَيْئًا وَهُمْ عَدَاؤُ اللَّهِ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧ - ١٧٨].

### بنو النضير<sup>(\*)</sup>

من أين أقبلت يا عمرو؟ وما ذلك الأمر الذي يتخالج بين عينيك؟ ليخيل إلي أنك فعلت عظيماً، وأنت تحمل في طيات صدرك شيئاً كثيراً!

قال عمرو بن أمية الضمري فاتك الجاهلية وفارس الإسلام: أجل! لقد أصبت ما في نفسي ولم تبعد، صادفت في طريقي إلى المدينة غرة من رجلين من بني عامر فقتلتهما، ورويت الشرى بدمائهما، ولعلي أكون قد أطفأت وقدة غيظ تستعر في صدور المسلمين، مما أصاب فينا بنو عامر يوم بئر معونة<sup>(٤)</sup>!

قال محدثه: يا بؤس لما صنعت! ويا خرق ما رأيت! لقد فعلت شراً من حيث حسبت أنك أردت الخير، وركبت مركباً حراماً من حيث أردت الثار. إنك

(١) بقرت: شقت.

(٢) سجي ببرده: غطي بثوب.

(٣) فت: سبب صفاقاً.

(\*) الحشر: ٣ وما بعدها.

(٤) بئر معونة: في طريق المصعد من المدينة إلى مكة.

بما فعلت قد أوطأت المسلمين العِشوة<sup>(١)</sup> وأردتهم على الحسك<sup>(٢)</sup> والسعدان، ذانك العامريان اللذان قتلتهما، وحسبت أنك أدركت الثأر فيهما، إن هما إلا رجلا ن معهما من رسول الله عهدٌ وجوار، ولهما حرمة وذمام. انطلق إليه تجد عنده الخبر اليقين.

وأدرك عمرو أنه قد ضلّ فيما أراد، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل، فخاف عاقبة أمره، وذهب إلى رسول الله ﷺ خائفاً يترقب.

قال: يا رسول الله، لقد قتلتُ العامريين اللذين صادفاني في طريقي إلى المدينة، وحسبت أنني أصبت فيهما من بني عامر ثأراً. وما نفض على الرسول هذا الخبر حتى رآه قد تربّد وجهه، وانعدت سحابة من الهم بين عينيه، وقال: لقد قتلت، لأديتَهما<sup>(٣)</sup>.

ولكن رسول الله في ضنك من المال، وخصاصة من العيش، فماذا يفعل؟ ودية القتيل عاجلة لا تحتمل النسيئة، والدمُ الفائر لا ينفع في تسكينه التسوية!

ليذهب إلى بني النضير، إنهم حلفاؤه ومعاهدوه، ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عقداً، ألا يحاربهم ولا يحاربوه، وألا يؤذيه ولا يؤذوه، وإنهم بعد ذلك حلفاء بني عامر، فليس ما يمنع أن يستعين بهم على دفع دية القتيلين.

ودعا رسول الله نفرًا<sup>(٤)</sup> من صحابته، وذهبوا حيث يقيمُ بنو النضير في أطراف المدينة.

قال حُيَيُّ بن أخضب زعيم بني النضير: ذلك محمدٌ مُقبِلٌ في بعض صحبه، ولأمرٍ ما قديم، ولأمرٍ ما وطئت قدماء هذه الديار، لنهض جميعاً للقائه، ولنتعرّف ما وراء قدومه.

وقاموا إليه هاشين باشين، وحيّوه معظمين! وإن قلوبهم لتتحنى على المكر والكيد، وإن أنفاسهم لتصاعد بالغيظ والحنق.

قال حُيَيُّ: خيرٌ ما جاء بك يا محمد؟ لقيت أهلاً، ومكاناً سهلاً قال الرسول: لقد قتل واحد من المسلمين اثنين من بني عامر، حسب أنه أصاب فيهما عدواً، وأدرك ثأراً، ولكنهما كانا معتمٍ في جلف، ولهما ذمام، وقد جئناكم نستعين بمالككم على دية هذين القتيلين، بما بيننا من جلف وعهد.

(١) العِشوة: ركوب الأمر على غير بيان.

(٢) الحسك والسعدان: من النبات ذي الشوك.

(٣) أديتَهما: أدفع ديتَهما.

(٤) نفر: الجماعة القليلة.

قال حُيَيُّ بن أخطب: لك ما تريد يا محمد، وهوناً ما أردت! استرح إلى هذا المكان، وأنظرننا قليلاً، حتى نجمع المال، ونأتي بما تريد.

وجلس رسول الله ﷺ إلى جدار، وجلس معه صحبه انتظاراً لما وعدوا، أما هم فسرعان ما أَلَفَ الشرُّ بين جموعهم داخل الدور. وسرعان ما أقبل بعضهم على بعض يتذامرون ويتآمرون: كيف لا يفتكون بمحمد، وهو بين أظهرهم، حاضر في رحابهم؟ ها هو ذا قد مكن لهم من نفسه، وهياً لهم الفتك به، ليس معه مَنْ ينصره، ولا يوجد حَوْلَهُ مَنْ يعصمه، إلا نفرأ ضعافاً، غزلاً من السلاح. قالوا: لئن قتلتموه لتستريحن، وتستريح العرب من هم ناصب، وبلاء واقع. ولئن أفلت منكم اليوم فلن تظهروا عليه أبداً... مَنْ منكم يتدب لقتله، ويتطوع للتكيد به؟

قال عمرو بن جحاش: أنا بذلك زعيم، دعوني أقتله، وأسفي غيظكم منه. وانطلق يعدّ صخرة يرضخه<sup>(١)</sup> بها. وتسلق الجدار، وأعدّ الحجر، ولكنه نظر فإذا برسول الله انصرف وخذل الله الكيد والمكر.

وعاد رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فأعلن فيهم أن بني النضير قد غدروا ونكثوا، وأنهم قد أرادوا له قتلاً وبه شراً، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليه بسوء نيتهم وخُبْتُ دَخيلتهم، لنالهم شرٌّ وكيد، والمسلمون بعد ذلك في حلٍّ من عهدهم ولا جُنَاح عليهم في حربهم، إذ لم يعد أمان لجوارهم، ولا عهد لميثاقهم.

وانتدب ﷺ محمد بن سلمة، لينذرهم الخروج من ديارهم، والجلء عن أوطانهم، وإلا عوجِلوا الحرب ووقع عليهم التكال.

وذهب إليهم محمد بن سلمة، ونادى فيهم: يا بني النضير؛ قد علمنا مكركم وغدركم، وأطلع الله رسوله على مؤامرتكم، وقد قدرنا موثيقكم وأيمانكم، فلا بقاء لكم بعد اليوم في ديارنا، ولا نأمنكم على رجالنا، فارحلوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم، موفورين في حياتكم؛ ولكم أسوة في إخوانكم بني قينقاع<sup>(٢)</sup>.

وأدرك بنو النضير حرجَ موقفهم، وعاقبة فعلتهم، وكادوا يُصيخون للقول ويستمعون للنذير، ويتهبأون للخروج. لولا أن قيَّض الله لهم عبد الله بن أبي الذي قال لهم: لا تخرجوا من دياركم، وإياكم والجلء عن أوطانكم، وإننا

(١) يرضخه: يرميه.

(٢) ورد في إنذار النبي لهم: وقد أجلتكم عشراً. فمن رثي بعد ذلك ضربت عنقه ثم جاهدهم خمسة عشر يوماً عند رفضهم الخروج، ثم استسلموا عندما قعد عن نصرتهم المنافقون.

(٣) رأس المنافقين بالمدينة.



سَنَكُونُ فِي حِزْبِكُمْ، وَمِنْ أَنْصَارِكُمْ ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطْبَعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١].

وعلم رسول الله كفرهم وعنادهم، فتهايا لحربهم، ونهض لقتالهم، وحاصرهم ليالي، فلم يفتحوا له باباً، ولم يلقوا إليه يداً، ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل، ويتهايون للغارة حتى خار عودهم وانخذلت قواهم، والتجأوا إلى الرسول يسألونه أن يجليهم، ويكف عن دماءهم، على ألا يأخذوا من أموالهم إلا ما حملت جمالهم.

وأجابهم رسول الله إلى طلبهم واحتملوا إثمَ غدرهم ومكرهم، فتركوا الديار ورحلوا عن الأوطان: ﴿ تَمَنَّنَّا بِأَنَّكَ عَلَى نَفْسِكَ ﴾ [الفتح: ١٠]. ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٣ - ٤].

### الأحزاب (\*)

حُيي بن أخطب زعيم بني النضير، وعظيم من عظماء اليهود، وهو الآن منبوذ طريد، منفي شريد، يقيم في أرض خيبر، مهيبض الجناح، مُعتمد السلاح، ذليل الرأس، وقيد الجوانح<sup>(١)</sup>.

ومذ أجلاه رسول الله مع قومه عن المدينة، جزاءً وفاقاً لما ارتكبه من نكث في العهد، وحنث في اليمين، لا يزال عليه حنيقاً مُوغر الصدر، ملتاح الفؤاد، يتربص به الدوائر، ويتوقع للمسلمين غائلة السوء، ويود لو انتصر الكافرون، وتخاذل المسلمون، ويود لو يهلك رسول الله بالمدينة، فيستطيع أن يعود إلى وطنه، وأن ترجع إليه في قومه سابق زعامته؛ ولكنه لعثار جدّه ولما كتبه الله له أن يموت بغيبظه: لا يسقط في أذنه إلا ما يكرهه من نصرة المسلمين وهزيمة الكافرين، فيغص بريقه، ويتسعر في غيبظه، ويتأوه من آلام الحقد والحسد كما يتأوه السليم.

وصاحب الثأر لا يسكت عن وثره<sup>(٢)</sup>، والمنفي أبداً يحن إلى وطنه، ثم هو يتعلق بالثرّ البالي من الآمال، ويجري وراء ما يدهن له الوهم من معسول الخيال.

(\*) الأحزاب: ١٠ وما بعدها.

(١) وقيد الجوانح: كسير القلب.

(٢) الوثر: الثأر.

ولقد أصبح حُيَيُّ يوماً على زغم زخرفه له الشيطان، وهم زينته له خوادع الآمال: أن يجمع إليه نفرأ من قومه، ممن جلوا عن أوطانهم، وأكل الحقد قلوبهم، ويُحزَّبوا<sup>(١)</sup> على محمد أعداءه، فهم كثر ويؤلَّبوا<sup>(٢)</sup> عليه القبائل جميعاً، فهم منه على وتر، ومن يدري؟ لعل محمداً تذهب دولته، وتسكن حركته، ويعود أمرهم من الزعامة والعزة كما كان.

وجمع إليه حُيَيُّ على هذا الزعم سلام بن الحَقِيق<sup>(٣)</sup> وكنانة بن الربيع، وهما من بني النضير، وهُوَزة بن قيس وأبا عمار، وهما من وائل، ونفرأ غير هؤلاء ممن ذهب مذهبهم، انطلقوا إلى قريش.

قالت لهم قريش: يا معشر يهود، دعونا مما جئتم فيه الآن، وأخبرونا عما نسألکم عنه، إنکم أهل الكتاب الأول، وإليکم ينتهي علم ما نختلف فيه، وقد أصبحنا في أمرنا مع محمد على ريبة، ومن ديننا في شك، فماذا ترون؟ أديننا أم دينه؟ وآلهتنا حق أم إلهه؟

قالوا لهم: أنتم في شك من دينکم، وفي ريب من عقائدکم؟! تالله إن دينکم للحق، وإن دين محمد للخرافة، وإن آلهتکم لهي التي تضر وتنفع، وتعطي وتمنع، وإن إلهه لا يدفع شرأ، ولا يجلب خيراً، فحذار أن يدخل الشك إلى نفوسکم، أو يجري الظن إلى عقائدکم، فلا تتقاعسوا عن مناهضته، ولا تعدلوا عن محاربتة، وسنجمع عليه معکم القبائل وندعو العرب. سنحرض غطفان ونهب بأشجع، وندعو بني قريظة. وبتحادکم مع هؤلاء وهؤلاء لا تدعون شأن محمد يرتفع أبداً.

ثم ذهبوا إلى غطفان وحرصوهم، فوجدوا للتحريض عندهم مرتعاً خصيباً، وذهبوا إلى أشجع فوجدوا عندهم صدراً رحيباً، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بني قريظة.

وكانت بنو قريظة تُساكن رسول الله بالمدينة على عهد بينهم وبينه: ألا يحاربهم ولا يحاربوه، وأن يُهادنهم ويهادنوه، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً. وظلوا قائمين على العهد، حافظين للميثاق حتى وفد عليهم حُيَيُّ بن أخطب ومعاونوه. وسمع بمجيئهم كعب بن أسد القرظي - وكان رئيسهم - فقال لقومه: لم يقصد هؤلاء إلا الشر، غلقوا أبوابکم، وصموا آذانکم، فوالله ما يدفعونکم لخير أبداً.

(١) يحزبون: يجمعون الأحزاب والجماعات.

(٢) يؤلَّبوا: يجمعوا.

(٣) قتله عبد الله بن عتيق بأمر رسول الله ﷺ.

وغلاقوا الأبواب، وجاء حُيَيٌّ، وقال: ويحك يا كعب! افتح لي، فما أنا إلا ابن عمك، وعلى عقيدتك، ولقد جئتكم فيما أرجو أن يكون فيه صلاحك وصلاح قومك جميعاً.

قال كعب: إنك لأشأم<sup>(١)</sup> الطلعة، متهم النصيحة، مزور في الكلام..

لقد عاهدتُ محمداً فلم أر منه إلا سلماً وأمناً، وإلا صدقاً ووفاءً، ونحن - بني قريظة - نعيش اليوم في سلم من الأحقاد والأضغان، وفي مأمّن من المكايد والحروب.

قال حُيَيٌّ: إن محمداً - وإن عاهدك - ليس على دينك وإن صانعك، فهو على بُغض من جوارك وهو يودّ لو أجلاك. ولقد جئتكم بعزّ الدهر، وبهزيمة محمد على الأيام. هذه قريش بقادتها وسادتها. ما زلتُ بها حتى جئتُ بها تحارب محمداً، وهي الآن بمجتمع الأسيال في طريقها إلى المدينة. وهذه غطفان، وهؤلاء أشجع في طريقهم إلى المدينة، وإنهم في حملتهم لصادقون، وإنهم من نُصرتهم لواثقون.

قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، وخيبة الرجاء، وبجَهام<sup>(٢)</sup> قد هراق<sup>(٤)</sup> ماءه، فهو يُرعد ويبرق ليس فيه، دعني من حرب محمد، فما أنا بناقض العهد، ولا حاث في الميثاق.

ولكن حُيَيّاً ما زال بكعب يزور له الغدر، ويزخرف<sup>(٥)</sup> له الفجور، حتى لانت عريكته، ونقض العهد، وخرج بقومه لقتال المسلمين.

ووفدت الأخبار على رسول الله، أن قريشاً قد جمّعت جموعها، وظهرتها غطفان، وتابعتها أشجع، وأنهم جميعاً قد خرجوا لغزو المسلمين بالمدينة.

فتلقى رسول الله هذه الأخبار بحزمه وعزمه، وإيمانه وبقينه! وأمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة<sup>(٦)</sup>.

وبينما المسلمون يتهيأون لصدّ قريش ومن حالفهم، إذ بوافد آخر يلقي إلى

(١) أي دليل شؤم ونحس.

(٢) إن اليهود يفضلون دنياهم على دينهم والإيمان. على خلاف المؤمنين الذين هم مع الإيمان حيث هو، لقد فرح المسلمون بنصر الروم على الفرس لأنهم أهل كتاب مثلهم.

(٣) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(٤) هراق: لغة في أراق.

(٥) يزخرف: يزين.

(٦) بناء على إشارة سلمان، وكلمة خندق فارسية الأصل. مكان الخندق السهل ما بين جبلي أخذ وساح.

بلغ عدد الأحزاب عشرة آلاف والمسلمون ثلاثة آلاف. والمسلمون على ما هم عليه من شدة، بشرهم النبي بفتح بلاد الشام بفارس واليمن.

رسول الله: أن بني قريظة قد نكثت عهودها، ونقضت وعودها، وأنهم حسبوها فرصة، وتخيّلوا نُهْزةً، يطعنون من ورائها المسلمين.

وعلم المسلمون بما هم عليه، وبما وقعوا فيه: من تحزّب الأحزاب عليهم، وإحاطة العدو بهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، فزاغت أبصارهم، وهلعت قلوبهم، وعظم أمامهم الكرب، واشتدّ البلاء، وأخذوا يظنون بالله الظنون. أما المؤمنون فحسبوا أن هذه محنة الله، وأنها امتحان لهم، وابتلاء لمقدار جهادهم، فهم يخافون الزلزل، ويخشون ضعف الاحتمال، وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم: لقد كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وإن أحدنا لا يملك أن يذهب الآن لقضاء الحاجة: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وهمت طائفة بالفرار، وإيقاع الضعف في صفوف المسلمين، وجاءت تستأذن رسول الله كذباً ونفاقاً، وختلاً وخداعاً، يقولون: ﴿إِنَّ يَبُوتًا عَوْرَةً<sup>(١)</sup> وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ٣].

ووقف رسول الله بين أعداء من الأمام، وأعداء من الظهر، وأعداء في الصفوف<sup>(٢)</sup>:

ولو كان هماً واحداً لأتقيته ولكنّه همّ وثانٍ وثالث! وفي هذا الليل الحالك من الفرق والفرع، وفي ذلك العشير<sup>(٣)</sup> المنعقد من الخوف والهلع<sup>(٤)</sup>، ساق الله إلى المسلمين نعيم بن مسعود - وهو رجل من رجال غطفان - وقال يا رسول الله، إنني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فنخذلّ عنا إن استطعت: فإن الحرب خدعة.

وذهب نعيم أعزل من سلاحه، مفرداً عن قومه، ولكن بما وهبه الله من قيس الإيمان، وما نفخ فيه من روح اليقين، كان يحمل عزيمة أمضى من السيف، وهمة أثبت من الطود، ذهب لا يحمل سيفاً، ولا يتنكب قوساً، ولكنه يرجو - ما رخص له رسول الله من خداع، وبما أباح له من نسج خيوط الدهاء - أن ينال من الأعداء ما لا ينال بالسيوف، ويصيب فيهم ما لا تصيبه السهام.

(١) العورة في الشعر والحرب: أمر يخاف منه.

(٢) شفق النبي على المسلمين فأراد أن يصانع بعض الأحزاب على شيء من تمر المدينة يأخذونه وينصرفوا. لكن زعماء الأوس والخزرج رفضوا ذلك.

(٣) العشير: النبار. (٤) الهلع: شدة الخوف.

ذهب إلى بني قريظة - وكان نديماً لهم في الجاهلية - وقال لهم: يا بني قريظة، لقد عرفتم ودي أياكم، وحبّي لخاصتكم وعامتكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمثّهم.

قال: إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم<sup>(١)</sup> عليه. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بخيره فإن رأوها نُهزة<sup>(٢)</sup> أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم إذا خلا بكم.

قالوا: وما الرأي، وقد عاهدناهم على أن نحارب معهم، ونسلك في عداوة محمد سيّلتهم؟ قال: أن تأخذوا رهناً من أشرفهم، يكونون بأيديكم حتى تنجزوه، وبذلك تكفلون صدقتهم ونصرتهم.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

وتركهم نعيم بعد أن بث خديعة فيهم، وذهب إلى قريش فقال لهم: لقد عرفتم وذي لكم ويغضي محمداً، ولقد بلغني أمر قد رأيت حقاً أن أبلغكم إياه نصحاً لكم، وخشية عليكم، فاکتموه عني. تعلّموا أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان، رجالاً من أشرفهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسله إليهم، أن نعم. فإن بغثوا إليكم يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً.

ثم تركهم وذهب إلى غطفان، وحدثهم بمثل ما حدّث قريشاً، وانخدعوا له كما انخدعت قريش، وترك نعيم الجمع ينظر ما يكون.

وفي ليلة السبت من شوال أوفدت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر منهم إلى بني قريظة يستنفرونهم للقتال<sup>(٣)</sup>.

قال عكرمة لرؤسائهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الحُفّ والحافر، فاغدوا للقتال، حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه، فقالوا له: إن اليوم يوم سبت لا

(١) ظاهرتموهم: أي دتموهم.

(٢) نهزة: فرصة.

(٣) حاول نفر من قريش اجتياز الخندق للقتال منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة فقتل الأول وفرّ الباقيون.

نعمل فيه شيئاً، ولو فعلنا لعاد الخزي والخذلان علينا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تتشمروا<sup>(١)</sup> لبلادكم وتتركونا ومحمداً، ولا طاقة لنا بقتاله.

ورجع عكرمة ومن معه إلى قريش وغطفان، وحدثوهم بما قالت بنو قريظة، فقالوا: واللّه إن ما حدثكم به نعيم بن مسعود لحق. وعادت الرسل إلى بني قريظة، وقالوا لهم: واللّه لا ندفع إليكم من رجالنا أحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت بنو قريظة، حين انتهت إليها الرسل بهذا: واللّه، إن ما ذكره نعيم لحق، وحينئذ وقع التخاذل في صفوف الأحزاب، ودبّ الرعب في قلوبهم.

أما قريش فقد بعث الله عليهم الريح في ليل شاتٍ فكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم، وزادت في تخاذلهم، وقفلوا إلى مكة راجعين مدعورين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ورجع رسول الله إلى الذين ظاهروا قريشاً وغطفان من بين قريظة، فوجدهم أيضاً قد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأوقع عليهم الفزع، فانتقم منهم وأنزلهم من حصونهم وصياصيتهم<sup>(٢)</sup>، ثم عاقب رجالهم بالقتل ونساءهم بالسبي والأسر. وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

### قصة الإفك<sup>(\*)</sup>

ضرب الليل رواقه على الصحراء وكساها رداء من السكون، فصارت قطعة سوداء مظلمة، لا يكاد الساري فيها يرى رفيقه، وهي فضاء هادئ، حتى لتكاد الأذن تسمع دبيب الدابة، وحركة النملة إذ تسير.

ويظهر فيها بدوي ملتف في رداءه، يعمل<sup>(٣)</sup> الناقة ويجتهد في السير، وكأنه مطلوب هارب، أو طالب مجد...

(١) تشمر للأمر: تهاياً وجدّ.

(٢) الصياصي: الحصون.

(\*) النور: ١١، ١٢. والإفك هو شدة الكذب.

(٣) يعمل الناقة: يجهد في السير.

وكان صفوان بن المعطل السلمي قد تخلف لبعض حاجته عن جيش الرسول وهو عائد من غزو بني المصطلق إلى المدينة، وهو الآن يطلب القوم ليلاحقهم، ويقفوا أثرهم ليسير معهم، ولكنه يلمح في سيره شخصاً ملتفاً في ثيابه، مطوياً على نفسه، وهو غارق في نومه وكأنه ذاهب في أحلامه، فنزل عن ناقته، واتجه صوبه، يمشي على أطرافه، خشية أن يفزعه أو يخيفه.

وما كان أشد ذهوله، وأعظم دهشته، حينما تبين الشخص، فإذا هو عائشة<sup>(١)</sup> أم المؤمنين، مغرقة في نومها، ملتفة في ثوبها، في هذا المهمة القفر. والظلام الحال، ولم يستطيع أن يملك صيحته، أو يكتم دهشته، فصاح: إنا لله وإنا إليه راجعون! طعينة<sup>(٢)</sup> رسول الله ﷺ! فاستيقظت عائشة مذعورة على ترجيعه وصوته، وخمرت<sup>(٣)</sup> وجهها بجلبابها. فقال لها: ما خطبك يرحمك الله؟ فما استطاعت أن ترد عليه جواباً، حياءً وخجلاً، ثم قدّم إليها راحلته فركبتها وأخذ هو بزمامها، وانطلق يطلب رسول الله، وأكمل طريقه وما التفت إليها ولا حدثته نفسه بحديثها، حتى أدرك القوم معرسين<sup>(٤)</sup> في الظهيرة.

وسألها رسول الله: ما خطبها؟ وفيم تخلفها؟ قالت سمعتك ليلة أمس تؤذن القوم بالرحيل، فذهبت لقضاء بعض شأني، ولما عدت إلى رحلي تفقدت عقدي فإذا هو قد انسل من عنقي. فذهبت في طلبه، ولما عدت وجدت القوم قد ارتحلوا، ما فيهم داع ولا مجيب، فتلففت في ثيابي، ولزمت مكان رحلي، لعلكم إذ تتفقدوني فلا تجدوني تعودون في طلبي. ثم ضرب الله على أذني فتمت، وما استيقظت إلا على صوت صفوان.

وصدقها رسول الله في حديثها، ولم يخالطه الشك في أمرها، إذ هي عائشة بنت أبي بكر في شرف منبتها، وطهارة عرقها، وهي عائشة زوج رسول الله في عفة أديمها، وكرم دخلتها<sup>(٥)</sup>.

حصان رزان ما تُزَنُّ<sup>(٦)</sup> بريبة  
وتصبح غرثي<sup>(٧)</sup> من لحوم الغوافل  
عقيلة حي من لؤي بن غالب  
كرام المساعي مجدهم غير زائل

(١) كان صفوان قد رآها قبل أن يضرب الحجاب.

(٢) الطعينة: المرأة ما دامت في اليهودج.

(٣) خمرت وجهها: وضعت عليه الخمار.

(٤) معرسين: مقيمين.

(٥) الدخلة: الطوية.

(٦) تزَنُّ: تنهم.

(٧) غرثي: جماعة.

مهذبة قد طيب الله خيمها<sup>(١)</sup> وطهرها من كل سوء وبصر

أما عصبة الكذب وجماعة السوء فإنهم ما رأوا عائشة يقود راحتها صفوان مقبلين من الصحراء، حتى أخذوا يتخرصون الكذب، ويقعون في شرف عائشة، ويتهمونها في صفوان!

قال عبد الله بن أبي حينما رأهما: والله ما نجت منه، ولا نجا منها! وفشت هذه القالة بين الناس، وتبع مسطح ابن أبي، وتبعهما حسان وزيد بن رفاعه وحمنة بنت جحش، ثم أخذوا يهضبون<sup>(٢)</sup> في القول ويزيدون، حتى بلغ الخبر رسول الله، وسقط في أذني أبي بكر، وتحدث به الصغير والكبير، والداني<sup>(٣)</sup> والبعيد.

وظل القوم في هرجهم ومرجهم، واتهامهم، ودفاعهم، وشكهم ويقينهم، حتى وصلوا إلى المدينة. كل هذا وعائشة لا تعرف شيئاً مما في نفس القوم، ولم يقع لها كلمة مما خاض فيه الناس، ولكنها حين ذهبت إلى بيتها تخونتها<sup>(٤)</sup> الحمى، ومسها المرض، فلزمت الفراش، وتلمست الشفاء، وترقت من رسول الله - كما اعتادت - قلباً عطوفاً، ورحمة مبسوطة الجناح، فما ظفرت منه إلا بنظرة خاطفة وسؤال قصير: (كيف تيكم؟) لا يزيد على ذلك. فأهتها وأكربها، وزاد من سقمها، وضاعف من علتها. ما بال رسول الله لا يرق لحالها، ولا يرثي لمرضها ولا يحفل بشأنها؟ ذلك ما لا تعرفه عائشة، ولا تستطيع أن تربط فيه علة بمعلول، أو سبباً بمسبب، ولهذا استأذنت رسول الله لتذهب إلى بيت أبيها، لعل في البعد ما يثير حنانه ويعطف من قلبه.

وأذن لها، وقضت في بيت أبيها بضعاً وعشرين ليلة، تعاني المرض وتحتمل الداء، حتى أبلت من مرضها واستفاقت من علتها.

وخرجت يوماً إلى فُسح المدينة ومعها أم مسطح بنت أبي رهم، وإنهما لتمشيان إذ عثرت أم مسطح في مِرْطِها<sup>(٥)</sup> فقالت: تعس مسطح! قالت عائشة: بنس لعمر ما قلت لرجل شهد بدرًا! قالت لها: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت عائشة: وما الخبر؟ فحدثتها بما كان من أصحاب الإفك، وما تقول به مسطح وحسان، وما أذاعه ابن أبي، وما تزايدت فيه حمنة بنت جحش...

قالت عائشة: أو كان هذا؟ قالت أم مسطح: نعم والله كان. قالت عائشة:

(١) خيمها: سحبتها.

(٢) يهضبون: يفيضون.

(٣) الداني: القريب.

(٤) تخونتها الحمى: أضعفتها.

(٥) المرط: كساء من صوف أو خز.



هيا بنا نعود، وانكفأت<sup>(١)</sup> إلى البيت تبكي ما ترقأ لها دمعة، ولا تسكن منها لوعة، ثم قالت: يا أماء، يغفر الله لك! تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين من ذلك شيئاً؟ قالت: أي بنية، خففي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها.

ومضى شهر ورسول الله في حيرة من أمرها، وريب من قضيتها، يتطلع إلى الوحي، ويتشوق إلى الرؤيا، عله يجد فيهما مخرجاً من أمره، وسكوناً من حيرته وكشفاً لشبهته! ولكن لم ينزل الوحي، ولم تتح له الرؤيا - فرأى أن يستفتي ويستشير، فسأل زينب بنت جحش - وكانت ضرثها وتزحمها في مكانتها - فقالت: أحمي سمعي وبصري<sup>(٢)</sup>، والله ما علمت عليها إلا خيراً. وسأل أسامة بن زيد، فقال: سل بريرة جاريتها تصدقك الخبر. وجاءت بريرة، فقال لها الرسول: هل رأيت شيئاً يريبك؟ فقالت: لا والذي بعثك بالحق، ما رأيت منها أمراً أغمصه<sup>(٣)</sup> عليها قط: أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الدواجن فتأكله.

وفرغ رسول الله من استشارة من استشار، ولم ير في حديثهم شيئاً يزن<sup>(٤)</sup> عائشة أو يصمها، فخرج إلى الناس مغضباً، وقال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذوني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي. ثم ذهب إلى عائشة في منزل أبيها، فوجدها تبكي، ووجد امرأة من الأنصار تبكي معها، وعندها أبواها، فسلم عليها، وقال: يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقي الله، فإن كنت قارفت<sup>(٥)</sup> سوءاً، مما يقول الناس، فتوبي إلى الله. فإن الله يقبل التوبة عن عباده. ولكنها لم تستطع جواباً. ثم التفتت إلى أبيها، وقالت: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول. فالتفتت إلى أمها، وقالت: أجيبي عني رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول.

ولما لم تر من أبويها قولاً ينفخ<sup>(٦)</sup> عنها، أو دفاعاً يمزق خيوط الشك التي نسجت حولها قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في هذه الأيام! ثم استعبرت، وقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنني منه لبريئة - لأقولن ما

(١) انكفأت: رجعت.

(٢) أحمي سمعي وبصري: أمنعها من أن أنسب إليهما ما لم يدركا.

(٣) غمصه: عابه.

(٤) يزنها: يتهمها.

(٥) قارفت: ارتكبت.

(٦) ينفخ: يدافع.

لم يكن، ولئن أنكرت ما يقول الناس لا تصدقوني. ثم أجهشت بالبكاء والتمست أن تذكر اسم يعقوب فغاب عنها، فقالت: ولكني أقول لكم كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

فأطرق رسول الله، ووجم أبو بكر، وتنهدت أم رومان<sup>(١)</sup>. وبينما هم على هذه الحال إذ تغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه حين نزول الوحي، فسجى<sup>(٢)</sup> بثوبه، ووضعت وسادة تحت رأسه، وعند ذلك علمت عائشة أن الوحي سيفصل في أمرها وسيزيح الشك عن قضيتها، فترقت ربيطة الجأش ساكنة الجوارح. إذ كانت عارفة بنفسها، واثقة من نزاهتها؛ وطهارة ذيلها. أما أبواها فإنهما ما أحسا رسول الله يتلقى الوحي، حتى انمات<sup>(٣)</sup> قلبهما من الفزع، وكادت تتزاييل أعضاؤهما من الجزع، أن يأتي الوحي بتصديق ما قال الناس. ثم سري عن رسول الله ﷺ، وإن قطرات العرق لتتحدر من جبينه مثل العجمان، وقال: أبشري يا عائشة، لقد أنزل الله براءتك في قرآن يتلى بين الناس، ثم أخذ يقرأ<sup>(٤)</sup>:

﴿إِنَّ الدِّينَ جَاءُ بِالإِفْكِ﴾<sup>(٥)</sup> عَصَبَةٌ مَنكَرٌ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَّا أَكْسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَوْهُمُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ<sup>(٦)</sup> عَظِيمٌ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِعِثَابِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَلْيَتٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الدِّينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢١].

(١) أم رومان: أم عائشة.

(٢) سجي: غطي.

(٣) انمات: ذاب.

(٤) النور: ١١، ١٢.

(٥) الإفك: أشد الكذب.

(٦) بهتان: هو الافتراء الكاذب.

## (\*) المنافقون

ظهرت رسالة محمد ﷺ فغزت المشاعر وشقت القلوب، وتغلغلت في قرارة النفوس، أطرد سبيلها في الأرجاء، وانتشر أمرها في كل مكان.

ولكن ثلاثة من صنوف الأعداء أخذوا يقاومونها، ويتوقعون النكايه بها، والكيدة لها، خوفاً على زعامتهم، أو حرصاً على رياستهم، أو حسداً من عند أنفسهم: مشركو قريش بمكة، واليهود بالمدينة، والمنافقون بين الإسلام والكفر.

أما المشركون فقد أعلنوا كفرهم صريحاً، وأبدوا عداوتهم جهاراً وأقاموها حرباً لا تنطفئ جذوتها، ولا تسكن وقدتها. وأما اليهود بالمدينة فإنهم ما كادوا يرون رسول الله بين ظهرائهم حتى نفسوا<sup>(١)</sup> عليه رسالته، وحسدوه نعمته، وأنكروا زعامته، وسلكوا سبيل أشباههم من كفار قريش كفراً وعناداً، وحرباً وعداء.

فأصبح رسول الله - من بين هؤلاء وهؤلاء - على المحجة الواضحة. والعداوة الصريحة، يحاربهم أحياناً، ويعاهدهم أحياناً، وهو فيما بين ذلك يرجو أن يغلبهم أو ينتهي بهم إلى الإسلام والإذعان.

وأما المنافقون فقد كانوا قوماً من الأنصار أبناء عمومة. أبطنوا الكفر وأضمروا العداة، ثم أعلنوا الإسلام وتظاهروا بالمحبة الصافية، وانتحلوا الإخاء المصفق<sup>(٢)</sup> واصطنعوا الود المنخول، وإن قلوبهم لتتطوي على المرض والحقد، والغدر والمكر: زعموا أن سيوفهم مع المسلمين، صدقوا، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار، وزعموا أنهم خالصون خيرون، كذبوا، هم جنباء أخصاء أشرار، ﴿وَإِذْ أَلْفُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

لم يقولوا كلمة الإسلام في صدق فينتظموا في عقد الأنصار، ولم يعلنوا الكفر واضحاً فيُجري عليهم الرسول حكم الكفار: مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولهذا كانوا أشد ضرراً، وأبلغ في الأذى أثراً، إذ إن رسول الله ﷺ ما كان في استطاعته إلا أن يكتفي بظواهرهم، ويكل إلى الله ما في سرائرهم. وكان ظاهراً لهم السلم والإسلام، وباطنهم الكفر والكفران. وظلوا على هذا شوكة في جنب المسلمين، وقذرى في العيون وقزحة في الأكباد، حتى كان يوم بني المصطلق، وعلى ماء المرئسيع<sup>(٣)</sup>، إذ هتك<sup>(٤)</sup> الله أسرارهم،

(\*) سورة المنافقين.

(١) نفسوا: حسدوا.

(٢) المرئسيع: ماء لبني خزاعة.

(٣) هتك: كشف وفضح.

(٤) الإخاء المصفق: الصافي.

وكشف مخبآت ضمائرهم، ودمغهم بآياته، وأظهر زائفهم بكلماته.

بعد أن فرغ رسول الله من أمر بني المصطلق<sup>(١)</sup>، وردت واردة من الناس تستقي الماء، وتزدرد الخيل والإبل حول ما يسمونه المرئسيع. وازدحم الشرب<sup>(٢)</sup> وتدافعت الدواب، وضاق المكان، وتلاقى على الماء جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب - وكان يقود فرسه - وسنان بن مسعود الجهني، حليف بني عوف من الخزرج، ووقع بينهما ما أثار الشر، وأضرم الغيظ، وهاج البغضاء، فنادى الغفاري: يا للمهاجرين! ونادى الجهني: يا للأنصار! ودعوا إلى جاهلية قضى عليها الإسلام، وأهابا بعصية منتنة عفى عليها القرآن.

اثنان من عداد المسلمين اقتتلا: واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار، وشجر بينهما عدا، فما شأن المهاجرين، وما شأن الأنصار؟ وقد أصبحوا بنعمة الله إخواناً، وأحباباً وأعواناً، يد على من سواهم، وأمرهم جميع على من عداهم، ودّهم غير متهم، والعهد بينهم غير مضاع.

ولكن ما أسرع ما وجدت هذه القالة عند المنافقين رواجاً، وفي قلوب المترددين استثناساً وقبولاً.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس الكفر، وكبش الضلال، وزعيم جماعة المنافقين؛ فما سمعها حتى هش لها وبش، ثم راح ينفث لها سموم مكره، ويعلن مكنون غيظه، ويفصح عن مخبآت حقه؛ وجمع رهطاً من قومه ممن لفّ لفّه، ونهج سبيله؛ وقال لهم: ما رأيت كاليوم مذلة! أو قد فعلوها! نافرونا في ديارنا وكاثرونا في بلادنا؛ ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعز منها الأذلّ، هذا ما فعلتم بأنفسكم، وصنعتم لأقوامكم!

أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم، ونزحوا لغير بلادكم. أو لا ترون إلى أنفسكم؟ جعلتم منكم دون محمد أغراضاً للمنايا، وأهدافاً للمرزايا، وطلائع للخيل، ثم عدتكم بالولد اليتيم والطفل اللطيم<sup>(٣)</sup>! يا قوم؛ لو أردتم الخير لأنفسكم لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفضوا، ولا تلاقوهم بوجه حتى يظعنوا.

(١) سقطت القبيلة كلها بيد المسلمين. وهذا النصر المبسر الكبير عكر صفو المنافقين.

(٢) الشرب: جماعة الشاربين.

(٣) اللطيم: من يموت أبواه.

وكان حاضراً مجلسه زيد بن أرقم؛ فتي حديث السن حسن الإسلام، شديد الحب للرسول، شديد الغيرة على جمع كلمة المسلمين؛ فقام إليه غير عابئ بزعامته، أو هيباب لمكانته، وقال: أنت والله الدليل القليل، المبغض في قومك، المشنوء<sup>(١)</sup> في عشيرتك، ومحمد إنما هو في عز من الرحمن وقوة من المسلمين.

ثم قام من فوره إلى رسول الله، ورفض عليه ما قال عبد الله، فظهرت الكراهية في وجه رسول الله، واختلج الهم بين عينيه؛ أن رأى قرن الفتنة بين المسلمين يطلع؛ وأصبح الشيطان تلعب، ونار الشر تسري وتدب.

قال الحاضرون من شيوخ الخزرج: يا رسول الله، شيخنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلام؛ عسى أن يكون قد وهم، فتلفت رسول الله ﷺ إلى زيد بن أرقم وقال له: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا، قال: فلعله أخطأ سمعك؟ قال: لا. قال: فلعله شبه عليك؟ قال: لا

ودعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي وقال له: أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ فقال - في غير تحفظ ولا استحياء: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا لكاذب! وهكذا حلف كاذباً، واتخذ يمين الله جنة<sup>(٢)</sup> وشعاراً، والله يعلم إنه لكاذب! ومعارفه تتحدث بأنه كاذب.

وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، مُر بقتله، فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذن<sup>(٣)</sup> بالرحيل.

وارتحل الناس في ساعة مبكرة، لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، وذلك ليشغل الناس عن الفتنة ويصدهم عن دعوى الجاهلية. وإذا كان رسول الله ﷺ في طريقه لقيه أسيد بن الحضير، فدهش أن رأى القوم قد ارتحلوا في ساعة مبكرة، وقال: يا نبي الله؛ والله لقد رحلت في ساعة مبكرة ما كنت تروح في مثلها! فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرض منها الأذل. قال أسيد: فأنت يا رسول الله - والله - تخرجه منها إن شئت، هو - والله - الدليل، وأنت العزيز؛ ثم قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومك لينظمون له الخرر ليتوجوه، وإنه الآن ليرى أنك قد استلبت منه ملكاً، ونزعت منه رياسة، وهو أبدأ من الحسد في هم ناصب، وقلب حائق.

(١) المشنوء: المكروه.

(٢) جنة: وقاية.

(٣) أذن: أعلن.

ومضى رسول الله ﷺ في سيره حتى انتهى إلى المدينة، وما استقر فيها حتى نزل عليه: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَمَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَأَمَرَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿٨﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاحْذَرَهُمْ فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَيَلَّوْا وَرَأَيْتَهُمْ يَنْفَضُونَ وَاللَّهُ خَرَّابٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَفْقَهُوْنَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨ - ١﴾ [المنافقون].

فتلاها رسول الله ﷺ بين المسلمين، ثم قرب إليه زيد وعرك أذنه، وقال له: وَفَتْ أذْنَكَ يَا غَلَامَ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ وَكَذَّبَ الْمُنَافِقِينَ.

أما عبد الله فقد اعترضه ابنه خارج المدينة - وكان مسلماً خالص الإسلام - وقال له: وراءك والله لا تدخلها حتى تشهد على نفسك بالذلة وبالعزة لله وللرسول والمؤمنين! ولكن رسول الله قال: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً، وأمره أن يُخَلِّي سَبِيلَهُ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ.

### نَبَأُ الْفَاسِقِ (\*)

غزا رسول الله ﷺ بني المصطلق، وقتل في الغزو من قتل منهم ثم أصهر إليهم وتركهم بعد ذلك مسلمين، ولما رجع إلى المدينة أرسل إليهم الوليد بن عتبة ليأخذ الصدقات من أغنيائهم، فيردها إلى فقرائهم. ولما سمعوا بقدومه تهيأوا لاستقباله، وخرجوا للاحتفا به، وكان بين الوليد وبين بني المصطلق إحن قديمة، وغل موروث، فحسب أنهم إنما خرجوا يريدون به شراً، ويبغون به كيداً، فرجع إلى رسول الله ﷺ يزعم أن القوم قد ارتدوا عن الإسلام، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة، وأنهم وقعوا في الجلى والخطيئة العظمى.

فغضب الرسول، وغضب لغضبه المسلمون، ثم تهيأ لغزوهم، وردهم على أعقابهم؛ ولكن الخبر سرى إلى بني المصطلق، وهم براء مما رماهم به الوليد،

(\*) الحجرات آية: ٧ وما بعدها.

بعيدون عما وصل من أمرهم إلى الرسول، إذ ما برحوا مسلمين حقاً، قائمين على قواعد الإسلام صدقاً. ثم ألفوا وفدهم، فذهب إلى الرسول، فألفاه<sup>(١)</sup> متهيئاً للغزو، متحزراً للمسير.

قالوا؛ يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته، فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما عندنا من الصدقة، فانشمر<sup>(٢)</sup> راجعاً، ثم بلغنا أنه زعم إليك أنا خرجنا إليه لنقتله، وأنا ارتدنا عن الإسلام، وامتنعنا عن الزكاة، ولكننا ما كفرنا بالله منذ آمننا، ولا انسلخنا عن الإسلام منذ دخلنا فيه.

فوقف رسول الله بين خبر الوليد وخبرهم لا يقضي بأمر، ولا يفصل بحكم حتى نزل عليها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي قَيْنَا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَمُونَهُ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَنِيمُنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنُّ وَرَبَّنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٣﴾ [الحجرات: ٦ - ٧].

## الفتح (\*)

### الرؤيا

انتبه رسول الله ﷺ من نومه على طبع مرتاح، وصدر مشروح، وعزم نشيط، ثم دعا إليه بطانته وصحبه، فأراه جميعاً بارق الأسارير<sup>(٤)</sup>، طلق المحيا<sup>(٥)</sup> واضح البشر والسرور. ثرى ما وراء هذه النفس الراضية، وما وراء ذلك الوجه المتهلل؟ لعل هناك خيراً بهيجاً، أو نبأ عظيماً.

وما اطمأن بهم المكان، وامتلات بهم رحبة المسجد، حتى أفضى إليهم برؤيا ضاءت لها نفوسهم، واهتزت منها مشاعرهم، وغرذت خواطر آمالهم: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ سَاءَ اللَّهُ عَامِينَ مَحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴿٦﴾ [الفتح: ٢٧]. فاشحدوا عزمكم للسفر، وخذوا أهبتكم للرحيل، ولتكن غايتكم العمرة والطواف،

(١) ألفاه: لقيه. (٢) انشمر: جد في الرجوع.

(\*) سورة الفتح.

(٣) لوقعتهم في العنت: وهو الجهد والهلاك.

(٤) الأسارير: محاسن الوجه. (٥) المحيا: الوجه.

(٦) اقراراً للمسلمين بحقهم في بيت الله وأنه ليس حكرة لقريش، وذلك بعد أن رمت قريش آخر سهم في كنانتها بغزوة الأحزاب.

ولا يفوتتكم أن تصحبوا البُدن، وتشعروا<sup>(١)</sup> الهدى<sup>(٢)</sup> تكريماً للبيت العتيق. واعتلنت هذه الرؤيا في كل مكان، وتنوّل ذكرها في كل وادٍ، وإذا المسلمون يقبل بعضهم على بعض مهتئين، فرحين مستبشرين. أليست هذه هي رؤيا الرسول؟ وما رأى ﷺ في حياته رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وضوحاً، ومثل الشمس المتألقة بياناً وظهوراً. أليس هذا خبره؟ وهم قد عهدوه صادقاً إذا أخبر، غير ملبّس في قوله إذا بلّغ! إذا هم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بلدهم الكريم، ووطنهم الحبيب: مهوى الفؤاد ومجمع الآصرة والأنداد، وإذا هم عما قريب سيثمنون هذه التربة، ويتنشقون عبق هذا الوطن العزيز. وهم أيضاً في رؤيا نبيّهم الصادق الأمين، سيظوفون بالبيت، ويستلمون الركن، ويسعون بين الصفا والمروة، ويضعون أقدامهم حيث وضعها أبوهم إسماعيل وجدّهم إبراهيم. ومَن يدري؟ لعل الله بعد ذلك يرغم أنف قريش ويذل أبيّها، ويقهر حميّها، وتظهر كلمة التوحيد بين مكة والمسجد الحرام.

وتنفس الصباح من اليوم الثاني، وهبّت نسائمه حلوة عذبة، تداعب آمال قوم يسوقون بدناً تسيل بأعناقها البطاح، وظهرت تباشيره مشرقة لماعة، تبعث في عزائمهم النشاط والارتياح، شملهم جمع، وأمرهم حازم، وشعبهم ملتئم، لم يفرّق ليفهم هؤلاء الذين استنفر لهم الرسول، فقالوا: ﴿سَعَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَقْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]، ولم يصدع صفاتهم هؤلاء الذين راحوا يغمزون الرسول، ويشيعون قالة السوء بين الناس: ﴿أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]، بل ساروا آمنين مطمئنين، يسوقهم الأمل، ويدفعهم الإيمان ويحصّد<sup>(٣)</sup> عزائمهم اليقين.

ولكنهم ما بلغوا منتصف الطريق حتى سمعوا بشراً الخزاعي يتحدث إلى الرسول: أي رسول الله، لقد دلفت - كما أمرتني - إلى قريش، أتندس<sup>(٤)</sup> أسرارها، وأتعرف أخبارها، وما راعني إلا أن خبر مسيرك قد ترامى إليهم، وحديث رؤياك قد هبط عليهم، ولا أدري كيف وقع عليهم الخبر، ولا كيف استنشقوا حديث الرؤيا!

هيه يا بشرا وبماذا قابلوا هذا الخبر؟ وماذا أعدوا للقاء؟ قال بشر: إنهم يا رسول

(١) أشعر الهدى: أعلمه، وهو أن يشق جلده، أو يطعنه حتى يظهر الدم.

(٢) الهدى: ما يهدى إلى البيت من النعم.

(٣) يحصّد عزائمهم: يقويها.

(٤) أتندس: أتسقط الأسرار.



اللَّهِ قد خرجوا ومعهم العوذ المطافيل<sup>(١)</sup>، ولبسوا جلود النمر، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً. وهذا خالد بن الوليد، وهو من يعدونه بهمتهم<sup>(٢)</sup>، وفارس حلبتهم، قد خرج يستقبلك بخيله، ولعله الآن في كراع الغميم<sup>(٣)</sup>.

فأرسلها رسول الله ﷺ زفرة من قرارة نفسه، ثم قال: يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، وماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين! وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ والله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به، حتى يظهرني الله أو تنفرد عني هذه السالفة<sup>(٤)</sup>، وماذا يريد خالد؟ نحن ما خرجنا مقاتلين ولا محاربين، بل خرجنا مسالمين مواعين، وما ذاك يوم اشتباك القنا، ولا تقابل الأقران. فمن يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم، ويدفع بنا إلى مكان بعيد عن عيونهم وطلائعهم؟

فتقدم رجل<sup>(٥)</sup> من أسلم - وكان بصيراً بالطريق: مستدقاتها<sup>(٦)</sup> ومنعرجاتها عليماً بمنحنياتهما وليآتها - ثم أمسك بخظام القُصواء<sup>(٧)</sup> وأحزن بها في مكان وعر وطريق صعب، وما زال بالقوم يجهدهم ويضنيهم حتى أفضى بها وبهم إلى طريق سهل فسيح.

وساروا بين جوانحهم قلوب ترصد آمالاً، وفي رؤوسهم عيون تشييم رجاء، والرسول يحيي هذا الأمل، ويضاعف هذا الرجاء. ولكنهم فجأة لمحو أن ناقة الرسول امتنعت عن السير، ووقفت في عرض الطريق. عجباً! لماذا وقفت الناقة؟ أشيء ثنى الرسول عن عزمه، أم أوحى إليه بأن يغيّر وجهه؟ لا، لكن هو ذا الرسول يدفع الناقة للقيام فلا تقوم، ويستنهضها للسير فتمتنع، إذا فقد خلأت<sup>(٨)</sup> القُصواء! وما أسرع ما انتشرت هذه القالة، واضطربت الألسنة حتى دارت بين القوم، ثم علمها رسول الله فقال: «والله ما خلأت وما هو لها بخلق، وإنما لذلول مطواع، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. وإن وراء ذلك لشيئاً، وإن في وقوفها

(١) العوذ المطافيل: النياق معها أولادها.

(٢) البهمة: الشجاع الذي لا يعرف من أين أتى.

(٣) كراع الغنم: موضع على ثلاثة أميال من عسفان.

(٤) السالفة: صفحة العنق، وانفرادها كناية عن القتل.

(٥) هو ناجية بن جندب الأسلمي.

(٦) مستدقاتها: مضابقتها.

(٧) القُصواء: ناقة رسول الله ﷺ.

(٨) خلأت: امتنعت عن السير.

لسراً، والذي نفسي بيده لا تسألني قريش خطة يُعظّمون فيها حرّمات الله إلا أعطيتهم إياها»؛ وأدرك رسول الله أنه مصروف عن السير، موحي إليه بالترث والتلبّث<sup>(١)</sup>، فأمر القوم أن يتربصوا مكاناً فسيحاً، ويلتمسوا مناخاً رحيباً، فكانت الحُدَيْبِيَّة، وفيها أناخوا جمالهم، ونصبوا خيامهم، وأقاموا الصّوى<sup>(٢)</sup> والأعلام.

رجل يلمح في الظلام، ويضرب برجليه في الطريق! انتظروا قليلاً فإنه قادم إلينا، وأغلب الظن أنه يقصدنا.

هذا بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي. لا بأس بقدمه، إنه من خُزاعة، وهي من عِلْمِناها صدقاً وولاء، وإخلاصاً ووفاء وإن كان قادماً من مكة فإنه سيصدقنا الخبر، ويثبّتنا أمر قريش.

ولما توسط بُدَيْل جمعهم، تهافتوا على حديثه من كل ناحية، وسقطت عليه الأسئلة من كل جانب: من أين؟ وإلى أين يا بُدَيْل؟ هل من مُغْرَبَة خَيْر<sup>(٣)</sup>؟ إن كنت قادماً من مكة فما حال قريش؟ وكيف استعدادها للقاء؟ وما شأن خالد خرج ثم عاد؟

قال بُدَيْل: كفوا عن تساؤلكم، وخفّضوا من لجاجكم، لست مجيباً عن سؤال، ولا مصارحاً بكلام، حتى ينتهي مقامي عند محمد: ثم أخذ سَمْتَه إلى خيمة الرسول، وجلس إليه ينقُض خبره، ويفتح بين يديه عِيبة سره.

قال: يا محمد، لقد جئتك هذه الساعة وقريش لا تعلم من أمري شيئاً، ولكنني سمعت قولاً خشيتُ عليك من عاقبته، ورأيت شراً ودِدْت عنك دفعه. لقد غدوت بالأمس - كدأبي - على قريش في متحدثهم، فوجدتهم جلوساً، يخوضون في حديثك ويعيدون، حديث كله غيظ وسخط، وكله حنق وحقد وإن أنوفهم لترمّع<sup>(٤)</sup> وإن قلوبهم لتكاد تتمزّع، أن علموا أنك مقبل وصحبك إلى مكة تطأ حصاها، وتجاوز حماها.

وانتهى بهم الحديث أن أخذوا للحرب عُدَّتهم، وشدّوا أوتارهم، وراشوا سهامهم، وأقسموا جهد أيمانهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً، ثم أشهدوا علو أنفسهم اللات والعزى، وهبّ لهم الأعلى.

وقد خشيت عليك أن تؤخذ منهم على غِرّة<sup>(٥)</sup> أو ينالوك على غفلة، فحاذ نفسك ولقومك ما تريد.

(١) التلبّث: الانتظار.

(٢) الصوى: جمع صُوة، وهو حجر يكون علامة في الطريق.

(٣) أي هل من خبر أتيت به من بعيد.

(٤) ترمّع: تتحرك من الغضب.

(٥) غرة: غفلة.

قال الرسول: إننا يا بُدِيل ما جئنا نتحرّف<sup>(١)</sup> لقتال، أو نقصد إلى حرب ولكننا جئنا للبيت زائرين، ولحرماته معظمين، وها أنت ذا ترى السيوف في أعمادها، والبُدن مُشعّرة، والقوم معتمرين. إن شئت يا بُدِيل فاحمل إليهم نبأنا، وأفصح لهم عن وجوه مقاصدنا، لعل الله يحقن بك الدماء، ويذيب ضغائن الصدور.

وعاد بُدِيل إلى مكة، فوجد القوم قد عادوا إلى متحدثهم، يخوضون حديث محمد ويعيدون. هم أقسموا أن يصدوا محمداً، ولكنهم ودوا لو عاد من غير قتال. وهم أخذوا للحرب عدتّهم، ولكنهم تمنّوا لو كفّوا جهد الحرب والكفاح، فهم لذلك اجتمعوا ثانية يُجِيلون قدامح الرأي، ويصرفون طرق الخلاص، وما علموا أن بُدِيلاً قد وفّد على محمد وجاء حتى هُرّعوا إلى لقاءه، والاستماع لما عنده.

تعال يا بُدِيل، هات ما عندك من حديث محمد، أرايت أن محمداً يريد أن يغزونا في دارنا، ويغصّ من عزتنا؟ ألم يكفه ما كان من قتل صناديدنا، وذوي الرأي فينا؟ إن ذكريات عُتْبة وشيبة وحنظلة وابن هشام لا تزال أمامنا، وإن دموع الباكيات على ابن وُدّ لا تزال تجري سخينة حارة، وها هو ذا يجيء اليوم ليعيدها جُدعة<sup>(٢)</sup> ويقيمها حرباً ضروساً، فما عندك، وما ترى؟

قال بُدِيل: إنكم تُبعدون في الوهم، وتُسرفون في الظن، لقد جئت محمداً وعرفت رَضْحاً<sup>(٣)</sup> من خبره، ومجملاً من قصده، ثم إنني حمّلت قولاً، ورأيت شيئاً، فإن شئتم بلغنتكم ما حمّلت وبصرتكم بما رأيت.

قالوا: هات ما عندك، وإن لنا وراء قولك قولاً، وبعد حديثك رأياً.

قال بُدِيل: لقد جئت محمداً واستنبأته عن رأيه. وتحدث إليّ عن عزمه ونيته، إنه لا يريد بكم حرباً، ولا يبغي عليكم عدواناً، وإنما جاء مُعْتَمراً وللبيت طائفاً ومعظماً. ولقد أفضى إليّ برأي ارتاح إليه طبعي. ووافق هوى عندي، وفيه - أو حفظتموه - صلاح ذات البين، وإطفاء لِقُودَةِ الأحقاد، وسَلِّ لسخائم<sup>(٤)</sup> النفوس: أن تخلّوا طريقه للبيت يطوف ويعود، ثم تهادنوه ويهادنكم، وتركوا شأنه مع العرب، يظهر عليهم أو يظهرون عليه، وأنتم بعد ذلك بالخيار، تدخلون فيما

(١) نتحرّف: المراد نستعد.

(٢) قال في اللسان: «إذا أطفئت حرب بين قوم، فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جُدعة أي أول ما يبتدأ فيها».

(٣) الرَضْح: خير غير موقن به صاحبه.

(٤) سخائم: مصائب.

يدخل فيه الناس، أو تكونون بنجوة عن قتاله وعافية من معاداته، وإني لكم فيما أقول مخلص السريرة، أمين المغيب.

فقالوا - إذ سمعوا رأي بُدِيل -: هذا رأي فائل، ومذهب خادع فاسد، إن بُدِيلاً يريد أن يوطننا العَشْوَةَ<sup>(١)</sup>، ويشبه علينا وجوه الرشد، ويلبس صور السُّدَاد! تنصحننا يا بُدِيل أن نغمد سيوفنا، ونطأطئ رؤوسنا، وندع السبيل إلى محمد يدخل مكة، ونحن صاغرون أذلة! إن في نصحك لريق الحية وسم الأسود! ألسنت من خُزاعة وشأنك مع محمد اليوم معروف، وشأن آبائك مع آبائه مشهور؟ ليخرس لسانك، وإياك أن تخوض بعدها في هذا الحديث.

قال بُدِيل: شأنكم وما تفعلون وغداً تعلمون.

واتجهت عيون القوم إلى أبي سفيان، زعيم ندوتهم وقائد جماعتهم، يعلمون رأيه، ويتعرفون ما عنده.

قال أبو سفيان: هذا الحُليْس بن علقمة، سيد الأحابيش<sup>(٢)</sup> حاضر جمعنا، وهو حليفنا، وعليه حق جوارنا، وفوق ذلك، فإن له رأياً يمزق ظلمات الإشكال ويطبق مفاصل الصواب. ليذهب إلى محمد رسولاً أميناً، ومبلغاً كريماً، لعله يصده عن عزمه، ويحوّله عن قصده، ولننظر بعد ذلك ما يكون.

ورأى الرسول الحُليْس مقبلاً من بعيد، فقال: هذا الحليْس مقبلاً، يظهر أن قريشاً قد أرسلته سفيراً، وهو من قوم يتألهون<sup>(٣)</sup>، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه. وما راع الحليْس إلا الإبل تسيل من عرض الوادي مشعرة<sup>(٤)</sup>، قد أكلت أوبارها من طول ما حبست، فما استطاع أن يتحدث حتى عاد إلى قريش مغيضاً، يقول: أيها القوم، بثس واللّه ما طاش سهمكم، وقال رأيكم، أتصدّون عن البيت قوماً أتوا معتمرين، وله معظمين؟! أتحتج إلى البيت جذام وحمير، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب وله فيكم شرف ينطح النجوم. ولأجداده عزّ يعلو أجنحة النسور؟! هلكت قريش وربّ الكعبة، إن القوم أتوا معتمرين واللّه ما على البغي عاهدناكم، ولا على العدوان حالفناكم، لئن صدّتم محمداً عن البيت لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد..

(١) أوطأه العَشْوَةُ: حملة على أمر غير رشيد.

(٢) الأحابيش: قوم تحالفوا بينهم على غيرهم.

(٣) التاله: التنسك.

(٤) أشعر الناقة: شق جلدها حتى يظهر الدم، ليعرف أنها هدي للبيت.

قالوا: مهلاً يا ابن علقمة، وأنظرنا<sup>(١)</sup> نصنع لأمرنا.

وعلا وجوه القوم وجوم، وغشيتهم حيرة وسكون، ثم أخذوا يريدون حديثاً فيه مرارة وألم، وفيه حزن وامتعاض.

ذلك محمد واقف على ثنيات مكة، ويوشك أن يدخلها! حقاً لقد تعاهدنا على الحرب، وشحذنا عزائمنا للدفاع، ولكن ما غناء الحرب؟ وما فائدة الدفاع؟

إن محمداً يقدم علينا اليوم في قوم حاربناهم، واشتبكت القنا فيما بيننا وبينهم، فوجدنا فيهم صبراً على القتال، وجلداً على الاستبسال، ما فيهم إلا ابن كريمة<sup>(٢)</sup>، وما نغ حريم، لقد اخترمت المنية أبطالنا، وطوّحت الحرب بفتياننا.

ولقد لقيناهم يوم بدر، فكان يوماً منحوساً أغبراً وحسبنا أننا هزمناهم يوم أحد، وخضدنا منهم الشوكة، ولكن ما أسرع ما اندملت القروح، والتأمت الصفوف، وعادوا يوم الخندق أشد ما يكونون منعة، وأعظم ما أوتوا نصراً.

وها هم أولاء يعودون اليوم طالبين بعد أن كانوا مطلوبين، ومهاجمين بعد أن كانوا مدافعين، إننا لو دافعناهم فأكبر الظن أن الدائرة علينا، والهزيمة تأخذ سبيلها إلينا، وإن خليناهم يدخلون البيت فإنما هو عار نعصب به رؤوسنا ومسبة نخدش بها وجوه أحسابنا، لا يكون لنا شأن بعدها. إنه لرأي مضطرب وحيرة جائلة، وأمر لا ندرى أشر آخره أم أوله؟

ورآهم نعيم بن مسعود يضطربون في حيرتهم، ويصطرعون في أمرهم، فأراد أن يدلّي برأي، ويصدع بمقول، قال: أي قريش، لقد علمتموني من أشرف العرب نسباً، وأبعدهم محبداً، وأكرمهم أرومة ونجاراً، ولي في ثقيف رئاسة، وفي الطائف ملك - وإن كنت بعيداً في الوطن عنكم - وأنا من صميمكم وأجري على عرق في أنسابكم، وقد استبطنت سوادكم، وتعرفت دخائلكم، وفطنت إلى أموركم. ولقد جريتموني من قبل فما اتهمتموني في نصيحة، ولا تعلقتم عليّ بكذبة وتذكرون أنني استنفرت لكم أهل عكاظ من قبل، فلما بلّحوا<sup>(٣)</sup> عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني. إن لي عليكم مشورة ورأياً، وعندني لكم نصحاً وبياناً، دعوني أذهب إليه سفيراً عنكم، ورسولاً منكم، أناقله<sup>(٤)</sup>، وأجادله وأصاوله، فإن جئت إليكم من عنده فاقبلوا، واعلموا أنني سأرمي عن قوسكم، وأصدر عن رأيكم، وأرجو أن أكون موفقاً مجدوداً.

(١) انظرنا: أمهلنا.  
(٢) الكريمة: الحرب.

(٣) بلحوا: أبوا.

(٤) المناقلة والمناقلة.

فقالوا: إننا يا أبا ثقيف ما اغتمزنا فيك رأياً، ولا عهدنا عليك كذباً، فاذهب حافظاً للأمانة، مَفوضاً فيما ترى.

وجاء ابن مسعود إلى الرسول، فوجده في حالة من صحبه، أجلسوه على عرش من قلوبهم، وحاطوه بسياج من نفوسهم، ما يأمر بأمر إلا ابتدروا إليه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم، وإذا نظر غَضُوا من أطرافهم، وقد وقرت مهابته في الصدور، وارتفعت منزلته في العيون، فتلجلج في مشيته، وتردد في رسالته، ولكنه جمع نفسه، واسترد عازب حلمه، وشق الصفوف، حتى انتهى إلى الرسول ثم قال: يا محمد، ما هذا الذي جمعت جمعك، وحشدت إليه جنك؟ أراك قد جمعت أوشاب الناس<sup>(١)</sup>، وزمّر القبائل، ثم غدوت بهم على قومك من قريش، تحاول أن تُذَلِّهم وتنتهك حرمتهم، وإنها والله لقريش، قد علم الناس صدقها عند اللقاء، وصبرها على اللأواء<sup>(٢)</sup>، وكفاحها في البأساء، هم مساعِرُ<sup>(٣)</sup> حرب، وأحلاس<sup>(٤)</sup> خيول. ولقد ترامى إليهم أنك جئت غازياً ديارهم، قاصداً الكيد بهم، ألا فلتعلم أنهم عاهدوا الآلهة ألا تدخلها عليهم أبداً، وإيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، وبقيت وحدك، فلا أنت تحوطت لنفسك، ولا احتفظت بقومك، فتدبر أي شر أنت قادم عليه، وأي أمر أنت مُتصد له.

قال له الرسول: لقد تحدثت إلى بُدَيْل، وتحدثت إلى الحليس، إني ما جئت أبغي حرباً، أو أريد قتالاً، وإنما جئنا معتمرين، وللبيت الحرام طائفين ومعظمين فإن شأؤوا خلوا لنا الطريق، وإلا فإن لنا معهم شأنًا، نترقب فيه أمر الله.

وعاد ابن مسعود إلى قريش لم يلق نجاحاً، ولم يصادف فلاحاً، فاستشرفوا لحديثه، وتطلعوا إلى نهاية سفارته، كما استشرفوا من قبله لبُديل، وكما استشرفوا للحليس، ولكنهم كانوا لابن مسعود أكثر اطمئناناً، وأشد استئناساً وأطول آمالاً، وقالوا: هات ما عندك يا ابن مسعود، فلعلك جئت بما يحقن الدماء، ويحفظ الدِّمَامَ، ويحمي البيت، ويحفظ لقريش مقامها بين العرب.

قال ابن مسعود: اسمعوا يا قوم، والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر في ملكه، وعلى كسرى في عزه، وعلى النجاشي في عرشه فوالله ما رأيت

(١) أوشاب الناس: أخلاطهم.

(٢) اللأواء: الشدة.

(٣) مساعر: جمع مسعر، وهو موقد النار.

(٤) أحلاس الخيول: الملازمون لظهورها، والحلس: كساء رقيق يجعل تحت السرج.

رجلاً يعظمه قومه كما يعظم محمداً قومه، وقد ألقوا إليه بمقاليدهم، وأمكنوه من قيادهم، وإنهم لا يرجعون له قولاً، ولا يردون عليه رأياً، فرووا رأيكم، واقتدحوا زناد عقولكم، والأمر نهايته بين أيديكم.

فقالوا وقد أدركتهم الحمية: إن قريشاً جسر لا يُعبر، وكنف لا يوطأ، وعقبة لا ترتقى، ودون ما يبغي محمد شيب الغراب، ومخ المنام.

## الصلح

قالت قريش يظهر أن محمداً صادق العزم، ماضي العزيمة، وهؤلاء السفراء لم يستطيعوا أن يحيلوه عن قصده، أو يصرفوه عن عزمه، أو يخذلوه في رأيه فقم يا ابن مكرز، بما عهدناه فيك من شجاعة وحزم، وما بلوناه فيك من قوة وبأس، واختر لنفسك نفراً ممن تراه ثبت الجنان، صادق اللقاء رابط الجأش، وطُف بعسكر محمد، فلعلك تُكسّر سهامهم، وتلقي الرعب في صدورهم، فينكثوا ما أمروا<sup>(١)</sup> وينقضوا ما غزلوا.

وفي ساعة من الليل. والظلام قد ضرب الرواق وشدّ الأطناب، أخذ حفص بن مكرز يطوف بعسكر المسلمين، ولكنه ذعر فجأة. ثم التفت إلى من معه قائلاً: قفوا يا رفاق! من هذا الذي يخفر أصحاب محمد؟ تبيّنوه كأني به محمد بن مسلمة! إنه هو! أعرفه والله بقامته وسمته، وبشيتته وعلاماته، وبحدّره ويقظته، احذروه، فوالله ما هو إلا ليث غاب، ومسر حرّوب. إنه لكالذئب ينام بإحدى مقتلته، وكالأسد الخادر<sup>(٢)</sup> إذا كثر عن نابه، فإن فتكه لا يصدّ وعزمه لا يردّ.

وما علموه ابن مسلمة، حتى نخب<sup>(٣)</sup> قلوبهم، ومشت الرعدة في مفاصلهم، وجبن الجريء، وخار عود الشجاع. وأرهب ابن مسلمة أذنه، فإذا همس كلام ووقع أقدام، من يكون هؤلاء غير قريش؟ إذا هم قد أبدوا ناجذِي الشر، وصرحوا بالعدوان، وإذا هم يريدون حرباً، ويبغون كيداً. أيها القوم، سلّوا السيوف من أعمادها، وابعثوا العزائم من رقادها، فهذه قريش قد برزت بطلائعها. ونشر العزائم، وأحمس النفوس، وما هي إلا جولة ويزال ساعة، حتى وقع القوم أسرى في يد المسلمين.

ولكنه ﷺ ما جاء يُذكي ضرام حرب، أو يثير نوازي شر، وإنما جاء معتمراً،

(١) أمر الحبل: شد فتله.

(٢) الأسد الخادر: المستكن.

(٣) نخب قلبه: كأنما نزع.

وللبيت مُطوّفاً ومعظماً، فما له وللأسرى؟ وما له وللقتال؟ أطلقوا سراح هؤلاء الأسرى، وفكوا أصفادهم ودعوهم يرجعوا إلى أوطانهم، فلعلهم يطمئنون إلى وجهنا، ويؤمنون بغايتنا، واذهب أنت يا خراش<sup>(١)</sup> بعد في أثر القوم، وتعرف ما بنفس قريش، بعد أن أطلقنا أسراهم، وتجاوزنا عن مساءتهم.

وذهب خراش ورجع، فقال: يا رسول الله، إن قريشاً ما زالت على مكرها وحقها، وما زالت الحفيظة تملأ قلوب عامتها، إنهم أذلوا وفادتي، وعقروا ناقتي، ولولا الأحابيش لأطلقوا دمي<sup>(٢)</sup>.

وسمع هذا رسول الله ﷺ، فأطرق، ولكنه لم يتعكر صفو حلمه، ولم تُستشر قطة حكمته، بل قال: سنصابر القوم بالحلم، ونعالجهم بالصفح فعلنا بهذا نستل سخائم صدورهم، وننزع الغل من قلوبهم، وربما كان قد هان عليهم أمر خراش. واستخفوا بالسفير من خزاعة، فقم يا أبن الخطاب، فإن فيك رأياً وعقلاً، ولك في قريش منزلة ومقاماً. اذهب إليهم وناضل عن قصدنا واشرح ما غم عليهم من أمرنا، وما لبس من مسألتنا.

قال عمر: أي رسول الله، سمعاً لقولك، وطاعة لأمرك، ولكنني أخاف هؤلاء القوم على نفسي، ولا آمنهم على حياتي، وليس فيهم إلا من يُضمر لي حسيكة<sup>(٣)</sup> أو يخفي ضغناً وغلاً، وقد نزع عن مكة من كان يشتد ظهري من بني عدي<sup>(٤)</sup> فليس من يحميني، أو يدفع الشر عنّي، ولكن هذا عثمان بن عفان، لا يزال له في مكة من أمية رجم، ولا يعدم أن يصادف عندهم حامياً، فهناك معاوية وأبو سفيان، وهناك عقبه وأبان<sup>(٥)</sup>، وحسبه منهم حُماة!

وسمع أبان بن سعيد طارقاً يقرع الباب، فخرج فإذا هو عثمان بن عفان، قال: مرحباً بك يا أبن عمي، كيف جئت في هذه الساعة وخلقت صاحبك محمداً؟ قال: لقد قدمت سفيراً عنه، ورسولاً من عنده إلى قريش، أبين لهم ما خفي عليهم من أمره، وأكشف القناع عن قصده، فلعل الأفهام تتقارب، والأرواح تتعارف،

(١) هو خراش بن أمية الخزاعي بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ عنه ما جاء له، فعقروا الجمل، ولولا الأحابيش لقتلوه.

(٢) أطلقوا دمي: لستفكوا دمي.

(٣) الحسيكة: الحقد والعداوة.

(٤) بنو عدي: قوم عمر.

(٥) أبان بن سعيد بن العاصي.



ولكنني أخاف على نفسي الإيذاء، وأتوقع من قريش المكروه، فاقبلني في جوارك، وأدخلني في حماك، بما بيننا من عصب مشتبك، ورحم ماسة.

فَعَدَا بِهِ أَبَانَ عَلَى الرَّؤَسَاءِ مِنْ قَرِيْشٍ، وَقَالَ: هَذَا ابْنُ عَمِيْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَرَسُولُ مُحَمَّدٍ، يَحْمِلُ رِسَالَتَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَلْقِيَ إِلَيْكُمْ كَلِمَتَهُ، ثُمَّ هُوَ فِي جَوَارِي وَحَمَاي. فَاقْبَلُوا جَوَارَهُ وَلَكِنْ عَلَى مَضْضٍ، وَاحْتَمَلُوا ظِلَّهُ وَلَكِنْ عَلَى كُرْهِ، ثُمَّ قَالُوا: أَمَا أَنْ يَدْخُلَ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ وَيَطُوفَ بِالْبَيْتِ، فَدُونَ ذَلِكَ عِزَّةٌ تَمَلَأُ نَفُوسَنَا، وَنَخْوَةٌ تَدْوِي فِي جَوَانِحِنَا، وَلَكِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْتِ الطَّوَافُ فَدُونِكَ وَمَا تُرِيدُ.

فَتَأَذَّنُ<sup>(١)</sup> عَثْمَانُ: أَلَا تَطَّأُ قَدَمَاهُ الْبَيْتَ مَا دَامَ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ مَمْنُوعًا وَمَا دَامَ الْمُسْلِمُونَ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ! وَانْطَلَقَ إِلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مُتَّعُوا الْهَجْرَةَ وَهَمَسَ فِي آذَانِهِمْ: إِنْ يَوْمَ الْفَتْحِ قَرِيبٌ، وَسَاعَةُ الْخِلَاصِ آتِيَةٌ. وَبَلَغَ قَرِيْشًا قَوْلَ عَثْمَانَ فَخَافُوا الْفِتْنَةَ وَحَسَبُوهُ.

وبينما رسول الله يرقب بريد النجاح ويشيم مخايل الرجال، جاءه نبا أن عثمان قد قُتِلَ! واستطار هذا الخبر في المسلمين وتُشومع في خيامهم، فذهلوا ووجموا، ثم ثاروا، وسخطوا، ثم شمروا عن سواعدهم للقتال واستعدوا. أما رسول الله فقد وقفت أماله من السلم على شفا اليأس، وكادت تقطع أمام عينيه خيوط الرجاء، وأعلن للمسلمين أن لا بزّاح من مكانه، حتى يناجز القوم الحرب، وجلس إلى شجرة ينظر ما يكون من عزم المسلمين.

جاءه أبو سنان الأسدي، وقال أمدد يديك أبايعك يا رسول الله، قال: علام تبايعني يا أبا سنان؟ قال: على ما في نفسك يا رسول الله، من تفدية للنفس، وبذل للروح، وما شئت من صبر واستبسال، وجلاد وكفاح... وتابع المسلمون أبا سنان، ورضي عنهم، وعلم ما في قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم. ووعدهم فتحاً قريباً.

المسلمون قد استعدوا للقتال، وشهروا سيوفهم للحرب، وإنهم لكذلك، إذ رأوا رجلاً يقدم نفراً... من هذا الرجل؟ ثم أخذوا يديرون فيه الطّرف، ويتعرفون الشخص، وصاح أحدهم قائلاً: أنا أعرف الأرنب وأذنيها<sup>(٢)</sup> ذاكم سهيل بن عمرو! وانطلق يعدو إلى رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: إن كان سهيل بن عمرو حقاً فقد أراد القوم الصلح؛ فإني أعرفه كيساً خفيفاً، فطناً ليبياً.

(١) تأذن: أقسم.

(٢) أنا أعرف الأرنب وأذنيها: مثل يضرب في معرفة الشيء.

وصدق حدس الرجل في سهيل: وصدق رأي رسول الله في نية القوم، فقد قال سهيل حينما جلس إلى الرسول: يا محمد؛ إنه قد بلغنا خبر البيعة، جُمِلتْها وتفاريقها، وإن قريشاً قد استوبلوا<sup>(١)</sup> عاقبة أمرهم، وندموا على ما وقع بأيدي أشرارهم، وعثمان لم يُقتل، واكمه حُبس، وما حُبس إلا عن حلم طائش، ورأي فائل.

وقد مات رسولاً من قريش، رسول موادعة وسلام، وُصِّلح ووثام، علنا نُصَيِّق مسافة الخلف، وُتسَكَن فورة النفوس، وعثمان بعد ذلك بين يديك.

ورسول الله ما برح يبغى السلام. ويريد الوثام، ويتجنب ما فيه إراقة الدماء، ويجيب إلى كل ما يعظم حرمت البيت الحرام... ألم يرسل لهم بديلاً وخِراشاً وعثمان في بيل هذا الصلح؟ ألم يحدث نعيماً بما لا يدع في نفس متردّد خيلاً من الشك، أو يترك في الأفق غيمة من الريب؟ وما دامت قريش قد ثابت إلى رشدها، واستفاقت من سؤرة حُمقها، ومدّت يدها للصلح، وأرسلت رسولها للسلام، فتعال يا سهيل نتبذ مكاناً نتحدث فيه عن شأن هذا النزاع.

ومكث رسول الله ﷺ وسهلاً ساعة يتناثان<sup>(٢)</sup> الحديث ويتناقشان الكلام، ثم طلعا على القوم بما انتهايا إليه: أن يرجع المسلمون بغير عُمرة هذا العام، فإذا كان العام المقبل جاء النبي وأصحابه إلى مكة، وقد خلَّتْها قريش، فيقيمون فيها ثلاثاً يعتمرون وليس معهم من السلاح إلا السيوف في القُرب<sup>(٣)</sup>، وأن تضع الحرب بين الفريقين أوزارها عشر سنين، ومن جاء إلى المسلمين من قريش يُرَدُّ عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون رده، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد دخل فيه.

وما علم المسلمون بهذا العهد حتى حَصرت صدورهم<sup>(٤)</sup>، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، إذاً فلسنا بمعتمرين هذا العام! وإذاً فلسنا بمعتمرين هذا العام! وإذاً فقد نفذ سهم قريش في حلوقنا، وارتفعت كلمتهم فوق كلمتنا، ونالوا من ما يريدون! كيف نرد من جاءنا مسلماً، ومن جاءهم منا مرتداً تركناه؟! إن هذا الأمر يضطرب فيه رأينا، وبتيه فيه رشدنا.

أما عمر، فقد نبض نابض الغضب في قلبه، وعلا مزجل الغيظ في صدره،

(١) استوبل الشيء: لم يوافق.

(٢) نث الخير: أفشاه.

(٣) القرب، جمع قوارب، ما يوضع فيه السيف.

(٤) حصرت صدورهم: ضاقت.

ولم يلبث أن وقف على أبي بكر. وقال: نشدتك الله يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزَه (١) فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ولكنني أشهدك أيضاً أنني منذ الساعة التي رأيتني فيها مسلماً بدار ابن الأرقم، ما شككت إلا الساعة، ولا اضطربت في قلبي العقيدة إلا الآن، وقد تخالجنى الريب، وأخذت تدب في صدري عقارب الظنون.

قال أبو بكر: لا دواء لما قام بنفسك، ولا مُهدئ لفقرة غضبك، إلا أن تبسط خوالج نفسك بين يدي رسول الله، فدونك كلمه، وما بينك وبينه حجاب.

عمر بن الخطاب طبعه الله سليم الفطرة طاهر السريرة، نقي الضمير، لا يُبالي أن يجهر بما يعتقدُه، وأن يعلن الرأي الذي يراه، لا يخشى في الحق لومة لائم، وإن خالف - فيما يظنه الحق - رسول الله. وبهذه النفس الكريمة الصافية، وبذلك الإيمان الصادق المتين، حادث رسول الله، وقال: ألسنت برسول الله؟ قال: بلى، قال أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال رسول الله: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

قال عمر: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى. فأخبرتك أن نأتيه هذا العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتية ومُطوّف به. فوجدت هذه الكلمات سبيلاً إلى وقد غيظه فسكّتها، وإلى خوالج الشك في نفسه فانترعتها.

وجلس رسول الله ﷺ وسُهَيْلاً، ودَعَوَا عَلِيّاً ليكتب العهد، فأصلح ليقة (٢) دواته، وأعدّ قلمه وتهيأ للكتاب... اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: هذه فاتحة لا أعرفها، وعبارة لا أستريح إليها، ولكن ليكتب: «باسمك اللهم»، فكتب عليّ، ثم رفع القلم يستوحي عبارة العهد من رسول الله فقال: اكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فأمسك سهيل بقلم عليّ، ثم التفت إلى رسول الله، وقال: لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

(١) الزم غرزَه: أي أمره ونهيه.

(٢) الليقة: أداة أو قطعة من خيطان حريرية ناعمة توضع في الدواة لكي لا تأخذ ريشة القلم من الحبر أكثر مما يجب.



هذه الصيحة إلى أعماق النفوس ولمست قرارة القلوب، وهزت أوتار الحزن والأسى. ولكن، ما يصنع المسلمون، وذلك قضاء الله، ورسول الله إنما يصدر عن أمر الله؟ على أن رسول الله قد طمأن أبا جندل، وقال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم وأعطونا عهداً، أنا لا نغدر بهم.

ثم صاح صائح في أحياء مكة: من أراد أن يدخل في عهد أحد الفريقين فليدخل، فتواثبت بكر ودخلت في عهد قريش، وتواثبت خزاعة ودخلت في عهد المسلمين.

ثم نادى المنادي عن رسول الله: لقد قُضِيَ الأمر. وعقد العهد، فتحلّلوا من إحرامكم، وانحروا بُدُنكم، واحلقوا أو قصروا شعوركم، ثم شدّوا إيلكم للرحيل. والتفت المنادي فإذا نفوس معرضة، وعزائم مترددة، وعيون زائغة، وقلوب حائرة. وصاح الثانية فلم يجيبوا، ودعا الثالثة فلم يلبوا!!

فانطلق إلى الرسول يحدثه في أمر هذه النفوس التي ما تعودت إلا تلبية الدعاء، وما عهد فيها استخفاف بالنداء... فكبر الأمر على الرسول، ودخل على أم سلمة مطرقاً مهتماً! قالت: ما خطبك يا رسول الله؟ قال: هلك القوم! دعوتهم للإحلال والحلق والتحرّح فلم يجيبوا، قالت: يا رسول الله، إن لهم فيك لأسوة حسنة وقدوة كريمة، فاخرج إليهم وانحر واحلق، وما أظن إلا أنهم سيسيروا في نهجك، ويقلدونك في فعلك.

خرج رسول الله إلى الناس، يقول، أما ما أهمكم من العهد، فإن من ذهب إليهم منا فلا حاجة لنا به، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً. وأما البيت فإنكم إن شاء الله مطوفون به في قابل، وما فعلت ما فعلت عن أمري، وإنما عن أمر الله، وهو نصيري ولن يضيعني. ثم دعا الحلاق فحلق، وعمد إلى البدن فذبح، وتحلل من الاعتمار.

وما سمع القوم قول الرسول. وما رأوا أفعاله، حتى لانت عريكتهم، وثابت إليهم حلومهم، وطابت نفوسهم، وأقبلوا على رؤوسهم محلّقين ومقصرين، ثم انحروا البدن وتحلّلوا من الإحرام، وانكفأوا إلى المدينة راجعين، لم يمسهم سوء، ولم يصابوا بأذى، ولكنهم ما برحوا عطاشاً إلى مكة، متشوقين إلى البيت، وهم بين اللهفة وهذا الاشتياق ظلوا ينتظرون قضاء الله.

## نقض العهد

وعاد المسلمون إلى المدينة موفورين، وانقلبوا إلى دورهم آمنين، ولكنهم لم يطوفوا بالبيت كما كانوا يطمحون، ولم ينشقوا عبير الوطن كما كانوا يتشوقون، تغشى وجوههم حيرة، ويبدو في معارفهم الوجوم.

أجل! إن رسول الله وعدهم أنهم لا بد داخلون مكة، طائفون حول البيت، ووعد صدق وقوله حق: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣]، وما يبلغ إلا عن روح أمين. ولكن لواعج<sup>(١)</sup> الشوق إلى البيت، وتباريح الحنين إلى الوطن والرغبة في القتال والجهاد - كل ذلك أقلق نفوسهم وأفض مضاجعهم.

لقد كانوا قبل اليوم أحسن حالاً، وأعز شأنًا، وأقوى سلطاناً، أما اليوم فواحرها! من جاء إلى المدينة من قريش، راغباً إلى الإسلام، زاهداً في عبادة الأصنام لا يجد فيها ظلاً ولا مقيلاً، ولا يستطيع أن ينزل فيها رحلاً، أو يشد طنْباً، فالعهد المأخوذ يرده إلى مكة، والميثاق يُرجعه كاسفاً بين الكفار. وما يأمن من أن يفتنوه في دينه أو يضيقوا عليه في عبادته، أو ينالوا منه في بدنه وعافيته. ومن ذهب إلى الكفار منها مرتداً عن الإسلام، صابئاً عن كلمة الإيمان، فليس للمسلمين عليه سلطان، وليس لإرجاعه إليهم سبيل!

ثم إنهم ما كادوا ينسون أبا جندل، حينما جاء مؤمناً يرسف في القيد، مستجيراً يطلب المُجِير، فلم يجد معيناً ولا مجيراً، ولم يلق ولياً ولا نصيراً، حتى هيات الأحداث أمراً جديداً مزق خيوط النسيان وجدد الأسي، وبعث كامن الآلام. والأسى يبعث الأسي، وبعيدُ الهم ينشر دانيه.

ذاك أبو بصير قدم إلى المدينة زائغ البصر، واجف القلب، مستطار الفؤاد، وفي رجليه أثر من قيد، وفي يديه سمة من غل!

قالوا: لا تُرْع يا أبا بصير، وليُفرخ روعك، وليهدأ بالك. ما بك، وما شأنك؟ ولم اضطرابك، وفيم قدومك؟

قال أبو بصير - وقد عاد الاطمئنان وسكن في نفسه طائر الأمان -: اسمعوا، لقد هاجر محمد عن مكة، وما كان أبعض إليّ من دعوته، ولا أثقل على نفسي من رسالته، وكنت أحسبه خارجاً عن قومه، متجنباً على عشرته حتى أتيت لي مرة في إحدى سبحاتي بالليل أن سمعت رجلاً يتلو شيئاً من الكتاب الذي جاء به، فوجدت

(١) لواعج: كوامن.

في طبعي إليه ارتياحاً، وفي نفسي قبولاً، فأسلمت وأزمنت الهجرة إليه . . . ولكنني ما جهرت بإعلان ما اعتقدت، وما عرفوا ما اعتزمت حتى وضعوا في رجلي القيود، وصفدوني تحت أعين الرقباء، ولقيت من صنوف البلاء والأذى ما ينوء به كاهل الشجاع. ولكنني في ساعة من غفلتهم، واشتغالهم بشؤونهم حطمت قيدي، وفككت أسري، وفررت بنفسي وديني، لأشرككم في الحظوة، وأكون معكم في الجهاد.

قال ذلك أبو بصير، وحسب أنه زالت عنه همومه وأحزانه، وأقبلت عليه أيام دهره، وظن أنه من اليوم سيعبد الله كما يريد، ويتوجه إليه متى شاء، وما درى أن هناك عهداً يحول بينه وبين ما يريد.

وأخذ سبيله إلى الرسول، وقبل أن يتشقق بالحديث وجد اثنين من قريش سبقاه إليه، كانا قد جاءا في أمر أبي بصير يستعديان عليه الرسول، ويذكرانه العهد الميثاق. قال أحدهما: يا محمد، ما عرفناك غادراً صغيراً، فكيف بك كبيراً. هذا أبو بصير قد أبق<sup>(١)</sup> عن ديننا، وانسلخ عن جمعنا، وجاءنا فاراً مسلماً، وقد عاهدناك أن ترد من جاءك منا وتدفع إلينا من التجأ إليك فاراً، وقد أوفدنا قريش لترى مقدار قيامك على العهد، ورعايتك للميثاق. قال رسول الله: ما نقضت العهد، ولا حنثت<sup>(٢)</sup> في اليمين، ودونكما الرجل فخذه، ولعل الله يجعل من أمره يسراً وفي دينه فرجاً!

ومضى أبو بصير أسيراً بين سَمْع المسلمين وبصرهم، يشيعونه بنفوس ملؤها الأسى، وقلوب حشوها حزن عميق. ولكنه لم يبعد في السير طويلاً، حتى رآه قادماً! قالوا له: أين غريماك؟ قال: لقد قتلت أحدهما وألجأت ثانيهما إلى الفرار.

ولقد وفيت بذمة الرسول، وبررت بما قام به من عهد، ولا علي أن أقيم بينكم! قال رسول الله - وقد بلغه صنع أبي بصير: وَيَلْ أَمَهُ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ! وَلَكِنْ لَا بَقَاءَ لَهُ فِي الْمَدِينَةِ، فَأَيُّ أَرْضٍ يَذْهَبُ يَجِدُ مَرَاغِماً<sup>(٣)</sup> وَفِي أَيِّ مَكَانٍ يُصَلُّ يَلْقَى اللَّهَ.

وخرج أبو نصير - كما خرج في المرة الأولى - كاسف البال، ساهم الطرف ملتاع الفؤاد، حائراً أين يذهب! وحلّف وراءه - كما خلف في المرة الأولى - نفوساً ثائرة، وأفئدة تنطوي على همّ طويل.

(١) أبق: فرّ.

(٢) حنث اليمين: نقضه.

(٣) المراغم: المذهب والمهرب.

ومضت أيام، وتصرّمت<sup>(١)</sup> شهور، وكلما تذكّر المسلمون ما هم فيه من قريش - من عهد جاثر، وظلم واقع - سألت نفوسهم أسي، وصعدت أذانتهم حسرة وأسفاً، حتى هبط عليهم في المدينة قرشي جديد.

قال أحدهم: هذا مسلم فاز، ومؤمن مستجير، إنه قدم ليجدد الأسي، ويضع الإصبع في جرح لا يزال وجيعاً.

وتقدم إليه آخر، وقال: أمسلاً جئت يا هذا؟ إن المدينة ليست بدارك، ولا محطاً لرحالك، ولا موضعاً لأمانك. لقد علمت أن بينكم وبين الرسول عهداً، ألا يحمي قرشياً مسلماً، وألا يؤوي عنده رجلاً منكم. وإنه لقائم على العهد أمين على الميثاق. لئن طال مقامك لتوشكن قريش أن ترسل في أثرك، فلا تستطيع فكاكاً، ولا تملك لنفسك حَوْلاً ولا طَوْلاً، فخير لك أن تطلب داراً غير المدينة، وجمي غير هذا المكان، ونرجو الله أن يجعل لك فرجاً قريباً.

فضحك الرجل وأغرب، ثم قال: إنكم حزرتم<sup>(٢)</sup> فأخطأتم، وتوهمتم وما صدقتم، ولست مسلماً حضرت، ولا فاراً التجأت، وما ابتغيت عن دين قومي ديناً، ولا اتخذت غير مذهبهم، ولكن جئت محمداً في أمر، والإفصاح عنه رهين بلقياه.

قال المسلمون: ما هذا الأمر الذي دفع قريشاً إلى أن ترسل هذا الرسول؟ انطلقوا للنظر ما يقول.

ولما دخلوا المسجد وجدوا الرجل يتحدث إلى الرسول بعبارات مطمئنة: لقد أرسلتني قريش فيما خزبها من أمر أبي بصير، وما يترصد لها من النكال. لم يكفه أن قتل غيلة وغدراً رجلاً من خيرة رجالنا، وفتى من أشجع فرساننا، حتى وثب إلى سيف البحر فاتخذة مقراً، يلجأ إليه كل هارب من قريش، ويقيم عنده كل مسلم لم تتسع لدينه جنبات مكة... وما كان يهمننا أمرهم، أو نعبأ بجمعهم، لولا أنهم أقاموا علينا حرباً، وسلّوا دوننا سيفاً، ولا يسمعون بقافلة منا تذهب إلى الشام أو ترجع إلى مكة، حتى يناوئوها في سيرها، ويبدّلوا أمنها خوفاً، ويوسعوا رجالها رعباً وفزعاً. ولسنا نرى - دفعاً لشرهم، أو رداً لجماعتهم - إلا أن تعفينا من شرط أخذناه على أنفسنا، وحسبناه خيراً لجماعتنا فإذا هو بلاء وشر، وإذا هو محنة وعناء، فلتضم إليك من جاءك منا مسلماً، أو خرج عنا فاراً.

وسمع المسلمون هذا العرض من قريش، فأزاحوا بعض الهم عن نفوسهم،

(١) تصرمت شهور: مضت.

(٢) الحزرت: التقدير.



وارتاحت - هَوْنًا ما<sup>(١)</sup> - وانسلت عنهم بعض همومهم، وعادوا أخف أحزاناً وأيسر بلبالاً، وأشد اطمئناناً.

ولكن كلما مضى الزمن اشتد نزوعهم إلى البيت، يشوقهم إليه لامع البرق، ويهيج حنينهم وافد النسيم. أجل! إن قريشاً قد وقت بعهداها، وبزّت بيمينها وأخلت مكة في أيام الحج، فخلوها معتمرين، وطافوا بالبيت معظمين. ولكن، هي الإمامة ما أشبهها بالإمامة الطيف، وزورة ممزقة بالخوف: يطوفون وعيونهم تلتفت إلى الورا خوف الغدر، وقلوبهم تتوجّس حذر المكر، ثم هم ممنوعون بعد ذلك أن يسألوا سيفاً، أو يقيموا عليهم حرباً، أو يثيروا قتالاً... لو طال بهم الأمر على هذه الحال، فأكبر الظن أن همهم سيطول، وحزنهم سيستمر.

وانفلت فريق منهم يوماً من صلاة العشاء، والتجأوا إلى سقيفة لهم يسمرون ويتحدثون، أخذوا يتذكرون سقاط الحديث. ويتشقق بهم القول في كل مجال، حتى انتهوا إلى الحديث فيما كان بين خُزاعة وبكر من عداء، وما سال بين هذين الحيين من دماء. قال واحد منهم، وكان أخبارياً حدث ملوك<sup>(٢)</sup>: إن عندي من قديم أخبارهما، ما لو نفضته عليكم لاجتذب أسماعكم، واستهوى ألبابكم، لولا أن التهويم قد ابتداء يلعب بأجفانكم، والنوم يأخذ سبيله إليكم.

قالوا: لسنا قائمين إلى فراش، أو ذاهبين إلى رقاد<sup>(٣)</sup>: تحدثنا بأخبارك، وتروي لنا من مكنون روايتك، قال: لقد حدثني أبي فيما كان يحدثنا به ليالي سمره، أنه لم يكن بين الحيين في قديم عهدهما إلا صلوات موثقة العرى، متينة الأسباب، يتزاورون ويصهرون، ويسافرون ويتجرون. وكم مرة كانوا أحلافاً على غيرهما، وكانوا نصراء على من يعتدي على أحد منهما، وما زالوا على هذا الخلاط المؤكد، والود المصفق حتى خرج مالك بن عباد حليف بكر تاجراً في أرض خُزاعة. فاعتدى عليه سقيط<sup>(٤)</sup> أحمق وأرداه قتيلاً. ومن يومها استوقدت نار الفتنة، واستطار شرر العداء، ورتق ما كان من الود صافياً، وتغير ما كان من القلوب سليماً. وكم سعى رجال من كرام العشائر ليستلوا السخائم فلم يفلحوا، وكم تقدّم الوسطاء لإطفاء وقدة النفوس فخابوا. واستمر الثرى بينهما يابساً، والجو عابساً مظلماً مكفهراً، حتى ظهر محمد رسول الله بمكة، فتلفتت إليه القلوب، وشغل به الناس.

(١) هوناً ما: قليلاً.

(٣) الرقاد: النوم.

(٢) حدث ملوك: سمير ملوك.

(٤) السقيط: الأحمق.

ولكن عادت العداوة إلى الظهور، واتخذت سيرتها الأولى في الوجود، حينما وقع صلح الحديبية، وحينما دخلت خُزاعة في عهد المسلمين، ويكر في عهد قريش. إنهما بحلفهما على هذا النحو، قد أثارا كامن عداوتهما، وبعثا راقداً حقدهما، ومن يدري ماذا تتمخض عنه الأحداث؟

وانتهى الرجل من حديثه.. وإذ هموا بالانصراف سمعوا الكلب ينبح طارقاً غريباً! قالوا: من الطارق الغريب في جُح هذا الليل؟ ليذهب أحدكم فلينظر، لعله ضال يتخبط في الطريق، أو لعله عابر سبيل يلتمس القرى والثواء.

ذهب رجل وعاد، ومعه عمرو بن سالم الخُزاعي، فسلم عمرو، وجلس تعبان قد أدركه الأثين، ونال منه السُرى في الظلام، وكأنه يحمل على ظهره أثقالاً من الهم، ويخفي بين جنبيه داء وجيماً ما له براء.

ما بك يا عمرو؟ وما وراك؟ لأمرٍ ما جئت إلى المدينة، ولأمر ما طرقت بليل؟ ما هذا الهم الذي يظهر في سهوم وجهك، وحيرة أجفانك، وتقطيع كلامك؟ لمن غريبات الأصداف: وعجب التوفيق أن نخوض الليلة في أحاديثكم، ونتحدث فيما بينكم وبين بكر من عدااء مستمر، وقاتل مستحز.

قال عمرو: إن ما جئت فيه الليلة ليس بعيداً عن هذه الحرب وويلاتها، وليس قصياً عن هذه العداوة وما يجري في سبيلها. لقد بدا بنا في العداوة خطب جديد، وأضافنا هم طريف، أصابت بكرٌ فينا عرّةٌ مُصبح يوم عند الوتير<sup>(١)</sup> فأسالت دماء، ومزقت أشلاء. ولقد هممنا أن نأخذ لثأرنا، وننتقم لقتلانا، لولا أن قريشاً نقضت العهد، ورفدت بكرأ بالسلاح، وأمّدتنا بالرجال والكراع<sup>(٢)</sup>. فكثر الجمع، وغلب العدو، واستحز<sup>(٣)</sup> فينا القتال. والتجأنا إلى الحرم نستجير بحرمته، ونحتمي إلى جواره، ولكنهم ما راعوا له مقاماً، ولا حفظوا فيه جواراً. ولولا من التجأ إلى دار بُديل بن ورقاء لَقني من بمكة من خُزاعة أجمعين.

وطلعت الشمس، وانتشر الخبر مع شعاعها في كل مكان أن قريشاً نقضت العهد<sup>(\*)</sup>، وفجرت في اليمين، وأعانوا - غدرأ - بكرأ على خُزاعة. ونصروا حليفاً

(١) الوتير: ما بين عرفة إلى إدام.

(٢) الكراع: جماعة الخيل.

(٣) استحز: كثر.

(\*) ما بين صلح الحديبية ونقطة وصل يهود خيبر بحالهم بحبال أعراب غطفان لمتابعة الكيد لإسلام إذ تراوى للنبي أن الفريقين يجتمعان ضد المسلمين فسار نحوهم وانفرد يهود خيبر بعد أن انسحب بنو غطفان.

على حليف، فدلّف الناس إلى المسجد يلتزمون رؤية الرسول، أو يتعرفون ما عنده من رأي، فإذا هو جالس وعمرو بن سالم يشد بين يديه بصوت متهدج وتبر متوجع:

يا ربّ إني ناشدُ مُحمداً      حَلَفَ أبِينَا وأبِيهِ الأتْلِدَا  
 قد كنتم ولداً<sup>(١)</sup> وكنا والداً      ثُمّتَ أسْلَمُنَا فلم تَنْزِعْ يدا  
 فانصر هداك الله نضراً أعتداً      ودَغَ عباد الله يأتوا مَدداً  
 فيهم رسول الله قد تجردا      إن سِيَمَ حَسْفَا وجهه ترئبدا  
 في فيلق كالبحر يجري مزبداً      إن قريشاً أخلفوك الموعدا  
 ونقضوا ميثاقك المؤكداً      وجعلوا لي في كَدَاءِ<sup>(٢)</sup> رَدَا  
 وزعموا أن لست أدعو أحداً      وهم أذلُّ وأقلُّ عُددا  
 هم بيتونا بالوتير<sup>(٣)</sup> هُجداً      وقتلونا رُكْعَاً وسجداً  
 فانصر هداك الله نضراً أئداً

فقال الرسول: نصرت يا عمرو بن سالم، ثم توجه إلى الله قائلاً: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

### نصرٌ مبين

لم تدرك قريش خطأها إلا حين تمزقت خيوط الظلام، وانفلق عمود الصباح.. نصرُوا بكراً على خُزاعة، وأعانوا حليفاً على حليف! ما أوحم العاقبة وأسوأ المصير! سيسير الخبر مع الشمس، وينتقل مع الريح، ويبلغ محمداً أن قريشاً فجرت في يمينها وعبثت بعهداها، وسيلقاها المسلمون ثلماً ينفذون منها، وفرصة ينتهزونها، وأنهم ما استعدوا للحرب، ولا تهيأوا لقتال.

اندتوا دار واحد منهم. يقلبون الرأي ويتلمسون الخروج، ويتعرفون المصير؛ وتشعبت الآراء، وعلت الأصوات، واضطربت المذاهب، ثم انتهوا إلى رأي لعله يحسم الداء، ويدفع البلاء: أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة - وهو شيخ قريش وغطريفها، إليه تومئ الأصابع، وتمتد الأعناق - قبل أن يعتلن الخبر، وينتشر في الأنحاء، وليأت محمداً، فيوثق للعهد، ويزيد في المدة، فلا يجد محمد سبيلاً إلى الغزو، أو سبباً لنقض العهد.

(١) يشير إلى أن عبد مناف أمه من خُزاعة.

(٢) كدَاء: موضع بأعلى مكة.

(٣) الوتير: الموضع الذي وقع فيه غدر قريش بخُزاعة.

وسافر أبو سفيان، وانعقدت عليه الآمال، والتمعت بروق الرجاء، سافر عن قريش يحمل أعباءها، ويصلح ما أفسده حمقاها... وما أن وصل المدينة حتى رأى حديث بكر وخزاعة قد ملأ الأسماع واضطربت به الألسنة، وانتشر في كل مكان، والمسلمون بعدد قد أخرجوا مكنون سخطهم، وراشوا نبال غيظهم، والأمر على غير ما يحب ويرجو... فوجم<sup>(١)</sup> الشيخ، وارتاع فؤاده، وتوقع الخطب والمكروه.

والآن، أيعود إلى مكة خائب الرجاء طائش السهم؟ ولكن فيهم كانت مشيخته في قريش وزعامته فيها أم يجدد ليلقى محمداً يبسط عنده العذر، وينتحل الأسباب؟ ليُجرب الثانية، فلعلها أنجح الرأيين وأحسن الطريقتين!

ويذهب أبو سفيان إلى بيت الرسول، ويقف في ساحته، حائر الطرف مبلبل الرأي، موزع الفؤاد ثم يتحدث إلى بنته أم حبيبة<sup>(٢)</sup> أم المؤمنين. فتغلظ له في القول وترده رداً غير كريم، فيخرج متعثراً في ذيل اليأس متلفعاً بمئزر الصغار. ثم يلتقي بعد برسول الله، فما يصيب عنه إلا سخطاً وامتعاضاً، وما يلقي إلا صداً وإعراضاً، ويرجو الشفاعة من أبي بكر، فلا تعدو آماله أحلام نائم. ويلتمس الخير عند عمر، فلا يظفر عنده إلا بقلب حائق، وسخط هائج. ثم ينتهي الأمر عنده إلى خيبة الرجاء والتواء الطريق، فيعود إلى مكة منذراً أهلها أمراً شفت عن الدلالات، وأسفرت العلامات.

أما رسول الله فقد أمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ، وأعلن في المسلمين: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليشهد رمضان بالمدينة.

وأسرجت الخيول، وأعد السلاح والكراع، ووفدت القبائل من مؤننة وغفار، وأشجع وسلم. والتأم جيش من المسلمين، في جمع من قبل لم يعرف، وحماس لم يؤلف، وصدر عن رسول الله أمر كريم: أن يحفظ المسلمون أسرارهم ويضنوا بمخبات ضمائرهم، فلعلهم يصيبون قريشاً على غير استعداد، ويدخلون مكة من غير كيد أو عناد؛ فرسول الله حريص على ألا يسفك في البلد الحرام دمأ، ولا يُزهق روحاً، ولا يثير حرباً، ولا يذكي ضرام عداء.

(١) وجم: سكت.

(٢) أم حبيبة: اسمها رمة، تزوجها رسول الله، وقد زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة، وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربعمئة.

وساروا جميعاً ترفرف فوقهم العُقَاب<sup>(١)</sup>، وتكلأهم<sup>(٢)</sup> رعاية الله<sup>(٣)</sup>،  
ويطلع عليهم في الطريق رجل مهيب الطلعة، أبلج الغرة، طويل بادن، في  
نفر من الناس تبيّثوه، فإذا هو العباس بن عبد المطلب.

قال: يا رسول الله، لقد علمت أنني أسلمت من عهد، ولكنني ما استطعت  
أن أجهر بالإيمان، وما استطعت أن أصبر بعد ذلك على الكتمان، وقد خرجت  
مهاجراً إلى الله وإليك بنفسي، وها هم أولاء زوجي وولدي.

قال رسول الله: مرحباً يا عمّ، ليهنئك الإسلام، وليبارك لك الله في  
الإيمان، أرسل إلى المدينة أهلك وولدك، وارجع معنا إلى مكة حتى تشهد ما  
يكون بيننا وبين قريش.

ورمى العباس ببصره في الجيش، فإذا بقوم ملء السمع والبصر، والسهل  
والجبل، فقال: ورحمة الله لقريش! إن دخل هذا الجيش مكة عنوة فإنه سوف لا يُبقي  
في قريش طفلاً ولا كهلاً، ولا امرأة ولا رجلاً... وخاف العباس، وأشفق من مصير  
قريش، فخرج إلى الصحراء لعله يلقي خطاباً أو لبناً أو ذا حاجة، فيحمله رسالته إلى  
قريش: أن يحضر كبارؤها ورؤساؤها إلى محمد يؤمنونه على نفوسهم، ويعاهدونه على  
تسليم حرمهم، فيكون هذا أحقن لدمائهم وأبقى لحياتهم.

وبينا هو يشم، وينظر، ويتطلع ويتنور<sup>(٤)</sup> سمع همس رجلين يتراجعان.

قال أحدهما: تلتفت إلى هذه النار، وأدب طرفك فيها ثم ارجع البصر إلى هؤلاء  
العسكر، فإنني ما رأيت نيراناً قبل كهذه النار، ولا جنداً أحشد من هذه الجنود.

قال الثاني: هذه والله خُزاعة قد حَمَشْتها<sup>(٥)</sup> الحرب وهاجمها يوم الوّتير:

وقال الأول: اسكت، فوالله لخُزاعة أذلّ نفوساً، وأضعف جنوداً من أن  
تكون هذه نيرانها وتلك جنودها.

وبينما الثاني يتهاى للكلام وجد العباس بينهما. وقال العباس: عجباً: أنت  
أبو سفيان! ما جاء بك في هذا الظلام يا أبا حنظلة؟ قال: همّ العشيرة وأفدأخ

(١) العقاب: اسم راية الرسول ﷺ.

(٢) تكلأهم: ترعاهم.

(٣) تجهز الرسول لفتح مكة ضمن سرية تامة ودعا ربه قائلاً: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش  
حتى تبتتها في دارها. واكتشف حادث حاطب بن أبي بلتعة وقبل عذره...

(٤) يتنور: يطلب النور.

(٥) حَمَشْتها: أغضبتها.

القبيلة، ورزء الزمان... لقد خرجت أتحمس خبر ابن أخيك، وأتطلع طلح المسلمين، وقد حَزَرَت قريش الحرب، وتوقعت الشر من يوم أن انتقض العهد وفَجَرنا في اليمين.

قال العباس: ويحك يا أبا سفيان! هذا محمد رسول الله قريب منك، في جند كعديد الرمل، ولئن ظفر بك لأخشين أن تُضرب عنقك، وشديد علي أن أرى رأس قريش مجدلاً، وشيخها مقتولاً. اركب معي هذه البغلة، لعلي آتي بك رسول الله، أطلب لك الأمان، وأستوهب لك الحياة.

وشاهد الناس أبا سفيان رديفاً للعباس، ورآه عمر بن الخطاب، فوثب على قدميه، وقال: أبا سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد! وانطلق يعدو إلى رسول الله.

قال: يا رسول الله: هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدغني أضرب عنقه، ليخبو<sup>(١)</sup> ضرام غيظي، وتهدأ نائرة ضلوعي.

قال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرت أبا سفيان، وأعطيته الأمان، وهيهات للرسول الأمين، الكريم الحليم، أن يرد جوارِي ويرجعني في أمانِي.

قال عمر: ذاك يا رسول الله شيخ من قريش يوم بدر، ومحرضها يوم أحد، وزعيمها يوم الأحزاب، وقد أمكن الله منه بعد عهد نقضوه، وحلف ضيعوه وإن في قتله لراحة للمسلمين، وشفاء لما في الصدور.

قال العباس: علي رسلك يا عمر، فوالله لو كان من قومك من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف.

قال عمر: لقد جاوزت الحد يا عباس: فوالله لساعة إسلامك يوم أسلمت أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم...

وهم العباس بالكلام، ولكن رسول الله حجز بينهما حجراً كريماً، وفصل بينهما فصلاً حكيماً، ثم قال: يا عباس، اذهب به إلى رحلك، ودعه يقضي عندك هذا المساء، ثم اتني به الغداة.

وأخذ العباس بيد أبي سفيان، وانطلق به إلى قبته، وبات محدثاً له حتى السحر، وهو يرجو أن يطمعه في الإسلام، ويأفكه<sup>(٢)</sup> عن الأصنام. ولما نهض من

(٢) يأفكه: يصرفه.

(١) يخبو: ينطفيء.

نومه، رأى القوم يقفون خاشعين، ويتمتمون بعبارات لا يفهمها، ثم يركعون بظهورهم، ثم يعرفون بالتراب وجوههم، فقال: ما يفعل هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: إنها الصلاة، قم يا أبا سفيان وتطهر، وانطلق معي إلى رسول الله. فتطهر أبو سفيان متلكتاً وقام مثاقلاً، وذهبا حتى جلسا بين يدي الرسول.

قال الرسول: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أو لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً!

قال العباس: يا أبا سفيان، لقد وضخ لذي عينين، فإن كان على عينيك غمامة فارفعها، وإن كان على قلبك غشاوة فمزقها. أسلم إبقاء على حياتك، وحرصاً على دنياك وآخرتك. فاضطرب أبو سفيان، ثم تلعثم، ثم تردّد، ثم قال: شهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وابتهج الرسول والتمع البشر في وجه العباس. ثم أخذه بيده، وعلمه الوضوء والصلاة، وبصّره بمبادئ الإيمان.

ثم عاد إلى الرسول يقول: يا رسول الله، إن أبا سفيان كما أعلمه رجل يحب الفخر، وتميل به الخيلاء، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال الإسلام غريباً في قلبه، والعقيدة غير مستقرة في نفسه، فاجعل له شيئاً يقضي به حاجة نفسه من الزهو والمخيلة، ويجعله في الإسلام أثبت قدماً، وأكبر يقيناً...

قال رسول الله ﷺ نعم، من دخل دار أبي سفيان من مكة فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.

ويسمع أبو سفيان قول رسول الله، فيذهب صائحاً في عرصات<sup>(١)</sup> مكة. يا معشر قريش، قد جاءكم محمد بما لا قبيل لكم به، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن... فقامت زوجته هند وقالت: اقتلوا الحميت<sup>(٢)</sup> الدسم الأحمس، قُبِحت من طليعة قوم! قال: يا قوم لا تغرّنكم هذه عن أنفسكم، وقد نصحتكم وما أردت إلا حقن دمائكم، وحفظ أرواحكم، ولقد جاءكم محمد بما لا قبيل<sup>(٣)</sup> لكم به.

(١) عرصات: جنات.

(٢) الحميت: السمين. والأحمس: من لا خير فيه.

(٣) قبيل: طاقة.

فارتاع . القوم وقالوا: ويلك! وما تغني عنا دارك! قال: ومن أعلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فهرع الناس إلى المسجد والدور... ودخل رسول الله مكة حانياً ظهره شكراً، غاضباً طرفه حمداً لا بساً عمامته السوداء معتجراً<sup>(١)</sup> شقة برد حمراء، لم يلق سيفاً قائماً، ولا رجلاً شاكياً، وهو يتلو: ﴿ إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتَمَّائِيْنَا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِعَمَلِكَ وَتَحَدُّكَ يَزِيدَ مُسْتَقِيمًا وَيُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِ رَبَّنَا جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَتُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالظَّالِمِينَ إِنَّ اللَّهَ طَرَفَ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَاللَّهُ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿ [الفتح: ١ - ٧].

ثم توجه إلى البيت طائفاً، وذهب إلى الركن مستلماً، واحتشد الناس في المسجد، وتدافعوا ينظرون ما يقول محمد وما يصنع .

هذا الذي أخرجوه وصحبه من ديارهم، وافتنوا<sup>(٢)</sup> في إيدائهم، ونالوا من عافيتهم وراحتهم، هو ذا قد عاد اليوم ظافراً بهم، قادراً عليهم، ليت شعرهم ماذا يقول؟ وليت علمهم ماذا يصنع؟

ووقف الرسول على شرف في المسجد، وتهيأ للقول وقال: «يا معشر قريش ما تظنون أنني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!»

يوم حنين<sup>(\*)</sup>

## المسلمون بين الهزيمة والنصر

كان دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ ذا علم في الحرب، وصاحب رأي في أساليب القتال، خب فيها ووضع<sup>(٣)</sup>، وشب واکتهل . وهو وإن كان اليوم قد أصبح شيخاً متهدماً وعجوزاً فانياً، ليس لقومه من بني جُشَمٍ فيه من عون، ولا عليه من معول، فإنه ما زال فيصلاً في الأحكام، ومرجعاً في المشكلات .

(١) الاعتجار: لف العمامة .

(٢) افتنوا: تفتنوا .

(\*) التوبة: آية ٢٥ .

(٣) الخبب والإيضاع: نوعان من السير، والمراد أنه مرن على الحرب .



قال لقومه - وقد حملوه في شجّاره<sup>(١)</sup>، وقادوه بزمام جملة: بأي واد أنتم؟ قالوا به: نحن بأوطاس<sup>(٢)</sup>، قال: نغم مجال الخيل، لا حزن ولا ضرس<sup>(٣)</sup>، ولا سهل دّهس<sup>(٤)</sup>، ولكن ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويعار<sup>(٥)</sup> الشاء؟... قالوا: لقد ساق مالك بن عوف الناس للحرب، وحشد وراءهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم... قال دزّيد: دلّوني عليه، فوالله ما أراه إلا دَبْرِي<sup>(٦)</sup> الرأي، أفيلَ الفكرة<sup>(٧)</sup>، أهكذا تكون الحرب؟ وأمسك غلامه بخطام<sup>(٨)</sup> جملي حتى وقف به على مالك.

قال دريد: يا مالك، لقد أصبحت بعدي رئيس القوم، وزعيم الجماعة، فحدثني عن هذا الحشد. قال مالك: هؤلاء قومي وقومك، دفعت بهم إلى لقاء محمد. لقد علمت أنه قد دخل مكة في جيش لم تر العرب مثله، ولم يلق فيها صاداً ولا راداً، ولم يصادف عقبّة ولا عثرة، فذلت له قريش، ولم تعد لهم بعد في مكة كلمة... وإنه ليوشك إن لم نغزّه أن يغزونا. وما يبعد - إن لم نستعدّ له - أن تذللّ له هوازن، وتخضع نضّر وجشم، وتدين ثقيف، ويصبح محمد ملك العرب جميعاً... ولكنني - كما ترى - أعددت له قبل أم يُعدّ لنا، وأزمت المسير إليه قبل أن يسير إلينا.

قال دريد: هؤلاء الرجال، وهؤلاء الفرسان، ولكن، ما هذا الذي أسمع من رغاء<sup>(٩)</sup> البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟

قال مالك، وحسب أنه طبّق من الرأي المَفْصِل، وأصاب شاكلة الصواب: لقد خشيتُ هزيمة القوم، وهم قلة بجانب أصحاب محمد، ولهذا سُقت وراءهم أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتلوا، ولعلمهم بهذا يكونون أصدق لقاء، وأثبت أقداماً.

فهز دريد رأسه، وقال: زاعي ضأن<sup>(١٠)</sup>، وهل يردُّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت أهلك ومالك. يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة: بيضة هوازن إلى نحور الخيل

(١) الشجار: اليهودج.

(٢) أوطاس: مكان.

(٣) ضرس: صعب.

(٤) دّهس: سهل.

(٥) يعار: الشديد من أصوات الشاء.

(٦) الرأي الدبري: هو الذي يسبق بعد فوات الفرصة.

(٧) أفيلَ الفكرة: ضعيفها.

(٨) خطام: زمام.

(٩) رغاء: صوت البعير.

(١٠) قصد بذلك تجهيله.

شيئاً. . . ارفعهم إلى متمتع بلادهم، وعلياً قومهم، ثم ألق الصُّبابة<sup>(١)</sup> على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك: يا دريد: لقد كبرت في السن، وكبر علمك. فدعها لمن يعرفها، واترك من سيخوض غمارها ويدبر خطتها. . . ثم عاد إلى القوم، وقال: يا معشر هوازن، لتطيعنني أو لأتكنن على سيفي هذا فيخرج من ظهري.

قال زعماء القوم وعرفاؤهم<sup>(٢)</sup>: دونك يا مالك وما تريد.

وטר الخبر إلى رسول الله في مكة، وهو يتهيأ للعودة إلى المدينة، أن مالك بن عوف قد حشد هوازن، واستنفر ثقيفاً، ودعا إليه نصراً وجُشَم، وأنه يُوشك أن يشتبك مع المؤمنين في قتال. . .

فدعا رسول الله المسلمين ألا يُلقوا سلاحهم، وألا يريحوا أبدانهم، حتى يلقوا مالكا، فلعل يومهم آخر يوم لغزو العرب، وشوكتهم آخر شوكة في المشركين. فاستجابوا لله وللرسول في جيش لم يهتأ لهم من قبل: عشرة آلاف ممن قدموا مع الرسول في المدينة، وألفان ممن دان يوم الفتح، إنه لعدد يدعو إلى الزهو<sup>(٣)</sup> ويدعو إلى الإعجاب. أين الرسول الآن وهو في قوم من المسلمين كعديد الحصى، منه يوم أن خرج من مكة تحت جناح الظلام مطلوباً، لا عون له ولا ناصر؟ وأين عديد المسلمين اليوم من عديدهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق؟ إنه جيش غرّ قائلهم فقال: إنهم لا يغلبون اليوم من قلة.

ولكن ما خطرُ الكثرة إذا لم تؤيد بنصر الله؟ وأين هذا الجيش الذي يضم صفوان بن أمية على شركه، وأبا سفيان والأزلام في كنانته، وكلدة بن الحنبل وقتل رسول الله ضالته! أين هذا اليوم من يوم بدر، وما في المسلمين إلا مؤمن قوي الإيمان، مجاهد صادق في الجهاد؟ إنها لكثرة لم تبعث إلا غروراً، ولم تهين لهم إلا عجباً وخيلاء.

وخرج المسلمون في عماية الصبح<sup>(٤)</sup>، وانحدروا بجموعهم إلى وادي حنين<sup>(٥)</sup> كما ينحدر السيل إلى الحذور وما راعهم إلا المشركون قد سبقوهم إليه،

(١) التاركون دينهم، وبهذا كان الكفار يسمون المسلمين.

(٢) عرفاؤهم جمع عريف، وهو رئيس، وهو رئيس الجماعة.

(٣) الزهو: الفخر.

(٤) عماية الصبح: ظلمته.

(٥) حنين: بين الطائف ومكة.

وكنتموا في شعباه، واختبأوا وراء أحنائه ومضايقه وظهروا عليهم فجأة! فإذا كثرة المسلمين ما خرجوا إلا طامعين، ولا ذهبوا إلا مترددين، يخور عودهم، وتَنخَبُ<sup>(١)</sup> قلوبهم، ويتشمرون منهزمين، ويرجعون متقهقرين، ثم يقع الذعر في سائر الجيش، ويفزرو الرعب قلوب المسلمين.

ويتكشف القتام<sup>(٢)</sup> عن رسول الله منحازاً إلى ذات اليمين، راكباً بغلته البيضاء وهو يصيح: أين أيها الناس؟ هلّموا إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. ولكن لا شيء غير قوم مذعورين، وفلول منهزمين! ويلتفت الرسول فلا يلقى إلا أبا بكر وعمر، وعلياً والعباس، وقليلاً من خاصته وأهل بيته، وأبو سفيان يبرز مكنون حقه، ويعلن ما بين ألفاف صدره، ويقول: إن هزيمتهم لا تنتهي إلا إلى البحر، ويصيح كلدة بن حنبل: الآن قد بطل السحر. ثم يعود الرسول فيدعو العباس ويأمره أن يهتف بالأنصار، وكان العباس فارعاً بادناً، صيئاً جهير الصوت فنادى: ما معشر الأنصار، يا أصحاب السُّمرة<sup>(٣)</sup> هذا رسول الله يدعوكم، ويستنصر بكم على عدوكم وإذا بصوته يشق الصدور، ويصل إلى قرارات النفوس، ويجيب الأنصار هاتفين: لبيك يا رسول الله لبيك... وإذا كان الله قد بلغ بالمسلمين ما أراد من أن يُريهم عاقبة غرورهم، ومقدار كثرتهم، وخطأهم في تعبئة جيوشهم، فإنه عاد فثبت أقدامهم، وربط على قلوبهم، وأنزل سكينته عليهم، وأمدّهم بجنود لم يروها. فانقلبت الهزيمة إلى نصر، وولت هوازن وأحلافها، تاركة للمسلمين أسلابها وغنائمها.

### الثلاثة الذين خلفوا\*

المسلمون في عُسرة من المال، وضيق من العيش، ولَفْح شديد من الحرّ، ولكنهم كانوا يعقدون آمالهم بيوم قريب، يجنون فيه الثمر، ويحصدون الزرع، ويروّحون عن نفوسهم بفرج مُقبل، وخير آت.

وبينما هم يرجون ذلك الأمل، ويترصّدون هذا اليسر، وهم أشد ما يكونون رغبة في البقاء، وأزهد ما يُرون ميلاً عن السفر، إذا برسول الله ﷺ يدعوهم للجهاد، ويؤدّن فيهم بالنفير العام: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي

(١) النخب: الجبن وضعف القلب.

(٢) القتام: غبار المعركة.

(٣) السمرة: الشجرة، والمقصود شجرة البيعة.

(\*) التوبة: آية ١١٨.

سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ [التوبة: ٤١]، من استطاع منكم الإنفاق عن سعة وفضل فلينفق، ومن استطاع أن يحمل غيره فليحمل، واعلموا أن وجهتنا غزو الروم، فلا يتخلف أحد منكم، من استطاع إلى الجهاد سبيلاً.

أقبل المسلمون بعضهم على بعض يتساءلون: ما بال رسول الله ﷺ يدعونا للجهاد في وقت الحر، ولأنفج الهاجرة<sup>(١)</sup>، وقبل أن نجني الثمار، ونحصد الزرع؟ ثم ما باله يجري اليوم في الجهاد على غير عادة مألوفة، ويسلك طريقاً غير معروفة، فيعلن الجهة التي يقصدها، والقوم الذين سيغزوهم، والعهد به يُخفي ولا يصرح، ويكني ولا يفصح!؟

ولكنهم ما علموا أن رسول الله ﷺ يتهيأ ليصد بني الأصفر<sup>(٢)</sup> الذين أعدوا جموعهم، وحشدوا جيوشهم لغزو المسلمين، وهم أقوى ما يكونون غدة وعدداً، وأنه قد أثر إعلامهم وإيدانهم، ليتهيأوا لسفر بعيد وشقة طويلة، حتى استطابت نفوسهم للجهاد واستعدوا للبلاء.

ودعوة للجهاد، في غسرة من المال وعسرة في الإنفاق، وعسرة في الظهر<sup>(٣)</sup> تتلقاها النفوس بحسب ما قدر لها من الهداية والتوفيق، وبمقدار ما خالطت من الإيمان واليقين. فالنفوس الفياضة بالتقوى، الطامحة إلى الجنة، المتطلعة إلى رضوان الله، لا تبالي الجهاد صيفاً أو شتاء، حرّاً أو قرّاً<sup>(٤)</sup>، وإنما هي كلمة يلقيها الرسول، فإذا أموالهم وأنفسهم بين يديه، وطاعتهم منتهية إليه. ذلك لأنهم علموا أنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة<sup>(٥)</sup> في سبيل الله، ولا يطأون موطناً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نبياً إلا كتب لهم له عمل صالح ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم، ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون.

وأما أصحاب النفوس المترددة بين الإيمان والكفر، المذبذبة بين الشك واليقين، فإنهم ما يسمعون بكلمة الجهاد، ولا يرون قوماً يتهيأون للغزو، حتى يُغظموا الشقة، ويكبروا النفقة، ويرجفوا بسوء العاقبة والمصير...

فما دعا رسول الله ﷺ إلى التجهز إلى تبوك، حتى تطوع المسلمون بأموالهم

(١) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر.

(٢) بنو الأصفر: الروم. (٤) القر: البرد.

(٣) الظهر: وسائل النقل. (٥) المخمصة: الجوع.

وأنفسهم، وظهر منافقون حاولوا أن يخذلوا<sup>(١)</sup> المسلمين فلم ينجحوا، ويثنوهم عن عزمهم فلم يفلحوا.

وماجت الصحراء بالغزاة والمجاهدين، مبتهجين مؤملين، ولكن أربعة لم ينتظموا في الصفوف، ولم يأخذوا مكانهم بين الجنود، فكانوا موضع العجب والسؤال، إذ كانوا ذوي غنى ويسار، وإيمان وإيثار: أبو خَيْثَمَة أخو بني سالم بن عوف، وكعب بن مالك أخو بني سلمة، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن مرة أخو بني واقف...

أما أبو خَيْثَمَة فإنه ذهب إلى أهله، بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً في يوم حاز، فوجد امرأته في عريشين لهما في حائطه<sup>(٢)</sup> وقد رشّت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيات طعاماً... فلما دخل وجد شراباً بارداً، ولحماً غريضاً<sup>(٣)</sup>، وتحت ظل وارف، ونسيم لليل عليل، وامرأتين تتهيآن لخدمته وإسعاده، فتذكر رسول الله ﷺ وصحبه، في غزوهم وجهادهم وحقتهم وبلائهم، وهم الآن قد يبحثون عن الماء فلا يجدونه، وعن الطعام فلا يظفرون به، فما أبعد ما بينه وبينهم! وما أظهر الفرق بين حاله وحالهم، ثم أعلن الحرب على نفسه، والكيد لهواه.

وقال: رسول الله في الضخ والريح، وأبو خَيْثَمَة في ظل بارد، وطعام مهيتاً، وامرأة حسناء، وهو في ماله مقيم! ما هذا بالتصّف<sup>(٤)</sup>، ثم قال لامرأته: واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله... وهيتاً راحلته وطعامه، ولحق برسول الله.

أما الثلاثة: كعب ومرارة وهلال، فقد قعدت بهم همتهم في أول أمرهم فلم يذهبوا. ثم عادوا فاستشعروا الندم، وأحسوا ما توزّطوا فيه، فهتموا باللحاق به، ولكن ثنّاهم الخجل، وصرّفهم التردّد...

وتفارت الأيام، وأمعن رسول الله ﷺ في الغزو، فلم يجدوا للحاق به سبيلاً... وأظلمت بالمدينة ليال نايفيات<sup>(٥)</sup>، وساعات نحسات، يخرجون نهارهم يجوسون خلالها، ويروحون ويغدون بين لابتيها<sup>(٦)</sup>، ويتلفتون فلا يرون فيها إلا

(١) يخذلوا: يثنوهم.

(٢) الغريض: الطري.

(٣) الحائط: البستان.

(٤) النصف: العدل.

(٥) ليلة نايفية: طويلة، من قول النايفة:

كليني لهم يا أمية ناصب      وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(٦) لابتا المدينة: حرتان من حجارة غليظة تكتنفانها.

رجلاً مغموصاً<sup>(١)</sup> عينه بالنفاق والرياء، أو ممن عذرهم الله من الضعفاء. فتتصاعد أشجانهم، وتفيض أحزانهم، وتتحدّر شؤونهم، إذ لم يكونوا منافقين ولا مُرائين، ولا مستضعفين ولا معذورين، ولم يكونوا أقلّ حباً في الجهاد ممن سبقهم، ولا أرغب في سبيل الله ممن تخلفوا عنهم. . . . ولكن هكذا لعبت بهم الأقدار، وصنعت صروف الحدثان. وكانوا كلما اقتربت أيام عودة الرسول ضاقت عليهم نفوسهم، وكثر همُّهم، وأقْضَتْ<sup>(٢)</sup> مضاجعهم، فكيف يلقونه؟ وماذا يعتذرون له وهم ما برحوا في صحة أبدانهم، وبسطة أرزاقهم، ورفاهية عيشتهم، وصدق إيمانهم؟

وعاد رسول الله ﷺ من جهاده، وذهب إلى المسجد كعادته يصلي ركعتين، ثم يستقبل الناس. . . . وجاءه قوم مخلفون أخذوا يبسطون له المعاذير، وينتحلون الأسباب، ويُقسمون بالله جهاد الإيمان، فقَبِلَ علانيتهم، وبإيعهم، ووكل إلى الله سرائرهم. ثم أقبل كعب يتعثر في مشيته، ويضطرب من فعلته، فتبسم إليه رسول الله تبسُّم المغضب، ثم قال له: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقال بلى يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً<sup>(٣)</sup>، ولكني والله لقد علمت أني لئن حدثتُك حديثاً فيه كذب ترضى به عني، ليؤشكنَّ الله أن يُسَخِّطك عليّ، ولئن حدثتُك حديث صدق تجد عليّ فيه، إنني لأرجو عفو الله، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. . . . فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

وجاء مرارة، وجاء هلال، فتحدثنا بمثل ما تحدثت به كعب، وتركهما رسول الله لقضاء الله وقدره، كما ترك كعباً لقضاء الله وقدره.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامهم، أو الاختلاط بهم، حتى يفصل الله في أمرهم: يعذبهم إن شاء أو يتوب عليهم.

ومرت عليهم بعد ذلك أيام تقاسموا فيها الهموم، وجالوا في أودية الغموم ولقوا من جفوة رسول الله جهداً وبلاء، ومن عزلة أصحابه عنناً وعناء.

أما مرارة بن الربيع، وهلال بن مرة، فإنهما قد استكانا إلى بيتهما بيكيان وينتحبان، انتظاراً لقضاء الله. وأما كعب فقد كان شاباً يخرج إلى الأسواق ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، ويشهد الصلاة، ويغشى الطرقات! ولكن لا

(١) مغموص عليه: مطعون عليه.

(٢) أقضت: أقلقت.

(٣) جدلاً: أي قوة على الجدل.

يكلمه أحد، ولا ينظر إليه أحد. ويقبل على رسول الله ﷺ بعد أن انفلت من الصلاة فيلقي عليه السلام ولا يدري من اضطرابه: أتوجه إليه أم أعرض، ردّ عليه أم سكت؟

وضاق به الأمر واشتدت به جفوة الناس، فتوجه إلى أبي قتادة<sup>(١)</sup> - وكان ابن عمه وأحب الناس إليه - وتسوّر عليه جدار حائطه<sup>(٢)</sup>، وسلم عليه فلم يرّد السلام، فقال: يا أبا قتادة: أنشدك الله، هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فعاد مرة ثانية، فقال أبو قتادة: الله ورسوله أعلم؟ ففاضت عيناه وتولى...

ومضى يوماً في الطريق زانغ البصر، موزّع الفكر، وإذا بنبطيّ من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة، ويقول أين كعب؟ فطفق الناس يشيرون إليه، فدفع إليه كتاباً من ملك غسان، ملفوفاً في حرير، فإذا فيه: (أما بعد: فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضية، فالحق بنا نواسيك...).

ولما قرأ هذه الرسالة بكى وأعول: أن كان كعب قد هان أمره، وانحط قدره، وأصبح ممن يُطمع في دينه ويرجى تنصّره<sup>(٣)</sup>! ثم أخذ الرسالة، ودفع بها إلى الثور.

وانقضت أربعون يوماً لم يتلقَ الرسول في هؤلاء شيئاً من الوحي، ولم يستطع أن يفصل من أمرهم بشيء، فأرسل إليهم أن اعتزلوا أهلكم؛ حتى يقضي الله بالأمر فيكم...

أما هلال، فقد دلّقت امرأته إلى الرسول، فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدّمه؟ قال: لا، ولكن لا يقرّبك. قالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى اليوم.

أما كعب فإنه لما جاء رسول النبي يأمره أن يعتزل امرأته قال: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقرّبها، فقال له بعض أهله: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لمرأة هلال أن تخدمه؟ فقال: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله وأنا رجل شاب! ثم سرحها.

(١) أبو قتادة: هو الحارث بن ربيعي.

(٢) الحائط هنا البستان.

(٣) تنصّره: أي دخل في النصرانية.

وظل أمرهم معلقاً، والحديث معهم محظوراً<sup>(١)</sup>، حتى انقضت عليهم خمسون ليلة، وما صلى بعدها رسول الله صلاة الصبح، حتى أطرق برأسه وغاب بروحه عمن حوله، ثم أقبل على صحبه متهلل الوجه منشرح الصدر، وأعلن فيهم أن الله قد قبل توبة كعب ومرارة وهلال، فاذهبوا إليهم مهئين مبشرين.

فخف الناس إليهم مسرعين، بعضهم على فرس يركض، وبعضهم فوق جمل يصيح... ووافى البشير كعباً، فنزع له ثوبه خلعة، وما كان يملك غيرهما، واستعار ثوباً، وجرى إلى الرسول، فألفاه جالساً وحوله الناس في المسجد فقال: أبشِرْ بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك... ثم أقبل هلال، وأقبل مرارة فهناهما، وتلا عليهم جميعاً: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ قَرِيبٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَقْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضِ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَقْتُمْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَىٰ وَجْهِهِ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسُوِّبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

### (\*) مسجد الضرار

لف الظلام المدينة بردائه، واشتملها بسكونه وهدأته، وأوحش الطريق وسكنت الدور، وأسلم الناس إلى نوم عميق، ولكن داراً ما زال أهلها في يقظة وحذر، وهم قلق، اجتمع أهلها يشون شكواهم، وينشرون مكنون همومهم، وقد أمِنوا على الظلام من يراهم، أو يسمع سرهم ونجواهم...

قال مُعْتَبُ بن قُشَيْرٍ - يشكو بئهُ لمن ذلّف إليه من المنافقين، ممن ذهب مذهبه من الكيد والأذى، ومن رجع مزججه من الحسرة والإخفاق، ومن لبس قناعه من المداهنة والنفاق: أي هم ذلك الذي يسري في أحشائي؟ وأي نار من الغيظ تلك التي تشتعل بين جوانحي<sup>(٢)</sup> وضلوعي؟ إنني والله كلما لمحت في طريقي هذا المكان الذي تهيأ لبني عمرو بن عوف، ودعوه مسجد قباء، وزعموا أن محمداً قد وضع لهم أساسه، وأقام قواعده، أغض طرفي على الأذى، وأحني ضلوعي على الأسى! كل من في المدينة يهتف الآن ببني عمرو بن عوف، ويتحدث عن مسجد قباء؛ ما نحن وبني عمرو؟ وأي قدم يفرعوننا<sup>(٣)</sup> فيها؟ ونحن وإياهم أبناء عمومة وأغصان نبعة! لست أكتمكم ذات نفسي، وما تحتويه لفائف صدري؛ إن الحسد

(١) محظوراً: ممنوعاً محرماً.

(٢) جوانحي: الجوانح أعضاء الإنسان.

(٣) يفرعوننا: يسبقوننا.

(\*) التوبة: آية ١٠٧.



ليملاً أعطافي، والغیظ لیتسعر في نفسي؛ ولست أدري دواء لما أحس، وعلاجاً لما أشعر به، إلا أن أرى مسجدهم مقوّضاً، ومجدهم دائراً، ورسمهم عافياً؛ ولكن أنى؟ وكيف؟ وقد قلّ العدد وضعف الجند، وعزّ النصير، وانقطع الرجاء في خذلان المسلمين!

قال ثعلبة بن حاطب - وقد استوى في جلسته، واعتدل في قعدته: إن همك من بني عمك لهم يسير، وخطب هين؛ إنما الهمُّ الذي يبست الأحزان، ويثير كامن الأشجان، هذا الدين الذي لا تخمد جذوته، ولا تسكن حرركته، ولا ينقطع دخول الناس فيه؛ أو ما رأيتهم وقد صاح فيهم بلال صبيحة يشق بها صدورهم، ويغزو مشاعرهم، فإذا هم جميعاً يهرعون إلى المسجد، ويزدلفون إلى ذلك البناء، فيتأكد جمعهم، وتقوى أصرتهم، وتزكو المودة بينهم؛ فإذا كانوا في يوم تالٍ، عادوا ومعهم جديد ممن يدخل في دينهم، أو ينحدر إلى عقيدتهم؛ إن اجتماع محمد وصحبه على النحو الذي أراه كل يوم لمما يزيد النفس حسرة، ويذيقها أسفاً وكمداً.

فقام وديعة بن عامر، وقال: دعكما مما تفيضان فيد من الحسرة، وما تبعثان من هم دفين؛ لقد جاءني اليوم كتاب من أبي عامر<sup>(١)</sup> الراهب، وهو من علمتم كراهيته لمحمد، وحنقه على دينه، وهنّه من ظهور أمره، قال: إنه من يوم أن ترك المدينة ما زال يسير ويكمن، ويُنجد<sup>(٢)</sup> ويُتهم؛ حتى انتهى بعد طول ما طوّف إلى هرقل ملك الروم؛ فوجده ملكاً متعصباً للنصرانية، مغيظاً محنقاً مما سمعه عن أمر محمد والمسلمين، ثم حدّثه بما يقع لمحمد كل يوم من فتح، وما ينتقل فيه من نصر إلى نصر... ولقد ذكّر لي - فيما كتب - أنه قد استنصره فوعده النصر، واستنفره<sup>(٣)</sup> فمناه بالنفر، وإنه ليوشك أن يعود إلى المدينة؛ ولكنه يلتمس منا أن نهئى له معقلاً خفياً، ومكاناً تحت جناح الظلام؛ يدبر فيه الكيد، ويخطط نسيج المكر... فماذا أنتم صانعون؟ وبماذا تشيرون؟

إن عندي لرأياً قد زوّرت<sup>(٤)</sup> فأحكمت تزويره، وخطة دبرتها وأظنني أحسنت

(١) أبو عامر الراهب: خزرجي، كان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، ولما قدم رسول الله إلى المدينة شرق بريقه وبارز بالعداوة، ولما انتصر المسلمون يوم بدر ذهب إلى مكة فاراً وألب المشركين على رسول الله حتى كان يوم أُحد. وفيه امتحن المسلمون. ولما رأى صبرهم وإيمانهم ذهب إلى هرقل ملك الروم.

(٢) أنجد: من النجد: وهو المكان المرتفع من الأرض. وأتهم: أتى تهامة، وهي المنخفض من الأرض.

(٣) استنفره: استنصره.

(٤) زوّرت: أعدته.

تدبيرها؛ فإن شئتم سمعتموها، وإن شئتم رددتموها، فاستشرف جمعهم إليه، وقالوا: هات ما عندك، وأت على غاية ما في نفسك... قال: لقد علمتم أن محمداً قد أصبح من القوة بما لا نستطيع صده، أو القيام في وجهه؛ وإنما ما استطعنا أن نساكنه في المدينة إلا بفضل ما نُظهره من مَلَق، وما نرتديه من ثوب النفاق؛ وقد رأيتم كيف كان يلحن<sup>(١)</sup> لأمرنا وتتبعه لغمزات عيوننا؛ فهو منّا أبداً على ريبة، وهو من أمرنا دائماً في شك.

والرأي عندي أن نعيد إلى مكان فسيح نبني فيه مسجداً، ونؤهمه مصلى، ثم نقيم له من بيننا إماماً، ونذهب إلى محمد ندعوه للصلاة فيه مدهنين، ونحلف له كاذبين، فإذا استجاب دعاءنا، وصدّقنا في إيماننا، فقد استطعنا أن نفرّق الجماعة، ونصدع الوحدة، ثم يكون المسجد بعد ذلك في الظلام ملاذاً لأبي عامر وملجأ لمن يريد. وها هو ذا<sup>(٢)</sup> مجمع بن جارية منا، قارئ للقرآن، عارف بالفرائض، ندعوه لإمامتنا، ونؤهمه حسن قصدنا، فما عندكم مما رأيتم! فكلّهم آمن برأيه، وأثنى على تدبيره وحزمه، وعَدّوا يضعون الأساس، ويعدّون البناء، يحدوهم الرجاء، ويزين لهم الشيطان خوادع الآمال، حتى استوى مسجداً قائم الجدران، متين العماد واضح المعالم والحدود.

وانصرفوا إلى رسول الله، فوجدوه متهيئاً<sup>(٣)</sup> لغزو الروم. قالوا: يا رسول الله بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والشاتية<sup>(٤)</sup>، ثم لتقام فيه الصلاة، وتؤدّى شعائر الله، وقد اخترنا له مجمع بن جارية إماماً، وهو من علمته حفظاً للقرآن، وعلماً بالفرائض، وبصراً بما في كتاب الله، وقد دعوناك للصلاة فيه. فإن فعلت فقد نالنا الخير، وحفّت بنا البركة.

قال رسول الله ﷺ: إنا على جناح سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله.

وعاد رسول الله من غزو الروم، حتى إذا لم يبق بينه وبين المدينة إلا يومان، هبط عليه الروح الأمين، مبلغاً عن رب العالمين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا

(١) يلحن: يفتن.

(٢) كان مجمع بن جارية إذ ذاك غلاماً حافظاً للقرآن، فقدموه إماماً لهم وهم وهو لا يعلم بشيء من أمرهم، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب في أيامه أراد عزله عن الإمامة وقال: ليس بإمام مسجد الضرار؟ فأقسم له مجمع أنه ما علم شيئاً من أمرهم وما ظن إلا الخير، فصدقه عمر وأقره.

(٣) متهيئاً: مستعداً.

(٤) الشاتية: الباردة.

الْحَسَنُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقْعُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُطَهَّرِينَ أَفَمَنْ أَتَسَكَبُ بِتُكْنُكُمْ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَكَبُ بِتُكْنُكُمْ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بُدِّئَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رَبَّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

فعرف الرسول كيدهم <sup>(٢)</sup> ، وعلم ما كان وراء معسول كلامهم ، ومدعون أمانيتهم ، وما وصل المدينة حتى بعث رجلين وأمرهما بإحراق المسجد وتقوضه وهدمه .

وأصبح مُعتب بن قشير وتلفَّت ، فإذا المسجد قد هدم ، والبناء قد تقوَّض فعلم أن الله فضح أمرهم ، وأفشى سرهم ، وعاد وصحبه إلى ما كانوا فيه من همٍّ وقلق ، وحزن وكمد ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

### المباهلة (\*)

قال أبو الحارث أسقف نجران لغلامه : ادع لي الساعة شريحبلا ، فما يهمني الآن من أمر سواه . وكان شريحبيل هذا خازن أسراره ، وموضع مشورته ، وأمين ما بين جوانحه . . . وذهب الغلام وعاد معه شريحبيل .

قال أبو الحارث : دعوتك الساعة يا شريحبيل لأمر راعني وأفرعني ، ما استطعت أن أختزل <sup>(٣)</sup> به ، أو أستقل بالرأي فيه : جاءني اليوم كتاب من محمد بن عبد الله يدعوني فيه لدين يسميه الإسلام ، ثم يخبرني - إن أبيت - بين الجزية أو الحرب . ولا أكتملك أني ذهبت مما يدعو ، ودُعرت مما يتوعد ، وقلقت من مصائر الأمور . ولقد حاولت أن أفصل في ذلك برأي ، أو أصيب من الحق مقطعا ، فما تبيئت المعالم ، ولا اتضح لي الحدود ، فافتدح لي زناد رأيك ، وأشر علي بما عندك .

قال شريحبيل : لست في هذا يا مولاي بصاحب رأي ، ولو كان أمرا من أمور الدنيا ، أو حادثا مما يجري بين الناس ، لرجوت أن آخذ فيه بنصيب ، أو أدلي

(١) قيل : إنه لما نزلت هذه الآيات مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء والأنصار جلوس ، فقال أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم ، ثم أعادها ، فقال عمر : يا رسول الله ، إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال رسول الله ﷺ : أترضون بالقضاء؟ قالوا : نعم ، قال : أنصبرون على البلاء؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون في الرخاء؟ قالوا : نعم ، قال ﷺ : مؤمنون ورب الكعبة .

(٢) كيدهم : مكرهم وأمرهم الذي يتوهم .

(\*) آل عمران آية : ٦٠ وما بعدها .

(٣) اختزل به : انفراد .

برأي... على أنني قد علمت ما وعد الله به من النبوة في ذرية إسماعيل، فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك! ولكنني - كما حدثك - ليس لي في النبوة رأي.

قال له أبو الحارث: تنح عني قليلاً، وسألتمس الرأي عند سواك.

ودعا إليه آخر من أهل نجران، واستعان به في الرأي، فما زاد على أن صدر عما قال شرحبيل، ثم دعا إليه ثالثاً، فرمى عن قوس الاثنين.

ولما رأهم قد استقاموا في رأيهم على عمود واحد، أمر بالنواقيس أن تدق، والنيران أن توقد، والمُسوح أن تعلق في الصوامع، إيداناً بالدعوة وإعلاناً للالتيمار، وكذلك كانوا يفعلون حينما يُعَمُّ عليهم الرأي، وتستعجم الأمور.

وتسلوا من كل مكان، وهرعوا من كل صُقع، حتى إذا ما اجتمع لفيهم وتألف جمعهم، قام الأسقف وعالئهم بكتاب محمد، وفاوضهم فيما يفعل. فأداروا قِداح الرأي، وقلّبوا وجوه الأمور، وانتهزوا إلى أن يذهب وفد منهم إلى لقاء محمد، يحاجونه<sup>(١)</sup> ويجادلونه، ثم يرجعون بما يرون.

وصدر الوفد عن نجران، يتزعمهم شرحبيل. ولما وصلوا إلى المدينة نضوا<sup>(٢)</sup> عن أنفسهم ملابس السفر، وتلفّعوا بالحبرات، وأردية الحرير، ووضعوا في أصابعهم الخواتم، وانطلقوا حيث يلقون الرسول.

ولما اطمأنوا إليه قدموا هداياهم، فلم يرَ بأساً من قبولها، وصلّوا صلاتهم فلم يزجرهم عنها، ثم قال شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم: يا محمد، لقد علمت أنا نصارى، وليسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول في عيسى، فقال رسول الله ﷺ: ما عندي فيه شيء يومي إلى هذا، أقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى.

ولما أصبح الغد نزل عليه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنُ مِنَ الْمُمَرِّينَ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَدَا مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَمَّالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١]

فدعاهم وأعلنهم أن قد جاء الفصل في أمر عيسى من الله، فإن لم يُدعنا ولم يعتقدوا فليجتمع المسلمون والمحاجون من أهل الكتاب في صعيد واحد، رجلاً ونساءً وأطفالاً، ثم يبتهلوا ويستنزوا لعنة الله على من كان كاذباً.

فقالوا: دعنا نشُور فيما بيننا، ثم نُفضي إليك بما ينتهي إليه رأينا. ولما

(١) يحاجونه: يناقشونه بالأدلة الواضحة. (٢) نضوا ملابس السفر: خلعوها.

اجتمعوا قال لهم شرحبيل: لقد علمتموني بينكم صادق المنزعة، بعيد مراد الفكر، وإن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله، لا يردون إلا عن علمي، ولا يصدرون إلا عن رأيي. إني والله أرى أمراً ثقيلاً، إن كان هذا الرجل ملكاً فإننا أدنى العرب منه جواراً، وأقربها منازل، ولا نأمن أن نصاب منه بجائحة<sup>(١)</sup>. وإن كان نبياً مرسلأ فلاعنا<sup>(٢)</sup>، لا يبقى على وجه الأرض منا شجر ولا ظفر إلا هلك...

قالوا له: فما الرأي يا أبا مريم؟

قال: رأيي أن نحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، قالوا له: أنت وذاك، ودونك وما تريد.

ذهب شرحبيل إلى رسول الله، فقال: إني رأيت خيراً من ملاعتك. قال رسول الله ﷺ: وما هو؟ قال: حكمك اليوم إلى الليل. وليلتك إلى الصباح، فما حكمت فينا هو جائز. فقال له رسول الله ﷺ: لعل وراءك أحداً يثرب<sup>(٣)</sup> عليك.

فقال شرحبيل: سل أصحابي، فإن الوادي ما يرد وما يصدر إلا عن رأيي. فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا على أن تعودوا في الغد. وعادوا، فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا. وعرض عليهم الحرب فقالوا: ما لنا طاقة. وعرض عليهم الجزية فقالوا: ما تريد؟ فشرط عليهم رسول الله ﷺ حلة: ألفاً تؤدي في رجب، وألفاً تؤدي في صفر، على أن يظل كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لهم، ولهم بعد ذلك جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من سقيفاه، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا يتحيف شيء من سلطانهم، غير مبتلين بظلم ولا ظالم، ما أصلحوا ونصحوا.

فأروه حكماً عدلاً، وقولاً فصلاً<sup>(٤)</sup>، ورجعوا إلى قومهم يحمدون محمد بن عبد الله ﷺ.

### المجادلة (\*)

كانت حوالة بنت ثعلب الخزرجية قد تزوجت بأوس بن الصامت، وهي في مقتبل عمرها، وريعان شبابها، وكانت صبيحة الوجه حسنة القوام. وعاشا عمراً طويلاً نعمة فيه بحياة سعيدة، وعيشة رافعة<sup>(٥)</sup>. ثم تقدمت بهما السنون ولكن حوالة ما زالت تحتفظ بشيء من فنتتها وجمالها.

(٤) الفصل: العدل.

(\*) المجادلة.

(٥) عيشة رافعة: واسعة.

(١) جائحة: مصيبة.

(٢) الملاعة: أن يلعن بعض بعضاً.

(٣) يثرب: يلوم.

وفي يوم ما قامت تصلي، ورآها زوجها تقف في اعتدال، وتركع في خشوع، وتسجد في أناة ورفق، فتاقت نفسه إليها. فلما سلمت داعبها في خفة وطيش، فنفرت فاستحوذت عليه الدهشة، وتملكه الغضب، وثار ثائرته، وحرّمها على نفسه كما حرّم عليه أمه، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي.

ولما سألت زوجها عما يعنيه بقولته، قال لها: ما أظنك إلا حرمت عليّ! وكان الظهار من أشدّ طلاق الجاهلية، لأنه في التحريم أوكد، وفي قطع الصلة أبين، فسقط في يدها، وحات في أمرها، وشقّ عليها أن تبين<sup>(١)</sup> منه وهو أبو ولدها، وحيب نفسها، ومؤنس وحشتها، وزوجها الذي سكن إليها وسكنت إليه أعواماً طويلاً.

فذهبت إلى النبي ﷺ تبته شجوها<sup>(٢)</sup>، وتفضي إليه بما أهمها، علّها تجد عنده مخرجاً من مأزقها. وتقدّمت إليه تشكو حالها قائلة له: إن أوساً قد تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ، فبعد أن كبرت سني وكثرت أولادي، جعلني كأبه، وإن لي منه صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا. ثم توسّلت إليه أن يصلح ما فسد من أمرها، ويقوم ما تأوّد<sup>(٣)</sup> من حالها.

وما كان للنبي أن يقضي بأمره، أو ينطق عن الهوى، فهو رسول الله، موثله الوحي، ومرجعه السماء، وهو لم يتلق في الأمر وحيّاً. ولم يعرف لهذا السؤال جواباً، لذلك قال لها: ما عندي في أمرك شيء.

فازدادت حسرتها واشتدّ حزنها، وقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ... ترجو بذلك أن تُلبين قناته لتضرّعاتها، وتأخذ الرحمة بأولادها.

إن النبي قد علم حقيقة حالها، ووقف على أمرها. ولكن ماذا يفعل. وهو لم يتلق بعد وحيّاً في مثل شأنها؟ وهو الفئصل<sup>(٤)</sup> إذا اختلط الأمر وادلهم الخطب وأظلم الطريق! لذلك أعاد عليها جوابه قائلاً: ما عندي في أمرك شيء.

فالتجأت إلى من تسع رحمته كل شيء، واتجهت نحو مرسل الوحي، وبيّح السماء والأرض، ترجوه أن يزيل غمّتها، ويفرّج كربتها، وقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدني.

(١) تبين: تفصل.

(٢) شجوها: حزنها.

(٣) تأوّد: صار أعوج ذا أود.

(٤) الفئصل: الحام.

(٥) وجدني: جئني.

طال بها الوقوف، وأكثرت من التضرع، وكلما قال لها النبي: ما عندي في أمرك شيء، جأرت إلى الله بالدعاء، وهتفت شاكية إليه حالها، ففتحت لدعائها أبواب السماء وسمع الله شكاتها.

فبينما هي في حيرتها واضطرابها - ترفع وجهها إلى السماء مرة، وتخفض طرفها نحو الرسول أخرى - عَشِيَ النبي ما كان يغشاه حين نزول الوحي، ثم نطق لسانه بالذكر الحكيم. وهنالك أخبرها بأن الله قد سمع محاورتها، واستجاب لدعائها، وأنه ليس على المظاهر بعد الآن إذا أراد التحلّة من أيمانه إلا أن يعتيق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

قرت<sup>(١)</sup> عينها، وعاودها سكونها، وانفرجت أسارير وجهها، فقد حقق الله رجاءها، وأجاب سؤالها، فصلح أمرها، ورُئِب صدعها، وها هي ذي سترجع إلى عشاها، فتطمع فراخها، وتدبر شؤون بيتها، وتسكن إلى زوجها، وتتصل سعادتها، وتعود سيرتها الأولى.

أرسل النبي إلى أوس، فلما حضر إليه، قال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الشيطان لعب بعقلي، وأضاع صوابي، فركبت مثن الشطط، وأبعدت في الغي، فهل من وسيلة أسترجع بها شريكة حياتي ومثية نفسي؟

قال النبي: نعم، وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن لِسَاءِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا آلِي اللَّهِ وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ لِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

ثم قال النبي: هل تستطيع عتق رقبة؟ فقال: لا والله، فقال: هل تستطيع الصوم؟ فقال: لا والله، لولا أنني أكل في اليوم مرة أو مرتين لكُلُّ بصري، ولظننت أنني أموت. فقال له: هل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ فقال: لا، إلا أن تعيّنني منك بصدقة.

فمدّ النبي إليه يد المساعدة حتى استطاع أن يطعم ستين مسكيناً، وبذلك صارت زوجته حلالاً له، وجعل الله للمسلمين وسيلة للتحلل من هذه العادة

(١) قرت: بردت والمراد أنها فرحت.

الجاهلية. وهكذا سار ضوء الإسلام في تلك الأرجاء المظلمة، ينير جوانبها، ويبدد سحب الضلال في أنحائها، ويحسم ما استهجن<sup>(١)</sup> من أخلاق أهلها. فطهرت مبادئه أرجاسهم، وقامت على أسسه المتينة صروح حياتهم، وضرب لهم مثلاً واضحاً في يسر الإسلام وسماحته، ورفع الحرج والمشقة، وتيسير الأحكام، فجعلهم بذلك مثلاً علياً، وأسوة تُحتذى، إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

### (\*) التحريم

التقت عند رسول الله ﷺ محاط العظمة، واشتبكت لديه وشائج<sup>(٢)</sup> القربى من الله، والخطوى في الدنيا، وتطلعت إليه أنظار الخليقة أجمعين، يتسمون أريجاً من شذاه ويرمقون زهرة من جناه، فهو ملء السمع والبصر، ومحط العين والفؤاد.

وكان من أشد الناس التصاقاً<sup>(٣)</sup> بالرسول، وتزاحماً على حوضه، وتنافساً إلى جماء أمهات المؤمنين. وليس بدعاً أن تسلك إلى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقارب الغيرة حباً فيه، وأثرة عليه، فتدب ديبياً خفيفاً، وتسري إلى الفؤاد، فتوري فيه ناراً لا ينطفئ لظاها إلا بالقرب من نبي الله الكريم. ألسن من النساء اللاتي غلبتهن قوة العاطفة، وتملكتهن دوافع الغيرة والأثرة في كل عصر وزمان؟ أوليست قلوبهم تصبو، ونفوسهن تحنو، وآمالهن تندفع، ورجاؤهن يفيض لخير الناس أجمعين؟

كان النبي الكريم يفيض قلبه بعاطفة الأبوة، وتحنو نفسه إلى بنته زينب، فإذا رآها أنس بها، واطمأن إليها، وانشرح صدره، لأنها ثمرة نفسه وحبّة قلبه، حتى إذا أفل نجمها، فذهبت إلى جوار ربها استوحش إليها، وامتدت آماله إلى الولد، ليمسح عن قلبه انقباض الوحدة وأثر الفاجعة.

وما زال الرسول الكريم في وحشته وانقباضه، يدفعه شوق أن يكتحل بسنا نور ابن كريم، وهو في حنينه ووحشته تدب في قلبه حسرة وأسى، لأنه شارف الستين من عمره، وأوشك مصباح حياته أن ينطفئ! فما هو ببالغ أملاً يشيمه كل والد، ولا يتنفس بروح يتنسمه كل أب يفيض قلبه بالعطف والحنان.

وحملت إلى النبي الكريم من المقوقس والي مصر هدايا، ومن بينها مارية القبطية، فقبلها النبي، وأنزلها منزلة السراري، ولم يهبها ما وهب لأزواجه، فلم

(١) استهجن: استغرب.

(٢) الوشائج: جمع وشيجة، وهي الصلة والرابطة.

(٣) أي قريباً.



يخصص لها منزلاً بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين، أنزلها بالعالية من ضواحي المدينة، في منزل يُحيط به الكرم والزرع والنخيل.

وظل الرسول العظيم يختلف إليها، ولها منه ما يحل للرجل فيمن ملكت يمينه. حتى إذا حملت مارية! وولدت إبراهيم، تفجرت ينابيع البشر والسرور في قلب أبيه، وأنست نفس الوالد عطفاً ورحمة وحناناً بولده الأغر الميمون، وارتفعت مكانة مارية، فصارت إلى مصاف الزوجات المقربات، وازدادت بذلك حظوة عنده ومكانة ملأت قلبها بالمسرة، وانقلبت إلى ربها بالشكران والتسبيح.

وكان النبي حفيماً<sup>(١)</sup> بولده، قرير العين به، رضي النفس له، مطمئن الفؤاد لمولده، فصار يختلف إلى منزل مارية، يطالع كل يوم في أفقه مشرق هذا الغلام وينعم بابتسامته البريئة الطاهرة، ويفيض عليه فيضاً كثيراً من حنان الأبوة، وطهارة النبوة، ويغمره بهذا الفيض الإلهي العميم.

وقد حملة يوماً بين ذراعيه إلى عائشة، فنفست<sup>(٢)</sup> عليه، وحجبتها الغيرة أن تهش وتبش للغلام الكريم.

كذلك كانت الأثرة والغيرة تدب في قلوب نساء النبي كلما رأين منه إقبالاً على مارية، وحباً وتعلقاً بولدها.

وكان الرسول الكريم يخص نساءه بمكانة محترمة، ويُنزلهن منزلاً عزيزاً، وينفحهن أبداً بعطف وإجلال وتكريم على غير عادة العرب في الجاهلية، فلما رأينه يفيض عليهن من عظمته وكرمه، جنحت<sup>(٣)</sup> نفوسهن، فتغالبن في الاستمتاع بحريتهم، واتخذن من بعض الحوادث مسلكاً إلى إغضاب الرسول.

كان النبي في بيت حفصة، فاستأذنته أن تذهب إلى أبيها فأذن لها. وفي غضون غيابها جاءت مارية، فأقامت مع النبي زمناً، فلما حضرت حفصة، رأت مارية في بيتها، فانتظرت خروجها، وقلبها يشتعل وجداً وغيرة. ولما خرجت مارية دخلت حفصة على النبي، فقالت: لقد رأيت من كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت تصنعها لولا هواني عليك.

وأدرك رسول الله ﷺ أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت، والتحدث به إلى غيرها من الأزواج، وفي ذلك ما فيه من إثارة لغيرتهن وتحريك لحفيظتهن،

(١) حفيماً: مسروراً.

(٢) نفست: مالت.

(٣) جنحت: ضنت عليه.

فأراد ارضاءها، فحلف لها أن مارية حرام عليه إذا هي لم تذكر مما رأته شيئاً. فوعده أن تكف عن إذاعة ما كان.

لكن الطبيعة النسوية كانت أقوى جماحاً، إذ تحركت الغيرة تآكل صدرها، فلم تطلق كتمان ما وعدت بكتمانه فأسرته إلى عائشة، وذاع الأمر بين نساء النبي كلهن. وأكثرن من الحديث في شأنه والجدال في أمره، والنبي الكريم ليس خلياً لهذا النوع من اللجاج والغيرة، فأراد أن يلقي عليهن درساً ليكون عبرة لهن وتذكراً. عزم النبي أن ينقطع عن نسائه شهراً كاملاً، تأديباً وردعاً لهن عما تمادين فيه من ائتمار به، وليخفف فيهن عوامل تلك الغيرة الحمقاء.

فأدى به عزمه أن ذهب إلى خزانه له، يرقى إليها على جذع من نخل، وليس بها من فراش إلا حصير جاف خشن، وحسبه هناك لقيمات من شعير يقمن صلبه، ثم هو يجلس غلامه رباحاً على سُدتها، دفعاً لل حاجة الزائرين.

والرسول ﷺ في خلوته يتجه بتفكيره إلى ربه، ويدير أمر المسلمين في الجزيرة، والمسلمون في همّ مقيم مقعد، وشغلهم الشاغل انقطاع نبيهم في خلوته، حتى لقد شاع بينهم أنه طلق حفصة بنت عمر بعد أن كان من إفشائها ما وعدت بكتمانه، أو أنه مطلق نساء جميعاً.

كانوا يهمسون بهذا، والحسرة تملأ قلوبهم، والهتم يقض مضاجعهم. وقد أقام الناس بالمسجد يعبثون بالحصى، ويجيلون العيون زائفة، لا تستقر على حال من القلق. وبينما هم كذلك إذ ينتفض عمر قائماً من بينهم، فيقصد إلى مقام النبي، ويستأذن غلامه رباحاً، فإذا دخل الغلام إلى سيده رجع إلى عمر، ووقف فلم يجب.

فيرفع ابن الخطاب صوته بالاستئذان والالجاج، فيؤذن له، فإذا هو بين يدي الرسول، ثم يجيل بصره في الحجرة ويبيكي، والنبي يقول له: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فيذكر للنبي سبب بكائه، فيرده النبي إلى الصواب بقول أي رقيق<sup>(١)</sup> كريم.

ثم قال عمر: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن، فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال، وعمر وأبا بكر والمؤمنين أجمعين. ثم يقبل عمر على النبي فيحدثه بحديث يسري عن نفسه ويضحكه.

فلما آتس عمر منه ذلك ذكر له خبر المسلمين بالمسجد، وكلامهم وآلامهم،

(١) أي رقيق: لطيف.

ورجا النبي أن يفضي إليه بالقول الفصل في أمر نسائه . فذكر له الرسول أنه لم يطلقهن . فنزل عمر إلى المسجد، ونادى بأعلى صوته: إن النبي لم يطلق نساءه . فاستبشر الناس، وسرت إلى قلوبهم الطمأنينة، واهتزوا هزة الفرح والسرور وإذا النبي مقبل على نسائه تائبات بين يديه عابدات، حتى نزل الروح الأمين يحمل رسالة الله الكريم:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَلَّغْ مَرَضَاتِ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ إِنْ نُبُؤًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِينَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاحًا خَيْرًا مِنْكُمْ مَسْلَمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ فَيُنزِلَنَّ عَلَيْكِ عِيدَاتٍ سَلِيحَاتٍ تَسْبِغْنَ وَأَبْكَارًا ﴿ [التحریم: ١ - ٥]

### (\*) زينب بنت جحش

هذا زيد بن حارثة، وقد وهبته يا محمد عبداً لك مطيعاً، ووفياً أميناً، فشكر النبي الكريم زوجته خديجة، وقبل منها هديتها مسروراً، وعاش زيد رضيعاً بصحبة رسول الله، موقفاً في خدمته.

وبعد حين حضر إلى مكة وفد من حارثة، يطلبون شراء ابنهم زيد وفديته بتحريره من رقه. ففاض سخاء النبي العربي، وقال لهم: إن اختاركم فخذوه من غير ثمن. ولما جيء بزيد أنعم الله عليه، فاختار الرّق مع النبي على الحرية بين قومه، وصار بعد ذلك يدعى زيد بن محمد تعظيماً له وتكريماً.

بلغ الفتى أشده واستوى، فرغب سيده أن يزوجه كريمة من كرائم العرب، لتكون له في الحياة سنداً وظهيراً.

ويبالغ النبي في تكريم زيد، فيتقدم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، فيخطبها لمولاه، مكافأة له، ودليلاً على رضاه.

ولكن عبد الله بن جحش يابى ويأنف<sup>(١)</sup> أن يزوج زيدا، لأنه من غير الصرحاء، وتشاركه أخته زينب إباءه وأنفته، ضناً بنسبها العربي الكريم.

لكن، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(١) يأنف: يرفض بإباء.

(\*) الأحزاب آية ٢٦ وما بعدها.

[الأحزاب: ٣٦]، فلا يصح لرجل ولا امرأة اختيار أمر من الأمور يخالف ما قضاه الله، ثم بلغه الرسول.

إذا فليرض عبد الله، وليخضع زينب لقضاء الله ورسوله، وليسعدا بزواج يخلد الله شأنه في كتابه الكريم.

عاش زيد وزينب معيشة زوجين هائنين بما وفقهما الله الكريم، وأرخصي لهما من حبال السعادة، ورفق لهما في العيش، ومد من أسباب الرجاء. وبعد حين... أراد الله أن تقع الواقعة، سناً للشرائع، وإيضاحاً لأموال الدين، وتبياناً للعالمين، وتصحيحاً لأوهام الناس.

وهل يقدم على مخالفة مألوف العرب، وتحطيم أغلالهم، ونبد خرافاتهم إلا رجل ملك الإيمان نفسه، وملاً الحق قلبه، وخالطت الجرأة منه العصب والدم، والمسامح والأطراف، وتغلغلت الشجاعة الخلقية فوصلت منه إلى اللب والشغاف؟ وهل يسمو بشر إلى تلك المنزلة الكريمة سمو النبي الكريم؟

وبعد حين من الدهر، وهت<sup>(١)</sup> الرابطة بين زيد وزوجه، وفترت تلك العلاقة التي تجمع بينهما زوجين مؤتلفين، فيتقدم زيد إلى رسول الله شاكياً، يستشيريه في طلاق زينب، فيتجلى عطف الرسول ونبله قائلاً: يا زيد، هذه زينب يسر الله لك زواجها بعد عسر، وسهله بعد امتناع، وعسى أن يصلح حالها لك بعد، فأمسكها عليك، واتق الله لثلاث تصمها بأنها لا تحسن عشرة الأزواج، وثب إلى رشدك، فلا تنقض أمراً أبرمته، ولم يتم إلا بعد أن نزل فيه قرآن من المدبر الحكيم.

يقول الرسول العظيم قوله هذا، ونفسه تفيض حناناً وعظفاً وإشفاقاً، لما كان قد سبق في علم الله: من أن زيدا يطلق زينب ثم تزوج النبي من بعده.

واستمر الرسول متضرعاً بينه وبين نفسه إلى الله، مبتهلاً إلى رحمته، عسى أن يمحو الله ما أثبت، فيصلح الحال بين المرء وزوجته، وينقض أمراً سبق أن أبرمه استكمالاً لأسباب التشريع.

فاضت نفس الرسول بالنصح لزيد، وبالضراعة إلى الله، أملاً أن ينقض الله ما أبرم، وأن يمحو ما أثبت، ولكن أبي الله إلا أن يتم قضاؤه، فأوحى الله إلى رسوله: ﴿وَنَحْنِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَحْنِي أَلْسِنَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وكان النبي يخفي قضاء الله، عسى أن تنفع فيه شفاعته، ولكن من يهد الله فلا مضل له ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، والله أحق بالخشية

(١) وهت: ضعفت.

والرعاية من سواه، لأن مألوف الناس وعاداتهم ليست أصلاً للتشريع، ولا أساساً للقانون، والنبي أول من يهدم العقائد الفاسدة، ويقوّض الخرافات السائدة، فيقيم بعدها صرحاً من الحق، ومناراً للشريعة السمحة.

انقضت عدة زينب بعد طلاقها من زيد، ثم هيا الله زواجها من النبي الكريم، وكانت زينب فخوراً، تته دلالاً، وتمتلئ عجباً، فتقول لسائر نساء النبي: إن الله تولى تزويجي، أما أنتن فتولى تزويجكن أولياؤكن.

ولقد كانت هذه الحادثة أمراً خرق مألوف العرب، وغير وجهة أحوالهم ومعتقداتهم، فقد ادعوا للدعي ما للابن من الحقوق، من إرث ونسب. وقد تسلط ذلك الاعتقاد، ورسخ في أذهانهم، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم ربقته، أو أن يزيلوا عن أفكارهم وطأته، فتقدم النبي الكريم بآية، واضحة، وحجة قاطعة، فقام بما قام مع قيام هذه العادة، وتمكنها من الناس. ومن أولى بذلك غير رسول الشريعة الحنفية! وهو الذي نادى بحرمة ربا الجاهلية، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس، حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه، فتقطع وساوس الشيطان من صدورهم.

ولقد كانت قصة زيد وزينب مثاراً لأقوال وشبهات، جرفت كثيراً من الناس، ممن زاع بهم الباطل، وراى على قلوبهم حلك الضلال، فنسبوا إلى النبي أنه اشتهى زينب بعد زواجها من زيد. وما كان محمد ليتمكن لميوله، ويمهد لهواه بما يخالف أمر ربه، تسامى قدر الرسول وتعالى علواً كبيراً. أما كانت زينب أمامه بكرة تحت سمعه وبصره وهو في سن الأربعين، زمن اكتمال الفتوة والشباب؟ أفبعد ثلاث عشرة سنة، وبعد أن زالت عنها نضرة البكار، وهدأت فيه ثورة الشباب، ينظر إليها نظر التشهي؟ ألم يكن له من شواغل الدين والفتح شاغل عن أمور النساء، وهو هو ابن السادة الكرام الموصوفين؟

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار  
وهو هو النبي الكريم الذي نهاه ربه أن يمد عينيه إلى ما متع الله به الناس من  
زهرة الحياة الدنيا.

بل نرجع إلى الفطرة الأولى للرجل العربي، الذي لم تعصمه النبوة، ولم تزينه رجاحة العقل، وسمو المعرفة، وصدق العزيمة، فتراه يغض الطرف عن جاراته. فهذا عنترة الجاهلي يقول:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتني حتى يُوارى جارتني مأواها

بل هو هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

## المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - التفاسير الآتية: الطبري - الكشاف - الفخر الرازي - أبو السعود البضاوي - الألو سي - تفسير المنار .
- ٣ - سيرة ابن هشام .
- ٤ - السيرة الحلبية .
- ٥ - المثل الكامل .
- ٦ - حياة محمد .
- ٧ - نور اليقين .
- ٨ - قصص الأنبياء (الطبعة الثانية) .
- ٩ - البداية والنهاية: لابن كثير .
- ١٠ - تاريخ الأمم والملوك: لابن جرير الطبري .
- ١١ - نهاية الأرب في فنون الأدب .
- ١٢ - تفصيل آيات القرآن الكريم .
- ١٣ - معجم ما استعجم: للبكري .
- ١٤ - لسان العرب: لأبن منظور .
- ١٥ - القاموس المحيط: للفيروزآبادي .
- ١٦ - معجم البلدان: لياقوت .